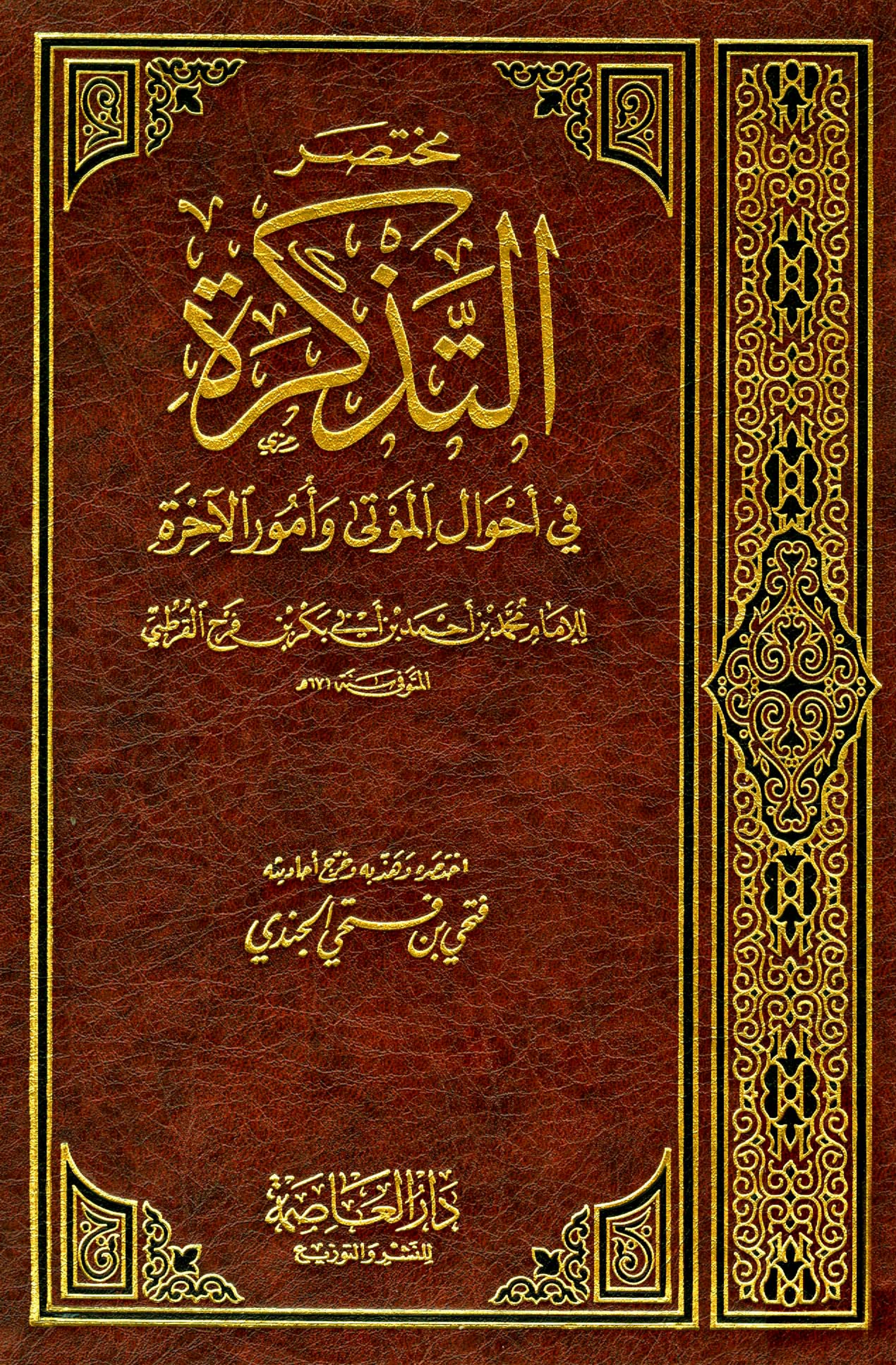


مختصر
التذكرة
في أحوال الموتى وأمور الآخرة
للإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي
المتوفى سنة ٦٧١هـ
اختصره وهذبه وخرج أحاديثه
فتحي بن فتحي الجندي
دار العاصمة
للنشر والتوزيع



للإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي
المتوفى سنة ٦٧١هـ

اختصره وهذبه وخرج أحاديثه
فتحي بن فتحي الجندي

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المختصر

الحمد للَّه الذي جعل الظلمات والنور، وكتب على الأحياء الموت وسكنى القبور. سبحانه كسر الأكاسرة، وقصم القياصرة، وأذل الجبابرة، فمن بعد سعة القصور، ألجئوا إلى ضيق القبور ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وبعد . . فكتاب «التذكرة» للإمام القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ قد ذاع صيته وانتشر؛ لأنه جمع فأوعى في موضوع هام يستحوذ على اهتمام الخاصة والعامة، ألا وهو الموت وما بعده، ولكنه حوى الكثير والكثير؛ فكبر حجمه، وعسر هضمه على كثير من الناس؛ حيث حوى الكثير من الحكايات والمنامات والإسرائيليات والأحاديث الضعيفة بل الموضوعة.

ولطالما تمنيت أن أختصر هذا الكتاب أو أجده مختصراً لغيري على وجه حسن؛ ولكن دون جدوى. فاستعنت باللَّه تعالى لإتمام هذا الأمر الذي لا يعرف مشقّته إلَّا من مارسه وعاناه، وكنت كلما قطعت شوطاً في البداية أصابني الفتور؛ لأني كنت أشعر أنني أغوص في الرمال.

وكانت خطتي في الاختصار أن أقرأ الكتاب بتمعن؛ فكلما مررت بحديث ضعيف أو خبر أو استطراد قد يعكّر صفْو الخاطر في الخاصة ـ فضلاً عن العامة ـ حذفته حتى لا يخرج الكتاب عن بابه الأساسي وهو (الرقائق). وكذلك ما كان من تأويلات في أمور العقيدة أسقطته للغرض نفسه. ولم أر هناك من فائدة في إثبات تلك التأويلات والرد عليها.

وكذلك لم أهتم بعزو الأقوال إلىٰ أصحابها أو نقلها كاملة كما فعل المؤلف، وإنما أنقل النص أو أقتصر علىٰ ما أراه صالحاً منه فقط. وكذلك حاولت قدر الإمكان أن أعرض عن ذكر الاختلافات التي أرىٰ أنها مرجوحة أو لا يعود ذكرها بفائدة في الغالب.

ولقد قمت بإصلاح بعض الكلمات أو العبارات التي تبدو مستغلقة ـ والغالب أنها من تحريفات النساخ ـ حتىٰ تستقيم العبارة، وحتىٰ لا يضيع الوقت في الوقوف أمامها دون فائدة تذكر. وغالباً ما كنت أقارن بين عدة طبعات لأختار أفضل العبارات، ولكن الغالب أن الطبعات كانت تجتمع علىٰ ذكر الخلل والتحريف. وربما عُدت لبعض المصادر الأصلية التي أخذ عنها المؤلف ولكن دون جدوىٰ.

وحرصت علىٰ الإقلال من الهوامش قدر الإمكان حتىٰ لا يخرج الكتاب عن مقصوده الذي قصدت، وهو تقريب رقائقه من أقصر طريق. ولا أنسىٰ في هذا الصدد أن أنبه إلىٰ أنني قد تسهّلتُ في ذكر بعض الأقوال والبلاغات المنسوبة إلىٰ من دون النبي ﷺ وقد تكون عن أهل الكتاب لمناسبتها لغرض الكتاب الرئيسي وهو «الرقائق».

وقمت بحذف الأسانيد وعزو الأحاديث في المتن إلّا ما لابد من ذكره؛ اكتفاءً بالتخريج في الحاشية. وهذا التخريج راعيت فيه الاختصار قدر الإمكان. وقد أكتفي بتخريج الرواية من الصحيحين أو أحدهما ما لم يكن هناك فائدة من العزو إلىٰ غيرهما.

ولا أنسىٰ في هذا المقام أن أنبه علىٰ أنني بعد أن قطعت شوطاً كبيراً في الكتاب وتخريج أحاديثه علىٰ الوجه الذي يرضيني، وقعت أخيراً علىٰ طبعة دار الصحابة لكتاب «التذكرة» فاستفدت منها كثيراً رغم أنها جاءت متأخرة، فلزم التنبيه.

هذا ولقد عانيت من حذف بعض الأبواب والفصول أو بعض المحتويات

أحياناً مع كثرة الإحالات في الكتاب. فحاولت التقليل من الإحالات قدر الإمكان، وحذفت من عناوين الأبواب والفصول ما تساقط وحُذف من المحتوىٰ، وربما اضطررت لإعادة صياغة العنوان بما يتناسب والمحتوىٰ الجديد.

كما أحب أن أنبه إلىٰ أن المحتوىٰ إذا صار ضعيفاً ومهلهلاً بعد الاختصار فقد أضطر لحذفه وإسقاطه.

كما أنبه إلىٰ أنني كنت قد رأيت الاقتصار علىٰ ما يتعلق بالرقائق أساساً؛ لذا لم أر ضرورة إثبات ما جاء في آخر الكتاب عن: الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ثم عدت إلىٰ إضافة ذلك بناء علىٰ طلب الناشر.

هذا ولقد عرضت فكرة هذا المختصر علىٰ بعض الإخوان فاستحسنوها وشجعوني علىٰ المضيّ في إتمامه رغم الفتور الذي قد أصابني في البداية.

«وإنما اختصرته لفوائد منها: أن ضبط القليل من هذا الشأن وإتقانه أيسر علىٰ المرء من معالجة الكثير منه، ولاسيما عند من لا تمييز عنده من العوام، إلّا بأن يوقفه علىٰ التمييز غيره.

وإذا كان الأمر في هذا كما وصفنا، فالقصد منه إلىٰ الصحيح القليل أولىٰ بهم من ازدياد السّقيم؛ وإنما يُرْجَىٰ بعض المنفعة في الاستكثار من هذا الشأن، وجمع المكررات منه، لخاصة من الناس، ممن رزق فيه بعض التيقّظ والمعرفة بأسبابه وعلله، فذلك إن شاء اللّه يهجم بما أُوتي من ذلك علىٰ الفائدة في الاستكثار من جمعه، فأمَّا العوام الذين هم بخلاف معاني الخاص من أهل التيقّظ والمعرفة، فلا معنىٰ لهم في طلب الكثير؛ وقد عجزوا عن معرفة القليل. وما قلّ وكفىٰ خيرٌ مما كثُر وأَلْـهَىٰ»[1].

---

(١) هذا المقطع مقتبس من مقدمة: «السراج الوهاج» لصديق حسن خان. وهو بدوره قد اقتبسه من مقدمة صحيح مسلم بتصرف يسير.

هذا وقد أبقيت على خطبة المصنف كما هي، ولم أتعرض لشيء منها بالحذف.

كما أننا قد رأينا أن من الإنصاف أن نذكر رأي المؤلف في بعض المسائل الفقهية الخلافية ـ بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه ـ كزيارة القبور للنساء، ووصول ثواب القراءة للميت . . إلى غير ذلك من المسائل. وعلى أي حال فالخلاف وارد؛ وإنه لمن ضيق العطن أن يضيق صدرنا بكل خلاف. فما زال الناس يخالف بعضهم بعضاً، وأعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس.

نسأل اللّه أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله ذخراً لنا يوم الدين. وأن يغفر لنا الخطأ والزلات؛ فإن بضاعتنا في العلم قليلة ومزجاة.

وصلى اللّه على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب

أبو عيسى

فتحي بن فتحي الجندي

الأحد: ٢٣ / ١ / ١٤١٧هـ ـ ٩ / ٦ / ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

يقول العبد الفقير إلى ربه، المتنصل من ذنبه، الراجي عفو ربه: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي. غفر اللّه له ولوالديه ولجميع المسلمين أجمعين. آمين:

الحمد للّه العلي الأعلى، الولي المولى، الذي خلق فأحيا، وحكم على خلقه بالموت والفناء، والبعث إلى دار الجزاء، والفصل والقضاء، ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]. كما قال في كتابه جل وعلا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦].

وبعد: فإني رأيت أن أكتب كتاباً وجيزاً، يكون تذكرة لنفسي، وعملاً صالحاً بعد موتي، في ذكر الموت، وأحوال الموتى، وذكر الحشر والنشر، والجنة والنار، والفتن والأشراط[1]، نقلته من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة، حسب ما رأيته رويته. وسترى ذلك منسوباً مبيناً ـ إن شاء اللّه تعالى. وسمّيته: (**كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة**) وبوبته باباً باباً، وجعلت عقب كل باب فصلاً أو فصولاً، نذكر فيه ما يحتاج إليه، من بيان غريب، أو فقه في حديث، أو إيضاح مشكل، لتكمل فائدته، وتعظم منفعته، إذ التفقّه في حديث رسول اللّه ﷺ هو المعنى المقصود، والرأي المحمود، والعمل الموجود في المقام المحمود واليوم المشهود. جعله اللّه خالصاً لوجهه ومقرباً من رحمته، بمنّه

وكرمه. لا رب سواه ولا معبود إلَّا هو سبحانه.

* * *

١ - باب النهي عن تمني الموت والدعاء به لضر نزل في المال والجسد

عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدُكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بد متمنياً فليقل: اللَّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[١].

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدكم الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انْقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمرهُ إلَّا خيراً»[٢].

وفي رواية: «لا يتمنينَّ أحدكم الموت: إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»[٣].

فصل: قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلّق الروح بالبدن ومفارقته، وتبدّل حال، وانتقال من دار إلىٰ دار، وقد سمَّاه اللَّه تعالىٰ مصيبة، في قوله: ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]. فالموت هو المصيبة العظمىٰ والرزية الكبرىٰ. قال علماؤنا: وأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وقلّة التفكر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرةً لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكّر.

يروىٰ أن أعرابياً كان يسير علىٰ جمل له فخرَّ الجمل ميتاً، فنزل الأعرابي عنه

---

(١) رواه البخاري في كتاب المرضىٰ (٥٦٧١) وفي الدعوات (٦٣٥١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٠) وغيرهما.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب التمني (٧٢٣٥).

وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول: ما لك لا تقوم؟ ما لك لا تنبعث؟ هذه أعضاؤك كاملة وجوارحك سالمة. ما شأنك؟ ما الذي كان يحملك؟ ما الذي كان يبعثك؟ ما الذي صرعك؟ ما الذي عن الحركة منعك؟ ثم تركه وانصرف متفكراً في شأنه. متعجباً من أمره. وأنشدوا في بعض الشجعان مات حتف أنفه:

جاءته من قِبَل المُنون إشارةٌ ... فهوىٰ صريعاً لليدين وللفمِ
ورمىٰ بمحكم درْعه وبرُمْحِهِ ... وامتدّ ملقىً كالفنيق الأعْظَمِ
لا يستجيب لصارخٍ إن يدْعه ... أبداً ولا يرجىٰ لخطب معظمِ
ذهبت بسالته ومرّ غرامه ... لما رأىٰ خيل المنيّة ترتمي
يا ويحه من فارسٍ ما باله ... ذهبت مروّته ولمّا يُكلمِ
هٰذي يداه وهذه أعضاؤه ... ما منه من عضوٍ غداً بمثلمِ
هيهات ما خيل الردىٰ محتاجة ... للمشرفي ولا اللسان اللهذمِ
هي ويحكم أمر الإله وحكمه ... واللَّه يقضي بالقضاء المُحْكمِ
يا حسرتا لو كان يقدر قدرها ... ومصيبة عظمت ولما تعظمِ
خبرٌ علمنا كلّنا بمكانه ... وكأننا في حالنا لم نعلمِ

فصل: قوله: «فلعله أن يستعتب». الاستعتاب: طلب العُتبىٰ. وهو الرضىٰ، وذلك لا يحصل إلا بالتوبة والرجوع عن الذنوب. قال الجوهري: استعتب: طلب أن يُعتب تقول: استعتبته فأعتبني. أي استرضيته. فأرضاني. وفي التنزيل في حق الكافرين: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

وروي عن سهل بن عبد اللَّه التستري أنه قال: لا يتمنىٰ أحدكم الموت إلّا ثلاثة: رجلٌ جاهل بما بعد الموت، أو رجلٌ يفر من أقدار اللَّه تعالىٰ عليه، أو مشتاقٌ محبٌ للقاء اللَّه عز وجل.

وروي أن ملك الموت عليه السلام جاء إلىٰ إبراهيم عليه السلام خليل الرحمـٰن عز وجل ليقبض روحه. فقال إبراهيم: يا ملك الموت هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله؟ فعرج ملك الموت عليه السلام إلىٰ ربه فقال: قل له: هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟ فرجع فقال: اقبض روحي الساعة.

وقال أبو الدرداء رضي اللَّه عنه: ما من مؤمن إلَّا والموت خير له؛ فمن لم يصدقني فإن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقال حسان بن الأسود: «الموت جسر يوصل الحبيب إلىٰ الحبيب».

* * *

٢ ـ باب جواز تمني الموت والدعاء به خوف ذهاب الدِّين

قال اللَّه عز وجل مخبراً عن يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وعن مريم عليها السلام في قولها: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ [مريم: ٢٣] ، عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»[1].

فصل: قلت: لا تعارض بين هذه الترجمة والتي قبلها. أما يوسف عليه السلام. فقال قتادة: لم يتمن الموت أحد: نبي ولا غيره إلَّا يوسف عليه السلام حين تكاملت عليه النعم وجمع له الشمل: اشتاق إلىٰ لقاء ربه عز وجل، وقيل إن يوسف عليه السلام لم يتمن الموت وإنما تمنىٰ الموافاة علىٰ الإسلام. أي إذا جاء

(١) رواه البخاري في الفتن (٧١١٥)، ومسلم في الفتن (١٥٧).

أجلي توفني مسلماً. وهذا هو القول المختار في تأويل الآية عند أهل التأويل. والله أعلم.

وأما مريم عليها السلام فإنما تمنت الموت لوجهين:

أحدهما: أنها خافت أن يُظن بها السوء في دينها وتُعيَّر؛ فيفتنها ذلك.

الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والزور، والنسبة إلى الزنا، وذلك مهلك لهم. والله أعلم.

وأما الحديث فإنما هو خبر: أن ذلك سيكون لشدة ما ينزل بالناس، من فساد الحال في الدين، وضعفه وخوف ذهابه، لا لضر ينزل بالمرء في جسمه أو غير ذلك، من ذهاب ماله مما يحط به عنه خطاياه. ومما يوضح هذا المعنى ويبينه قوله عليه الصلاة والسلام: «اللَّهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت - ويروى أدرت - في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»[1]. ومثل هذا قول عمر رضي الله عنه: «اللَّهم قد ضعفت قوتي، وكبرت سني، وانتشرت رعيتي؛ فاقبضني إليك غير مضيِّع ولا مقصِّر»[2] فما جاوز ذلك الشهر حتى قبض رحمه الله.

وذكر أبو عمر ابن عبد البر في التمهيد والاستذكار من حديث زاذان بن عمر عن عليم الكندي قال: كنت جالساً مع عابس الغفاري على سطح فرأى ناساً يتحملون من الطاعون فقال: يا طاعون خذني إليك (يقولها ثلاثاً)، فقال عليم: لِمَ تقول هذا؟ ألم يقل رسول الله ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدكم الموت فإنه عند ذلك

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٦٨، ٤/ ٦٦، ٥/ ٢٣٤)، والترمذي في التفسير (٣٢٣٣)، (٣٢٣٥) شاكر. ومالك في الموطأ في كتاب القرآن ١/ ٢١٨ (٤٠)، وغيرهم.

(٢) رواه مالك في الموطأ في كتاب الحدود ٢/ ٨٢٤ (١٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٤)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٣٥).

انقطاع عمله ولا يرد فيستعتب». فقال عابس: أنا سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «بادروا بالموت ستاً: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافاً بالدم، وقطيعة الرحم، ونشْئاً يتخذون القرآن مزامير، يقدمون الرجل ليغنّيهم بالقرآن وإن كان أقلّهم فقهاً»(١).

* * *

٣ ـ باب ذكر الموت والاستعداد له

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»(٢) يعني الموت. وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات» قلنا: يا رسول اللَّه وما هاذم اللذات؟ قال: «الموت»(٣).

فصل: قوله عليه السلام: «أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت» كلام مختصر وجيز، قد جمع التذكرة، وأبلغ في الموعظة؛ فإن من ذكر الموت حقيقةَ ذِكره نغّص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من تمنيها في المستقبل، وزهده فيما كان منها يؤمّل، ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلىٰ تطويل الوعاظ، وتزويق الألفاظ، وإلّا ففي قوله عليه الصلاة والسلام: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» مع قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، العنكبوت: ٥٧] ما يكفي السامع له، ويشغل الناظر فيه، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيراً ما يتمثل بهذه الآبيات:

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٩٤)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٥، ٣٦، ٣٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٨٠)، وابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ١٤٧)، وفي الاستذكار ٨/ ٢١٠ (١٢١٥٤). وهو صحيح بطرقه وشواهده.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٩٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٠٧)، والنسائي في الجنائز (٤/ ٤)، وابن ماجه في الزهد (٢٥٨) وغيرهم. وقد جاء عن غير واحد من الصحابة. انظر: التذكرة رقم (١٨).

(٣) أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٥٢)، والبيهقي في الشعب (٨٢٦)، (٨٢٧). وانظر المرجع السابق.

لا شيءَ مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإلهُ ويفنى المالُ والولدُ
لم تغن عن «هرمٍ» يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولَتْ عادٌ فما خَلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنس والجنّ فيما بينها تردُ
أينَ الملوكُ التي كانت لعزتها ... من كل أوبٍ إليها وافد يَفِدُ؟
حوضٌ هنالك موروٌد بلا كَذِبٍ ... لا بدّ من ورْده يوماً كما وردوا

فصل: اعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية؛ ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة؛ فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم. والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، بقطعه عنها، ولقد أحسن من قال:

واذكر الموتَ تجد راحة ... في ادّكار الموتِ تقصيرُ الأملِ

والموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم. وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعداً لذلك. وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل. الرحيل، فلما توفي فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه. فقيل: إنه قد مات. فقال:

ما زال يلهجُ بالرحيلِ وذكرهِ ... حتى أناخَ ببابهِ الجمّالُ
فأصابه متيقظاً متشمّراً ... ذا أُهبةٍ لم تُلْهه الآمالُ

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد، من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربَّك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ مَن الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه؛ وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله؟ ثم يبكي حتى يسقط مغشياً عليه.

وقال التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي اللَّه تعالىٰ. وكان عمر بن عبد العزيز رضي اللَّه عنه يجمع العلماء فيتذاكرون الموت، والقيامة، والآخرة، فيبكون حتىٰ كأن بين أيديهم جنازة.

وقال أبو نعيم: كان الثوري إذا ذكر الموت لا يُنتفع به أياماً. فإن سُئل عن شيء قال: لا أدري لا أدري.

وقال الدقاق: من أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضىٰ بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفىٰ بالموت مقرحاً للقلوب، ومبكياً للعيون، ومفرقاً للجماعات، وهادماً للذات، وقاطعاً للأمنيات، فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك؟ وإذا نقلت من سعة إلىٰ ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك إلىٰ الحفر، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومَدَر، فيا جامع المال، والمجتهد في البنيان، ليس لك واللَّه من مال إلَّا الأكفان، بل هي واللَّه للخراب والذهاب، وجسمك للتراب والمآب. فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته إلىٰ من لا يحمدك، وقدمت بأوزارك علىٰ من لا يعذرك.

ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧] أي: اطلب فيما أعطاك اللَّه من الدنيا، الدارَ الآخرة وهي الجنة؛ فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة، لا في الطين والماء، والتجبر والبغي، فكأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلَّا نصيبك

الذي هو الكفن، ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبُك مما تجمع الدهر كلّه: رداءان تلْوَىٰ فيهما، وحنوطُ

وقال آخر:

هي القناعة لا تبغي بها بدلاً فيها النّعيمُ وفيها راحةُ البَدَنِ
انظرْ لمن مَلكَ الدُّنيا بأجمعها هل راحَ منها بغير القُطنِ والكفَنِ؟

وقال الحسن البصري: «إن قوماً ألهتهم الأماني حتىٰ خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة. يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وكذب؛ لو أحسن الظن لأحسن العمل» وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]. وقال سعيد بن جبير: «الغرة باللّه أن يتمادىٰ الرجل بالمعصية، ويتمنىٰ علىٰ اللّه المغفرة». وقال بقية بن الوليد: كتب أبو عمير الصوري إلىٰ بعض إخوانه:

«أما بعد . . . فإنك قد أصبحت تؤمل الدنيا بطول عمرك، وتتمنىٰ علىٰ اللّه الأماني بسوء فعلك، وإنما تضرب حديداً بارداً، والسلام».

* * *

٤ ـ باب ما يذكر الموت والآخرة ويزهد في الدنيا

عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكىٰ وأبكىٰ من حوله فقال: «استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»[(١)] .

عن ابن مسعود أن رسول اللّه ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تزهّد في الدنيا وتذكّر الآخرة»[(٢)] .

---

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩٧٦).

(٢) رواه ابن ماجه في الجنائز (١٥٧١)، والحاكم (١/ ٣٧٥)، والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٧٧)، وله شاهد من حديث بريدة: رواه مسلم في الجنائز (٩٧٧) وغيره. وله شواهد أخرىٰ.

فصل: زيارة القبور للرجال أمرٌ متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء. أما الشوابُّ فحرام عليهن الخروج. وأما القواعد فمباح لهن ذلك، وجائز ذلك لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال. ولا يُختلف في هذا إن شاء اللّه تعالىٰ. وعلىٰ هذا المعنىٰ يكون قوله عليه الصلاة والسلام: «زوروا القبور» عامًّا. وأما موضع أو وقت يخشىٰ فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يجوز ولا يحلّ، فبينا الرجل يخرج ليعتبر فيقع بصره علىٰ امرأة فيفتتن، وبالعكس؛ فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً لا مأجوراً، وهذا واضح. واللّه أعلم[1].

وقد رأىٰ بعض أهل العلم: أن لعن النبي ﷺ «زوارات القبور» كان قبل أن يرخص في زيارة القبور، فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء، وما ذكرناه لك أولاً أصح. واللّه أعلم.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه أنه خرج إلىٰ المقبرة فلما أشرف عليها قال: يا أهل القبور أخبرونا عنكم، أو نخبركم. أما خبر من قبلنا: فالمال قد اقتسم، والنساء قد تزوجن، والمساكن قد سكنها قوم غيركم، ثم قال: أما واللّه لو استطاعوا لقالوا: لم نر زاداً خيراً من التقوىٰ.

ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول:

يا عجباً للنّاس لو فكّروا ... وحاسبوا أنفسهم أبْصَروا
وعبَروا الدنيا إلىٰ غيرها ... فإنما الدنيا لهم مَعْبَرُ
لا فخر إلّا فخر أهل التّقىٰ ... غداً إذا ضمّهم المحشرُ
ليعلمنَّ النّاس أن التّقىٰ ... والبِرّ كانا خير ما يُدخرُ

---

(١) مسألة: زيارة النساء للقبور مختلف فيها؛ ومدار الخلاف علىٰ حصول الفتنة لهن أو بهن؛ وقد ذهب البعض إلىٰ التحريم من باب «سد الذرائع»، والأولىٰ التفصيل. هذا والكلام في هذه المسألة يطول ولكن هذا المقام لا يتّسع لذلك.

عجبتُ للإنسان في فخْرِهِ ... وهو غداً في قبره يُقبرُ
ما بال مَن أوّلُه نطفة ... وجيفة آخره يفجُرُ
أصبح لا يملك تقديم ما ... يرجو ولا تأخير ما يحذرُ
وأصبح الأمر إلىٰ غيره ... في كل ما يقضي وما يقدرُ

فصل: قال العلماء رحمة اللَّه عليهم: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور وخاصة إن كانت قاسية؛ فعلىٰ أصحابها أن يعالجوها بأربعة أمور:

أحدها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير، والتخويف والترغيب، وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها.

الثاني: ذكر الموت؛ فيُكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرّق الجماعات، وميتم البنين والبنات، يروىٰ أن امرأة شكت إلىٰ عائشة رضي اللَّه عنها قساوة قلبها. فقالت لها: أكثري من ذكر الموت يرق قلبك. ففعلت ذلك فرقّ قلبها. فجاءت تشكر عائشة رضي اللَّه عنها.

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن في النظر إلىٰ الميت ومشاهدة سكراته، ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، ما يقطع عن النفوس لذّاتها، ويطرد عن القلوب مسرّاتها، ويمنع الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث علىٰ العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

يروىٰ أن الحسن البصري دخل علىٰ مريض يعوده فوجده في سكرات الموت فنظر إلىٰ كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلىٰ أهله، بغير اللون الذي خرج به من عندهم فقالوا له: الطعام يرحمك اللَّه. فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فواللَّه لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتىٰ ألقاه.

هذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها علىٰ دواء دائه، ويستصرخ بها علىٰ فتن الشيطان وإغوائه، فإن انتفع بها فذاك، وإن عظم عليه ران القلب، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فزيارة قبور الموتىٰ ـ وهي الأمر الرابع ـ تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، والثاني، والثالث. ولذلك قال عليه السلام: «زوروا القبور فإنها تذكّر الموت والآخرة، وتزهّد في الدنيا»[1]، فالأول: سماع بالأذن، والثاني: إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف، وفي الثالث: التحذير بمشاهدة من احتضر، وفي زيارة قبر من مات من المسلمين: معاينة، فلذلك كانا ـ أي الثالث والرابع ـ أبلغ من الأول والثاني.

قال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»[2] رواه ابن عباس، إلَّا أن الاعتبار بحال المحتضرين غير ممكن في كل الأوقات. وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات، وأما زيارة القبور: فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر، فينبغي لمن عزم علىٰ الزيارة أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظّه منها الطواف علىٰ الأجداث فقط، فإنَّ هذه حالة تشاركه فيها البهيمة، ونعوذ باللَّه من ذلك. بل يقصد بزيارته: وجه اللَّه تعالىٰ، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن[3]. ويجتنب المشي علىٰ المقابر، والجلوس عليها إذا دخل المقابر، ويسلم إذا دخل المقابر، ويخاطبهم خطاب الحاضرين.

---

(١) مر تخريجه قريباً.

(٢) رواه أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)، وابن حبان (٦٢١٣ إحسان)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢١)، والطبراني في الكبير (١٢٤٥١) وفي الأوسط (٢٥). قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٣): «رجاله رجال الصحيح».

(٣) مسألة «وصول ثواب القراءة للأموات» من المسائل الخلافية المشهورة. وقد أطال المؤلف رحمه اللَّه النفس في تقريرها فيما سيأتي، وقد رأينا الإبقاء علىٰ كلامه. ومن أراد معرفة الرأي الآخر فليطلبه من مظانّه.

فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»[١] كذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول، وكنّي بالدار عن عُمّارها وسُكّانها. ولذلك خاطبهم بالكاف والميم؛ لأن العرب تعبّر بالمنزل عن أهله، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلّم عليه أيضاً فيقول: عليك السلام.

روى الترمذي في جامعه: أن رجلاً دخل على النبي ﷺ فقال: عليك السلام، فقال ﷺ: «لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت»[٢] وليأته من تلقاء وجهه في زيارته كمخاطبته حيّاً، ولو خاطبه حيّاً لكان الأدب استقباله بوجهه، فكذلك ههنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه، الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال. كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا الترابُ محاسنَ وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمّل بعدهم نساؤهم، وشمل ذلُّ اليتم أولادهم، واقتسم غيرُهم طريقَهم وبلادهم.

وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمؤاتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب، وليعلم أن ميْـله إلى اللهو واللعب كميْـلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان متردداً في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله وقد سالت

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة (٢٤٩).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣)، وأبو داود في اللباس (٤٠٨٤) وفي الأدب (٥٢٠٩)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٢)، والحاكم (٤/ ١٨٦) وغيرهم.

عيناه، ويصول ببلاغة نطقه، وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمؤاتاة دهره وقد أبلىٰ التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله، وعند هذا التذكر والاعتبار، يزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل علىٰ الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل علىٰ طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه، والله أعلم.

باب منه
ما يقال عند دخول المقابر وجواز البكاء عندها

عن بريدة بن حصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإن في زيارتها تذكرة»[١]. وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أراد أن يزورَ قبراً فليزره، ولا تقولوا هُجْـراً»[٢] بمعنىٰ سوءاً.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، كيف أقول إذا دخلت المقابر؟ قال: «قولي: السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[٣]. وزاد في حديث بريدة: «أسأل الله لنا ولكم العافية»[٤]، وفي الصحيحين أنه عليه السلام مرّ بامرأة تبكي عند قبر لها فقال لها: «اتقي الله واصبري» الحديث[٥].

فصل: هذه الأحاديث تشتمل علىٰ فقه عظيم وهو جواز زيارة القبور للرجال والنساء والسلام عليها، وجواز بكاء النساء عند القبر، ولو كان بكاؤهن

---

(١) مر تخريجه انظر ص ١٧.
(٢) رواه النسائي في الجنائز (٤/ ٨٩)، والحاكم بنحوه (١/ ٣٧٦).
(٣) رواه مسلم في الجنائز (٩٧٤).
(٤) رواه مسلم في الجنائز (٩٧٥).
(٥) رواه البخاري في الجنائز (١٢٥٢)، (١٢٨٣)، ومسلم في الجنائز (٩٢٦).

وزيارتهن حراماً لنهى النبي ﷺ المرأة ولزجرها زجراً يزجر مثله من أتى محرماً وارتكب منهيّاً. وما روي من نهي النساء عن زيارة القبور فغير صحيح. والصحيح ما ذكرت لك من الإباحة إلَّا أن عمل النساء في خروجهن مما لا يجوز لهن من تبرج أو كلام أو غيره فذلك المنهي عنه. وقد ذكرت لك في الباب قبل الفرق بين العجوز والشابة فتأمله[١].

وقد أبيح لك أن تبكي عند قبر ميتك حزناً عليه أو رحمة له مما بين يديه، كما أبيح لك البكاء عند موته. والبكاء عند العرب يكون البكاء المعروف وتكون النياحة. وقد يكون معهما الصياح، وضرب الخدود، وشق الجيوب. وهذا محرم بإجماع العلماء، وهو الذي ورد فيه الوعيد من قوله عليه السلام: «أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق»[٢].

وأما البكاء من غير نياحة فقد ورد فيه الإباحة عند القبر، وعند الموت، وهو بكاء الرأفة والرحمة التي لا يكاد يخلو منها إنسان، وقد بكى النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم[٣]. وقال عمر: «دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة»[٤]. النقع: ارتفاع الصوت. واللقلقة: تتابع ذلك. وقيل: النقع: وضع التراب على الرأس. والله أعلم.

* * *

(١) مسألة: «زيارة القبور للنساء» فيها خلاف، وقد مرّ التنبيه على ذلك. انظر (ص١٨).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٠٤).

(٣) كما في حديث: «إن العين تدمع ..» رواه البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٥).

(٤) رواه البخاري في الجنائز تعليقاً/ باب (٣٣) ما يكره من النياحة على الميت [٣/ ١٩١ فتح]، قال الحافظ (٣/ ١٩٢): «هذا الأثر وصله المصنف في التاريخ الأوسط».

٥ - باب المؤمن يموت بعرق الجبين

عن بريدة أن النبي ﷺ قال: «المؤمن يموت بعرق الجبين»[١].

قال عبد اللَّه بن مسعود: إن المؤمن يبقىٰ عليه خطايا من خطاياه فيجازف بها عند الموت - أي يجازىٰ - فيعرق لذلك جبينه[٢]. وقال بعض العلماء: إنما يعرق جبينه حياء من ربه لما اقترف من مخالفته؛ لأن ما سفل منه قد مات، وإنما بقيت قوىٰ الحياة وحركاتها فيما علا، والحياء في العينين، وذلك وقت الحياء، والكافر في عمىً عن هذا كله، والموحّد المعذب في شغل عن هذا بالعذاب الذي قد حل به. وإنما العرق الذي يظهر لمن حلت به الرحمة، فإنه ليس من وليّ ولا صديق ولا برّ إلَّا وهو مُسْتَحٍ من ربه، مع البشرىٰ والتحف والكرامات. واللَّه أعلم.

وفي حديث ابن مسعود: «موت المؤمن بعرق الجبين تبقىٰ عليه البقية من الذنوب فيجازىٰ بها عند الموت»[٣] أي يشدد لتمحص عنه ذنوبه.

* * *

٦ - باب ما جاء أن للموت سكرات وفيما يصير الإنسان إليه

وصف اللَّه سبحانه وتعالىٰ شدة الموت في أربع آيات:

الأولى: قوله الحق: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [قٓ: ١٩].

الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

---

(١) أحمد (٥/ ٣٥٧، ٣٦٠)، والترمذي في الجنائز (٩٨٢)، والنسائي في الجنائز (٤/ ٦)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٥٢) وغيرهم.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٥٢٤) موقوفاً علىٰ ابن مسعود، وسيأتي تباعاً.

(٣) أبو نعيم في الحلية (٥/ ٥٩)، والبيهقي بنحوه في الشعب (١٠٢١٥)، (١٠٢١٦). وله طرق أخرىٰ يتقوىٰ بها. وهو موقوف علىٰ ابن مسعود.

الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦].

عن عائشة رضي اللَّه عنها: أن رسول اللَّه ﷺ كانت بين يديه ركوة أو عُلبة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إلـٰه إلَّا اللَّه، إن للموت سكرات» ثم نصب يديه فجعل يقول: «في الرفيق الأعلىٰ» حتىٰ قبض ومالت يده[١].

وفي البخاري عنها قالت: «مات رسول اللَّه ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي. فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ»[٢].

الحاقنة: المطمئن بين الترقوة والحلق، والذاقنة: نقرة الذقن. وقال الخطابي: الذاقنة: ما تناله الذقن من الصدر.

وذكر المحاسبي في «الرعاية»: أن اللَّه تعالىٰ قال لإبراهيم عليه السلام: «يا خليلي كيف وجدت الموت؟» قال: كسفّود محمّىٰ جُعل في صوف رطب، ثم جُذب، قال: «أما إنّا قد هوّنا عليك يا إبراهيم»[٣].

وروي أن موسىٰ عليه السلام لما صار روحه إلىٰ اللَّه. قال له ربه: «يا موسىٰ كيف وجدت الموت؟» قال: وجدت نفسي كالعصفور الحي حين يُقْلَىٰ علىٰ المِقْلَىٰ لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير. وروي عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة تسلخ بيد القصّاب وهي حيّة. وقال عيسىٰ عليه السلام: «يا معشر الحواريين ادعوا اللَّه أن يهوّن عليكم هذه السكرة» يعني سكرات الموت.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥١٠).

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٤٤٦).

(٣) ذكره المحاسبي في الرعاية (ص ١٤٠ ـ ١٤١)، ورواه أحمد في الزهد (ص١٠٠) بسند حسن إلىٰ عبد اللَّه بن أبي مليكة. وهو من الإسرائيليات. وقد صح في الحديث: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». فهذا الخبر وما بعده مما يصلح في الرقائق؛ بشرط ألا نصدق ولا نكذب.

وروي: أن الموت أشد من ضرب بالسيوف، ونشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض.

ويقال: إنه لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال له ابنه: يا أبتاه، إنك لتقول لنا: ليتني كنت ألقىٰ رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت حتىٰ يصف لي ما يجد، وأنت ذلك الرجل؛ فصف لي الموت، فقال: يا بني واللّه كأن جنبي في تخت. وكأني أتنفس من سم إبرة. وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلىٰ هامتىٰ. ثم أنشأ يقول:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي   في تلال الجبال أرعىٰ الوعولا

وأنشدوا:

أذكر الموت ولا أرهبه   إنّ قلبي لغليظ كالحجر
أطلب الدنيا كأني خالدٌ   وورائي الموت يقفو بالأثر
وكفىٰ بالموت فاعلم واعظاً   لمن الموت عليه قد قُدر
والمنايا حوله ترصده   ليس يُنجِي المرءَ منهنّ المفر

وقال آخر:

بينا الفتىٰ مرحُ الخُطا فرحٌ بما   يسعىٰ له إذ قيل: قد مرض الفتىٰ
إذ قيل: بات بليلة ما نامها   إذ قيل: أصبح مثخناً ما يرتجىٰ
إذ قيل: أصبح شاخصاً وموجها   ومعللاً. إذ قيل: أصبح قد قضىٰ

فصل: أيها الناس: قد آن للنائم أن يستيقظ من نومه، وحان للغافل أن يتنبه من غفلته، قبل هجوم الموت بمرارة كاسه، وقبل سكون حركاته، وخمود أنفاسه، ورحلته إلىٰ قبره، ومقامه بين أرماسه.

روي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلىٰ أناس من أصحابه يوصيهم، فكان فيما أوصاهم به أن كتب إليهم:

«أما بعد: فإني أوصيكم بتقوىٰ اللّه العظيم، والمراقبة له، واتخذوا التقوىٰ والورع زاداً، فإنكم في دار عما قريب تنقلب بأهلها، واللّه في عرصات القيامة وأهوالها يسألكم عن الفتيل والنقير، فاللّه اللّه عباد اللّه. اذكروا الموت الذي لا بد منه، واسمعوا قول اللّه تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وقوله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧] فقد بلغني ـ واللّه أعلم ـ أنهم يضربون بسياط من نار. وقال جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

وقد بلغني ـ واللّه أعلم ـ أن حملة العرش إذا قرب ملك الموت من أحدهم ذاب حتىٰ يصير مثل الشعرة من الفزع منه.

وبلغني أن ملك الموت ينتزع روح بني آدم من تحت عضوه وظفره وعروقه وشعره، ولا تصل الروح من مفصل إلىٰ مفصل إلّا كان أشد عليه من ألف ضربة بالسيف.

وبلغني أنه لو وضع وجع شعرة من الميت علىٰ السمٰوات والأرض لأذابها حتىٰ إذا بلغت الحلقوم ولي القبض ملك الموت.

وبلغني أن ملك الموت إذا قبض روح المؤمن جعلها في حريرة بيضاء ومسك أذفر، وإذا قبض روح الكافر جعلها في خرقة سوداء في فخار من نار أشد نتناً من الجيف.

وفي الخبر أنه إذا دنت منية المؤمن نزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنىٰ، وملك يجذبها من قدمه اليسرىٰ، والنفس تنسل انسلال القطرة من السقاء، وهم يجذبونها من أطراف البنان ورؤوس الأصابع. والكافر تنسل روحه كالسفود من الصوف المبتل.

فمثل نفسك يا مغرور: وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات. فمن قائل يقول: إن فلاناً قد أوصىٰ، وماله قد أحصىٰ. ومن قائل يقول: إن فلاناً ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه. فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر علىٰ رد الجواب، ثم تبكي ابنتك وهي كالأسيرة، وتتضرع وتقول: حبيبي أبي مَنْ لِيُتْمي من بعدك؟ ومن لحاجتي؟ وأنت واللّه تسمع الكلام ولا تقدر علىٰ رد الجواب. وأنشدوا:

وأقبلتِ الصغرىٰ تمرِّغُ خدّها علىٰ وجْنتي حيناً وحيناً علىٰ صدري
وتخمش خدّيْها وتبكي بحرقة تنادي: «أبي إني غلبت علىٰ الصّبرِ»
حبيبي أبي «مَنْ لليتامىٰ تركتهم كأفراخِ زغبٍ في بعيدٍ من الوكر؟»

فخيّل لنفسك يا ابن آدم إذا أُخذت من فراشك، إلىٰ لوح مغتسلك فغسلك الغاسل، وألبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل: أين زوجة فلان تحالله؟ وأين اليتامىٰ تركَكم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبداً؟. وأنشدوا:

ألَا أيها المغرورُ مالَكَ تلعبُ تؤمّل آمالاً وموتك أقربُ
وتعلم أن الحرصَ بحرٌ مبعّدٌ سفينته الدنيا فإياك تعطبُ
وتعلم أن الموتَ ينقضّ مسرعاً عليك يقيناً طعمه ليس يعذبُ
كأنك توصي واليتامىٰ تراهم وأمّهم الثكلىٰ تنوح وتندبُ
تغصّ بحزنٍ ثم تلطمُ وجهها يراها رجالٌ بعد ما هي تحجبُ
وأقبل بالأكفان نحوك قاصدٌ ويحثىٰ عليك التّرب والعين تسكبُ

فصل: قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم: فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتقين فما لنا عن ذكره مشغولين؟ وعن الاستعداد له متخلفين؟ ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [صٓ: ٦٧ ـ ٦٨].

قالوا: وما جرىٰ علىٰ الأنبياء ـ صلوات اللّٰه عليهم أجمعين ـ من شدائد الموت وسكراته، فله فائدتان:

إحداهما: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن، وقد يطلع الإنسان علىٰ بعض الموتىٰ فلا يرىٰ عليه حركة ولا قلقاً ويرىٰ سهولة خروج روحه، فيغلب علىٰ ظنه سهولة أمر الموت، ولا يعرف ما الميت فيه؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خبرهم: شدة ألمه، مع كرامتهم علىٰ اللّٰه تعالىٰ وتهوينه علىٰ بعضهم، قطع الخلق بشدة الموت الذي يعانيه ويقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد قتيل الكفار.

الثانية: ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء: أحباب اللّٰه، وأنبياؤه ورسله، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة؟ وهو سبحانه قادر أن يخفف عنهم أجمعين.

فالجواب: «أن أشد الناس بلاءً في الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»[1]، كما قال نبينا عليه السلام. فأحب اللّٰه أن يبتليهم تكميلاً لفضائلهم لديه، ورفعة لدرجاتهم عنده، وليس ذلك في حقهم نقصاً، ولا عذاباً؛ بل هو كما قال، كمال رفعة، مع رضاهم بجميل ما يجري اللّٰه عليهم، فأراد الحق سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم، ليرفع منازلهم، ويعظم أجورهم قبل موتهم.

كما ابتلىٰ إبراهيم بالنار، وموسىٰ بالخوف والأسفار، وعيسىٰ بالصحارىٰ

---

(١) هذا الحديث له طرق وشواهد يتقوىٰ بها. انظر: مسند أحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والنسائي في الكبرىٰ (٧٤٨١)، وابن حبان (٢٩٠٠)، (٢٩٠١)، (٢٩٢٠)، (٢٩٢١)، والحاكم (١/ ٤١).

والقفار، ونبينا محمداً ﷺ بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار، كل ذلك لرفعة في أحوالهم، وكمال في درجاتهم، ولا يفهم من هذا أن اللّٰه شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين، فإن ذلك عقوبة لهم، ومؤاخذة على إجرامهم، فلا نسبة بينه وبين هذا.

فصل: إن قال قائل: كل المخلوقات تجد هذه السكرات؟ قيل له: قال بعض العلماء: قد وجب بحكم القول الصدق، والكلمة الحق، أن الكأس مرّ المذاق، وإن قد ذيق ويذاق، ولكن ثم فريقان، وتقديرات وأوزان، وأن اللّٰه سبحانه وتعالى لما انفرد بالبقاء وحده لا شريك له، وأجرى سنة الهلاك والفناء على الخلق دونه، خالف في ذلك جل جلاله بين المخلوقات، وفرق بين المحسوسات، بحسب ما خالف بين المنازل والدرجات: فنوع أرضي حيواني: إنساني وغير إنساني. وفوقه عالم روحاني وملأ علواني رضواني، كلّ يشرب من ذلك الكأس جرعته، ويغتص منه غُصّته. قال اللّٰه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وإنما أراد سبحانه بالموتات الثلاث للعالمين: فالمتحيز إلى العالم الدنيوي يموت، والمتحيز إلى العالم الملكوتي يموت، والمتحيز إلى العالم الجبروتي يموت. فالأول: هو آدم وذريته، وجميع الحيوان على ضروبه، والملكوتي وهو الثاني: أصناف الملائكة والجن، وأهل الجبروت وهم: المصطفون من الملائكة.

قال اللّٰه تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فهم كروبيون، وحملة العرش وأصحاب سرادقات الجلال، كما وصفهم اللّٰه في كتابه وأثنى عليهم حيث يقول: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] وهم أهل حضرة القدس المعنيون بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ

لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وهم يموتون على هذه المكانة من اللّه تعالى والقربة، وليس زلفاهم بمانع لهم من الموت.

فصل: إذا ثبت ما ذكرناه. فاعلم: أن الموت هو الخطب الأفظع، والأمر الأشنعُ، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وأنه الحادث الأهذم للذات، والأقلع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمراً يقطع أوصالك، ويفرّق أعضاءك، ويهدم أركانك، لهو الأمر العظيم، والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم.

يحكى أن الرشيد لما اشتد مرضه أحضر طبيباً طوسيّاً فارسيّاً، وأمر أن يُعرض عليه ماؤه ـ أي بوله ـ مع مياه كثيرة لمرضى وأصحاء، فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد، فقال: قولوا لصاحب هذا الماء يُوصِي؛ فإنه قد انحلت قواه، وتداعت بِنيتُه، ولما استعرض باقي المياه أقيم فذهب، فيئس الرشيد من نفسه (وأنشد):

إن الطبيب بطبِّه ودوائه ... لا يستطيع دِفاع نحْبٍ قَدْ أتى
ما للطبيب يموتُ بالدّاء الذي ... قد كان أبرأ مثله فيما مضى
مات المداوي، والمداوَى، والذي ... جلب الدواء وباعه، ومَن اشترى

وبلغه أن الناس أرجفوا بموته. فاستدعى حماراً، وأمر أن يُحمل عليه فاسترخت فخذاه. فقال: أنزلوني، صدق المرجفون، ودعا بأكفان فتخير منها ما أعجبه، وأمر فشق له قبر أمام فراشه ثم اطلع فيه فقال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]. فمات من ليلته.

فما ظنك ـ رحمك اللّه ـ بنازل ينزل بك، فيذهب رونقك وبهاك، ويغيّر منظرك ورؤياك، ويمحو صورتك وجمالك، ويمنع من اجتماعك واتصالك، ويردّك بعد النعمة والنضرة، والسطوة والقدرة، والنخوة والعزة، إلى حالة يبادر فيها أحب الناس إليك، وأرحمهم بك، وأعطفهم عليك، فيقذفك في حفرة من

الأرض: قريبة أنحاؤها، مظلمة أرجاؤها، محكم عليك حجرها وصيَدانها، فتحكم فيك هوامها وديدانها، ثم بعد ذلك تمكن منك الأعدام، وتختلط بالرغام، وتصير تراباً تُوطأ بالأقدام، وربما ضُرب منك إناء فخّار، أو أُحكم بك بناء جدار، أو طُلي بك محبس ماء أو موقد نار.

كما روي عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه أنه أُتي بإناء ماء ليشرب منه فأخذه بيده ونظر فيه وقال: اللّه أعلم كم فيك من عينٍ كحيلٍ، وخدٍّ أسيلٍ.

ويحكى أن رجُلين تنازعا وتخاصما في أرض فأنطق اللّه عز وجل لبنة من حائطٍ من تلك الأرض فقالت: يا هذان فيم تتنازعان؟ وفيما تتخاصمان؟ إني كنت ملكاً من الملوك ملكت كذا وكذا سنة ثم متّ وصرت تراباً. فبقيت كذلك ألف سنة ثم أخذني خزاف - يعني فخاراً - فعمل مني إناء فاستُعملت حتىٰ تكسرت، ثم عدت تراباً فبقيت ألف سنة، ثم أخذني رجل فضرب مني لبنة، فجعلني في هذا الحائط. ففيم تنازعكما؟ وفيم تخاصمكما؟.

قلت: والحكايات في هذا المعنىٰ كثيرة، والوجود شاهد بتجديد ما دثر، وتغيير ما غيّر، وعن ذلك يكون الحفر والإخراج، واتخاذ الأواني وبناء الأبراج، ولقد كنت في زمن الشباب أنا وغيري ننقل التراب علىٰ الدواب من مقبرة عندنا تسمَّىٰ بمقبرة اليهود خارج قرطبة، وقد اختلط التراب بعظام من هناك وعظمهم ولحومهم وشعورهم وأبشارهم إلىٰ الذين يصنعون القرمد للشقف[1].

قال علماؤنا رضوان اللّه عليهم: وهذا التغير إنما يحل بجسدك، وينزل ببدنك لا بروحك؛ لأن الروح لها حكم آخر، وما مضىٰ منك فغير مضاع، وتفرقته لا تمنع من الاجتماع، قال اللّه تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ

---

(١) القرمد: هو الآجرّ، والشقف: كِسَر الخزف أو الآجر.

وعِنْدَنا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤] وقال: ﴿فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٠، ٥١].

* * *

٧ ـ باب الموت كفَّارة لكل مسلم

فصل: إنما كان الموت كفّارة لكل ما يلقاه الميت في مرضه من الآلام والأوجاع، وقد قال ﷺ: «ما مِنْ مُسْلمٍ يصيبه أذىً مِنْ مرَضٍ فما سواه إلَّا حطّ اللَّه به سيئاتِه كما تحُطُّ الشَّجرة ورقها»[١].

وفي الموطأ عن أبي هريرة: عن رسول اللَّه ﷺ: «من يُرِدِ اللَّه به خيراً يصب منه»[٢]. وفي الخبر يقول اللَّه تعالى: «إنِّي لا أُخرج أحداً من الدنيا، وأنا أريد أن أرحمه، حتَّى أوفّيه بكل خطيئة كان عملها: سقماً في جسده، ومصيبة في أهله وولده، وضيقاً في معاشه، وإقتاراً في رزقه، حتى أبلغ منه مثاقيل الذر؛ فإن بقي عليه شيء شددت عليه الموت، حتى يُفْضِي إليَّ كيوم ولدته أمّه».

قلت: وهذا بخلاف من لا يحبه ولا يرضاه.

وفي مثل هذا المعنى ما خرّجه أبو داود بسند صحيح عن عبيد بن خالد السلمي ـ وكانت له صحبة ـ عن النبي ﷺ: «موت الفَجْأة أخذة أسف للكافر»[٣].

وروي عن ابن عباس أن داود عليه السلام مات فجأة يوم السبت. وعن زيد ابن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال: «إذا بقي على المؤمن من

---

(١) رواه البخاري بنحوه في مواضع منها: كتاب المرضى (٥٦٤٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧١).

(٢) مالك في الموطأ في كتاب العين ص(٩٤١ (٧)، والبخاري في كتاب المرضى (٥٦٤٥).

(٣) أحمد (٣/ ٤٢٤)، (٤/ ٢١٩)، وأبو داود في الجنائز (٣١١٠) وغيرهما.

ذنوبه شيء لم يبلغه عمله شدّد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وشدائده درجته من الجنة، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفاً في الدنيا، هوّن عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا ثم يصير إلىٰ النار».

* * *

٨ ـ باب لا يموت أحد إلاَّ وهو يُحسن باللَّه الظنّ وفي الخوف من اللَّه تعالى

عن جابر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول قبل وفاته بثلاثة أيام: «لا يموتَنَّ أحدكم إلَّا وهو يُحسن الظن باللَّه»(١).

فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم باللَّه فقال لهم تبارك وتعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُم أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

عن أنس أن النبي ﷺ دخل علىٰ شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو اللَّه يا رسول اللَّه وأخاف ذنوبي، فقال رسول اللَّه ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن في مثل هذا الموطن إلَّا أعطاه اللَّه ما يرجو وأمنه مما يخاف»(٢).

وعن الحسن أنه قال: بلغني عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: قال ربكم عز وجل: «لا أجمع علىٰ عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، فمَنْ خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، ومَنْ أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة»(٣).

فصل: حسن الظن باللَّه تعالىٰ، ينبغي أن يكون أغلب علىٰ العبد عند الموت

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٧).

(٢) رواه الترمذي في الجنائز (٩٨٣) وقال: حسن غريب . وابن ماجه في الزهد (٤٢٦١)، وغيرهما، وهو حديث حسن.

(٣) ابن المبارك في الزهد (١٥٧) وغيره، وهو مرسل حسن.

منه في حال الصحة، وهو أن اللّٰه تعالىٰ يرحمه ويتجاوز عنه ويغفر له. وينبغي لجلسائه أن يذكّروه بذلك حتىٰ يدخل في قوله تعالىٰ: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء»[١].

وروي عن ابن عمر أنه قال: «عمود الدين، وغاية مجده، وذروة سنامه: حسن الظن باللّٰه. فمن مات منكم وهو يُحسن الظنّ باللّٰه: دخل الجنة مدلّاً» أي منبسطاً لا خوف عليه.

وقال عبد اللّٰه بن مسعود: «واللّٰه الذي لا إلـٰه غيره، لا يُحسن أحد الظنّ باللّٰه إلّا أعطاه اللّٰه ظنّه، وذلك أن الخير بيده».

ويروىٰ أن ابن عباس قال: «إذا رأيتم بالرجل الموت فبشّروه ليلقىٰ ربه وهو حسن الظن به، وإذا كان حيّاً فخوفوه». قال الفضيل: «الخوف أفضل من الرجاء ـ ما كان العبد صحيحاً ـ فإذا نزل به الموت، فالرجاء أفضل من الخوف».

وعن المعتمر أنه قال: قال أبي حين حضرته الوفاة «يا معتمر حدثني بالرخص لعلّي ألقىٰ اللّٰه وأنا حسن الظن به».

وعن إبراهيم قال: «كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند الموت، حتىٰ يحسن ظنّه بربه عز وجل».

وقال ثابت البناني: كان شاب به رهق فلما نزل به الموت انكبت عليه أمّه وهي تقول: يا بني قد كنت أحذّرك مصرعك هذا، قال: يا أمّاه إن لي ربّاً كثير المعروف، وإني لأرجو اليوم أن لا يعدمني بعض معروفه، فقال ثابت: فرحمه اللّٰه بحسن ظنّه باللّٰه في حاله تلك.

---

(١) حديث قدسي: رواه أحمد (٣/ ٤٩١)، (٤/ ١٠٦)، والحاكم (٤/ ٢٤٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٨٧) وغيرهم. قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣١٨): رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد ثقات.

وقال عمر بن ذر يوماً في كلامه ـ وعنده ابن أبي داود وأبو حنيفة ـ أتعذبنا وفي أجوافنا التوحيد؟ لا أراك تفعل. اللّهم اغفر لمن لم يزل على مثل حال السحرة في الساعات التي غفرت لهم، فإنهم قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٤٧]. فقال أبو حنيفة: رحمك اللّه، القصص بعدك حرام.

ويحكى أن يحيى بن زكريا كان إذا لقي عيسى ابن مريم عليهما السلام عبس، وإذا لقيه عيسى تبسم، فقال له عيسى: «تلقاني عابساً كأنك آيس؟» فقال له يحيى: «تلقاني ضاحكاً كأنك آمِن؟» فأوحى اللّه تبارك وتعالى إليهما: «إنَّ أحبكما إليَّ أحسنكما ظنّاً بي».

وقال زيد بن أسلم: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: انطلقوا به إلى النار. فيقول: يا ربِّ فأين صلاتي وصيامي؟ فيقول اللّه تعالى: اليوم أقنطك من رحمتي كما كنت تقنّط عبادي من رحمتي».

وفي التنزيل: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في باب سعة رحمة اللّه وعفوه يوم القيامة، إن شاء اللّه تعالى.

* * *

٩ ـ باب تلقين الميت لا إله إلاَّ اللّه

عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول للّه ﷺ: «لقِّنُوا موتاكم لا إلـه إلَّا اللّه»(١).

فصل: قال علماؤنا: تلقين الموتى هذه الكلمة سنّة مأثورة عمل بها المسلمون. وذلك ليكون آخر كلامهم «لا إلـه إلَّا اللّه» فيختم له بالسعادة،

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩١٦).

وليدخل في عموم قوله عليه السلام «مَنْ كان آخر كلامه لا إلـه إلّا اللّه دخل الجنة»[١] . ولينبه المتحضر على ما يدفع به الشيطان، فإنه يتعرض للمحتضر ليفسد عليه عقيدته، على ما يأتي. فإذا تلقنها المحتضر وقالها مرة واحدة فلا تُعاد عليه لئلا يضجر.

وقد كره أهل العلم الإكثار من التلقين، والإلحاح عليه إذا هو تلقنها أو فهم عنه. قال ابن المبارك: «لقّنوا الميت «لا إلـه إلّا اللّه» فإذا قالها فدعوه». وإنما ذلك لأنه يُخاف عليه إذا لجّ عليه بها أن يتبرّم ويضجر، ويثقّلها الشيطان عليه، فيكون سبباً لسوء الخاتمة. وكذلك أمر ابن المبارك أن يُفعل به. قال الحسن بن عيسى: قال لي ابن المبارك: لقّني ـ يعني الشهادة ـ ولا تعد عليَّ إلّا أن أتكلم بكلام ثان. والمقصود أن يموت الرجل وليس في قلبه إلّا اللّه عز وجل؛ لأنّ المدار على القلب، وعمل القلب هو الذي يُنظر فيه، وتكون النجاة به. وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها، ولا عبرة عندها.

قلت: وقد يكون التلقين بذكر الحديث عند الرجل العالم، كما ذكر أبو نعيم أن أبا زرعة كان في السوق وعنده أبو حاتم، ومحمد بن سلمة، والمنذر ابن شاذان وجماعات من العلماء، فذكروا حديث التلقين فاستحيوا من أبي زرعة فقالوا: يا أصحابنا تعالوا نتذاكر الحديث. فقال محمد بن سلمة: حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا أبو عاصم، قال حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي غريب ولم يجاوزه. وقال أبو حاتم: حدثنا بندار، حدثنا أبو عاصم، عن عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي غريب ولم يجاوزه، والباقون سكوت. فقال أبو زرعة وهو في السوق: حدثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن

---

(١) أحمد (٥/ ٢٣٣)، وأبو داود في الجنائز (٣١١٦) وغيرهما.

صالح بن أبي غريب، عن كثير بن مرة الحضرمي، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَن كان آخر كلامُه لا إلـه إلَّا اللَّه دخل الجنة». وفي رواية: «حرّمه اللَّه علىٰ النار» وتوفي رحمه اللَّه(١).

ويروىٰ عن عبد اللَّه بن شبرمة أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي علىٰ مريض نعوده فوجدناه قد أُلمّ به، ورجل يلقنه الشهادة ويقول له: لا إلـه إلَّا اللَّه وهو يُكثر عليه. فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلم المريض وقال: إن تلقني أو لا تلقني، فإنّي لا أدعها، ثم قرأ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. فقال الشعبي: الحمد للَّه الذي نجىٰ صاحبنا هذا. وقيل للجنيد ـ رحمه اللَّه ـ عند موته: قل لا إلـه إلَّا اللَّه. فقال: ما نسيته فأذكره.

قلت: لابد من تلقين الميت، وتذكيره الشهادة، وإن كان علىٰ غاية من التيقظ.

* * *

١٠ ـ باب من حضر الميت فلا يلغو وليتكلم بخير وكيف الدعاء للميت إذا مات وفي تغميضه

عن أم سلمة رضي اللَّه عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمِّنون علىٰ ما تقولون». قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول اللَّه، إن أبا سلمة قد مات. فقال: «قولي: اللَّهم اغفر لي وله، وأعقبني منه عقبىٰ حسنة» قالت: فقلت: فأعقبني اللَّه مَنْ هو خير منه، رسول اللَّه ﷺ(٢).

---

(١) الخطيب في تاريخه (١٠/ ٣٣٥)، والبيهقي في الشعب (٩٢٣٧)، وأشار الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥١، ٥٠٠) إلىٰ أنه أملاها في «المعرفة»، وقد عثرنا عليها في «معرفة علوم الحديث» ص٧٦.

(٢) رواه مسلم في الجنائز (٩١٩).

وعنها قالت: دخل رسول اللَّه ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: «إنَّ الروحَ إذا قبض تبعه البصر». فضجّ ناس من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلّا بخير فإنّ الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون». ثم قال: «اللَّهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونوِّر له فيه»[١].

فصل: قال علماؤنا: قوله عليه السلام: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً» أمر ندب وتعليم بما يقال عند المريض أو الميت، وإخبار بتأمين الملائكة على دعاء من هناك، ولهذا استحب العلماء: أن يحضر الميت الصالحون، وأهل الخير حالة موته ليذكّروه، ويدعوا له ولمن يخلفه، ويقولوا خيراً فيجتمع دعاؤهم وتأمين الملائكة فينتفع بذلك الميت، ومن يصاب به، ومن يخلفه.

* * *

باب منه وما يقال عند التغميض

عن شداد بن أوس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر فإنّ البصر يتبع الروح، وقولوا خيراً فإن الملائكة تؤمِّن على ما قال أهل الميت»[٢]. وعن حفصة بنت سيرين عن أمّ الحسن قالت: كنت عند أمّ سلمة فجاءها إنسان فقال: فلان بالموت. فقالت لها: «انطلقي فإذا احتضر فقولي: السلام على المرسلين والحمد للَّه ربّ العالمين»[٣]. وعن بكر بن عبد اللَّه المزني قال: إذا غمضت الميت فقل: بسم اللَّه وعلى ملّة رسول اللَّه ﷺ وسبِّح. ثم تلا

---

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩٢٠).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٥)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٥٥)، والحاكم (١/ ٣٥٢) وغيرهم، وإسناده حسن.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٣/ ١٢٤)، وعبد الرزاق (٦٠٥٢).

سفيان الثوري: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورىٰ: ٥]. قال أبو داود: تغميض الميت إنما هو بعد خروج الروح. سمعت محمد بن أحمد المقري قال: سمعت أبا ميسرة، وكان رجلاً عابداً يقول: غمضت جعفر المعلم وكان رجلاً عاقلاً في حالة الموت فرأيته في منامي يقول: أعظم ما كان عليَّ تغميضك قبل أن أموت.

* * *

١١ ـ باب ما جاء أن الميت يحضره الشيطان عند موته وجلساؤه في الدنيا وما يخاف من سوء الخاتمة

روي أن العبد إذا كان عند الموت قعد عنده شيطانان: الواحد عن يمينه والآخر عن شماله، فالذي عن يمينه علىٰ صفة أبيه، يقول له: يا بني إني كنت عليك شفيقاً ولك محبًا، ولكن مُتْ علىٰ دين النصرانيّة فهو خير الأديان، والذي علىٰ شماله علىٰ صفة أمّه، تقول له: يا بني إنه كان بطني لك وعاء، وثديي له سقاء، وفخذي لك وطاء، ولكن مُتْ علىٰ دين اليهود وهو خير الأديان. وإن عند استقرار النفس في التراقي والارتفاع تعرض عليه الفتن وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلىٰ هذا الإنسان خاصة واستعملهم عليه ووكلهم به، فيأتون وهو علىٰ تلك الحال فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحباب الميتين الباغين له النصح في دار الدنيا، كالأب والأمّ والأخ والأخت والصديق الحميم، فيقولون له: أنت تموت يا فلان، ونحن قد سبقناك في هذا الشأن فَمُتْ يهودياً، فهو الدين المقبول عند اللّه تعالىٰ، فإن انصرم عنهم وأبىٰ، جاءه آخرون وقالوا له: مت نصرانيّاً فإنه دين المسيح، وقد نسخ اللّه به دين موسىٰ، ويذكرون له عقائد كل ملّة، فعند ذلك يزيغ اللّه من يريد زيغه، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] ثم يقبض عند الطعنة.

وقال عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل: «حضرت وفاة أبي أحمد، وبيدي الخرقة لأشد لحييه، فكان يغرق ثم يفيق ويقول بيده: لا بعد لا بعد. فعل هذا مراراً فقلت له: يا أبت أي شيء ما يبدو منك؟ فقال: إن الشيطان قائم بحذائي عاضٌّ على أنامله يقول: يا أحمد فُتّني وأنا أقول: لا. بعد لا. حتى أموت»[(١)].

قلت: وقد سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي بثغر الإسكندرية يقول: حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتضر. فقيل له: لا إلـه إلَّا اللَّه، فكان يقول: لا. لا. فلما أفاق ذكرنا له ذلك. فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي. يقول أحدهما: مت يهوديا فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانياً فإنه خير الأديان. فكنت أقول لهما: لا. . لا، أَلِيَّ تقولان هذا؟ فكان الجواب لهما: لا لكما.

قلت: ومثل هذا عن الصالحين كثير يكون الجواب للشيطان: لا لمن يلقنه الشهادة. واللَّه أعلم.

وقال الربيع بن سبرة بن معبد الجهني وكان عابداً بالبصرة: أدركت الناس بالشام وقيل لرجل: يا فلان قل: لا إلـه إلَّا اللَّه. قال: اشرب واسقني، وقيل لرجل بالأهواز يا فلان قل: لا إلـه إلَّا اللَّه فجعل يقول: ده يازده دوازده تفسيره: عشرة، أحد عشر، اثنا عشر. كان هذا الرجل من أهل العمل والديوان، فغلب عليه الحساب والميزان. قال الربيع: وقيل لرجل هاهنا بالبصرة يا فلان قل: لا إلـه إلَّا اللَّه فجعل يقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يوماً وقد لغبت: ... أين الطريقُ إلى حمّام مِنْجابِ

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٨٣)، والذهبي في السير (١١/ ٣٤١) وقال: هذه حكاية غريبة وتفرد بها ابن علم، فاللَّه أعلم.

قال الفقيه أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن النجاد: هذا رجل قد استدلته امرأة إلىٰ الحمام، فدلّها إلىٰ منزله، فقاله عند الموت.

وهذا الكلام له قصة: وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره، وكان بابه يشبه باب حمام فمرت به جارية لها منظر، وهي تقول: أين الطريق إلىٰ حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب. وأشار إلىٰ داره فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها معه في داره وليس بحمام علمت أنه خدعها فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه علىٰ تلك الخلوة وفي تلك الدار، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما نطيب به عيشنا وتقر به أعيننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وبكل ما تشتهين، فخرج وتركها في الدار ولم يقفلها، وتركها محلولة علىٰ حالها ومضىٰ، فأخذ ما يصلح لهما ورجع، ودخل الدار فوجدها قد خرجت وذهبت ولم يجد لها أثراً، فهام الرجل بها وأكثر الذكر لها والجزع عليها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يوماً وقد لغبت: أينَ الطريقُ إلىٰ حمّام مِنْجابِ

وإذا بجارية تجاوبه من طاق وهي تقول:

هلَّا جعلت لها لما ظفرتَ بها حِرْزاً علىٰ الدّارِ أو قِفْلاً علىٰ البابِ

فزاد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتىٰ كان من أمره ما ذكر. فنعوذ باللَّه من المحن والفتن.

قلت: ومثل هذا في الناس كثير ممن غلب عليه الاشتغال بالدنيا والهم بها أو سبب من أسبابها، حتىٰ لقد حكي لنا أن بعض السماسرة جاء عنده الموت فقيل له: قل لا إلـه إلّا اللَّه. فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف!!! غلبت عليه السمسرة.

ولقد رأيت بعض الحسّاب وهو في غاية المرض، يعقد بأصابعه ويحسب.

وقيل لآخر: قل لا إلـٰه إلَّا اللَّه، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا والجنان الفلاني اعملوا فيها كذا. وقيل لآخر: قل لا إلـٰه إلَّا اللَّه، فجعل يقول: عقلك الحمارة. وقيل لآخر: قل لا إلـٰه إلَّا اللَّه، فجعل يقول: البقرة الصفراء!! غلب عليه حبها والاشتغال بها. نسأل اللَّه السلامة والممات على الشهادة بمنّه وكرمه.

ولقد حكى ابن ظفر في كتاب النصائح له قال: كان يونس بن عبيد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ بزازاً، وكان لا يبيع في طرفي النهار ولا في يوم غيم، فأخذ يوماً ميزانه فرضّه بين حجرين، فقيل له: هلا أعطيته الصانع فأصلح فساده؟ فقال: لو علمت فيه فساداً لما أبقيت من مالي قوت ليلة. قيل له: فلِمَ كسرته؟ قال: حضرت الساعة رجلاً احتضر فقلت له: قل لا إلـٰه إلَّا اللَّه فامتعض، فألححتُ عليه فقال: ادع اللَّه لي. فقال: هذا لسان الميزان على لساني يمنعني من قولها. قلت: أفما يمنعك إلَّا من قولها؟ فقال: نعم. قلت: وما كان عملك به؟ قال: ما أخذت ولا أعطيت به إلَّا حقّاً في علمي، غير أني كنت أقيم المدة لا أفتقده ولا أختبره. فكان يونس بعد ذلك يشترط على مَنْ يبايعه: أن يأتي بميزان ويزن بيده، وإلَّا لم يبايعه.

* * *

١٢ ـ باب ما جاء في سوء الخاتمة وأن الأعمال بالخواتيم

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة»[١].

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر (٢٦٥١).

وعن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»(١).

قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا اللّٰه منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ـ والحمد للّٰه ـ وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ باللّٰه ثم العياذ باللّٰه، أو يكون ممن كان مستقيماً، ثم يتغيّر عن حاله ويخرج عن سننه، ويأخذ في طريقه، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته، كإبليس الذي عَبَدَ اللّٰه فيما يروى ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء الذي آتاه اللّٰه آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه، وبرصيصا العابد الذي قال اللّٰه في حقه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦].

ويروى: أنه كان بمصر رجل يلتزم مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة، فرقي يوماً «المنارة» على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذميّ، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها وترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار فقالت له: ما شأنك؟ ما تريد؟ فقال: أنتِ أريد. قالت: لماذا؟ قال لها: سلبتِ لُبِّي، وأخذتِ بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال لها: أتزوجك. قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك. قال لها: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل. فتنصّر ليتزوجها، وأقام معهم في

---

(١) البخاري في مواضع منها: كتاب الرقاق (٦٦٠٧)، ومسلم مختصراً في الإيمان (١١٢).

الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلىٰ سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلا هو بدينه ولا هو بها. فنعوذ باللَّه ثم نعوذ باللَّه من سوء العاقبة وسوء الخاتمة.

ويروىٰ أن رجلاً علق بشخص وأحبه، فتمنّع عنه واشتد نفاره، فاشتدّ كَلَفُ البائس إلىٰ أن لزم الفراش، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتىٰ وعد بأن يعوده، فأُخبر بذلك ففرح واشتد فرحه وسروره، وانجلىٰ عنه بعض ما كان يجده، فلما كان ذاك الشخص في بعض الطريق رجع وقال: واللَّه لا أدخل مداخل الريب، ولا أعرض بنفسي لمواقع التهم. فأخبر بذلك البائس المسكين فسُقط في يده، ورجع إلىٰ أسوأ ما كان به، وبدت علامات الموت وأماراته عليه.

قال الراوي: فسمعته يقول وهو في تلك الحال:

«سلّامُ» يا راحةَ العليلِ   وبردَ ذلِّ الدَّنفِ النحيلِ
رضاك أشهىٰ إلىٰ فؤادي   من رحمة الخالقِ الجليلِ

قال: فقلت له: يا فلان اتق اللَّه تعالىٰ. فقال: قد كان ما كان. فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتىٰ سمعت صيحة الموت قد قامت عليه. فنعوذ باللَّه من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة.

قال المؤلف رحمه اللَّه: روىٰ البخاري عن سالم عن عبد اللَّه قال: كان كثيراً ما كان النبي يحلف: «لا ومقلّب والقلوب»[1]. ومعناه يصرفها أسرع من مر الريح علىٰ اختلاف في القبول والرد والإرادة والكراهية وغير ذلك من الأوصاف. وفي التنزيل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]. قال مجاهد: المعنىٰ يحول بين المرء وعقله حتىٰ لا يدري ما يصنع. بيانه:

---

(١) البخاري في مواضع منها: كتاب القدر (٦٦١٧).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: ٣٧] أي: عقل، واختار الطبري أن يكون ذلك إخباراً من اللّه تعالىٰ بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتىٰ لا يدرك الإنسان شيئاً إلّا بمشيئة اللّه عز وجل.

وقالت عائشة رضي اللّه عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي علىٰ طاعتك». فقلت: يا رسول اللّه، إنك تُكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشىٰ؟ قال: «وما يؤمنني يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلّب قلب عبده قلّبه»[١].

(قال العلماء): وإذا كانت الهداية إلىٰ اللّه مصروفة، والاستقامة علىٰ مشيئته موقوفة، والعاقبة مُغيّبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خَلق ربك وفضله الدارّ عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك، كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سُلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلىٰ من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يُمسي وقلبه بطاعة اللّه مشرقٌ سليم، فيُصبح وهو بمعصيته مظلمٌ سقيم. ذلك فعل العزيز الحكيم الخلّاق العليم.

عن عثمان رضي اللّه عنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبَّد، فعلقت به امرأة غويّة فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت الجارية كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتىٰ أفضت إلىٰ امرأة وضيئة ـ أي جميلة ـ عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني واللّه ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ، أو تشرب

---

(١) رواه أحمد (٤٦/ ٩١، ٢٥١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٨، ٢٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٤) وغيرهم.

من هذه الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام. قال: فاسقيني من هذه الخمر. فسقته كأساً. قال: زيدوني، فلم يزل يشرب حتى وقع عليها وقتل الغلام. فاجتنبوا الخمر؛ فإنه واللَّه لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلَّا ليوشك أن يُخرج أحدُهما صاحبَه»(١).

ويروى أن رجلاً أسيراً مسلماً، وكان حافظاً للقرآن، خُصّ بخدمة راهبين، فحفظا منه آيات كثيرة لكثرة تلاوته، فأسلم الراهبان وتنصر المسلم. وقيل له: ارجع إلى دينك فلا حاجة لنا فيمن لم يحفظ دينه. قال: لا أرجع إليه أبداً؛ فقُتل، وفي الخبر قصته، والحكايات كثيرة في هذا الباب، نسأل اللَّه السلامة والممات على الشهادة.

وأنشد بعضهم:

قد جَرتِ الأقلامُ في ذي الورى ... بالختم من أمر الحكيم العليمِ
فمن سعيدٍ وشقي ومن ... مثرٍ من المال وعارٍ عديمِ
ومن عزيزٍ رأسه في السُّها ... ومن ذليلٍ وجهه في التّخومِ
ومن صحيحٍ شيّدت أركانه ... وآخر واهي المباني سقيمِ
كلٌّ على منهاجه سالكٌ ... ﴿ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ﴾

وقال الربيع: سئل الشافعي عن القدَر فأنشأ يقول:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يَكُنْ
خلقتَ العبادَ على ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمسنّ
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنتَ وذا لم تعنْ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ ... ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسنٌ
ومنهم غنيٌّ ومنهم فقيرٌ ... وكلٌّ بأعماله مرتهنٌ

---

(١) رواه النسائي في كتاب الأشربة (٨/ ٣١٥) بسند صحيح.

١٣ ـ باب ما جاء في رسل ملك الموت قبل الوفاة

ورد في الخبر: أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال لملك الموت عليه السلام: أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟ قال: نعم، لي والله رسل كثيرة من الإعلال والأمراض والشيب والهموم وتغيّر السمع والبصر، فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب، فإذا قبضته ناديته: ألم أقدّم إليك رسولاً بعد رسول ونذيراً بعد نذير؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الذي ليس بعدي نذير. فما من يوم تطلع فيه شمس ولا تغرب إلَّا وملك الموت يُنادي: يا أبناء الأربعين، هذا وقت أخذ الزاد؛ أذهانكم حاضرة، وأعضاؤكم قوية شداد، يا أبناء الخمسين، قد دنا وقت الأخذ والحصاد، ويا أبناء الستين، نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]. ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب (روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة»[1]. يقال أعذر في الأمر: أي بالغ فيه، أي أعذر غاية الإعذار بعبده، وأكبر الأعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم ليتم حجته عليهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قيل: هو القرآن وقيل: هو الرسل إليهم. وعن ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين بن الفضل والفراء والطبري قالوا: هو الشيب فإنه يأتي في سن الاكتهال، فهو علامة لمفارقته سن الصبا الذي هو سن اللهو واللعب. قال:

رأيتُ الشَّيبَ من نُذر المنايا ... لصاحبه وحَسْبُكَ من نَذيرِ

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٩).

وقال آخر:

تقولُ النفس: غيِّر لون هذا ... عساك تطيب في عمر يسيرِ

فقلت لها: المشيبُ نذيرُ عمري ... ولست مُسَوِّدًا وجه النذيرِ

وقال آخر:

وقائـلـةٍ: تَخضَّبْ فالغـواني ... نَوافِرُ عن مُعاينةِ النّذيرِ

وللقاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمة اللّه تعالىٰ عليه:

كم تصابىٰ وقد علاك المَشِيبُ ... وتعامىٰ جهلاً وأنت اللبيبُ

كيف تَلْهُو وقد أتاك نذيرٌ ... وشِباك الحِمام منك قريبُ

يا مقيماً قد حَانَ منه رحيلٌ ... بعد ذاك الرحيل يومٌ عَصيبُ

إنّ للموتِ سكرةٌ فارْتقبْها ... لا يُداويك إذ أتتك طبيبُ

ثم تثوي حتىٰ تصيرَ رهيناً ... ثم يأتيك دعوةٌ فتجيبُ

بأمورِ المعادِ أنت عليمٌ ... فاعملنّ جاهداً لها يا أريبُ

وتذكّر يوماً تُحاسبُ فيه ... إنّ مَنْ يذكر الممات ينيبُ

ليس في ساعةٍ من الدّهر إلّا ... للمنايا عليك فيها رقيبُ

كل يومٍ ترميك منها بسهمٍ ... إن يخطئ يوماً فسوف يصيبُ

وله أيضاً رضي اللّه عنه:

ثلاثٌ وستون قد جُزْتَها ... فماذا تؤمّل أو تنتظرْ

وحلّ عليك نذيرُ المشيب ... فما ترعوي أو فما تزدجرْ

تمرّ لياليك مراً حثيثاً ... وأنت علىٰ ما أرىٰ مستمرْ

فلو كنتَ تعقلُ ما ينقضي ... من العمر لاعْتضتَ خيراً بِشرْ

فما لك ـ ويحك ـ لا تستعدّ ... لدارِ المقامِ ودارِ المقرْ

أترغبُ عن فجأةِ للمنونِ ... وتعلم أن ليس منها وَزَرْ

فإمّا إلىٰ جنّةٍ أزلفت وإمّا إلىٰ سقرٍ تستعرْ

وللفقيه أبي عبد اللَّه محمد بن أبي ذمنين رحمه اللَّه تعالىٰ آمين :

الموتُ في كل حينٍ ينشرُ الكفنا ونحن في غفلةٍ عما يُراد بنا
لا تطمئن إلىٰ الدّنيا وبهجتها وإن توشّحت من أثوابها الحَسَنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين همو كانوا لنا سكَنا
سقاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ فصيّرتهمْ لأطباقِ الثّرىٰ رَهَنَا

وروي أن ملك الموت دخل علىٰ داود عليه السلام فقال : مَنْ أنت؟ فقال : مَنْ لا يهاب الملوك ، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرّشا . قال : فإذاً أنت ملك الموت . قال : نعم . قال : أتيتني ولم أستعد بعد؟ قال : يا داود أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال : مات ، قال : أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد .

وقيل : «النذير» : موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان ، وذلك إنذار الرحيل في كل وقت وأوان وحين وزمان .

قال :

وأراك تحملهم ولست تردّهم وكأنني بك قد حُملت فلم تُرد

وقيل : كمال العقل : الذي تعرف به حقائق الأمور ، ويفصل بين الحسنات والسيئات . فالعاقل يعمل لآخرته ، ويرغب فيما عند ربه ، فهو نذير ، والنذير بمعنىٰ الإنذار ، والإنذار والإعذار قريب بعضه من بعض ، وأكبر الإعذار إلىٰ بني آدم بعثة الرسل إليهم ثم المشيب أو غيره كما بيّنا . وجعل الستين غاية الإعذار ؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا ، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام للَّه ، وترقّب المنيّة ، ولقاء اللَّه ؛ ففيه إعذار بعد إعذار ، وإنذار بعد إنذار .

الأول : بالنبي ﷺ .

والثاني : بالشيب وذلك عند كمال الأربعين ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿وبلَغَ أَرْبَعِينَ

سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فذكر عز وجل: أن من بلغ الأربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم اللّه عليه وعلى والديه ويشكرها.

قال مالك رحمه اللّه: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس.

(تنبيه): هذا الباب هو الأصل في إعذار الحكام إلى المحكوم عليه مرة بعد أخرى، وكان هذا لطفاً بالخلق، ولتنفيذ القيام عليهم بالحق.

حُكي عن بعض العلماء أنه كان يميل إلى الراحات كثيراً، وكان يخلو في بستان له بأصحابه فلا يأذن لأحد سواهم، فبينما هو في البستان إذ رأى رجلاً يتخلل الشجر فغضب وقال: مَنْ أَذِنَ لهذا؟ وجاء الرجل فجلس أمامه، وقال: ما ترى في رجل ثبت عليه حق فزعم أن له مدافعة تدفعه عنه؟ فقال: ينظره الحاكم بقدر ما يرى. قال السائل: قد ضرب له الحاكم أجلاً فلم يأت بمنفعة ولا أقلع عن اللدد والمدافعة. قال: يقضي عليه. قال: فإنّ الحاكم رفق به وأمهله أكثر من خمسين سنة؟! فأطرق الفقيه وتحدّر عرق وجهه وذهب السائل، ثم إن العالِم أفاق من فكرته فسأل عن السائل، فقال البواب: ما دخل عليكم ولا خرج من عندكم أحد. فقال لأصحابه: انصرفوا؛ فما كان يرى بعد ذلك إلّا في مجلس يذكر فيه العلم.

فصل: وقد رأيت أن أصل بهذه الحكاية حكايات في الشيب على سبيل الوعظ والتذكير والتخويف والتحذير.

(حُكي) عن بعض المترفين أنه رفض ما كان فيه بغتة على غير تدريج، فسئل عن السبب فقال ما معناه: كانت لي أمَةٌ لا يزيدني طول الاستمتاع بها إلّا غراماً بها، فقلبتُ شعرها يوماً فإذا فيه شعرتان بيضاوان فأخبرتها فارتاعت، وقالت:

أرني فأريتها، فقالت: ﴿جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ثم نظرتْ إليَّ وقالت: اعلم أنه لو لم تفترض عليَّ طاعتُك لما أويتُ إليك، فدع لي ليلي أو نهاري لأتزود فيه لآخرتي، فقلت: لا، ولا كرامة. فغضبَت وقالت: أتَحُول بيني وبين ربي وقد آذنني بلقائه؟ اللّهم بدّل حبّه لي بُغضاً. قال: فبت وما شيء أحبَّ إليَّ من بُعْدها عنِّي! وعرضتها للبيع فأتاني من أعطاني فيها ما أريد، فلما عزمتُ علىٰ البيع بكت. فقلت: أنتِ أردتِ هذا، فقالت: واللّه ما اخترتُ عليك شيئاً من الدنيا. هل لك إلىٰ ما هو خير لك من ثمني؟ قلت: وما هو؟ قالت: تعتقني للّه عز وجل، فإنه أملك لك منك لي، وأَعْود عليك منك عليّ، فقلت: قد فعلت. فقالت: أمضىٰ اللّه صفقتك، وبلّغك أضعاف أمَلك. وتَزهَّدت؛ فبغَّضت إليَّ الدنيا ونعيمها.

وقال عبد اللّه بن أبي نوح: رأيت كهلاً بمسجد رسول اللّه ﷺ لا يزال ينفض الغبار عن جدرانه بسعفة فسألت عنه، فقيل: إنه من ولد عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، وأن له أولاداً وموالي ونعمة موفورة، وأنه اطّلع في مرآته فصرخ وجنّ ولزم المسجد كما ترىٰ. وإذا أراد أهله أن يأخذوه ليداووه ويصونوه هرب منهم وعاذ بالقبر المكرم فتركوه، فرقبته نهاراً فلم أر منه اختلالاً، ورقبْته ليلاً فلما ذهب جنح من الليل خرج من المسجد فتبعته حتىٰ أتىٰ البقيع، فقام يصلي ويبكي حتىٰ قرب طلع الفجر، فجلس يدعو وجاءت إليه دابة لا أدري أشاة أو ظبية أو غيرها فقامت عنده وتفاجت ـ [أي باعدت بين رجليها وتهيأت للحلْب] ـ فالتقم ضرعها فشرب ثم مسح ظهرها، وقال: اذهبي بارك اللّه فيك، فولت تهرع، فانسللت فسبقته إلىٰ المسجد، فأقمت ليالي أخرج بخروجه إلىٰ البقيع ولا يشعر بي، وسمعته يقول في مناجاته: اللّهم إنك أرسلت إليّ ولم تأذن لي فإن كنت قد رضيتني فائذن لي، وإن لم ترضني فوفقني لما يرضيك. قال: فلما حان رحيلي

أتيته مودّعاً فتجهمني، فقلت: أنا صاحبك منذ ليال بالبقيع؛ أصلي بصلاتك، وأؤمّن على دعائك. قال: هل أطلعت على ذلك أحداً؟ قلت: لا. قال: انصرف راشداً، قلت: ما الرسول الذي أُرسل إليك؟ قال: اطّلعت في المرآة فرأيت شيبة في وجهي. فعلمت أنها رسول اللّه إليّ فقلت: ادع لي. قال: ما أنا أهل لذلك.

(ويُقال): إن ملكاً من ملوك اليونان استعمل على ملبسه أمَة أدّبها بعض الحكماء، فألبسته يوماً ثيابه وأرته المرآة، فرأى في وجهه شعرة بيضاء فاستدعى بالمقراض وقصها؛ فأخذتها الأمَة فقبلتها ووضعتها على كفها وأصغت بأذنها إليها، فقال لها الملك: إلى أي شيء تُصغين؟ فقالت: إنني أسمع هذه المبتلاة بفقد كرامة قرب الملك تقول قولاً عجيباً، قال: ما هو؟ قالت: لا يجترئ لساني على النطق به. قال: قولي وأنت آمنة ما لزمت الحكمة. قالت ما معناه أنها تقول: أيها الملك المسلط إلى أمد قريب إني خفت بطشك بي فلم أظهرحتى عهدت إلى بناتي أن يأخذن بثأري، وكأنك بهن قد خرجن عليك؛ فإما أن يعجلن الفتك بك، وإما أن ينقصن شهوتك وقوتك وصحتك حتى تعد الموت غنماً. فقال: اكتبي كلامك؛ فكتبته فتدبره، ثم نبذ ملكه . . . في حديث، وهذا المقصود منه. وفي معناه قيل:

وزائرةٍ للشيْب لاحتّ بمفرقي فبادرتُها خوفاً من الحتف بالنتْفِ
فقالت: على ضعفي استْطلتَ وإنما رويْدك حتى يلحقَ الجيشُ من خلفي

وفي الإسرائيليات: أن إبراهيم الخليل لما رجع من تقريب ولده إلى ربه عز وجل رأت سارة في لحيته شعرة بيضاء ـ وكان عليه السلام أول من شاب على وجه الأرض ـ فأنكرتها، وأرته إياها فجعل يتأملها وأعجبته، وكرهتها سارة، وطالبته بإزالتها فأبى، فأتاه ملك الموت. فقال: السلام عليك يا إبراهيم، وكان

اسمه إبرام فزاده في اسمه هاء، والهاء في السريانية للتفخيم والتعظيم، ففرح بذلك فقال: أشكر إلهي وإله كل شيء، فقال له الملك: إن اللّه قد صيّرك معظماً في أهل السمٰوات وأهل الأرض، وقد وسمك بسمة أهل الوقار في اسمك وفي خلْقك. أما اسمك فإنك تدعىٰ في أهل السماء وأهل الأرض إبراهيم، وأما خلقك فقد أنزل وقاراً ونوراً علىٰ شعرك. فأخبر سارة بما قال له الملك، وقال: هذا الذي كرهتيه نور ووقار، قالت: إني كارهة له. قال: لكني أحبه. اللّٰهم زدني نوراً ووقاراً؛ فأصبح وقد ابيضت لحيته كلها.

وفي الآثار النبوية: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[1].

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وكذلك الشّعر، اكتفينا منه بما ذكرنا، وباللّٰه توفيقنا. قال أعرابي في الشيب والخضاب:

يا بُؤسَ مَنْ فَقَدَ الشّباب وغُيّرتْ ... منه مفارقُ رأسهِ بِخضابِ
يرجو غضارةَ وجهِهِ بخضابِهِ ... ومصيرُ كلِّ عمارةٍ لخرابِ
شيئانِ لو بكتِ الدّماءَ عليهما ... عيناي حتىٰ يؤذنا بذهابِ
إني وجدت أجلَّ كلِّ مصيبةٍ: ... فقد الشباب، وفرقة الأحبابِ

* * *

١٤ ـ باب التوبة وبيانها، وفي التائب مَنْ هو؟

قال ﷺ: «إن اللّٰه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[2]. أي عند الغرغرة وبلوغ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢١٠)، (٤/ ١١٣، ٢١٠)، (٦/ ٢٠)، والترمذي في الجهاد (١٦٣٤)، (١٦٣٥)، والنسائي في الجهاد (٦/ ٢٦) وغيرهم عن غير واحد من الصحابة.

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٣٢، ١٥٣)، (٣/ ٤٢٥)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٣)، والحاكم (٤/ ٢٥١)، والبغوي (١٣٠٦) وغيرهم.

الروح الحلقوم يعاين ما يصير إليه من رحمة أو هوان، ولا تنفع حينئذ توبة ولا إيمان، كما قال تعالى في محكم البيان: ﴿فلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْستِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨] فالتوبة مبسوطة للعبد حتى يعاين قابض الأرواح، وذلك عند غرغرته بالروح، وإنما يغرغر به إذا قطع الوتين، فشخص من الصدر إلى الحلقوم. فعندها المعاينة، وعندها حضور الموت فاعلم ذلك. فيجب على الإنسان أن يتوب قبل المعاينة والغرغرة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال ابن عباس والسّديّ: من قريب: قبل المرض والموت.

وقال أبو مجلز والضحاك وعكرمة وابن زيد وغيرهم: قبل المعاينة للملائكة والسوق وأن يغلب المرء على نفسه. ولقد أحسن محمود الوراق حيث قال:

قدِّم لنفسك توبةً مرجوّةً قبل الممات وقبل حبس الألسُنِ
بادِرْ به غلق النفوس فإنها ذخْرٌ وغنْمٌ للمنيب المُحْسنِ

قال علماؤنا ـ رحمهم اللّه ـ: وإنما صحّت منه التوبة في هذا الوقت؛ لأن الرجاء باق ويصح الندم والعزم على ترك الفعل. وقيل: المعنى: يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار. والمبادرة في الصحة أفضل وألحق لأمله من العمل الصالح والبعد كل البعد من الموت. وأما ما كان قبل الموت فهو قريب.

وعن الحسن: لما هبط إبليس قال: بعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام الروح في جسده. قال اللّه تعالى: «وعزتي لا أحجب التوبة عن ابن آدم ما لم تغرغر نفسه». والتوبة فرض على المؤمنين باتفاق المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

ولها شروط أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من اللَّه تعالى وخوفاً منه لا من غيره، فإذا اختلّ شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة. وقد قيل: من شروطها: الاعتراف بالذنب، وكثرة الاستغفار الذي يحل عقد الإصرار ويثبت معناه في الجنان لا التلفّظ باللسان. فأمّا من قال بلسانه: «أستغفر اللَّه» وقلبه مصرّ على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

قال الشيخ المؤلف رحمه اللَّه: هذا مقوله في زمانه فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكباً على الظلم، حريصاً عليه لا يقلع؟ والسبحة في يده زاعماً أنه يستغفر من ذنبه! وذلك استهزاء منه واستخفاف. وهو ممن اتخذ آيات اللَّه هُزُوًا، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١].

وروي عن عليّ رضي اللَّه عنه أنه رأى رجلاً قد فرغ من صلاته فقال: اللَّهم إني أستغفرك وأتوب إليك (قالها سريعاً). فقال له: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين وتوبتك تحتاج إلى توبة. قال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟ قال: اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب: الندامة، ولتضييع الفرائض: الإعادة، ورد المظالم إلى أهلها، وإدئاب النفس في الطاعة كما أدأبتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، وأن تزين نفسك في طاعة اللَّه كما زينتها في معصية اللَّه، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

وقال أبو بكر الوراق: التوبة يجب أن تكون نصوحاً. وهو أن تضيق عليك الأرض بما رحُبَت، وتضيق عليك نفسك؛ كالثلاثة الذين خُلِّفُوا.

وقيل: التوبة النصوح: هي رد المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان

الطاعات. وقيل غير هذا، وبالجملة فالذنوب التي يُتاب منها إما كفر أو غيره، فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على سالف كفره، وليس مجرد الإيمان نفس التوبة. وغير الكفر: إما حقّ اللّه وإمّا حق لغيره. فحقّ اللّه تعالى يكفي في التوبة منه الترك؛ غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك؛ بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء، كالصلاة والصوم. ومنها ما أضاف إليه كفّارة كالحنث في الأيمان وغير ذلك. وأمّا حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجدوا تصدّق عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعساره فعفو اللّه مأمول، وفضله مبذول. فكم ضَمِنَ من التبعات، وبدّل من السيئات بالحسنات. وعليه أن يُكثر من الأعمال الصالحات، ويستغفر لمن ظلمه من المؤمنين والمؤمنات: فهذا الكلام في حقيقة التوبة.

[وقد روي في صفة التائب]: إذا تاب العبد ولم يرض خصماؤه فليس بتائب، ومن تاب ولم يغيِّر لباسه فليس بتائب، ومن تاب ولم يغيّر مجلسه فليس بتائب، ومن تاب ولم يغيّر نفقته وزينته فليس بتائب، ومن تاب ولم يغيّر فراشه ووساده فليس بتائب، ومن تاب ولم يوسع خُلقه فليس بتائب، ومن تاب ولم يوسع قلبه وكفّه فليس بتائب، فإذا تاب عن هذه الخصال فذلك تائب حقاً.

قال العلماء: إرضاء الخصوم: يكون بأن يرد عليهم ما غصبهم من مال أو خانهم أو غلّهم أو اغتابهم أو خرق أعراضهم أو شتمهم أو سبّهم فيرضيهم بما استطاع ويتحللهم من ذلك، فإن انقرضوا فإن كان له قِبله مال ردّه إلى الورثة، وإن لم يعرف الورثة تصدّق به عنهم، ويستغفر لهم بعد الموت، ويدعو: اللّهم عوّض الذم والغيبة، لا خلاف في هذا، وأما تغيير اللباس: فهو أن يستبدل ما عليه من الحرام الحلال. وإن كانت ثياب كِبْر وخيلاء استبدلها بأطمار متوسطة، وتغيير المجلس: هو بأن يترك مجالس اللهو واللعب والجهّال والأحداث،

ويجالس العلماء ومجالس الذكر والفقراء والصالحين، ويتقرّب إلىٰ قلوبهم بالخدمة وبما يستطيع، ويصافحهم. وتغيير الطعام: بأن يأكل الحلال ويُجانب ما كان فيه شبهة أو شهوة. ويغيّر أوقات أكله، ولا يقصد اللذيذ من الأطعمة. وتغيير النفقة: هو بترك الحرام وكسب الحلال. وتغيير الزينة: بترك التزين في الأثاث والبناء واللباس والطعام والشراب. وتغيير الفراش: بالقيام بالليل عوض ما كان يشغله بالبطالة والغفلة والمعصية، كما قال اللّه تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. وتغيير الخلق: هو بأن ينقلب خلقه من الشدة إلىٰ اللين، ومن الضيق إلىٰ السعة، ومن الشكاسة إلىٰ السماحة. وتوسيع القلب: يكون بالإنفاق ثقة بالقيام علىٰ كل حال، وتوسيع الكف: بالسخاء والإيثار بالعطاء. هكذا يبدل كل ما كان فيه كشرب الخمر بكسره وسقي اللبن والعسل، والزنا بكفالة الأرملة واليتيمة وتجهيزهما، ويكون مع ذلك نادماً علىٰ ما سلف منه، ومتحسراً علىٰ ما ضيّع من عمره. فإذا كملت التوبة به علىٰ هذه الخصال التي ذكرنا والشروط التي بيّنا تقبّلها اللّه بكرمه، وأنسىٰ حافظيه وبقاع الأرض خطاياه وذنوبه. قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

والأصل في هذه الجملة: حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه في الرجل الذي قتل مائة نفس ثم سأل: هل له من توبة؟ فقال له العالم: ومَنْ يحول بينك وبينها، انطلق إلىٰ أرض بني فلان فإن بها ناساً صالحين يعبدون اللّه، فاعبدِ اللّه معهم، ولا تعد إلىٰ أرضك فإنها أرض سوء. الحديث[1].

وعن عبد اللّه بن مغفل قال: كنت مع أبي وأنا إلىٰ جنبه عند عبد اللّه بن مسعود فقال له أبي: أسمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٦).

تاب إلى اللَّه عز وجل تاب اللَّه عليه؟» فقال: نعم سمعته. يقول: «الندم توبة»(١).

وعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه»(٢).

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]».

قال الشيخ المؤلف رحمه اللَّه: فدلّ القرآن على أن في الذنوب كبائر وصغائر، خلافاً لمن قال: كلها كبائر، حسب ما بيّناه في سورة النساء(٣)، وأن الصغائر كاللمسة والنظرة تكفّر باجتناب الكبائر قطعاً بوعده الصدق وقوله الحق، لا أنه يجب عليه ذلك، لكن بضميمة أخرى إلى الاجتناب، وهي إقامة الفرائض كما نص عليه الحديث. ومثله: ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات ما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر»(٤). على هذا جماعة أهل التأويل وجماعة الفقهاء وهو الصحيح في الباب.

وأما الكبائر فلا يكفّرها إلَّا التوبة منها والإقلاع عنها كما بيّنا، وقد اختلف في تعيينها ليس هذا موضع ذكرها. وسيأتي في القصاص، وفي أبواب النار جملة منها إن شاء اللَّه تعالى.

* * *

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٦، ٤٢٣، ٤٣٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢)، والحاكم (٤/ ٢٤٣)، والبغوي (١٣٠٧) وغيرهم.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٧٥٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) ضمن حديث قصة الإفك.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٠٤ ـ ١٠٦).

(٤) رواه مسلم في كتاب الطهارة (٢٣٣).

١٥ ـ باب لا تخرج روح عبد مؤمن أو كافر حتى يبشر وأنه يصعد بها

محمد بن كعب القرظي قال: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك يا ولي اللّه، اللّه يقرئك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢].

ومعنىٰ (استنقعت): أي هدأت واطمأنت استعداداً لخروج الروح.

وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.

وعن البراء بن عازب في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]: فيُسلّم ملك الموت علىٰ المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتىٰ يُسلّم عليه[1].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا: أُخرجي أيّتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب. اخرجي حميدة وأبشري بِرَوْحٍ وريحان وربٍّ غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ تخرج، ثم يعرج بها إلىٰ السماء، فيفتح لها فيقال: مَنْ هذا؟ فيقولون: فلان بن فلان فيُقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب. ادخلي حميدة وأبشري بروْحٌ وريحان ورب راض غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ تنتهي إلىٰ السماء التي فيها اللّه تعالىٰ. فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيّتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث. اخرجي ذميمة وأبشري بجحيم وغسّاق وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ تخرج، ثم يعرج بها إلىٰ السماء

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٦٨).

فيستفتح لها فيقال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان بن فلان. فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث. ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء ثم تصير إلىٰ القبر»(١).

وذكره مسلم عن أبي هريرة قال: «إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها». ـ قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك ـ قال: «ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض. صلىٰ اللَّه عليكِ وعلىٰ جسد كنت تعمرينه. فينطلق به إلىٰ ربه ثم يقول: انطلقوا به إلىٰ آخر الأجل، وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد: وذكر من نتنها وذكر لعناً ـ ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض قال: فيقال: انطلقوا به إلىٰ آخر الأجل». قال أبو هريرة: فردّ رسول اللَّه ﷺ ريطة كانت عليه علىٰ أنفه هكذا(٢).

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أحبّ لقاء اللَّه أحبَّ اللَّه لقاءه، ومَنْ كَرِهَ لقاء اللَّه كَرِه اللَّه لقاءه»، فقالت عائشة ـ أو بعض أزواجه ـ: إنا لنكره الموت، فقال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان من اللَّه وكرامته؛ فليس شيء أحبّ إليه مما أمامه؛ فأحب لقاء اللَّه وأحب اللَّه لقاءه. وإن الكافر إذا حضره الموت بُشِّر بعذاب اللَّه وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه؛ فكره لقاء اللَّه وكره اللَّه لقاءه»(٣).

فصل: هذا الحديث، وإن كان مفسراً مبيناً، فقد روي عن عائشة رضي اللَّه عنها في تفسيره: أنها قالت لشريح بن هاني وقد سألها عما سمعه من أبي هريرة: وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعر

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٦٤، ٢٨٨، ٢٩٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق (٦٥٠٧)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء (٢٦٨٣)، (٢٦٨٤).

الجلد، تشنجت الأصابع؛ فعند ذلك: من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه[١].

وعن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه عز وجل إذا أراد بعبد خيراً استعمله. فقيل: كيف يستعمله يا رسول اللَّه؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت»[٢].

قال الشيخ المؤلف رحمه اللَّه ومنه الحديث الآخر: «إذا أراد اللَّه بعبده خيراً عسله». قالوا: يا رسول اللَّه وما عسله؟ قال: «يفتح اللَّه له عملاً صالحاً بين يدي موته حتىٰ يرضىٰ عنه من حوله»[٣].

وعن قتادة في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩] قال: الرَّوْح: الرحمة، والرَّيْحان: تتلقاه به الملائكة عند الموت.

ومن حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر ريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين، ويُقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] مرضياً عنكِ إلىٰ روح اللَّه وكرامته، فإذا خرجت روحه وُضِعَت علىٰ ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة، وذهب بها إلىٰ عليين، وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة، فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلىٰ هوان اللَّه

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (٢٦٨٥).

(٢) رواه أحمد (٣/١٠٦، ١٢٠)، والترمذي في القدر (٢١٤٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». ورواه أيضاً الحاكم (١/ ٣٤٠) وغيرهم.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٠٠)، والطبراني في الكبير (٧٥٢٢)، (٧٧٢٥).

وعذابه، فإذا خرجت روحه وُضِعَت على تلك الجمرة، ويطوى عليها المسح، ويُذهب بها إلى سجين»[١].

* * *

١٦ ـ باب ما جاء في تلاقي الأرواح في السماء والسؤال عن أهل الأرض وفي عرض الأعمال

عن أبي أيوب الأنصاري رضي اللَّه عنه قال: إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد اللَّه تعالى كما يتلقون البشير في الدنيا، فيقبلون عليه يسألونه فيقول بعضهم لبعض: أنظروا أخاكم حتى يستريح، فإنه كان في كرب شديد، قال: فيقبلون عليه فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول: إنه هلك فيقولون: إنا للَّه وإنا إليه راجعون. ذُهِب به إلى أمِّه الهاوية فبئست الأم وبئست المربيّة. قال: فتُعرض عليهم أعماله فإن رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وقالوا: اللَّهم هذه نعمتك على عبدك فأتِّمها. وإن رأوا شرّاً قالوا: اللَّهم راجع بعبدك[٢].

وعن عبد الرحمـٰن بن جبير بن نفير أن أبا الدرداء كان يقول: إن أعمالكم تُعرض على موتاكم فيسرّون ويُساؤُون قال: يقول أبو الدرداء: اللَّهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً يخزى به عبد اللَّه بن رواحة.

وفي رواية: اللَّهم إني أعوذ بك من عمل يخزيني عند عبد اللَّه بن رواحة[٣].

عن عثمان بن عبد اللَّه بن أوس أن سعيد بن جبير قال له: استأذن لي على

---

(١) رواه النسائي بنحوه في الجنائز (٤/ ٨ ـ ٩)، والحاكم (١/ ٣٥٢، ٣٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٤) وغيرهم.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٤٣)، (٤٤٤) وهو حسن موقوفاً، ضعيف مرفوعاً.

(٣) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (١٦٥).

ابنة أخي، وهي زوجة عثمان وهي ابنة عمرو بن أوس، فاستأذنت له فدخل عليها ثم قال: كيف يفعل بكِ زوجكِ؟ قالت: إنه إليّ لمحسن فيما استطاع. فالتفتّ إليّ ثم قال: يا عثمان أحسن إليها فإنك لا تصنع بها شيئاً إلّا جاء عمرو ابن أوس فقلت: وهل تأتي الأموات أخبار الأحياء؟ قال: نعم ما من أحد له حميم إلّا ويأتيه أخبار أقاربه، فإن كان خيراً سرّ به وفرح وهنئ به، وإن كان شرّاً ابتأس وحزن به، حتىٰ إنهم ليسألون عن الرجل قد مات فيقال: أو لم يأتكم؟ فيقولون: لا، لقد خولف به إلىٰ أمّه الهاوية[١].

وعن الحسن البصري رضي اللّه عنه قال: إذا قبض روح العبد المؤمن عُرِجَ به إلىٰ السماء فتلقاه أرواح المؤمنين فيسألونه فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقول: أولم يأتكم؟ فيقولون: لا واللّه ما جاءنا ولا مرّ بنا، فيقولون: سلك به إلىٰ أمّه الهاوية. فبئست الأمّ وبئست المربيّة[٢].

فصل: هذ الأخبار وإن كانت موقوفة فمثلها لا يُقال من جهة الرأي[٣].

وقد خرّج النسائي بسنده عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول للّه ﷺ قال الحديث وفيه: «فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فيقولون: دعوه فإن كان في غمّ الدنيا، فإذا قال: أو ما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلىٰ أمّه الهاوية»[٤] وذكر الحديث.

وقد قيل في قوله عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٤٧).

(٢) رواه ابن المبارك بنحوه في الزهد (٤٤٣) عن أبي أيوب الأنصاري.

(٣) قلت: نعم مثله لا يقال من جهة الرأي، ولكن بعض ذلك قد يؤخذ عن أهل الكتاب، وفي حديث النسائي الآتي بعد: أن الأموات يجهلون أحوال الأموات ولا يدرون ما عملهم.

(٤) رواه النسائي في الجنائز (٤/ ٨).

منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف[١] : إنه هذا التلاقي، وقد قيل: تلاقي أرواح النيام والموتى، وقيل غير هذا. واللَّه أعلم.

* * *

١٧ ـ باب في شأن الروح وأين تصير حين تخرج من الجسد؟

قال أبو الحسن القابسي رحمه اللَّه: الصحيح من المذهب، والذي عليه أهل السنة، أنها ترفعها الملائكة حتى توقفها بين يدي اللَّه تعالى فيسألها، فإن كانت من أهل السعادة قال لهم: سيروا بها وأروها مقعدها من الجنة. فيسيرون به في الجنة على قدر ما يغسل الميت. فإذا غسل الميت وكُفِّن ردّت وأدرجت بين كفنه وجسده، فإذا حمل على النعش فإنه يسمع كلام الناس، مَنْ تكلّم بخير ومَنْ تكلّم بشرّ. فإذا وصل إلى قبره وصُلِّي عليه، ردّت فيه الرّوح وأُقعد ذا روح وجسد، ودخل عليه الملكان الفتانان على ما يأتي.

وعن عمرو بن دينار قال: ما من ميّت يموت إلّا روحه في يد ملك، ينظر إلى جسده كيف يُغسّل، وكيف يُكَفَّن، وكيف يُمشى به فيجلس في قبره.

قال داود: وزاد في هذا الحديث. قال: يقال له وهو على سريره: اسمع ثناء الناس عليك. ذكره أبو نعيم الحافظ في باب عمرو[٢].

فصل: وأمّا الكافر فتؤخذ نفسه عنفاً، والملك يقول: اخرجي أيّتها النّفس الخبيثة من الجسد الخبيث، فإذا له صراخ أعظم ما يكون كصراخ الحمير، فإذا قبضها ملك الموت ناولها زبانية قباح الوجوه، سود الثّياب، منتني الرّائحة، بأيديهم مسوح من شعر، فيلفونها فيستحيل شخصاً، والكافر يكون أعظم جرماً من المؤمن، يعني في الجسم في الآخرة، وفي الصحيح: «أن ضرس الكافر في

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٦٣٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٤٩) بسند صحيح.

النار، مثل أُحُد»[1]، فيعرج به حتىٰ ينتهي إلىٰ سماء الدنيا، فيقرع الأمين الباب، فيقال: مَنْ أنت؟ ومن معك؟ فيقول: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه وأبغضها إليه في دار الدنيا، فيقال: لا أهلاً ولا سهلاً ولا مرحباً ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٠] الآية. فإذا سمع الأمين هذه المقالة، طرحه من يده؛ فَتَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ أي: بعيد، وهو قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فإذا انتهىٰ إلىٰ الأرض ابتدرته الزبانية، وسارت به إلىٰ سجين، وهي صخرة عظيمة تأوي إليها أرواح الفجار. وأمّا النّصارىٰ واليهود، فمردودون من الكرسي إلىٰ قبورهم. هذا مَن كان منهم علىٰ شريعته، ويشاهد غسله ودفنه.

وأمّا المشرك فلا يشاهد شيئاً من ذلك؛ لأنّه قد هوىٰ به.

وأمّا المنافق فمثل الثاني يرد ممقوتاً مطروداً إلىٰ حفرته.

وأمّا المقصّرون المؤمنون فتختلف أنواعهم، فمنهم من ترده صلاته؛ لأنّ العبد إذا قصّر في صلاته كان سارقاً لها. فتلف كما يلفّ الثّوب الخَلِق، ويُضرَب بها وجهه. ثمّ تعرج وتقول: ضيّعك اللّه كما ضيّعتني، ومنهم مَن تردّه زكاته؛ لأنّه إنّما يزكّي ليقال: فلان متصدّق. ومن الناس مَن يردّه صومه؛ لأنّه صام عن الطعام ولم يصم عن الكلام، فهو رفث وخسران فيخرج الشهر وقد بهرجه، ومن الناس مَن يردّه حجّه؛ لأنه إنما حجّ ليقال فلان حج، أو يكون حج بمال خبيث، ومن الناس من يردّه العقوق، وسائر أحوال البرّ كلها، لا يعرفها إلّا العلماء بأسرار المعاملات، وتخليص العمل الذي للملك الوهّاب، فكل هذه المعاني جاءت بها الآثار والأخبار. فإذا ردّت النفس إلىٰ الجسد وأدرج الميت في

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥١).

أكفانه تقول: أسرعوا بي، إلىٰ رحمة اللَّه ـ أي رحمة ـ لو تعلمون ما أنتم حاملوني إليه. وإن كان يُبشّر بالشّقاء تقول: رويداً إلىٰ أي عذاب لو تعلمون ما أنتم حاملوني إليه. فإذا أدخل القبر وهيل عليه التراب فكأني بالقبر يناديه: كنت تفرح علىٰ ظهري، فاليوم تحزن في بطني. كنت تأكل الألوان علىٰ ظهري، فالآن يأكلك الدود في بطني. ويكثر عليه مثل هذه الألفاظ الموبخة حتىٰ يسوىٰ عليه التراب ثم يناديه ملك، وهو أول ما يلقىٰ الميت إذا دخل قبره. واللَّه أعلم بغيبه وأحكم.

* * *

١٨ ـ باب كيفية التوفي للموتىٰ؟ واختلاف أحوالهم في ذلك

ذكر اللَّه التوفي في كتابه مجملاً ومفصلاً:

فقال اللَّه تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨]، فهذا كلّه مجمل، وقد بيّنه رسول اللَّه ﷺ علىٰ ما يأتي بيانه إن شاء اللَّه تعالىٰ، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، وهذا مخصوص بمن قُتل من الكفار يوم بدر باتفاق أهل التأويل، فيما قاله بعض علمائنا، وقد ذكر المهدوي وغيره في ذلك اختلافاً، وأن الكفار حتىٰ الآن يتوفون بالضرب والهوان. واللَّه أعلم.

ورویٰ مسلم في حديث فيه طول قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس، قال:

بينما رجل من المسلمين يومئذ، يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم «حيزوم» إذ نظر إلىٰ المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قدم خُطم أنفه وشُقَّ وجهه كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول اللّه ﷺ فقال: «صدقت، ، ذلك من مدد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين. وذكر الحديث[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ أي بالعذاب ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ إلىٰ قوله ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقد زادت السنة هذا النوع بياناً علىٰ ما يأتي.

فصل: إن قال قائل: كيف الجمع بين هذه الآي؟ وكيف يقبض ملك الموت في زمن واحد أرواح من يموت بالمشرق والمغرب؟ قيل له: اعلم أن التوفي مأخوذ من توفيت الدين واستوفيته إذا قبضته ولم تدع منه شيئاً، فتارة يضاف إلىٰ ملك الموت لمباشرته ذلك، وتارة إلىٰ أعوانه من الملائكة؛ لأنهم قد يتولون ذلك أيضاً، وتارة إلىٰ اللّه تعالىٰ وهو المتوفِّي علىٰ الحقيقة كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الحج: ٦٦] وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢] فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما يفعل بأمره.

وقال الكلبي: يقبض ملك الموت الروح من الجسد، ثم يسلمها إلىٰ ملائكة الرحمة إن كان مؤمناً، وإلىٰ ملائكة العذاب إن كان كافراً، وهذا المعنىٰ منصوص في حديث البراء، وسيأتي.

وفي الخبر: أن ملك الموت جالس وبين يديه صحيفة يكتب فيها له في ليلة

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣).

النصف من شعبان، وهي الليلة التي يُفْرَقُ فيها كلّ أمر حكيم من الأرزاق والآجال في قول بعض العلماء عكرمة وغيره. والصحيح أن الليلة التي يُفْرَقُ فيها كل أمر حكيم ليلة القدر من شهررمضان، وهو قول قتادة والحسن ومجاهد وغيرهم، يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿حَـمٓ * وَالكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا أَنـزَلْـنَاهُ﴾ يعني القرآن ﴿فِي لَيْـلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ١ ـ ٣] يعني ليلة القدر، وهذا بيِّن.

وقيل عن ابن عباس: إن اللَّه تعالىٰ يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلىٰ أربابها في ليلة القدر. وكان هذا جمعاً بين القولين، واللَّه أعلم. فإذا انقضىٰ عُمْر ذلك الشخص الذي حان قبض روحه، سقطت ورقة من سدرة المنتهىٰ التي فيها اسمه علىٰ اسمه في الصحيفة، فعرف أن قد فرغ أجله وانقطع أكله.

وفي الخبر: أن ملك الموت تحت العرش يسقط عليه صحائف من يموت من تحت العرش، الصحف هنا: ورق السدرة. واللَّه أعلم.

وكما في الخبر قبله: فإذا نظر إلىٰ الإنسان قد نفذ رزقه وانقطع أكله، ألقىٰ عليه سكرات الموت، فغشيته كُرُباته، وأدركته سكراته.

وفي الخبر: أنه ينزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنىٰ، وملك يجذبها من قدمه اليسرىٰ، وملك يجذبها من يده اليمنىٰ، وملك يجذبها من يده اليسرىٰ. ذكره أبو حامد.

وقال: وربما كشف للميت عن الأمر الملكوتي قبل أن يغرغر، فيعاين الملائكة علىٰ حقيقة عمله، علىٰ ما يتحيزون إليه من عالمهم، فإن كان لسانه منطلقاً حدّث بوجودهم، وربما أعاد علىٰ نفسه الحديث بما رأىٰ، وظن أن ذلك من فعل الشيطان به، فيسكت حين يعقل لسانه وهم يجذبونها من أطراف البنان ورؤوس الأصابع، والنفس تنسل انسلال القذاة من السقا.

والفاجر تُسلّ روحه كالسُّفود من الصوف المبلول. هكذا حكىٰ صاحب الشرع عليه السلام، والميت يظنّ أن بطنه ملئت شوكاً، كأنما نفسه تخرج من ثقب إبرة، وكأن السماء انطبقت علىٰ الأرض وهو بينهما، فإذا احتضرت نفسه إلىٰ القلب، مات لسانه عن النطق فما أحد ينطق، والنفس مجموعة في صدره لسرّين:

أحدهما: أن الأمر عظيم قد ضاق صدره بالنفس المجتمعة فيه، ألا ترىٰ أن الإنسان إذا أصابته ضربة في صدره بقي مدهوشاً، فتارة لا يقدر علىٰ الكلام، وكل مطعونٌ يطعنُ يُصوّت إلّا مطعون الصدر فإنه يخر من غير تصويت.

وأمّا السرّ الآخر: فلأن الذي فيه حركة الصوت المندفعة من الحرارة الغريزية فصار نفسه متغير الحالتين، حال الارتفاع والبرودة؛ لأنه فقد الحرارة، فعند هذا الحين تختلف أحوال الموتىٰ.

وروىٰ سليمان بن مهير الكلابي قال: حضرت مالك بن أنس وأتاه رجل فسأله: يا أبا عبد اللّه، البراغيث أملك الموت يقبض أرواحها؟ فأطرق مالك طويلاً ثم قال: لها نفس؟ قال: نعم، قال: ملك الموت يقبض أرواحها ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ذكره الخطيب أبو بكر رحمه اللّه.

* * *

١٩ ـ باب ما جاء في صفة ملك الموت عند قبض روح المؤمن والكافر

قال علماؤنا رحمهم اللّه: وأما مشاهدة ملك الموت عليه السلام وما يدخل علىٰ القلب منه من الروع والفزع، فهو أمر لا يُعبّر عنه لعظم هوله وفظاعة رؤيته، ولا يعلم حقيقة ذلك إلّا الذي يبتدئ له ويطلع عليه، وإنما هي أمثال تُضرب وحكايات تُروىٰ.

وروي عن ابن عباس: أن إبراهيم خليل الرحمن سأل ملك الموت أن يريه كيف يقبض روح المؤمن؟ فقال له: اصرف وجهك عني فصرف، ثم نظر إليه فرآه في صورة شاب حسن الصورة حسن الثياب طيب الرائحة حسن البشر. فقال له: واللّٰه لو لم يلق المؤمن من السرور شيئاً سوىٰ وجهك كفاه، ثم قال: أرني كيف تقبض روح الكافر؟ فقال له: لا تطيق ذلك. قال: بلىٰ أرني، قال: اصرف وجهك عني فصرف وجهه عنه، ثم نظر إليه فإذا صورة إنسان أسود رجلاه في الأرض ورأسه في السماء كأقبح ما أنت راء من الصور، تحت كل شعرة من جسده لهيب نار فقال له: واللّٰه لو لم يلق الكافر سوىٰ نظرة إلىٰ شخصك لكفاه.

قال الشيخ المؤلف رحمه اللّٰه: وسيأتي هذا المعنىٰ مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ في الملائكة في حديث البراء وغيره إن شاء اللّٰه تعالىٰ.

وقال ابن عباس أيضاً: كان إبراهيم عليه السلام رجلاً غيوراً، وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا هو برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها، قال إبراهيم: أنا ربها، قال: أدخلنيها من هو أملك لها منك، قال: مَنْ أنت؟ من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت. قال: أتستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، ثم التفت إبراهيم فإذا هو بشاب؛ فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب رائحته، فقال: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلّا صورتك لكان حسبه، ثم قبض روحه ﷺ.

فصل: قال علماؤنا رحمة اللّٰه عليهم: لا تعجب من كون ملك الموت يرىٰ علىٰ صورتين لشخصين، فما ذلك إلّا مثل ما يصيب الإنسان بتغيّر الخلقة في الصحة والمرض والصغر والكبر والشباب والهرم، وكصفاء اللون بملازمة الحمام وشحوبة الوجه بتغير اللون وبلفح الهواجر في السفر، غير أن قضية الملائكة

عليهم السلام يجري ذلك منهم في اليوم الواحد والساعة الواحدة، وإن لم يجر هذا على الإنسان إلّا في الأوقات المتباعدة والسنين المتطاولة، وهذا بيّن فتأمله[1].

* * *

٢٠ ـ باب ما جاء أن ملك الموت عليه السلام هو القابض لأرواح الخلق

قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

وروي أنه: إذا قبض ملك الموت روح المؤمن قام على عتبة الباب ولأهل البيت ضجّة، فمنهم الصاكة وجهها، ومنهم الناشرة شعرها، ومنهم الداعية بويلها، فيقول ملك الموت عليه السلام: فيم هذا الجزع؟ فواللّه ما أنقصت لأحد منكم عُمُراً، ولا ذهبت لأحد منكم برزق، ولا ظلمت لأحد منكم شيئاً، فإن كانت شكايتكم وسخطكم عليّ فإنّي واللّه مأمور، وإن كان ذلك على ميّتكم فإنه في ذلك مقهور، وإن كان ذلك من ربّكم فأنتم به كفرة، وإن لي فيكم عودة ثم عودة، فلو أنهم يرون مكانه أو يسمعون كلامه لذهلوا عن ميّتهم ولبكوا على أنفسهم.

فملك الموت إذا وجد الإنسان قد نفذ أكله وانقطع أجله ألقى عليه غمرات الموت، فغشيته كرباته وغمرته غمراته، فمن أهل بيته: الناشرة شعرها، والضاربة وجهها، والباكية لشجوها، والصارخة بويلها، فيقول ملك الموت عليه السلام: ويلكم مِمَّ الفزع؟ ومِمَّ الجزع؟ ما أذهبت لأحد منكم رزقاً ولا قربت له أجلاً ولا أتيته حتى أُمِرْتُ، ولا قبضت روحَه حتى استأمرت، وإن لي فيكم عودة ثم عودة

---

(١) قلت: لا داعي للتعجب إذا صح الخبر؛ لأن ذلك يرجع إلى قدرة اللّه، واللّه على كل شيء قدير. ومعظم الأخبار التي مرّت قد أوردناها على سبيل الرواية فقط. ولعل اللّه أن ييسر لنا النظر لاحقاً في هذه الأخبار لنكرّ على الضعيف منها فنحذفه.

حتى لا أُبقي منكم أحداً.

فلو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم، حتى إذا حُمل الميت على النعش رفرفت روحه فوق النعش وهو ينادي: يا أهلي يا ولدي لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال من حلّه ومن غير حلّه، ثم خلفْتُه لغيري، فالمهناة له والتبعة عليّ، فاحذروا ما حلّ بي.

فملك الموت ـ والله أعلم ـ هو الموكّل بقبض كل ذي روح، وأن تصرفه كله بأمر الله عز وجل وبخلقه واختراعه.

فخلق الله ملك الموت وخلق على يديه قبض الأرواح وانسلالها من الأجسام وإخراجها منه، وخلق جنداً يكونون معه يعملون عمله بأمره.

فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، والباري سبحانه خالق الكل، الفاعل حقيقة لكل فعل.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فملك الموت يقبض الأرواح والأعوان يعالجون، والله يزهق الروح، لكنه لما كان ملك الموت متولي ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفي إليه كما أضيف الخلق للملك.

قال الشيخ المؤلف رحمه الله: كما في حديث ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلْقَه في بطن أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح» الحديث[1].

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في كتاب القدر (٢٦٤٣).

قوله: «ويجمع خلقه في بطن أمّه» قد جاء مفسّراً عن ابن مسعود رضي اللّه عنه رواه الأعمش عن خيثمة قال: قال عبد اللّه: إن النطفة إذا وقعت في الرحم فأراد اللّه سبحانه أن يخلق منها بشراً طارت في بشر المرأة تحت كل ظفر وشعر، ثم تمكث أربعين ليلة، ثم تنزل دماً في الرحم فذلك جمعها.

وفي صحيح مسلم أيضاً: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأربعون بعث اللّه إليها ملَكاً فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وشعرها وجلدها ولحمها وعظامها. ثم يقول: أي رب أذَكَرٌ أم أنثىٰ؟» وذكر الحديث[1]. . وما قبله يُفسّره ويُبيّنه؛ لأن النطفة لا يبعث الملك إليها إلّا بتمام اثنتين وأربعين ليلة فتأمله.

ونسبة الخلق والتصوير للملك نسبة مجازية لا حقيقية، وإنما صدر عنه فعل ما في المضغة كان عنه التصوير والتشكيل بقدرة اللّه تعالىٰ وخلقه واختراعه. ألا تراه سبحانه وتعالىٰ قد أضاف إليه الخلقة الحقيقية وقطع عنها نسب جميع الخليقة، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] إلىٰ غير ذلك من الآيات مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين إذ لا خالق لشيء من المخلوقات إلّا ربّ العالمين.

وهكذا القول في قوله: «ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح» أي أن النفخ فيه سبب يخلق اللّه فيه الروح والحياة. وكذلك القول في سائر الأسباب المعتادة فإنه بإحداث اللّه تعالىٰ لا بغيره فتأمّل ذلك. هذا هو الأصل وتمسّك به ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال والقائلين بالطبائع وغيرهم، واعلم أن اللّه هو القابض لأرواح جميع الخلق علىٰ الصحيح، وأن ملك الموت وأعوانه وسائط.

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر (٢٦٤٥).

وذكر أبو نعيم الحافظ عن ثابت البناني قال: الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ليس منه ساعة تأتي علىٰ ذي روح إلَّا وملك الموت قائم عليها، فإن أمر بقبضها قبضها وإلَّا ذهب[١]. وهذا عام في كل ذي روح. واللَّه أعلم.

* * *

٢١ ـ باب ما جاء أن الروح إذا قبض تبعه البصر

عن أمّ سلمة، قالت: دخل رسول اللَّه ﷺ علىٰ أبي سلمة، وقد شقّ بصره فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»[٢]. وقد تقدّم.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره»، قالوا: بلىٰ. قال: «فذلك حين يتبع بصره نفسه»[٣].

فصل: في قوله عليه السلام: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر». وقوله: «فذلك حين يتبع بصره نفسه» ما يُستغنىٰ به عن قول كل قائل في الروح والنفس، وإنهما اسمان لمسمًّىٰ واحد، وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء اللَّه تعالىٰ.

* * *

٢٢ ـ باب ما جاء في استحسان الكفن

مسلم عن جابر بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ قال: «إذا كفّن أحدكم أخاه فليُحسن كفنه إن استطاع»[٤].

وقال ابن المبارك: أحبّ إليّ أن يكفّن في ثيابه التي كان يصلي فيها.

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٦) بسند حسن.

(٢) رواه مسلم في الجنائز (٩٢٠)، وقد مضىٰ بطوله في باب (١٠) من حضر الميت فلا يلغو وليتكلم بخير.

(٣) رواه مسلم في الجنائز (٩٢١).

(٤) رواه مسلم في الجنائز (٩٤٣).

٢٣ ـ باب الإسراع بالجنازة وكلامها

البخاري، عن أبي سعيد الخدري: كان النبي ﷺ يقول: «إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال علىٰ أعناقهم. فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني. وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلّا الإنسان ولو سمعه لصعق»(١).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه. وإن تك سوىٰ ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم»(٢).

فصل: صعق: مات. والإسراع قيل معناه: الإسراع بحملها إلىٰ قبرها في المشي، وقيل: تجهيزها بعد موتها لئلا تتغير، والأول أظهر لما رواه النسائي. عن عيينة بن عبد الرحمن قال: حدثني أبي قال: شهدت جنازة عبد الرحمن بن سمرة، وخرج زياد يمشي بين يدي السرير، فجعل رجال من أهل عبد الرحمن ومواليهم يستقبلون السرير ويمشون علىٰ أعقابهم ويقولون: رويداً رويداً بارك اللَّه فيكم. فكانوا يدبون دبيباً حتىٰ إذا كنا ببعض الطريق لحقنا أبو بكرة رضي اللَّه عنه يمشي عَلَىٰ بغلة، فلما رأىٰ الذي يصنعون حمل عليهم ببغلته وأهوىٰ عليهم بالسوط. فقال: خلّوا، فوالذي كرم وجه أبي القاسم ﷺ لقد رأيتنا مع رسول اللَّه ﷺ وإنا لنكاد نرمل بها رملاً. فانبسط القوم(٣).

قال ابن عبد البر: والذي عليه جماعة أهل العلم في ذلك الإسراع فوق «السجيّة» قليلاً، والعجلة أحبّ إليهم من الإبطاء، ويُكره الإسراع الذي يشقّ

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الجنائز (١٣١٤).

(٢) رواه البخاري في الجنائز (١٣١٥)، ومسلم في الجنائز (٩٤٤).

(٣) رواه النسائي في الجنائز (٤/ ٤٢ ـ ٤٣) به. ورواه أبو داود في الجنائز مختصراً (٣١٨٢)، (٣١٨٣).

عَلىٰ ضَعَفَة من يتبعها. وقال إبراهيم النخعي: نصوا بها قليلاً ولا تدبوا دبيب اليهود والنصارىٰ. [السجيّة: العادة].

* * *

٢٤ ـ باب ما جاء في قراءة القرآن عند القبر وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يقرأ ويدعى له ويتصدّق عليه

قال الشيخ المؤلف رحمه اللّه: أصل هذا الباب الصدقة التي لا اختلاف فيها، فكما يصل للميت ثوابها، فكذلك تصل قراءة القرآن والدعاء والاستغفار إذ كل ذلك صدقة، فإن الصدقة لا تختص بالمال.

قال ﷺ وقد سئل عن قصر الصلاة في حالة الأمن، فقال: «صدقة تصدّق اللّه بها عليكم فاقبلوا صدقته»[١].

وقال عليه السلام: «يُصبح علىٰ كل سُلامىٰ من أحدكم صدقة فإن كل تسبيحة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويُجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضّحىٰ»[٢]. ولهذا استحب العلماء زيارة القبور؛ لأن القراءة تحفة الميت من زائره.

وقد حكي أن امرأة جاءت إلىٰ الحسن البصري رحمه اللّه فقالت: إن ابنتي ماتت وقد أحببت أن أراها في المنام، فعلّمني صلاة أصليها لعلي أراها فعلّمها صلاة فرآت ابنتها وعليها لباس القطران، والغل في عنقها، والقيد في رجلها، فارتاعت لذلك فأعلمت الحسن فاغتم عليها، فلم تمض مدّة حتىٰ رآها الحسن في المنام وهي في الجنة. فقالت له يا شيخ: أما تعرفني؟ قال: لا، قالت له: أنا تلك

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٧٢٠).

المرأة التي علمت أمي الصلاة فرأتني في المنام، قال لها: فما سبب أمرك؟ قالت: مرّ بمقبرتنا رجل فصلَّىٰ علىٰ النبي ﷺ فنودي: ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل علىٰ النبي ﷺ.

وقال بعضهم: مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت: ما كان حالك حين وُضعت في قبرك؟ قال: أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لي لرأيت أنه سيضربني به.

والحكايات عن الصالحين بهذا المعنىٰ كثيرة، ذكرها أبو محمد عبد الحق في كتاب (العاقبة) له. وقد ذكر في هذا المعنىٰ أبو محمد عبد اللَّه بن مسلم بن قتيبة رضي اللَّه عنه في كتاب عيون الأخبار له حكاية فيها طول، رأينا ذكرها لاشتمالها علىٰ وعظ وتذكير وتخويف وتحذير وتضرع وابتهال ودعاء بالموت والانتقال:

روي عن الحارث بن نبهان أنه قال: كنت أخرج إلىٰ الجبانات فأرحّم علىٰ أهل القبور، وأتفكّر وأعتبر، وأنظر إليهم سكوتاً لا يتكلمون، وجيراناً لا يتزاورون، وقد صار لهم من بطن الأرض وطاء، ومن ظهرها غطاء. وأنادي: يا أهل القبور محيت من الدنيا آثاركم، وما محيت عنكم أوزاركم، وسكنتم دار البلاء فتورمت أقدامكم، قال: ثم يبكي بكاءً شديداً، ثم يميل إلىٰ قبة فيها قبر فينام في ظلها.

قال: فبينما أنا نائم إلىٰ جانب القبر إذ أنا بحس مقمعة يضرب بها صاحب القبر وأنا أنظر إليه والسلسلة في عنقه، وقد ازرقت عيناه واسودّ وجهه وهو يقول: يا ويلي، ماذا حلّ بي؟ لو رآني أهل الدنيا ما ركبوا معاصي اللَّه أبداً. طولبت واللَّه باللذات فأوبقتني، وبالخطايا فأغرقتني، فهل من شافع لي أو مخبر أهلي بأمري؟.

قال الحارث: فاستيقظت مرعوباً وكاد أن يخرج قلبي من هول ما رأيت،

فمضيت إلىٰ داري وبت ليلتي وأنا متفكّر فيما رأيت، فلما أصبحت قلت دعني أعود إلىٰ الموضع الذي كنت فيه لعلّي أجد به أحداً من زوار القبور فأعلمه بالذي رأيت. قال: فمضيت إلىٰ المكان الذي كنت فيه بالأمس فلم أر أحداً فأخذني النوم فنمت، فإذا أنا بصاحب القبر وهو يُسحب علىٰ وجهه ويقول: يا ويلتاه ماذا حلّ بي؟ ساء في الدنيا عملي، وطال فيها أجلي حتىٰ غضب عليَّ ربّ الأرباب. فالويل لي إن لم يرحمني ربِّي.

قال الحارث: فاستيقظت وقد تولّه عقلي بما رأيت وسمعت، فمشيت إلىٰ داري وبت ليلتي، فلما أصبحت أتيت القبر لعلي أجد أحداً من زوّار القبور فأعلمه بما رأيت ثم نمت، فإذا أنا بصاحب القبر قد قرن بين قدميه وهو يقول: ما أغفل أهل الدنيا عني، ضوعف عليّ العذاب، وتقطعت عني الحيل والأسباب، وغضب عليَّ ربّ الأرباب، وغُلق في وجهي كل باب، فالويل لي إن لم يرحمني ربِّي العزيز الوهَّاب.

قال الحارث: فاستيظت من منامي مرعوباً وهممت بالانصراف، فإذا بثلاث جوار قد أقبلن، فتباعدت لهن عن القبر، وتواريت لكي أسمع كلامهن، فتقدمت الصغرىٰ ووقفت علىٰ القبر وقالت: السلام عليك يا أبتاه، كيف هدوؤك في مضجعك؟ وكيف قرارك في موضعك؟ ذهبت عنّا بودّك، وانقطع عنا سؤالك، فما أشدّ حسرتنا عليك، ثم بكت بكاءً شديداً. ثم تقدمت ابنتان فسلمتا علىٰ القبر، ثم قالتا: هذا قبر أبينا الشفيق علينا والرحيم بنا، آنسك اللَّه بملائكة رحمته، وصرف عنك عذابه ونقمته، يا أبتاه جرت بعدك أمور لو عاينتها لأهمتك، ولو اطلعت عليها لأحزنتك، كشف الرجال وجوهنا، وقد كنت أنت ستّرها.

قال الحارث: فبكيت لما سمعت كلامهن، ثم قمت مسرعاً إليهن، فسلّمت

عليهن وقلت لهن: أيتها الجواري، إن الأعمال ربما قُبلت وربما رُدّت على صاحبها، فما كان عمل أبيكم المخلد في هذا القبر، الذي عاينت من أمره ما أحزنني، واطلعت من حاله على ما آلمني؟

قال الحارث: فلما سمعن كلامي قلن: أيها العبد الصالح. وما الذي رأيت؟ قلت لهن: لي ثلاثة أيام وأنا أختلف إلى هذا القبر أسمع صوت المقمعة والسلسلة فيه، قال: فلما سمعن ذلك مني قلن لي: بشارة ما أضرها ومصيبة ما أحزنها، نحن نقضي الأوطار، ونعمر الديار وأبونا يُحرق بالنار، فواللّه لا قرّ بنا قرار، ولا ضمّتنا للذة العيش دار؛ أو نتضرع للجبار، فلعلّه أن يعتق أبانا وينقذه من النار. ثم مضين يتعثرن في أذيالهن.

قال الحارث: فمضيت إلى داري فبت ليلتي، فلما أصبحت أتيت القبر فجلست عنده فغلبني النوم فنمت، فإذا أنا بصاحب القبر له حُسْن وجمال وفي رجليه نعل من ذهب ومعه حور وغلمان.

قال الحارث: فسلّمت عليه وقلت له: رحمك اللّه من أنت؟ قال: أنا الرجل الذي عاينت من أمري ما أحزنك، واطلعت منه على ما أفجعك. فجزاك اللّه خيراً، فما أيمن طلعتك عليّ، فقلت له: وكيف حالك؟ فقال لي: لما اطلعت عليّ وأخبرت بناتي بالأمس بحالي تضرعن لمولاهن، ومرغن خدودهن في التراب، وأهملن دموعهن بالانسكاب، واستوهبوني من العزيز الوهاب، فغفر لي الذنوب والأوزار، واستنقذني من النار، وأسكنني دار القرار، بجوار محمد المختار، فإذا رأيت بناتي فأعلمهن بأمري وما كان من قصتي، ليزول عنهن روعهن، ويفارقهن حزنهن، وتعلمهن أني قد صرت إلى جنات وحور، ومسك وكافور، وعندي غلمان وسرور، وقد عفا عني العزيز الغفور.

قال الحارث: فاستيقظت فرحاً مسروراً لما رأيت وسمعت، ثم مضيت إلى

داري وبت ليلتي، فلما أصبحت أتيت القبر فوجدتهن فسلّمت عليهن وقلت لهن: أبشرْن فقد رأيت أباكن في خير عظيم ومُلك مقيم، وقد أعلمني أن اللّه تعالىٰ أجاب دعاءكن، ولم يخيّب مسعاكن، وقد وهب لكنّ أباكنّ، فاشكرنه علىٰ ما أولاكنّ.

قال: فقالت الصغرىٰ: اللّهم يا مؤنس القلوب، ويا ساتر العيوب، ويا كاشف الكروب، ويا غافر الذنوب، ويا عالم الغيوب، ويا مبلغ الأمل المطلوب، قد علمت ما كان من مسألتي ورغبتي، واعتذاري في خلوتي، واستقالتي من ذلتي، وتنصّلي من خطيئتي، وأنت اللّهم تعلم همّتي، والمطّلع علىٰ نيّتي، والعالم بطويّتي، ومالك رقبتي، والآخذ بناصيتي وغايتي في طلبتي، ورجائي عند شدتي، ومؤنسي في وحدتي، وراحم عبرتي، ومقيل عثرتي، ومجيب دعوتي، فإن كنت قصّرت عما أمرتني وركبت إلىٰ ما عنه نهيتني فبحلمك حملتني، وبسترك سترتني، فبأي لسان أذكرك، وعلىٰ أي عملك أشكرك، ضاق بكثرتها ذرعي، فيا أكرم الأكرمين، ومنتهىٰ غاية الطالبين، ومالك يوم الدين، الذي يعلم ما أخفي في الضمير، ويدبر أمر الصغير والكبير، فإن كنت قضيت الحاجة بفضلك، وشفعتني في عبدك فاقبضني إليك وأنت علىٰ كل شيء قدير، ثم صرخت صرخة فارقت الدنيا فرحمة اللّه عليها.

قال: ثم قامت الثانية فنادت بأعلىٰ صوتها: يا ربّ فرِّج كربي وخلِّص من الشك قلبي، يا من أقامني من صرعتي، وأقالني من عثرتي، ودلّني من حيرتي، وأعانني في شدتي، إن كنت قبلت دعوتي، وقضيت حاجتي، وأنجحت طلبتي، فألحقني بأختي، ثم صاحت صيحة فارقت الدنيا رحمة اللّه عليها.

قال: ثم قامت الثالثة: فنادت بأعلىٰ صوتها: يا أيها الجبار الأعظم، والملك الأكرم، العالم بمن سكت وتكلم، لك الفضل العظيم، والملك القديم، والوجه

الكريم، العزيز من أعززته، والذليل من أذللته، والشريف من شرّفته، والسعيد من أسعدته، والشقي من أشقيته، والقريب من أدنيته، والبعيد من أبعدته، والمحروم من حرمته، والرابح من أوهبته، والخاسر من عذبته، أسألك باسمك العظيم ووجهك الكريم، وعلمك المكنون: الذي بَعُدَ عن إدراك الأفهام، وغمض عن مناولة الأوهام، باسمك الذي جعلته على الليل فدجى، وعلى النهار فأضاء، وعلى الجبال فدكدكت، وعلى الرياح فتناثرت، وعلى السمٰوات فارتفعت، وعلى الأصوات فخشعت، وعلى الملائكة فسجدت. اللَّهم إني أسألك إن كنت قضيت حاجتي وأنجحت طلبتي فألحقني بصواحباتي، ثم صاحت صيحة فارقت الدنيا رحمة اللَّه علينا وعليهم وعلى جميع المسلمين أجمعين. آخر الحكاية والحمد للَّه رب العالمين[١].

قال أبو محمد عبد الحق: حدثني أبو الوليد إسماعيل بن أحمد عرف بابن أفرند وكان هو وأبوه صالحَيْن معروفَيْن: قال: مات أبي رحمه اللَّه فحدثني بعض إخوانه ممن يُوثق بحديثه قال لي: زرت قبر أبيك فقرأت عليه حزباً من القرآن، ثم قلت: يا فلان هذا قد أهديته لك فماذا لي؟ فهبت عليّ نفحة مسك غشيتني وأقامت معي ساعة، ثم انصرفت وهي معي فما فارقتني إلَّا وقد مشيت نصف الطريق.

قال أبو محمد: ورأيت لبعض من يوثق به قال: ماتت لي امرأة فقرأت في بعض الليالي آيات من القرآن فأهديتها لها ودعوت اللَّه عز وجل واستغفرت لها وسألت، فلما كان في اليوم الثاني حدثتني امرأة تعرفها وتعرفني قالت لي: رأيت البارحة فلانة في النوم ـ تعني الميتة المذكورة ـ في مجلس حسن في دار حسنة،

(١) تنبيه: المنامات لا يعول عليها في إثبات الأحكام الشرعية، وما أوردناه أو ما قد يرد للاستئناس بما فيه من رقائق فقط.

وقد أخرجت لنا أطباقاً من تحت سرير كان في البيت، والأطباق مملوءة قوارير أنوار، فقالت لي: هذا أهداه لي صاحب بيتي، قال: وما كنت أعلمت بذلك أحداً.

قال الشيخ المؤلف رحمه اللّه: وفي هذا المعنى حديث مرفوع من حديث أنس يأتي في باب ما يتبع الميت إلى قبره[1].

وقد قيل: إن ثواب القراءة للقارئ، وللميت ثواب الاستماع ولذلك تلحقه الرحمة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قلت: ولا يبتعد في كرم اللّه تعالى أن يلحقه ثواب القراءة والاستماع جميعاً، ويلحقه ثواب ما يُهدى إليه من قراءة القرآن، وإن لم يسمعه كالصدقة والدعاء والاستغفار لما ذكرنا؛ ولأن القرآن دعاء واستغفار وتضرع وابتهال، وما يتقرّب المتقربون إلى اللّه تعالى بمثل القرآن.

قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو عِلْمٌ يُنتفَع به، أو ولد صالح يدعو له» والقراءة في معنى الدعاء، وذلك صدقة من الولد ومن الصاحب والصديق والمؤمنين. حسب ما ذكرنا وباللّه التوفيق.

فإن قيل: فقد قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] وهذا يدل على أنه لا ينفع أحداً عمل أحد. قيل له: هذه آية اختلف في تأويلها أهل التأويل.

فروي عن ابن عباس: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فيجعل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويُشفِّع اللّه تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء. يدل على

(١) حديث أنس: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد» حديث متفق عليه، وسيأتي.

ذلك قوله تعالىٰ: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] . وقال الربيع بن أنس: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] يعني: الكافر. وأمّا المؤمن فله ما سعىٰ، وما سعىٰ له غيره.

قلت: وكثير من الأحاديث تدلّ علىٰ هذا القول، ويشهد له، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «مَنْ مَات وعليه صيام صام عنه وليّه»[1].

وقال عليه السلام للرجل الذي حجّ عن غيره قبل أن يحجّ عن نفسه: «حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة»[2].

وقال سعد للنبي ﷺ: إنّ أمّي توفّيت، أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم» قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»[3].

قلت: ويُحتمل أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] خاصاً في السيئة بدليل ما في صحيح مسلم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال اللّه عز وجل: إذا هَمَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشراً إلىٰ سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة»[4].

والقرآن دلّ علىٰ هذا قال اللّه تعالىٰ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم (١٩٥٢)، ومسلم في كتاب الصيام (١١٤٧).

(٢) رواه أبو داود في الحج (١٨١١)، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠٣)، وأبو يعلىٰ (٢٤٤٠)، وابن حبان (٣٩٨٨). ، والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٣٣٦) وغيرهم. وانظر: إرواء الغليل (٤/ ١٧١).

(٣) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٩)، (١٦٨٠)، (١٦٨١)، والنسائي في الوصايا (٦/ ٢٥٤، ٢٥٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٨٤). وهو حديث حسن.

(٤) رواه مسلم في الإيمان (١٢٨).

حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية، وقال في الآية الأخرى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] . وهذا كلّه تفضّل من اللَّه تعالى، وطريق العدل: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ إلّا أن اللَّه عز وجل يتفضّل عليه بما لم يجب له، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه، كتب لهم بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة.

فهذا تفضل، وقد تفضل اللَّه على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل فما ظنّك بعمل المؤمن عن نفسه أو عن غيره؟

ولقد أحسن من قال:

زُرْ والديْك وَقِفْ على قبريْهما　　　فكأنّني بِكَ قد حُمِلْتَ إليهما

في أبيات يقول في آخرها:

وقرأت من آي الكتاب بقدر ما　　　تسطيع وابعث بالثواب إليهما

وإنما طوّلنا النّفَسَ في هذا الباب؛ لأن الشيخ الفقيه القاضي الإمام مفتي الأنام عبد العزيز بن عبد السلام رحمه اللَّه، كان يُفتي بأنه لا يصل للميت ثواب ما يقرأ، ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]؛ فلما توفي رحمه اللَّه، رآه بعض أصحابه ممن كان يُجالسه وسأله عن ذلك، فقال له: إنك كنت تقول: إنه لا يصل إلى الميت ثواب ما يُقرأ ويُهْدَى إليه، فكيف الأمر؟ فقال له: إني كنت أقول ذلك في دارالدنيا، والآن فقد رجعت عنه لما رأيت من كرم اللَّه تعالى في ذلك. وأنه يصل إليه ذلك.

* * *

٢٥ ـ باب يدفن العبد في الأرض التي خلق منها

أبو عيسىٰ الترمذي، عن مطر بن عكامس، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا قضىٰ اللَّه لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة»[١].

قال أبو عيسىٰ: وفي الباب عن أبي عزة، وهذا حديث غريب، ولا يعرف لمطر بن عكامس عن النبي ﷺ غير هذا الحديث.

وعن أبي عزة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا قضىٰ اللَّه لعبد أن يموت بأرض، جعل له إليها حاجة» أو قال: «بها حاجة»[٢] قال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو عزة له صحبة، واسمه يسار بن عبيد، وأنشدوا:

إذا ما حِمَام المرء كان ببلدةٍ دَعَتْهُ إليها حاجة فيطيرُ

وروىٰ الترمذي الحكيم أبو عبد اللَّه في نوادر الأصول، عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ: يطوف ببعض نواحي المدينة، وإذا بقبر يحفر، فأقبل حتىٰ وقف عليه، فقال: «لِمَنْ هذا؟» قيل: لرجل من الحبشة، فقال: «لا إله إلَّا اللَّه، سيق من أرضه وسمائه حتىٰ دُفن في الأرض التي خلق منها»[٣].

وعن ابن مسعود عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إذا كان أجل العبد بأرض أوثبته الحاجة إليها حتىٰ إذا بلغ أقصىٰ أثره قبضه اللَّه، فتقول الأرض يوم القيامة: رب، هذا ما استودعتني»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٢٧)، والترمذي في كتاب القدر (٢١٤٦)، والحاكم (١/ ٤٢) وغيرهم.

(٢) رواه الترمذي في كتاب القدر (٢١٤٧) وغيره. وهو حديث صحيح.

(٣) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٨٧)، ورواه البيهقي في الشعب (٩٨٩١) وللحديث طرق أخرىٰ.

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (٤٢٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٩٢)، والحاكم (١/ ٤١، ٤٢، ٣٦٧)، والطبراني في الكبير (١٠٤٠٣) وغيرهم.

فصل: قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: فائدة هذا الباب: تنبيه العبد على التيقظ للموت والاستعداد له بحسن الطاعة والخروج عن المظلمة؛ وقضاء الدين؛ وإتيان الوصية بما لَهُ أو عليه في الحضر، فضلاً عن أوان الخروج عن وطنه إلى سفر، فإنه لا يدري أين كتبت منيته من بقاع الأرض.

وأنشد بعضهم:

إذا ما ضاق صدرُك من بلادٍ ترحّل طالباً بلداً سواها
فإنك واجداً أرضاً بأرضٍ ونفسك لم تجد أرضاً سواها
مشيناها خُطًى كُتِبتْ علينا ومَنْ كُتبت عليه خطًى مَشَاها
وأرزاق لنا متفرقات فمن لم تأتِهِ منّا أتاها
ومن كانت منيّته بأرضٍ فليس يموت في أرضٍ سِوَاها

وقد روي في الآثار القديمة: أن سليمان عليه السلام كان عنده رجل يقول: يا نبي اللَّه، إن لي حاجة بأرض الهند، فأسألك أن تأمر الريح أن يحملني إليها في هذه الساعة، فنظر سليمان إلى ملك الموت عليه السلام، فرآه يبتسم، فقال: ممَّ تبتسم؟ قال ـ تعجباً ـ: إني أمرت بقبض روح هذا الرجل في بقية هذه الساعة بالهند، وأنا أراه عندك، فروي أن الريح حملته في تلك الساعة إلى الهند، فَقَبض روحه بها. واللَّه أعلم.

* * *

٢٦ ـ باب ما جاء أن كل عبد يذرّ عليه من تراب حفرته وفي الرزق والأجل، وبيان قوله تعالى ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]

(عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما مِنْ مَوْلُودٍ إلّا قد ذرّ عليه من تراب حفرته».

قال أبو عاصم النبيل: ما نجد لأبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما فضيلة مثل هذه؛ لأن طينتهما طينة رسول اللّه ﷺ)[١]. أخرجه أبو نعيم في باب ابن سيرين، عن أبي هريرة، وقال: هذا حديث غريب من حديث عون لم نكتبه إلّا من حديث أبي عاصم النبيل، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة.

وعن عبد اللّه، قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها المَلَك بكفِّه، فقال: أي رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دماً، وإن قال: مخلقة، قال: أي رب أذكر أم أنثىٰ؟ أشقي أم سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وما الرزق؟ وبأي أرض تموت؟ فيقول: اذهب إلىٰ أمّ الكتاب، فإنك ستجد هذه النطفة فيها، فيقال للنطفة: من ربُّكِ؟ فتقول: اللّه. فيقال: مَنْ رازقكِ؟ فتقول: اللّه، فتُخلق، فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، فإذا جاء أجلها ماتت، فدفنت في ذلك المكان، فالأثر: هو التراب الذي يؤخذ فيعجن به ماؤه[٢].

وقال محمد بن سيرين: لو حلفت حلفت صادقاً باراً، غير شاك ولا مستثن، أن اللّه ما خلق نبيه محمداً ﷺ، ولا أبا بكر، ولا عمر إلّا من طينة واحدة ثم ردّهم إلىٰ تلك الطينة.

قلت: وهذا الباب يبيّن لك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٨٠) وله شواهد يتحسن بها.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٨٨)، وأصله في البخاري في مواضع منها: كتاب بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣). ولكن هنا أشياء لم ترد في الصحيحين.

ولا تعارض في شيء من ذلك على ما بيّنا في كتاب الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمن من السنة، وآي الفرقان وهذا الباب يجمع لك ذلك كله فتأمله.

* * *

٢٧ ـ باب ما يتبع الميت إلى قبره بعد موته وما يبقى معه فيه

مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»[١].

* * *

٢٨ ـ باب ما جاء في هول المطلع

ورد من حديث جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تمنّوا الموت فإن هول المطلع شديد . . »[٢] الحديث.

ولما طُعِنَ عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال له رجل: إني لأرجو ألّا تمسّ جلدك النار، فنظر إليه ثم قال: إن من غررتموه لمغرور. واللّه لو أن لي ما على الأرض لافتديت به من هول المطلع.

وقال أبو الدرداء رضي اللّه عنه: أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فِيهِ لا يدري أأرضى اللّه أم أسخطه؟ وأبكاني: فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه، وأحزنني هول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي اللّه يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار.

وعن أنس بن مالك قال: ألا أحدّثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥١٤)، ومسلم في الزهد (٢٩٦٠).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٣٢)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٨٩) وغيرهما. وله طرق يرتقي بها إلى درجة الحسن.

مثلهن: أول يوم يجيئك البشير من اللَّه تعالىٰ، إما برضاه وإما بسخطه، ويوم تُعرض فيه علىٰ ربِّك آخذاً كتابك، إما بيمينك وإما بشمالك. وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور ولم تبت فيها قط، وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة.

* * *

٢٩ ـ باب ما جاء أن القبر أول منازل الآخرة وفي البكاء عنده، وفي حكمه والاستعداد له

عن هانئ بن عثمان قال: كان عثمان رضي اللَّه عنه إذا وقف علىٰ قبر بكىٰ حتىٰ يبل لحيته. فقيل له: تَذْكُر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن القبر أوّل منازل الآخرة، فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعد أشد منه».

قال: وقال رسول اللَّه ﷺ: «ما رأيت منظراً قط إلَّا والقبر أفظع منه»[1].

وزاد رزين قال: وسمعت عثمان يُنشد علىٰ قبر شعراً:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلَّا فإني لا إخالك ناجيا

عن البراء قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في جنازة، فجلس علىٰ شفير القبر فبكىٰ وأبكىٰ حتىٰ بلّ الثّرىٰ، ثم قال: «يا إخواني لمثل هذا فأعدّوا»[2].

فصل: القبر واحد القبور في الكثرة، وأقبر في القلّة. ويقال للمدفن: مُقبر.

قال الشاعر:

لكل أناس مُقبر بفنائهم ... وهم ينقصون والقبور تزيدُ

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٠٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٧) وغيرهما. وهو حديث حسن.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٩٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٥)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٢٢٩)، والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦٩). وهو حديث حسن.

واختلف في أول من سنّ القبر؟ فقيل: الغراب لـمّا قتل قابيل هابيل. وقيل بنو إسرائيل، وليس بشيء. وقد قيل: كان قابيل يعلم الدفن ولكن ترك أخاه بالعراء استخفافاً به، فبعث اللّه غراباً يبحث في التراب على هابيل ليدفنه. فقال عند ذلك: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] حيث رأى إكرام اللّه لهابيل بأن قيّض اللّه الغراب له حتى واراه، ولم يكن ذلك ندم وتوبة. وقيل: ندمه إنما كان على فقده، لا على قتله. قال ابن عباس: ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة.

ويقال: إنه لما قتله قعد يبكي عند رأسه، إذ أقبل غرابان فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر ثم حفر له حفرة فدفنه، ففعل القاتل بأخيه كذلك. فبقي ذلك سُنَّة لازمة في بني آدم. وفي التنزيل: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١]، أي جعل له قبراً يُوارى فيه إكراماً له ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي. قاله الفراء. وقال أبو عبيدة: أقبره: جعل له قبراً وأمر أن يقبر. قال أبو عبيدة: ولما قتل عمر بن هبيرة صالح بن عبد الرحمن قالت بنو تميم؛ ودخلوا عليه: أقبرنا صالحاً. فقال: دونكموه.

وحكم القبر: أن يكون مسنّمًا مرفوعاً على وجه الأرض قليلاً، غير مبني بالطين والحجارة والجص فإن ذلك منهي عنه.

وروى مسلم عن جابر، قال: نهى رسول اللّه ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه[1]. وخرّجه الترمذي أيضاً عن جابر، قال: نهى رسول اللّه ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها، وأن توطأ[2].

---

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩٧٠).

(٢) رواه الترمذي في الجنائز (١٠٥٢) وغيره.

قال علماؤنا رحمهم اللَّه: وكره مالك تجصيص القبور؛ لأن ذلك من المباهاة وزينة الحياة الدنيا وتلك منازل الآخرة، وليس بموضع المباهاة، وإنما يزين الميت في قبره عمله، وأنشدوا:

وإذا وليت أمور قوم ليلة فاعلم بأنَّك بعدها مسؤول
وإذا حَمَلْتَ إلىٰ القبور جنازة فاعلمْ بأنَّك بعدها محمولُ
يا صاحبَ القبرِ المُنَقَّشِ سطحُه ولعلّه مَن تحته مغلول

عن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي عليّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه: ألَا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول اللَّه ﷺ؟ ألَا تدع تمثالًا إلَّا طمسته، ولَا قبراً مُشْرِفًا إلَّا سوّيته[1].

قال علماؤنا ـ رحمة اللَّه عليهم ـ: يسنم القبر ليعرف كي يحترم، ويمنع من الارتفاع الكثير الذي كانت الجاهلية تفعله، فإنها كانت تعلّي عليها، وتبني فوقها تفخيماً وتعظيماً، وأنشدوا:

أرىٰ أهل القصور إذا أميتوا بنوا فوق المقابر بالصخورِ
أبَوْا إلَّا مباهاةً وفخرًا علىٰ الفقراء حتّىٰ في القبورِ
لعمرك لو كشفت التّرب عنهم فما تدري الغني من الفقيرِ
ولا الجلد المباشر ثوب صوف من الجلد المباشر للحريرِ
إذا أكل الثرىٰ هذا وهذا فما فضل الغني علىٰ الفقيرِ؟

يا هذا، أين الذي جمعته من الأموال؟ وأعددته للشدائد والأهوال؟! لقد أصبحت كفّك منه عند الموت خالية صفراً، وبدّلت من بعد غناك وعزك ذلّاً وفقراً، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره؟ ويا من سلب من أهله ودياره؟ ما كان أخفىٰ عليك سبيل الرّشاد، وأقل اهتمامك لحمل الزاد، إلىٰ سفرك البعيد،

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩٦٩).

وموقفك الصعب الشديد، أو ما علمت يا مغرور: أن لابد من الارتحال، إلى يوم شديد الأهوال، وليس ينفعك ثمّ: قيل ولا قال، بل يُعد عليك بين يدي الملك الديان؛ ما بطشت اليدان، ومشت القدمان، ونطق اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحمك فإلى الجنان، وإن كانت الأخرى فإلى النيران، يا غافلاً عن هذه الأحوال، إلى كم هذه الغفلة والتوان؟ أتحسب أن الأمر صغير، وتزعم أن الخطب يسير؟ وتظن أن سينفعك حالك، إذا آن ارتحالك. أو ينقذك مالك، حين توبقك أعمالك. أو يُغني عنك ندمك؛ إذا زلّت بك قدمك. أو يعطف عليك معشرك؛ حين يضمك محشرك. كلا واللّه، ساء ما تتوهم، ولا بد لك أن ستعلم. لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظات تستمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تنقلب مع الأهواء، وتخبط خبط العشواء، يعجبك التكاثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك، يا نائماً في غفلة وفي خبطة يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان؟ أتزعم أن ستترك سُدى، وأن لا تحاسب غداً، أم تحسب أن الموت يقبل الرِّشا، أم تميّز بين الأسدِ والرَّشا، كلا واللّه، لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور إلّا العمل المبرور، فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى ﴿وَأَنَّ لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠] فانتبه من هذه الرقدة، واجعل العمل الصالح لك عدّة، ولا تتمن منازل الأبرار، وأنت مقيم على الأوزار، عامل بعمل الفجّار، بل أكثِر من الأعمال الصالحات، وراقب اللّه في الخلوات، رب الأرض والسماوات، ولا يغرّنك الأمل؛ فتزهد عن العمل، أوَ ما سمعت الرسول حيث يقول، لما جلس على القبور: «يا إخواني، لمثل هذا فأعدوا»[1]، أوَ ما سمعت الذي خلقك فسوّاك، يقول:

---

(١) مرّ تخريجه قريباً.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأنشدوا:

تزوّد من معاشِك للمعادِ ... وقُمْ للّه واعمل خير زادِ
ولا تجمعْ مِنَ الدنيا كثيراً ... فإنّ المالَ يُجمع للنفادِ
أترضىٰ أن تكون رفيق قومٍ ... لهم زاد وأنت بغير زادِ؟

وقال آخر:

إذا أنت لم ترحلْ بزادٍ من التُّقىٰ ... ولاقَيْتَ بعد الموت من قد تزوّدا
ندمت علىٰ أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصدْ كما كان أرصدا

وقال آخر:

الموتُ بحرٌ طافحٌ موجُه ... تذهب فيه حيلة السابحِ
يا نفسُ إنِّي قائل فاسمعي ... مقالة من مُشْفِقٍ ناصحِ:
«لا ينفع الإنسان في قبره ... غير التّقىٰ والعمل الصالحِ»

وقال آخر:

أسلمني الأهل ببطن الثرىٰ ... وانصرفوا عني فيا وحشتا
وغادروني معدماً بائساً ... ما بيدي اليوم إلّا البكا
وكل ما كان كأن لم يكن ... وكل ما حذرته قد أتىٰ
وذاكم المجموع والمقتنىٰ ... قد صار في كفي مثل الهبا
ولم أجد لي مؤنساً ها هنا ... غير فجور موبق أوبقا
فلو تراني وترىٰ حالتي ... بكيت لي يا صاحِ مما ترىٰ

وقال آخر:

ولدتك إذ ولدتك أمّك باكيا ... والقومُ حَوْلَك يضحكون سروراً
فاعمل ليومٍ أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتِكَ ضاحكًا مسروراً

وروي عن محمد القرشي أنه قال: سمعت شيخنا يقول: أيها الناس، إني لكم ناصح، وعليكم شفيق، فاعملوا في ظلمة الليل لظلمة القبور، وصوموا في الحر قبل يوم النشور، وحجّوا يحطّ عنكم عظائم الأمور، وتصدّقوا مخافة يوم عسير.

وكان يزيد الرقاشي يقول في كلامه: أيها المقبور في حفرته، المتخلي في القبر بوحدته، المستأنس في بطن الأرض بأعماله، ليت شعري بأي أعمالك استبشرت؟ وبأي أحوالك اغتبطت؟ ثم يبكي حتىٰ يبلّ عمامته، ويقول: استبشر ـ واللّه ـ بأعماله الصالحة، واغتبط ـ واللّه ـ بإخوانه المعاونين له علىٰ طاعة اللّه. وكان إذا نظر إلىٰ القبر صرخ كما يصرخ الثور.

* * *

٣٠ ـ باب ما جاء في اختيار البقعة للدفن

عن أبي هريرة، قال: أُرسِلَ ملَك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فلما جاء صكَّه ففقأ عينه، فرجع إلىٰ ربه، فقال: أرسلتني إلىٰ عبد لا يريد الموت، قال: فردّ اللّه عليه عينه، وقال: ارجع إليه وقل له: يضع يده علىٰ متن جلد ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي ربّ، ثم مه؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن. فسأل اللّه أن يدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجر، فقال رسول اللّه ﷺ: «لو كنت ثمّ لأريتكم قبره إلىٰ جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»[١].

وفي رواية، قال: جاء ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فقال له: أجب ربك، قال: فلطم موسىٰ عين الملك ففقأها، وذكر نحوه.

عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أن النبي ﷺ قال: «مَنْ استطاع أن يموت

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الجنائز (١٣٣٩)، ومسلم في كتاب الفضائل (٢٣٧٢).

بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن مات بها»[١]. صحّحه أبو محمد عبد الحق.

وورد أن عمر رضي اللّه عنه، كان يقول: اللّهم ارزقني شهادة في سبيلك، ووفاة في بلد نبيّك ﷺ[٢].

وكان سعد بن أبي وقّاص، وسعيد بن زيد، قد عهدا أن يُحملا من العقيق إلى البقيع مقبرة المدينة فيدفنا بها؛ وذلك واللّه أعلم لفضل علموه هناك، فإن فضل المدينة غير منكور ولا مجهول، ولو لم يكن إلّا مجاورة الصالحين والفضلاء من الشهداء وغيرها لكفى.

فصل: قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم: البقاع لا تقدّس أحداً ولا تطهّره، وإنما الذي يقدسه من وضر الذنوب ودنسها التوبة النصوح مع الأعمال الصالحة، أما إنه قد يتعلق بالبقعة تقديس ما، وهو إذا عمل العبد فيها عملاً صالحاً ضوعف له بشرف البقعة مضاعفة تكفّر سيئاته، وترجّح ميزانه، وتدخله الجنة، وكذلك تقديسه إذا مات على معنى التتبع لصالح، لا إنها توجب التقديس ابتداء.

وقد روي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ما أحب أن أدفن بالبقيع؛ لأن أدفن في غيره أحبّ إليّ، ثم بيّن العلّة. فقال: مخافة أن تنبش لي عظام رجل صالح، أو نجاور فاجراً. وهذا تستوي فيه سائر البقاع، فدلّ على أن الدفن بالأرض المقدسة ليس بالمجمع عليه، وقد يستحسن الإنسان أن يدفن بموضع قرابته وإخوانه وجيرانه، لا لفضل ولا لدرجة.

فصل: إن قال قائل: كيف جاز لموسى عليه السلام أن يقدم على ضرب ملَك الموت حتى فقأ عينه؟ فالجواب من وجوه ستّة:

الأول: إنها كانت عيناً متخيلة، لا حقيقة لها، وهذا القول باطل؛ لأنه يؤدي إلى أن مايراه الأنبياء من صور الملائكة لا حقيقة لها، وهذا مذهب السالمية.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٧٤، ١٠٤)، والترمذي في المناقب (٣٩١٧) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٩٠).

الثاني: أنها كانت عيناً معنوية فقأها بالحجة، وهذا مجاز لا حقيقة له.

الثالث: أنه لم يعرفه وظنّه رجلاً دخل منزله بغير إذنه، يريد نفسه فدافع عنها، فلطمه: ففقأ عينه، وتجب المدافعة في مثل هذا بكل ممكن، وهذا وجه حسن؛ لأنه حقيقة في العين والصك، قاله الإمام أبو بكر بن خزيمة إلَّا أنه اعترض بما في الحديث نفسه، وهو أن ملك الموت عليه السلام لما رجع إلى اللَّه تعالى قال: يا ربِّ أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فلو لم يعرفه موسى لما صدر هذا القول من مَلَكِ الموت.

الرابع: أن موسى عليه السلام كان سريع الغضب، وسرعة غضبه كانت سبباً لصكّه ملك الموت، قاله ابن العربي في الأحكام، وهذا فاسد؛ لأن الأنبياء معصومون أن يقع منهم ابتداء مثل هذا في الرضا والغضب.

الخامس: ما قاله ابن مهدي رحمه اللَّه: أن عيـنه المستعارة ذهبت لأجل أنه جعل له أن يتصور بما شاء، فكأن موسى عليه السلام لطمه وهو متصوّر بصورة غيره بدلالة أنه رأى بعد ذلك معه عينه.

السادس: وهوأصحها إن شاء اللَّه، وذلك أن موسى عليه السلام كان عنده ما أخبر نبينا عليه السلام: إن اللَّه تعالى لا يقبض روحه حتى يخيّره[1] ـ خرّجه البخاري وغيره ـ، فلما جاءه ملك الموت على غير الوجه الذي أُعلم بادر بشهامته وقوة نفسه إلى أدبه. فلطمه ففقئت عينه امتحاناً لملك الموت. إذ لم يصرّح له بالتخيير، ومما يدل علَى صحة هذا: أنه لما رجع إليه ملك الموت فخيّره بين الحياة والموت. اختار الموت واستسلم، واللَّه بغيبه أعلم وأحكم، وذكره ابن العربي في قبسه بمعناه، والحمد للَّه.

---

(١) حديث: «ما من نبي يمرض إلَّا خُيِّر بين الدنيا والآخرة»: رواه البخاري في مواضع منها: كتاب التفسير (٤٥٨٦)، ومسلم بنحوه في كتاب فضائل الصحابة (٨٦، ٨٧ تحت ٢٤٤٤).

٣١ ـ باب يختار للميت قوم صالحون يكون معهم

فصل: قال علماؤنا: ويستحب لك ـ رحمك اللَّه ـ أن تقصد بميتك قبور الصالحين. ومدافن أهل الخير. فتدفنه معهم، وتنزله بإزائهم، وتسكنه في جوارهم، تبركاً بهم، وتوسلاً إلىٰ اللَّه عز وجل بقربهم، وأن تجتنب به قبور من سواهم، ممن يخاف التأذِّي بمجاورتهم، والتألم بمشاهدة حاله.

يروىٰ أن امرأة دفنت بقرطبة ـ أعادها اللَّه ـ فأتت أهلها في النوم فجعلت تعتبهم وتشكوهم وتقول: ما وجدتم أن تدفنوني إلَّا إلىٰ فرن الجير؟ فلما أصبحوا نظروا فلم يروا في ذلك الموضع كله ولا بقربه فرن جير. فبحثوا وسألوا عن من كان مدفوناً بإزائها؟ فوجوه رجلاً سيّافاً كان لابن عامر وقبره إلىٰ قبرها. فأخرجوها من جواره. ذكر هذا أبو محمد عبد الحق في كتاب العاقبة له.

وعن أعرابي أنه قال لولده: ما فعل اللَّه بك؟ قال: ما ضرّني إلَّا أني دفنت بإزاء فلان، وكان فاسقاً، قد روّعني ما يُعذب به من أنواع العذاب.

* * *

٣٢ ـ باب ما جاء في كلام القبر وكلامه للعبد إذا وُضِعَ فيه

خرّج هنّاد بن السّري، عن عبد اللَّه بن عبيد بن عمير قال: يجعل اللَّه للقبر لساناً ينطق به فيقول: ابن آدم كيف نسيتني؟ أما علمت أني بيت الأكلة، وبيت الدود، وبيت الوحدة، وبيت الوحشة؟[١].

قال: وعن عبد اللَّه بن عبيد بن عمير أيضاً قال: إن القبر ليبكي ويقول في بكائه: أنا بيت الوحشة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت الدود[٢].

---

(١)، (٢) رواه الهناد في الزهد (٣٤١)، ٣٤٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٤٤٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٧١) وغيرهم.

وذكر أبو عمر ابن عبد البر، عن غضيف بن الحارث قال: أتيت بيت المقدس أنا وعبد اللَّه بن عبيد بن عمير قال: فجلسنا إلىٰ عبد اللَّه بن عمرو بن العاص فسمعته يقول: إن القبر يكلّم العبد إذا وُضع فيه فيقول: يا ابن آدم ما غرّك بي؟! ألم تعلم أني بيت الوحدة؟ ألم تعلم أني بيت الظلمة؟ ألم تعلم أني بيت الحق؟ يا ابن آدم ما غرّك بي؟! لقد كنت تمشي حولي فداداً. (قال ابن عائذ: قلت لغضيف: ما الفداد يا أبا إسماعيل؟ قال: كبعض مشيتك يا ابن أخي). قال غضيف: فقال صاحبي ـ وكان أكبر مني ـ لعبد اللَّه بن عمرو: فإن كان مؤمناً فماذا له؟ قال: يوسع له في قبره، ويجعل منزله أخضر، ويعرج بروحه إلىٰ السماء. ذكره في كتاب التمهيد[1].

قيل لأبي الحجاج الثمالي: ما الفداد؟ قال: الذي يُقدِّم رجلاً ويُؤخِّر أخرىٰ. يعني الذي يمشي مشية المتبختر.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا أبو داود بن ناقد قال: سمعت عبد اللَّه بن عبيد ابن عمير يقول: بلغني أن الميت يقعد في حفرته وهو يسمع وخط مشيّعيه ولا يكلّمه شيء، أوّل من يكلمه حفرته فتقول: ويحك يا ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقي وظلماتي ونتني وهولي. هذا ما أعددتُ لك فما أعددتَ لي؟[2].

الوخط والوخد: سرعة السير في المشي.

وقال سفيان الثوري: من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار.

وقال أحمد بن حرب: تتعجّب الأرض ممن يمهّد مضجعه، ويسوّي فراشه

---

(١) رواه ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ١٤٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ١٨٨).

(٢) رواه ابن المبارك كما في زوائد الزهد (١٦٣) وغيره.

للنوم، وتقول: يا ابن آدم ألَا تذكر طول رقادك في جوفي، وما بيني وبينك شيء؟

وقيل لبعض الزهاد: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلىٰ محلة الأموات. ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول:

وعظتك أجداثٌ صُمُتْ ونعتك أزمنة خُفُتْ
وتكلمت عن أوجه تبلىٰ وعن صور سبتْ
وأرتك نفسك في القبو ر وأنت حي لم تمتْ

وروي عن الحسن البصري أنه قال: كنت خلف جنازة فاتبعتها، حتىٰ وصلوا بها إلىٰ حفرتها، فنادت امرأة فقالت: يا أهل القبور لو عرفتم من نُقِل إليكم لأعززتموه؟ قال الحسن: فسمعت صوتاً من الحفرة وهو يقول: قد واللَّه نقل إلينا بأوزار كالجبال، وقد أذن لي أن آكله حتىٰ يعود رميماً. قال: فاضطربت الجنازة فوق النعش. وخرَّ الحسن مغشياً عليه.

* * *

٣٣ ـ باب ما جاء في ضغط القبر على صاحبه وإن كان صالحاً

عن عبد اللَّه بن عمر عن رسول اللَّه ﷺ قال: «هذا الذي تحرّك له عرش الرحمن، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضمّ ضمة ثم فرج عنه» قال أبو عبد الرحمن النسائي: يعني سعد بن معاذ[1].

وعن عائشة أم المؤمنين رضي اللَّه عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ»[2].

---

(١) رواه النسائي في الجنائز (٤/ ١٠٠).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٥٥، ٩٨)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢٧٣)، (٢٧٤)، وابن حبان (٣١١٢) وغيرهم.

وذكر هناد بن السري، عن ابن أبي مليكة قال: ما أجير من ضغطة القبر أحد، ولا سعد بن معاذ. الذي منديل من مناديله خير من الدنيا وما فيها[١].

قال: وحدثنا عبدة عن عبيد اللّه بن عمر بن نافع قال: ولقد بلغني أنه شهد جنازة سعد بن معاذ سبعون ألف ملَك. لم ينزلوا إلىٰ الأرض قط. ولقد بلغني أن رسول اللّه ﷺ قال: «لقد ضم صاحبكم في القبر ضمّة»[٢].

وخرّج عليّ بن معبد في كتاب (الطاعة والمعصية) عن نافع قال: أتينا صفية بنت أبي عبيد امرأة عبد اللّه بن عمر وهي فزعة. فقلنا: ما شأنك؟ قالت: جئت من عند بعض نساء النبي ﷺ. فحدثتني أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن كنت لأرىٰ أن أحداً لو أعفي من عذاب القبر، لَأُعْفِيَ منه سعد بن معاذ، لقد ضمّ فيه ضمّة»[٣].

وعن رجل: قال: كنت عند عائشة فمرّت جنازة صبي صغير فبكت. فقلت لها: ما يبكيكِ يا أمّ المؤمنين؟ فقالت: هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمَّة القبر.

قلت: وهذا الخبر، وإن كان موقوفاً علىٰ عائشة رضي اللّه عنها، فمثله لا يقال من جهة الرأي.

* * *

٣٤ ـ باب ما جاء أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه وهم من شرّ الناس له

[عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»[٤].

---

(١) أخرجه هناد في الزهد (٣٥٦).

(٢) أخرجه هناد في الزهد (٣٥٨)، وابن سعد في طبقاته (٣/ ٤٣٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١١٨١) مرسلاً، ولكن له شواهد يتقوىٰ بها.

(٤) رواه البخاري في الجنائز (١٢٨٦)، ومسلم في الجنائز (٩٢٨).

وعن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن الميت يُعذّب ببعض ببكاء أهله عليه»[١]].

فصل: قال علماؤنا ـ رحمة اللّه عليهم ـ: قال بعض العلماء أو أكثرهم: إنما يعذب الميت ببكاء الحي، إذا كان البكاء من سنّة الميت واختياره، كما قال:

إذا متُّ فانعيني بما أنا أهله وشُقِّي عَليَّ الجيب يا ابنة معبد

وكذلك إذا وصّىٰ به. وقد روي ما يدل علىٰ أن الميت يصيبه عذاب بكاء الحي عليه وإن لم يكن من سنته ولا من اختياره ولا مما أوصىٰ به.

ذكر أبو عمر ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب من حديث أبي موسىٰ الأشعري عن النبي ﷺ قال: «الميت يعذّب ببكاء الحي عليه. إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسياه جُبذ الميت وقيل له: أنت عضدها؟ أنت ناصرها؟ أنت كاسيها؟»[٢].

وذكر البخاري من حديث النعمان بن بشير قال: أُغمي علىٰ عبد اللّه بن رواحة فجعلت أخته «عمرة» تبكي وتقول: واجبلاه. واكذا. واكذا. تعدِّد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئاً إلّا قيل لي: آأنت كذلك؟ فلما مات لم تبك عليه[٣]. وهذا أيضاً لم يكن من سنّة عبد اللّه بن رواحة، ولا من اختياره، ولا مما أوصىٰ به، فنصابه في الدين أجلّ وأرفع من أن كان يأمر بهذا أو يوصي به.

ورویٰ أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ، عن عمران بن حصين قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه ليعذب الميت بصياح أهله عليه» فقال له رجل:

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٢٨٧)، ومسلم في الجنائز (٩٢٧).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٤١٤)، والترمذي في الجنائز (١٠٠٣)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٩٤). وهو حديث حسن.

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي (٤٢٦٧)، (٤٢٦٨).

يموت بخراسان ويناح عليه هاهنا؟ فقال عمران: صدق رسول اللَّه ﷺ وكذبت[١].

قال المؤلف رضي اللَّه عنه: وهذا بظاهره أنّ بنفس الصياح يقع التعذيب وليس كذلك. وإنما هو محمول على ما ذكرناه. واللَّه أعلم.

وقال الحسن: إن من شرّ الناس للميت: أهله يبكون عليه، ولا يقضون دَيْنه.

* * *

٣٥ ـ باب ما يقال عند وضع الميت في قبره وفي اللحد في القبر

اللّحد: هو أن يحفر للميت في جانب القبر، إن كانت الأرض صلبة، وهو أفضل من الشق. فإنّه الذي اختاره اللَّه لنبيّه ﷺ.

عن ابن عباس قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول اللَّه ﷺ، بعثوا إلى أبي عبيدة، وكان يضرّح كضريح أهل مكة، وبعثوا إلى أبي طلحة، وكان هو الذي يحفر لأهل المدينة، وكان يُلحّد. فبعثوا إليهما رسولين، قالوا: اللّهم خرّ لرسولك. فوجدا أبا طلحة فجيء به، ولم يوجد أبو عبيدة فلحّد لرسول اللَّه ﷺ[٢].

وعن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ «اللحد لنا، والشق لغيرنا»[٣]، وأنشدوا:

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٣٧)، والنسائي بنحوه في الجنائز (٤/ ١٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٦٥) وغيرهم.

(٢) رواه أحمد (١/ ٨)، وابن ماجه في الجنائز (١٦٢٨)، وله طرق وشواهد يتقوى بها.

(٣) رواه أبو داود في الجنائز (٢٢٠٨)، والترمذي في الجنائز (١٠٤٥)، والنسائي في الجنائز (٤/ ٨٠)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٥٤). وهو حديث حسن.

ضعوا خدي على لحدي ضعوه ... ومن عفر التراب فوسِّدوه
وشقوا عنه أكفاناً رقاقا ... وفي الرمس البعيد فغيّبوه
فلو أبصرتموه إذا تقضّت ... صبيحةُ ثالثٍ أنكرتموه
وقد سالت نواظر مقلتيه ... على وجناتِهِ وانفضّ فوه
وناداه البلا: هذا فلان ... هلموا فانظروا هل تعرفوه
حبيبكم وجاركم المفدّى ... تقادم عهده فنسيتموه

وقال آخر:

وألحدوا محبوبهم وانثنوا ... وهمّهم تحصيل ما خلّفا
وغادروه مسلماً مفرداً ... في رمسه رهناً بما أسلفا
ولم يزود من جميع الذي ... باع به أخراه إلّا اللحفا

وخرّج أبو عبد اللّه الترمذي في نوادر الأصول. عن عمرو بن مرة قال: كانوا يستحبون إذا وضع الميت في اللحد أن يقولوا: «اللّهم أعذه من الشيطان الرجيم»(١).

* * *

٣٦ ـ باب الوقوف عند القبر قليلاً بعد الدفن والدعاء بالتثبيت له

عن ابن شماسة المهري، قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، الحديث: وفيه: «فإذا دفنتموني فشنّوا عليّ التراب شنّاً، ثم أقيموا حول قبري قدر ما ينحر جزور ويقسّم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رُسُل ربِّي عز وجل»(٢).

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٦٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦٤٦١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢١١).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١٢١).

[والجزور: بفتح الجيم من الإبل. والجزرة: من الضأن والمعز خاصة. قاله في الصحاح].

وعن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الرحمن بن شماسة حدّثه وقال فيه: وشدّوا عليّ إزاري فإني مخاصم، وشنّوا عليّ التراب شنّاً، فإن جنبي الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبي الأيسر، ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عند قبري قدر نحر جزور وتقطيعها أستأنس بكم[١].

عن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل»[٢].

فصل: قال الآجري أبو بكر، محمد بن الحسين في كتاب النصيحة: يستحب الوقوف بعد الدفن قليلاً، والدعاء للميت مستقبل وجهه بالثبات، فيقال: اللّهم هذا عبدك وأنت أعلم به منّا، ولا نعلم منه إلّا خيراً، وقد أجلسته لتسأله، اللّهم فثبّته بالقول الثابت في الآخرة، كما ثبّته في الحياة الدنيا، اللّهم ارحمه وألحقه بنبيه محمد ﷺ، ولا تضلّنا بعده ولا تحرمنا أجره. وقال أبو عبد اللّه الترمذي: فالوقوف على القبر وسؤال التثبيت في وقت دفنه مدد للميت بعد الصلاة؛ لأن الصلاة بجماعة المؤمنين كالعسكر له قد اجتمعوا بباب الملك يشفعون له، والوقوف على القبر لسؤال التثبيت مدد العسكر وتلك ساعة شغل للميت؛ لأنه يستقبله هول المطلع وسؤال وفتنة فتّاني القبر ـ على ما يأتي ـ.

قال العلماء: ومن الأمور المنهي عنها: الضجيج بذكر اللّه سبحانه وتعالى أو بغير ذلك حول الجنائز والبناء على المقابر، والاجتماع في الجبانات والمساجد

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٤٠).

(٢) رواه أبو داود في الجنائز (٣٢٢١)، والحاكم (١/ ٣٧٠) وغيرهما. وهو حديث حسن.

للقراءة وغيرها لأجل الموتىٰ، وكذلك الاجتماع إلىٰ أهل الميت، وصنعة الطعام، والمبيت عندهم. كل ذلك من أمر الجاهلية، ونحو منه الطعام الذي يصنعه أهل الميت في يوم السابع. فيجتمع له الناس يريدون بذلك القربة للميت والترحم عليه، وهذا محدث لم يكن فيما تقدّم، ولا هو مما يحمده العلماء. قالوا: وليس يبغي للمسلمين أن يقتدوا بأهل الكفر، وينهىٰ كل إنسان أهله عن الحضور لمثل هذا وشبهه من لطم الخدود، ونشر الشعور، وشق الجيوب، واستماع النوح، وكذلك الطعام الذي يصنعه أهل الميت ـ كما ذكرنا ـ فيجتمع عليه النساء والرجال من فعل قوم لا خلاق لهم.

وقال أحمد بن حنبل: هو من فعل الجاهلية، قيل له: أليس قد قال النبي ﷺ اصنعوا لآل جعفر طعاماً؟ فقال: لم يكونوا هم اتخذوا. إنما اتُّخذ لهم. فهذا كله واجب علىٰ الرجل أن يمنع أهله منه، ولا يرخّص لهم، فمن أباح ذلك لأهله فقد عصىٰ اللَّه عز وجل، وأعانهم علىٰ الإثم والعدوان، واللَّه تعالىٰ يقول: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ [التحريم: ٦] قال العلماء: معناه أدبّوهم وعلّموهم.

عن جرير بن عبد اللَّه البجلي، قال: كنا نعد الاجتماع إلىٰ أهل الميت وصنعة الطعام من النياحة[١].

عن هلال بن خباب، قال: الطعام علىٰ الميت من أمر الجاهلية.

وعن أبي البختري قال: بيتوتة الناس عند أهل الميت ليست إلّا من أمر الجاهلية.

قال المؤلف رحمه اللَّه: وهذه الأمور كلها قد صارت عند الناس الآن سنَّة وتركها بدعة، فانقلب الحال وتغيّرت الأحوال. قال ابن عباس رضي اللَّه عنه: «لا يأتي علىٰ الناس عام إلّا أماتوا فيه سنَّة، وأحيوا فيه بدعة. حتىٰ تموت السنن

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٠٤)، وابن ماجه في الجنائز (١٦١٢).

وتحيا البدع»[١]، ولن يعمل بالسنن وينكر البدع إلَّا مَنْ هوَّن اللَّه عليه إسخاط الناس بمخالفتهم فيما أرادوا، ونهيهم عما اعتادوا، ومن يُسِّر لذلك أحسن اللَّه تعويضه، قال رسول اللَّه ﷺ: «إنك لن تدع شيئاً إلَّا عوّضك اللَّه خيراً منه»[٢]، وقال ﷺ: «لا يزال في هذه الأمة عصابة يقاتلون على أمر اللَّه لا يضرهم جدال من جادلهم ولا عداوة من عاداهم»[٣].

فصل: ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيحين عن عبد اللَّه قال: قال رسول للَّه ﷺ: «ليس منّا مَنْ لطَمَ الخدود، وشقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[٤].

وعن أبي بردة بن أبي موسى قال: وجع أبو موسى وجعاً فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً فلما أفاق قال: أنا بريء مما برئ منه رسول اللَّه ﷺ، فإن رسول اللَّه ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة[٥].

وعن عبد الرحمـٰن بن يزيد وأبي بُردة بن أبي موسى قالا: أُغمي على أبي موسى وأقبلت امرأته تصيح برنة، قالا: ثم أفاق، قال: ألم تعلمي ـ وكان يحدثها ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق»؟[٦].

عن أبي أمامة: «أن رسول اللَّه ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور»[٧]، إسناده صحيح.

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٨): رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٧٨، ٣٦٣)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٣٥) وغيرهما.

(٣) لم يصح بهذا اللفظ. وقد جاء في معناه أحاديث صحيحة من ذلك: ما رواه البخاري في المناقب (٣٦٤٠)، ومسلم في الإمارة (١٩٢٠)، (١٩٢١)، (١٩٢٣).

(٤) رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٤)، ومسلم في الإيمان (١٠٣).

(٥) رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٠٤).

(٦) انظر الحديث السابق.

(٧) رواه ابن ماجه في الجنائز (١٥٨٥).

وقال حاتم الأصم: إذا رأيت صاحب المصيبة قد خرق ثوبه، وأظهر حزنه، فعزّيته فقد أشركته في إثمه؛ وإنما هو صاحب منكر، يحتاج أن تنهاه. وقال أبو سعيد البلخي: مَنْ أُصيب بمصيبة فمزق ثوباً أو ضرب صدراً، فكأنما أخذ رمحاً يريد أن يقاتل به ربه عز وجل. وأنشدوا:

عَجِبْتُ لجازعٍ، باكٍ مصابٍ بأهلٍ، أو حميم ذي اكتئابِ
شقيقُ الجَيْبِ، داعي الويل، جهلاً كأنّ الموتَ كالشيء العُجابِ
وسوّىٰ اللّه فيه الخلق حتىٰ نبيّ اللّه منه لم يُحابِ
له مَلَك ينادي كل يوم: لِدوا للموت وابنوا للخرابِ

* * *

٣٧ ـ باب في الأمل والغفلة

الأمل رحمة من اللّه تعالىٰ ينتظم به أسباب المعاش. ويستحكم به أمور الدنيا. ويتقوّىٰ به الصانع علىٰ صنعته، والعابد علىٰ عبادته، وإنما يُذم من الأمل ما امتد وطال، حتىٰ أنسىٰ العاقبة، وثبط عن صالح الأعمال.

قال الحسن: الغفلة والأمل: نعمتان عظيمتان علىٰ ابن آدم، ولولاهما ما مشىٰ المسلمون في الطرق. يريد لو كانوا من التيقظ وقصر الأمل خوف الموت بحيث لا ينظرون إلىٰ معاشهم، وما يكون سبباً لحياتهم لهلكوا.

ونحوه. قال مطرف بن عبد اللّه: لو علمت متىٰ أجلي؟ لخشيت ذهاب عقلي، ولكن اللّه سبحانه مَنَّ علىٰ عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنّوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق.

ووجد بمدينة قرطبة علىٰ قبر الوزير الكبير أبي عامر بن شهيد مكتوباً، وهو مدفون بإزاء صاحبه الوزير أبي مروان الزجاجي، وكأنّه يخاطبه ودفنا في بستان كانا كثيراً ما يجتمعان فيه:

يا صاحبي قُمْ فقد أطَلْنا أنحن طول المدىٰ هجودُ؟
فقال لي: لن تقوم منها ما دام من فوقنا الصعيدُ
نذكر كم ليلة نعمنا في ظلها والزمان عيدُ؟
وكم ينير هَمَىٰ علينا سحابة ثرّة بجودُ؟
كل كأن لم يكن تقضّىٰ وشؤمه حاضر عتيدُ
حصّله كاتب حفيظ وضمّه صادقٌ شهيدُ
يا حسرتا إن تنكبتنا رحمةُ مَنّ بطشُه شديدُ
يا ربّ عفواً فأنت مولىٰ قصّر في حقه العبيدُ

* * *

٣٨ ـ باب في سؤال المَلَكين للعبد وفي التعوّذ من عذاب القبر وعذاب النار

عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولّىٰ عنه أصحابه. إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد اللَّه ورسوله، فيقال له: انظر إلىٰ مقعدك من النار قد أبدلك اللَّه تعالىٰ به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً».

قال قتادة: وذكر لنا أنه يُفسح له في قبره أربعون ذراعاً. وقال مسلم: سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلىٰ يوم يُبعثون. ثم رجع إلىٰ حديث أنس قال: «وأمّا المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويُضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلّا الثَّقَلَيْن»[1].

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٣٨)، (١٣٧٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٠).

قلت: ليس عند مسلم، ثم رجع إلىٰ حديث أنس إلىٰ آخره، وإنما هو عند البخاري. فحديثه أكمل. وقول الملَكَين: «ولا تليت».

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الميت يصير إلىٰ القبر فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشغوف، ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام! فيقال: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول اللَّه، جاءنا بالبينات من عند اللَّه فصدقناه، فيقال له: هل رأيت اللَّه؟ فيقول: لا، ما ينبغي لأحد أن يرىٰ اللَّه! فيُفرّج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال له: انظر إلىٰ ما وقاك اللَّه، ثم يُفرّج له فرجة قِبَل الجنة فينظر إلىٰ زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك. ويقال له: علىٰ اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تُبعث إن شاء اللَّه تعالىٰ. ويجلس الرجل السوء في قبره فزعاً مرعوباً فيقال له: فيما كنت؟ فيقول: لا أدري فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلته، فيفرج له فرجة قِبَل الجنة فينظر إلىٰ زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلىٰ ما صرفه اللَّه عنك، ثم يفرج له فرجة قِبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيُقال: هذا مقعدك. علىٰ الشك كنت، وعليه مت، وعليه تُبعث إن شاء اللَّه تعالىٰ»[1].

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا أُقبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير. فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول فيه: هو عبد اللَّه ورسوله، أشهد أن لا إلـٰه إلَّا اللَّه وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نم. فيقول: أرجع إلىٰ أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلَّا أحبّ أهله إليه حتىٰ يبعثه اللَّه من مضجعه ذلك.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٤٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٨).

وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتىٰ يبعثه اللّه من مضجعه ذلك»[١].

عن أنس أن رسول اللّه ﷺ دخل نخلاً لبني النجار، فسمع صوتاً ففزع، فقال: «من أصحاب هذه القبور؟» قالوا: يا رسول اللّه ناس ماتوا في الجاهلية، فقال: «تعوّذوا باللّه من عذاب القبر، ومن فتنة الدَّجَّال» قالوا: ومِمّ ذاك يا رسول اللّه؟ قال: «إن المؤمن إذا وُضع في قبره أتاه مَلَك فيقول له: ما كنت تعبد؟ فإن هداه اللّه قال: كنت أعبد اللّه، فيقال: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد اللّه ورسوله. فما يُسأل عن شيء غيرها. فينطلق به إلىٰ بيت كان له في النار. فيقال له: هذا بيتك كان لك في النار، ولكن اللّه عصمك ورحمك؛ فأبدلك بيتاً في الجنة. فيقول: دعوني حتىٰ أذهب فأُبشّر أهلي، فيقال له: اسكن.

وإن الكافر إذا وُضع في قبره أتاه مَلَك فينتهره ويقول: ما كنت تعبد؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت. فيقال له: فما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: كنت أقول كما يقول الناس. فيُضرب بمطارق من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثَّقلَيْـن»[٢].

وعن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلىٰ القبر ولمّا يلحد، فجلس رسول اللّه ﷺ وجلسنا حوله، كأنما علىٰ رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال:

---

(١) رواه الترمذي في الجنائز (١٠٧١) وغيره. وهو حديث حسن.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٣٣)، وأبو داود في كتاب السنة (٤٧٥١). وهو حديث صحيح.

«استعيذوا باللّه من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، قال: «وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حين يقال له: يا هذا، مَنْ ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَنْ نبيّك؟». قال: «ويأتيه مَلَكان فيُجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي اللّه، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسول اللّه ﷺ، فيقولان له: وما يدريك؟ قال: قرأت كتاب اللّه فآمنت وصدّقت». قال: فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة». قال: «فيأتيه من رَوْحها وطيبها» قال: «ويُفسَح له مدّ بصره».

قال: وإن الكافر ـ فذكر موته ـ قال: «وتُعاد روحه في جسده ويأتيه مَلَكان فيُجلسانه. فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما هذا الرسول الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. قال: فينادي مناد: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار». قال: «فيأتيه من حرّها وسمومها». قال: ويُضيّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه». زاد في حديث جرير قال: «ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضُرب بها جبل لصار تراباً». قال: «فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلّا الثقلين فيصير تراباً، ثم تُعاد فيه الروح»[1].

فصل: جاء في حديث البخاري ومسلم: سؤال الملَكَين، وكذلك في حديث الترمذي ونص على اسميهما ونعتهما. وجاء في حديث أبي داود: سؤال ملك واحد، وفي حديثه الآخر: سؤال ملكين، ولا تعارض في ذلك والحمد للّه؛ بل

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود في كتاب السنة (٤٧٥٣) وغيرهما. وهو حديث صحيح. وسيأتي في باب مستقل قريباً.

كل ذلك صحيح المعنى بالنسبة إلى الأشخاص؛ فرُبّ شخص يأتيانه جميعاً فيسألانه جميعاً في حال واحد عند انصراف الناس ليكون السؤال عليه أهون والفتنة في حقه أشد وأعظم، وذلك بحسب ما اقترف من الآثام، واجترح من سيئ الأعمال، وآخر يأتيانه قبل انصراف الناس عنه، وآخر يأتيه أحدهما على الانفراد؛ فيكون ذلك أخف في السؤال، وأقل في المراجعة والعتاب لما عمل من صالح الأعمال.

وقد يحتمل حديث أبي داود وجهاً آخر هو: أن المَلَكَين يأتيان جميعاً فيكون السائل أحدهما، وإن تشاركا في الإتيان؛ فيكون الراوي اقتصر على المَلَك السائل وترك غيره؛ لأنه لم يقل في الحديث أنه لا يأتيه إلى قبره إلّا مَلَك واحد، ولو قاله هكذا صريحاً لكان الجواب عنه ما قدمناه من أحوال الناس. والله أعلم.

وقد يكون من الناس من يوقى فتنتهما ولا يأتيه أحد منهما على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

واختلفت الأحاديث أيضاً في كيفية السؤال والجواب. وذلك بحسب اختلاف أحوال الناس، فمنهم من يقتصر على سؤاله عن بعض اعتقاداته، ومنهم من يسأل عن كلّها؛ فلا تناقض. ووجه آخر: أن يكون بعض الرواة اقتصر على بعض السؤال وأتى به غيره على الكمال. فيكون الإنسان مسؤولاً عن الجميع. كما جاء في حديث البراء المذكور والله أعلم. وقول المسؤول: «هاه هاه» هي حكاية صوت المبهور من تعب أو جري أو حمل ثقيل.

أما قول الملكين: «ولا تليت» قال النحويون: الأصل في هذه الكلمة (الواو) أي: «ولا تلوت» إلا أنها قلبت ياء للإتباع مع «دريت». وقد جاء من حديث البراء: «لا دريت ولا تلوت» على ما رواه الإمام أحمد بن حنبل؛ أي: لم تدر ولم تتل القرآن؛ فلم تنتفع بدرايتك ولا تلاوتك، والله أعلم.

٣٩ ـ باب ذكر حديث البراء المشهور الجامع لأحوال الموتى عند قبض أرواحهم وفي قبورهم

أخرجه أبو داود الطيالسي وعبد بن حميد في مسنديهما وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية. وهناد بن السري في زهده. وأحمد بن حنبل في مسنده وغيرهم. وهو حديث صحيح له طرق كثيرة اهتمّ بتخريج طرقه عليّ بن معبد. وحديث أبي عوانة أتمهما.

قال البراء: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلىٰ القبر، ولمّا يلحد، فجلس رسول اللَّه ﷺ وجلسنا حوله، كأنما علىٰ رؤوسنا الطير، (قال عمرو بن ثابت: (وقع) ولم يقله أبو عوانة)، فجعل يرفع بصره وينظر إلىٰ السماء ويخفض بصره وينظر إلىٰ الأرض، ثم قال: «أعوذ باللَّه من عذاب القبر» قالها مراراً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، جاءه مَلَك فجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلىٰ مغفرة من اللَّه ورضوان؛ فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقاء» (قال عمرو في حديثه: ولم يقله أبو عوانة): «وإن كنتم ترون غير ذلك، وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من أكفان الجنة، وحنوط من حنوطها، فيجلسون منه مد البصر، فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين» قال: «فذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] . قال: فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت، فتعرج به الملائكة، فلا يأتون علىٰ جند فيما بين السماء والأرض إلّا قالوا: ما هذه الروح؟ فيقال: فلان، بأحسن أسمائه، حتىٰ ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتىٰ ينتهي إلىٰ السماء السابعة، فيقال: اكتبوا كتابه في عليين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:

١٩ ـ ٢١] فيكتب كتابه في عليين. ثم يقال: ردّوه إلىٰ الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها نعيدهم، ومنها نخرجهم تارة أخرىٰ، قال: فيردّ إلىٰ الأرض، وتُعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه، فيقولان مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومَنْ نبيك؟ فيقول: ربي اللّٰه وديني الإسلام، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول اللّٰه. فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت، قال: وذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: ويُنادي منادي السماء أن قد صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وأروه منزله منها، ويفسح له مد بصره. ويمثل عمله له في صورة رجل حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول: أبشر بما أعد اللّٰه لك، أبشر برضوان من اللّٰه وجنات فيها نعيم مقيم. فيقول: بشّرك اللّٰه بخير، من أنت فوجهك الوجه الذي جاء بالخير؟ فيقول: هذا يومك الذي كنت تُوعد، أو الأمر الذي كنت تُوعد، أنا عملك الصالح، فواللّٰه ما علمتك إلّا كنت سريعاً في طاعة اللّٰه، بطيئاً عن معصية اللّٰه، فجزاك اللّٰه خيراً. فيقول: يا ربِّ أقم الساعة كي أرجع إلىٰ أهلي ومالي». قال: «فإن كان فاجراً، وكان في إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة؛ جاء مَلَك فجلس عند رأسه فقال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، أبشري بسخط من اللّٰه وغضبه، فتنزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار، فإذا قبضها المَلَك قاموا فلم يدعوها في يده طرفة عين، قال: فتفرّق في جسده فيستخرجها، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب في الصوف المبتل، فتؤخذ من المَلَك، فتخرج كأنتن جيفة وجدت، فلا تمر علىٰ جند فيما بين السماء والأرض إلّا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: هذا فلان، بأسوأ أسمائه حتىٰ ينتهوا إلىٰ سماء الدنيا فلا يُفتح لهم،

فيقولون: ردّوه إلىٰ الأرض، إني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها نعيدهم، ومنها نخرجهم تارة أخرىٰ قال: فيُرمىٰ به من السماء. قال: وتلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] . قال: «فيُعاد إلىٰ الأرض وتُعاد فيه روحه، ويأتيه ملَكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويُجلسانه فيقولان: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد، فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون ذلك قال: فيقال: لا دريت، فيضيق عليه قبره حتىٰ تختلف أضلاعه، ويُمثّل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه، منتن الريح، قبيح الثياب، فيقول: أبشر بعذاب اللَّه وسخطه، فيقول: من أنت فوجهك الذي جاء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فواللَّه ما علمتك إلّا كنت بطيئاً عن طاعة اللَّه، سريعاً إلىٰ معصية اللَّه».

قال عمرو في حديثه عن المنهال عن زاذان عن البراء عن النبي ﷺ: «فيُقيَّض له أصم أبكم بيده مرزبة لو ضرب بها جبل صار تراباً» أو قال: «رميماً فيضربه به ضربة تسمعها الخلائق إلّا الثقلين، ثم يعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرىٰ» لفظ أبي داود الطيالسي.

وخرّجه علي بن معبد الجهني من عدة طرق بمعناه: وزاد فيه: «ثم يقيِّض له أعمىٰ أصم معه مرزبة من حديد فيضربه بها ضربة فيدق بها من ذؤابته إلىٰ خصره ثم يعاد فيضربه ضربة فيدق بها من ذؤابته إلىٰ خصره» وزاد في بعض طرقه عند قوله مرزبة من حديد: «لو اجتمع عليه الثقلان لم ينقلوها. فيُضرب بها ضربة فيصير تراباً ثم تعاد فيه الروح، ويضرب بها ضربة يسمعها مَنْ علىٰ الأرض غير الثقلين، ثم يقال: افرشوا له لوحين من نار، وافتحوا له باباً إلىٰ النار، فيفرش له لوحان من نار، ويفتح له باب إلىٰ النار» وزاد فيه عند قوله: وانقطاع من الدنيا:

«نزلت به ملائكة غلاظ شداد معهم حنوط من نار وسرابيل من قطران يحتوشونه فتنتزع نفسه كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل يقطع معه عروقها، فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك في السماء وكل ملك في الأرض»(١).

وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إذا حُضِرَ المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي راضية مرضيًا عنكِ إلى رَوْح ورَيحان ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً، حتى يأتوا به باب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض؟ فيأتون به أرواح المؤمنين؛ فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذُهب به إلى أمّه الهاوية، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطاً عليكِ إلى عذاب اللَّه عز وجل، فتخرج كأنتن ريح خبيثة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح؟ حتى يأتون به أرواح الكفار»(٢).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قُبض العبد المؤمن جاءته ملائكة الرحمة فتسلم، وتسلّ نفسه في حريرة بيضاء فيقولون: ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه. فيسألونه فيقولون: ارفقوا به فإنه خرج من غم الدنيا، فيقولون: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فتخرج نفسه فتقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه، فيهبط به إلى أسفل الأرض»(٣).

* * *

(١) هذا الحديث مرّ تخريجه قريباً.

(٢) مر تخريجه في الباب (١٥) والباب (١٦).

(٣) أخرجه الطيالسي (٢٣٨٩)، والحاكم (١/ ٣٥٣)، وابن حبان بنحوه (٣٠١٣ إحسان) وغيرهم.

٤٠ ـ باب الرد على الملحدة

قلت: وهنا فصول ستة في الردِّ على الملحدة:

الفصل الأول

تأمل يا أخي وفقني اللَّه وإياك هذا الحديث وما قبله من الأحاديث ترشدك إلى أن الروح والنفس شيء واحد، وأنه جسم لطيف مشابك[١] للأجسام المحسوسة يجذب ويخرج. وفي أكفافه يلف ويدرج، وبه إلى السماء يعرج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أول وليس له آخر. وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيب وخبيث وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض.

وقد قال بلال في حديث الوادي: أخذ نفسي يا رسول اللَّه الذي أخذ بنفسك[٢]. وقال رسول اللَّه ﷺ مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: «يا أيها الناس إن اللَّه قبض أرواحنا ولو شاء ردّها إلينا في حيز غير هذا»[٣] وقال رسول اللَّه ﷺ: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»[٤]. وقال: «فذلك حين يتبع بصره نفسه»[٥]. وهذا غاية في البيان، ولا عطر بعد عروس.

وقد اختلف الناس في الروح اختلافاً كثيراً: أصح ما قيل فيه: ما ذكرناه لك، وهو مذهب أهل السنَّة: أنه جسم، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] . قال أهل التأويل: يريد الأرواح، وقدقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] يعني النفس عند خروجها من الجسد،

---

(١) (مشابك) في بعض النسخ: (مشابه).

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٠).

(٣) رواه مالك في الموطأ في كتاب وقوت الصلاة ١/ ١٤ (٢٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، وفي الاستذكار (١/ ١١٨). وهو مرسل باتفاق رواة الموطأ.

(٤) مرّ تخريجه من حديث أم سلمة، وهو في مسلم (٩٢٠).

(٥) مرّ تخريجه من حديث أبي هريرة، وهو في مسلم (٩٢١).

وهذه صفة الجسم، ولم يجر لها ذكر في الآية لدلالة الكلام عليها، كقول الشاعر:

أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وكل من يقول: إن الروح يموت ويفنى فهو ملحد. وكذلك من يقول: بالتناسخ: أنها إذا خرجت من هذا ركبت في شيء آخر: حمار أو كلب أو غير ذلك. وإنما هي محفوظة بحفظ اللّه إمّا منعمّة وإمّا معذّبة. على ما يأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى.

* * *

الفصل الثاني

الإيمان بعذاب القبر وفتنته: واجب. والتصديق به: لازم. حسب ما أخبر به الصادق. وأن اللّه تعالى يحيي العبد المكلّف في قبره برد الحياة إليه، ويجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه، ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره من كرامة أو هوان. وبهذا نطقت الأخبار عن النبي المختار ﷺ وعلى آله آناء الليل وأطراف النهار، وهذا مذهب أهل السنّة والذي عليه الجماعة من أهل الملّة. ولم تفهم الصحابة الذين نزل القرآن بلسانهم ولغتهم من نبيهم عليه السلام غير ما ذكرنا. وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جرّاً.

وخرّج الترمذي الحكيم أبو عبد اللّه في نوادر الأصول من حديث عبد اللّه بن عمر أن رسول اللّه ﷺ ذكر يوماً فتّاني القبر. فقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: أترد علينا عقولنا يا رسول اللّه؟ فقال: «نعم كهيئاتكم اليوم» فقال عمر: في فيه الحجر[1].

---

(١) نوادر الأصول (١/ ٣٠٦)، ورواه أحمد (٢/ ١٧٢)، وابن حبان في صحيحه (٣١١٥ إحسان)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٨٥٥). وقال محقق الإحسان: إسناده حسن.

وفي حديث البراء ـ وقد تقدّم ـ: «فتعاد روحه في جسده» وحسبك. وقد قيل: إن السؤال والعذاب إنما يكون على الروح دون الجسد. وما ذكرناه لك أولاً أصحّ والله أعلم.

* * *

الفصل الثالث

أنكرت الملحدة ومن تمذهب من الإسلاميين بمذهب الفلاسفة: عذاب القبر وأنه ليس له حقيقة، واحتجوا بأن قالوا: إنا نكشف القبر فلم نجد فيه ملائكة عمياً صمّاً يضربون الناس بفطاطيس من حديد، ولا نجد فيه حيَّات ولا ثعابين، ولا نيراناً ولا تنانين. وكذلك لو كشفنا عنه في كل حالة لوجدناه فيه لم يذهب ولم يتغير، وكيف يصح إقعاده ونحن لو وضعنا الزئبق بين عينيه لوجدناه بحاله؟ فكيف يجلس ويُضرب ولا يتفرّق ذلك؟ وكيف يصح إقعاده وما ذكرتموه من الفسحة؟ ونحن نفتح القبر فنجد لحده ضيقاً؟ ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يتغير علينا، فكيف يسعه ويسع الملائكة السائلين له؟ وإنما ذلك كله إشارة إلى حالات ترد على الروح من العذاب الروحاني، وإنها لا حقائق لها على موضوع اللغة.

والجواب: أنّا نؤمن بما ذكرناه، ولله أن يفعل ما يشاء من عقاب ونعيم. ويصرف أبصارنا عن جميع ذلك بل يغيبه عنا. فلا يبعد في قدرة الله تعالى فعل ذلك كله، إذ هو القادر على كل ممكن جائز، فإنا لو شئنا لأزلنا الزئبق عن عينيه، ثم نضجعه ونرد الزئبق مكانه، وكذلك يمكننا أن نعمق القبر ونوسّعه حتى يقوم فيه قياماً فضلاً عن القعود. وكذلك يمكننا أن نعمق القبر مائتي ذراع فضلاً عن سبعين ذراعاً، والربّ سبحانه أبسط منا قدرة، وأقوى منا قوة، وأسرع فعلاً، وأحصى منا حساباً ﴿إِنَّمَا أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢]، ولا رب لمن يدعي الإسلام إلَّا من هذه صفته، فإذا كشفنا نحن عن ذلك ردّ الله

سبحانه الأمر علىٰ ما كان، نعم لو كان الميت بيننا موضوعاً فلا يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألاه من غير أن يشعر الحاضرون بهما، ويجيبهما من غير أن يسمع الحاضرون جوابهما. ومثال ذلك: نائمان بيننا: أحدهما ينعم، والآخر يعذب، ولا يشعر بذلك أحد ممن حولهما من المنتبهين، ثم إذا استيقظا أخبر كل واحد منهما عما كان فيه.

وقد قال بعض علمائنا: إن دخول المَلَك القبور جائز أن يكون تأويله: اطلاعه عليها وعلىٰ أهلها. وأهلها مدركون له عن بُعد من غير دخول ولا قُرب، ويجوز أن يكون المَلَك للطافة أجزائه يتولّج في خلال المقابر فيتوصل إليهم من غير نبش، ويجوز أن ينبشها ثم يعيدها اللّه إلىٰ مثل حالها علىٰ وجه لا يدركه أهل الدنيا. ويجوز أن يكون المَلَك يدخل من تحت قبورهم من مداخل لا يهتدي الإنسان إليها.

وبالجملة: فأحوال المقابر وأهلها علىٰ خلاف عادات أهل الدنيا في حياتهم، فليس تُقاس أحوال الآخرة علىٰ أحوال الدنيا. وهذا ممَّا لا خلاف فيه. ولولا خبر الصادق بذلك لم نعرف شيئاً مما هنالك.

فإن قالوا: كل حديث يُخالف مقتضىٰ المعقول يقطع بتخطئة ناقله، ونحن نرىٰ المصلوب علىٰ صلبه مدة طويلة وهو لا يسأل ولا يحيَىٰ، وكذلك يشاهد الميت علىٰ سريره وهو لا يجيب سائلاً ولا يتحرك، ومن افترسته السباع، ونهشته الطيور، وتفرقت أجزاؤه في أجواف الطير، وبطون الحيتان، وحواصل الطير، وأقاصي التخوم، ومدارج الرياح، فكيف تجتمع أجزاؤه؟ أم كيف تتألف أعضاؤه؟ وكيف تتصوّر مساءلة الملكين لمن هذا وصفه؟ أم كيف يصير القبر علىٰ من هذا حاله روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار؟ والجواب عن هذا من وجوه أربعة:

أحدها: أن الذي جاء بهذا [النقل] هم الذين جاءوا بالصلوات الخمس وليس لنا طريق إلَّا ما نقلوه لنا من ذلك.

الثاني: أن المدفونين في القبور يُسألون. والذين بقَوْا على وجه الأض فإن اللَّه تعالى يحجب المكلفين عما يجري عليهم كما حجبهم عن رؤية الملائكة مع رؤية الأنبياء عليهم السلام لهم. ومن أنكر ذلك فلينكر نزول جبرائيل عليه السلام على الأنبياء عليهم السلام. وقد قال اللَّه تعالى في وصف الشياطين: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

الثالث: قال بعض العلماء: لا يبعد أن ترد الحياة إلى المصلوب ونحن لا نشعر به؛ كما أنا نحسب المغمى عليه ميتاً ـ كذلك صاحب السكتة ـ وندفنه على حسبان الموت، ومن تفرّقت أجزاؤه فلا يبعد أن يخلق اللَّه الحياة في أجزائه.

قلت: ويعيده كما كان؛ كما فُعل بالرجل الذي أمر إذا مات أن يُحرق ثم يسحق ثم يذرَّى حتى تنسفه الرياح. الحديث، وفيه: «فأمر اللَّه البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك. أو قال: مخافتك»[1] خرّجه البخاري ومسلم. وفي التنزيل: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية.

الرابع: قال أبو المعالي: المرضي عندنا: أن السؤال يقع على أجزاء يعلمها اللَّه تعالى ـ من القلب أو غيره ـ فيحييها ويوجه السؤال عليها. وذلك غير مستحيل عقلاً. قال بعض علمائنا: وليس هذا بأبعد من الذرّ الذي أخرجه اللَّه تعالى من صلب آدم عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا:

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب التوحيد (٧٥٠٦) من حديث أبي هريرة، (٧٥٠٨) من حديث أبي سعيد، ومسلم في كتاب التوبة (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة، (٢٧٥٧) من حديث أبي سعيد.

بلى[١].

* * *

الفصل الرابع

فإن قالوا: ما حكم الصغار عندكم؟ قلنا: هم كالبالغين، وأن العقل يكمل لهم ليعرفوا بذلك منزلتهم وسعادتهم، ويلهمون الجواب عما يسألون عنه. وهذا ما تقتضيه ظواهر الأخبار، فقد جاء أن القبر ينضم عليه ـ أي على الصغير ـ كما ينضم على الكبار، وقد تقدّم.

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: «إن كان ليصلي على النفوس ما إن عمل خطيئة قط يقول: اللّهم أجرْه من عذاب القبر»[٢].

* * *

الفصل الخامس

فإن قالوا: فما تأويلكم في القبر: «حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة»؟ قلنا: ذلك محمول عندنا على الحقيقة لا على المجاز.

وقد حمله بعض علمائنا على المجاز، والمراد خفة السؤال على المؤمن، وسهولته عليه وأمنه فيه، وطيب عيشه، ووصفه بأنه جنة تشبيهاً بالجنة والنعيم فيها بالرياض، يقال: فلان في الجنة إذا كان في رغد من العيش وسلامة. فالمؤمن يكون في قبره في روح وراحة وطيب عيش، وقد رفع اللّه عن عينيه الحجاب حتى يرى مد بصره كما في الخبر، وأراد بحفرة النار: ضغطة القبر. وشدة

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٩٩ ـ ٢٠٢). في تفسير سورة الأعراف، الآيات: (١٧٢ ـ ١٧٤).

(٢) رواه مالك في الموطأ في كتاب الجنائز ١/ ٢٢٨ (١٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٣٧)، وعبدالرزاق في مصنفه (٦١١٠). وهو خبر موقوف له حكم الرفع.

المساءلة، والخوف والأهوال التي تكون فيها على الكفرة وبعض أهل الكبائر. والله أعلم. والأول أصح؛ لأن الله سبحانه ورسوله يقصّ الحق ولا استحالة في شيء من ذلك.

* * *

الفصل السادس

روى أبو عمر في التمهيد عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: أيها الناس، إنّ الرجم حقّ فلا تخدعنّ عنه، وإن آية ذلك أن رسول الله ﷺ قد رَجَم، وأن أبا بكر قد رجم، وإنّا قد رجمنا بعدهما، وسيكون أقوام من هذ الأمة يكذبون بالرجم، ويكذبون بالدجّال، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذبون بعذاب القبر، ويكذبون بالشفاعة، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا(١).

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: هؤلاء هم القدرية والخوارج، ومن سلك سبيلهم. وافترقوا في ذلك فرقاً. فصار أبو الهذيل وبشر: إلى أن من خرج عن سمة الإيمان، فإن يعذب بين النفختين، وأن المسألة إنما تقع في تلك الأوقات. وأثبت البلخي وكذلك الجبائي وابنه: عذاب القبر. ولكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه للكافرين والفاسقين. وقال الأكثرون من المعتزلة: لا يجوز تسمية ملائكة الله تعالى بمنكر ونكير، وإنما المنكر ما يبدو من تلجلجه إذا سئل، وتقريع الملكين له وهو النكير. وقال صالح: عذاب القبر جائز، وأنه يجري على الموتى من غير ردّ الأرواح الى الأجساد، وأن الميت يجوز أن يألم ويحس ويعلم. وهذا مذهب جماعة من الكرّاميّة. وقال بعض المعتزلة: إن الله يعذّب الموتى في قبورهم،

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٣)، وابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٦٩)، (٢٣/ ٩٨) وغيرهما، وإسناده ضعيف. لكن قد ثبت في الصحيح قول عمر في الرجم بمعناه.

ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون، فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام. وزعموا أن سبيل المعذبين من الموتىٰ؛ كسبيل السكران أو المغشي عليه، لو ضربوا لم يجدوا الآلام، فإذا عاد إليهم العقل وجدوا تلك الآلام، وأما الباقون من المعتزلة. مثل ضرار بن عمرو وبشر المريسي ويحيىٰ بن كامل وغيرهم، فإنهم أنكروا عذاب القبر أصلاً، وقالوا: إنّ مَنْ مات فهو ميت في قبره إلىٰ يوم البعث.
وهذه أقوال كلها فاسدة تردّها الأخبار الثابتة، وفي التنزيل: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] . وسيأتي من الأخبار مزيد بيان، وباللَّه التوفيق والعصمة واللَّه أعلم.

* * *

٤١ ـ باب ما جاء في صفة المَلَكَين صلوات اللَّه عليهما وصفة سؤالهما

قد تقدّم من حديث الترمذي: أنها أسودان أزرقان. يقال لأحدهما: منكر، وللآخر: نكير[1] .

فصل: ما قيل عن فتّاني القبر «منكر ونكير».

إنما سمّيا فتّاني القبر؛ لأن في سؤالهما انتهاراً، وفي خلقهما صعوبة، ألا ترىٰ أنهما سمّيا منكراً ونكيراً؟ فإنما سميا بذلك لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين، ولا خلق الملائكة، ولا خلق الطير، ولا خلق البهائم، ولا خلق الهوام، بل هما خلق بديع؛ وليس في خلقتهما أنس للناظرين إليهما، جعلهما اللَّه تكرمة للمؤمن يثبته وينصره، وهتكاً لستر المنافق في البرزخ من قبل أن يبعث حتىٰ يحل عليه العذاب. قاله أبو عبد اللَّه الترمذي.

(١) حديث الترمذي المشار إليه مرّ تخريجه في باب (٣٨) في سؤال الملكين للعبد، و في التعوذ من عذاب القبر وعذاب النار.

فصل: إن قال قائل: كيف يخاطب الملكان جميع الموتىٰ وهم مختلفو الأماكن، متباعدو القبور في الوقت الواحد. والجسم الواحد لا يكون في المكانين في الوقت الواحد؟ وكيف تنقلب الأعمال أشخاصاً وهي في نفسها أعراض؟

فالجواب عن الأول: ما جرىٰ ذكره من عظم جثتيهما فيخاطبان الخلق الكثير الذين في الجهة الواحدة منهم في المرة الواحدة: مخاطبة واحدة، يخيل لكل واحد أن المخاطب هو دون من سواه. ويكون اللّٰه يمنع سمعه من مخاطبة الموتىٰ لهما ويسمع هو مخاطبتهما أن لو كانوا معه في قبر واحد، وقد تقدّم أن عذاب القبر يسمعه كل شيء إلّا الثقلين. واللّٰه سبحانه وتعالىٰ يسمع من يشاء وهو علىٰ كل شيء قدير.

والجواب عن الثاني: أن اللّٰه يخلق من ثواب الأعمال أشخاصاً حسنة وقبيحة. لا أن العرض نفسه ينقلب جوهراً إذ ليس من قبيل الجواهر. ومثل هذا ما صح في الحديث: «أنه يؤتىٰ بالموت كأنه كبش أملح فيوقف علىٰ الصراط فيذبح»[١].

* * *

٤٢ ـ باب اختلاف الآثار في سعة القبر على المؤمنين بالنسبة إلى أعمالهم

جاء في حديث البخاري ومسلم: «أنه يفسح له سبعون ذراعاً» وفي الترمذي: «سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً». وفي حديث البراء: «مدّ البصر»[٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (٤٧٣٠)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩). والأولىٰ إمرار الأحاديث كما جاءت دون تأويل؛ إذ اللّٰه تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير.

(٢) كل هذه الروايات مرّ تخريجها في باب (٣٨) في سؤال الملكين للعبد، وفي التعوذ من عذاب القبر وعذاب النار.

قلت: وهذا إنما يكون بعض ضيق والسؤال. وأمّا الكافر فلا يزال قبره عليه ضيقاً. فنسأل للّه العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

* * *

٤٣ ـ باب ما جاء في عذاب القبر وأنه حق وفي اختلاف عذاب الكافرين وفي قبورهم وضيقها عليهم

قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]. قال أبو سعيد الخدري وعبد اللّه بن مسعود: ضنكًا. قالا: عذاب القبر. وقيل في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَالِكَ﴾ [الطور: ٤٧] هو: عذاب القبر؛ لأن اللّه ذكره عقب قوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] وهذا اليوم هو اليوم الآخر من أيام الدنيا، فدلّ علىٰ أن العذاب الذي هم فيه هو عذاب القبر، وكذلك قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] لأنه غيب. وقال: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦] فهذا عذاب القبر في البرزخ. وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣] ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤] في الآخرة إذا حلّ بكم العذاب فالأول في القبر، والثاني في الآخرة، فالتكرير للحالتين.

وروىٰ زرّ بن حبيش عن عليّ رضي اللّه عنه قال: كنا نشك في عذاب القبر حتىٰ نزلت هذه السورة: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبر. وقال أبو هريرة: يضيق علىٰ الكافر قبره حتىٰ تختلف فيه أضلاعه، وهو المعيشة الضنك.

* * *

٤٤ ـ باب ما يكون منه عذاب القبر واختلاف أحوال العصاة فيه بحسب اختلاف معاصيهم

أبو بكر بن أبي شيبة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أكثر عذاب القبر من البول»[١].

البخاري ومسلم، عن ابن عباس قال: مرّ النبي ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير. أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة. وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله، فدعا بعسيب رطب شقّه باثنين ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحدا، ثم قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»[٢].

وفي رواية: «كان لا يستنزه عن البول أو من البول» رواهما مسلم. وفي كتاب أبي داود: «وكان لا يستنثر من بوله». وفي حديث هناد بن السري «لا يستبرئ من البول» من الاستبراء. وقال البخاري: «وما يعذبان في كبير وإنه لكبير».

وأخرجه أبو داود الطيالسي عن أبي بكرة قال: بينما أنا أمشي مع رسول اللَّه ﷺ ومعي رجل ورسول اللَّه ﷺ بيننا. إذ أتى على قبرين. فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن صاحبي هذين القبرين ليعذبان الآن في قبورهما فأيكما يأتيني من هذا النخل بعسيب؟ فاستبقت أنا وصاحبي فسبقته وكسرت من النخل عسيباً. فأتيت النبي ﷺ فشقّه نصفين من أعلاه فوضع على إحداهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً. وقال: إنه يهوّن عليهما ما دام من بلولتهما شيء إنهما ليعذبان في الغيبة والبول»[٣].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢٦، ٣٨٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٢٢)، وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها (٣٤٨) وغيرهم.

(٢) رواه البخاري في الوضوء (٢١٨)، ومسلم في كتاب الطهارة (٢٩٢)، وأحمد (١/ ٢٢٥)، وأبو داود في الطهارة (٢٠)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣٤٧) وغيرهم.

(٣) رواه الطيالسي (٨٦٧)، وأحمد (٥/ ٣٩)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣٤٩) وغيرهم، وفي سنده انقطاع لكن له شواهد.

قال المؤلف: هذا الحديث والذي قبله يدلّ على التخفيف إنما هو بمجرد نصف العسيب ما دام رطباً لا زيادة معه. وقد خرّجه مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه: فلما انتهى إليّ قال: «يا جابر هل رأيت مقامي؟ قلت: نعم يا رسول اللّه. قال: فانطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة منهما غصناً، فأقبل بهما حتى إذا قمت مقامي فأرسل غصناً عن يمينك وغصناً عن يسارك» قال جابر: فقمت فأخذت حجراً فكسرته وحسرته فاندلق لي فأتيت الشجرتين فقطعت من كل واحدة منهما غصناً، ثم أقبلت أجرهما حتى قمت مقام رسول اللّه ﷺ فأرسلت غصناً عن يميني، وغصناً عن يساري، ثم لحقته فقلت: قد فعلت ذلك يا رسول اللّه، فعند ذاك قال: «إني مررت بقبرين يعذبان فأحببت بشفاعتي أن يرفه عنهما؛ ما دام الغصنان رطبين»[1].

ففي هذا الحديث زيادة على رطوبة الغصن وهي: شفاعته ﷺ، والذي يظهر لي أنهما قضيتان مختلفتان لا قضية واحدة كما قال من تكلّم على ذلك، ويدل عليهما سياق الحديث، فإن في حديث ابن عباس وأبي بكرة عسيباً واحداً شقّه النبي ﷺ بيده نصفين وغرسهما بيده، وحديث جابر بخلافهما ولم يذكر فيه ما يعذب بسببه.

وقد خرّج أبو داود الطيالسي حديث ابن عباس: أن رسول اللّه ﷺ أتى على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان في غير كبير، أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس، وأما الآخر فكان صاحب نميمة، ثم دعا بجريدة فشقها نصفين، فوضع نصفاً على هذا القبر، ونصفاً على هذا القبر. وقال: عسى أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين»[2].

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٣٠١٢).

(٢) رواه الطيالسي (٢٦٤٦).

ثم قيل: يجوز أن يكونا كافرين، وقوله: «إنهما ليعذبان في غير كبير» يريد بالإضافة إلىٰ الكفر والشرك وأما إن كانا مؤمنين فقد أخبرك أنها يعذبان بشيء كان منهما ليس بكفر لكنهما لم يتوبا منه، وإن كانا كافرين فهما يعذبان في هذين الذنبين زيادة علىٰ عذابهما بكفرهما وتكذيبهما وجميع خطاياهما. وإن يكونا كافرين أظهر واللَّه أعلم. فإنهما لو كانا مؤمنين لعُلما لقرب العهد بتدافن المسلمين يومئذ. قاله ابن برجان في كتاب الإرشاد الهادي إلىٰ التوفيق والسداد.

قلت: والأظهر أنهما كانا مؤمنين وهو ظاهر الأحاديث واللَّه أعلم.

عن سمرة بن جندب قال: كان النبي ﷺ إذا صلّىٰ صلاة أقبل علينا بوجهه، فقال: «مَنْ رأىٰ منكم الليلة رؤيا؟» قال: فإن رأىٰ أحد رؤيا قصَّها فيقول: «ما شاء اللَّه» فسألنا يوماً. فقال: «هل رأىٰ أحد منكم رؤيا؟» قلنا: لا. قال: «لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلىٰ الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله في شدقه حتىٰ يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله. قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتىٰ أتينا علىٰ رجل مضطجع علىٰ قفاه، ورجل قائم علىٰ رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ بها رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق ليأخذه فما يرجع إلىٰ هذا حتىٰ يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه. قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا إلىٰ ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً، فإذا اقترب ارتفعوا حتىٰ كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها. وفيها رجال ونساء عراة. فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتىٰ أتينا علىٰ نهر من دم فيه رجل قائم وعلىٰ شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمىٰ الرجلُ بحجر في فيه فردّه حيث كان. فجعل كلّما جاء ليخرج رمىٰ في فيه بحجر فيرجع كما كان.

فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا، حتىٰ انتهينا إلىٰ روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بي في الشجرة، وأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها فيها شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل فيها شيوخ وشباب. قلت: طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت. قالا: نعم، الذي رأيت يشق شدقه: فكذاب يحدّث بالكذبة فتحمل عنه حتىٰ تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلىٰ يوم القيامة. والذي رأيته يشدخ رأسه: فرجل علّمه اللَّه القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار. يُفعل به إلىٰ يوم القيامة، وأما الذين رأيتهم في الثقب، فهم الزناة، والذي رأيته في النهر آكلو الربا، والشيخ في أصل الشجرة: إبراهيم، والصبيان حوله: فأولاد الناس. والذي يوقد النار: مالك خازن النار، والدار الأولىٰ التي دخلت: دار عامة المؤمنين. وأما هذه الدار: فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك. فرفعت رأسي، فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذلك منزلك، فقلت: دعاني أدخل منزلي. قالا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله؛ فلو استكملته أتيت منزلك»[1].

فصل: قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: لا أبينَ في أحوال المعذبين في قبورهم من حديث البخاري، وإن كان مناماً فمنامات الأنبياء عليهم السلام وَحْي بدليل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فأجابه ابنه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وأمّا حديث البخاري ومسلم فيدلّ علىٰ أن الاستبراء من البول والتنزّه عنه: واجب، إذ لا يعذب الإنسان إلّا علىٰ ترك الواجب، وكذلك إزالة جميع النجاسات قياساً علىٰ البول.

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٨٦).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[1].

* * *

٤٥ ـ باب ما جاء في التعوذ من عذاب القبر وفتنته

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: دخل عليّ رسول اللّه ﷺ وعندي امرأة من اليهود، وهي تقول: إنكم تفتنون في القبور، فارتاع رسول اللّه ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود» قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول اللّه ﷺ: «هل شعرت أنه أوحي إليّ: أنكم تفتنون في القبور؟» قالت عائشة: فسمعت رسول اللّه ﷺ يستعيذ من عذاب القبر[2].

عن أسماء رضي اللّه عنها أنه ﷺ قال: «وإنه قد أُوحي إليّ أنكم تفتنون في القبور قريباً، أو مثل فتنة الدجّال لا أدري أيّ ذلك؟» قالت أسماء: يُؤتىٰ بأحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: «هو محمد رسول اللّه جاءنا بالبيّنات والهدىٰ فأجبنا وأطعنا» ثلاث مرات. ثم يقال له: «نم قد نعلم أنك لتؤمن به فنم صالحاً». وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري أي ذلك؟» قالت أسماء: «فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت»[3].

وعن أبي هريرة قال: كان رسول اللّه ﷺ يدعو: «اللّهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٨).

(٢) رواه البخاري في الجنائز (١٣٧٢)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٨٤).

(٣) رواه البخاري مختصراً في الجنائز (١٣٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٤٥)، والنسائي في الجنائز (٤/ ١٠٤) وغيرهم.

الدجال»[1]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً أخرجها الأثبات الثقات.

* * *

٤٦ ـ باب ما جاء أن البهائم تسمع عذاب القبر

عن زيد بن ثابت قال: بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه. وإذا أقبرٌ ستة أو خمسة أو أربعة ـ كذا كان الجريري يقول ـ. فقال: «مَنْ يعرف أصحاب هذه الأقبر؟» فقال رجل: أنا. قال: «فمتى مات هؤلاء؟» قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت اللّه أن يُسْمِعَكم من عذاب القبر الذي أسمع»[2].

وعن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت: دخلتْ عليّ عجوزان من عجائز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم. قالت: فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما. فخرجتا ودخل عليّ رسول اللّه ﷺ. فقلت: يا رسول اللّه إن عجوزين من عجائز يهود المدينة قالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم. قال النبي ﷺ: «صدقتا إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم» قالت: فما رأيته بعدُ في صلاة إلّا يتعوّذ من عذاب القبر. خرّجه البخاري أيضاً وقال: «تسمعه البهائم كلها»[3].

فصل: قال علماؤنا: وإنما حادت به البغلة لما سمعت من صوت المعذبين وإنما لم يسمعه من يعقل من الجن والإنس لقوله عليه الصلاة والسلام: «لولا أن لا تدافنوا» (الحديث). فكتمه اللّه سبحانه عنا حتى نتدافن بحكمته الإلهية ولطائفه

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٧٧)، ومسلم في المساجد (٥٨٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٧).

(٣) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٦)، ومسلم في كتاب المساجد (٥٨٦).

الربانية لغلبة الخوف عند سماعه، فلا نقدر علىٰ القرب من القبر للدفن أو يهلك الحي عند سماعه، إذ لا يطاق سماع شيء من عذاب اللَّه في هذه الدار؛ لضعف هذه القوىٰ، ألا ترىٰ أنه إذا سمع الناس صعقة الرعد القاصف، أو الزلازل الهائلة هلك كثير من الناس، وأين صعقة الرعد من صيحة الذي تضربه الملائكة بمطارق الحديد التي يسمعها كل من يليه؟ وقد قال ﷺ في الجنازة: «ولو سمعها إنسان لصعق».

قلت: هذا وهو علىٰ رؤوس الرجال من غير ضرب ولا هوان، فكيف إذا حلّ به الخزي والنّكال واشتدّ عليه العذاب والوبال؟ فنسأل للَّه معافاته ومغفرته وعفوه ورحمته بمنه.

حكاية: قال أبو محمد عبد الحق: حدثني الفقيه أبو الحكم بن برجان ـ وكان من أهل العلم والعمل رحمه اللَّه ـ أنهم دفنوا ميتًا بقريتهم من شرق إشبيلية، فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون ودابة ترعىٰ قريباً منهم، فإذا الدابة قد أقبلت مسرعة إلىٰ القبر، فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع، ثمّ ولّت فارّة كذلك ـ فعلت مرّة بعد أخرىٰ ـ قال أبو الحكم رحمه اللَّه: فذكرت عذاب القبر، وقول النبي ﷺ: «إنهم ليعذبون عذاباً تسمعه البهائم». واللَّه عز وجل أعلم بما كان من أمر ذلك الميت. ذكر هذه الحكاية لما قرأ القارئ هذا الحديث في عذاب القبر: ونحن إذ ذاك نسمع عليه كتاب مسلم بن الحجاج رضي اللَّه عنه[1].

* * *

٤٧ ـ باب ما جاء أن الميت يسمع ما يقال

عن أنس بن مالك: أن عمر بن الخطاب حدّث عن أهل بدر فقال: إن رسول اللَّه ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس. يقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء

(١) انظر: كتاب العاقبة (ص١٦٣).

اللَّه». قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق نبياً ما أخطأوا الحدود التي حد رسول اللَّه ﷺ. قال: فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول اللَّه ﷺ حتى انتهى إليهم فقال: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم اللَّه وسوله حقّاً. فإني وجدت ما وعدني ربي حقّاً؟». فقال عمر: يا رسول اللَّه كيف تكلّم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليّ شيئاً»[١].

وعنه أن رسول اللَّه ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً. فقام عليهم فناداهم. فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً؟». فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه كيف يسمعون! وأنّى يجيبون! وقد جيفوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا». ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر[٢].

فصل: اعلم رحمك اللَّه أن عائشة رضي اللَّه عنها قد أنكرت هذا المعنى واستدلت بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢] وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢][٣]. ولا تعارض بينهما؛ لأنه جائز أن يكونوا يسمعون في وقت ما، أو في حال ما؛ فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصِّص. وقد وجد هنا بدليل ما ذكرناه، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «إنه ليسمع قرع نعالهم»، وبالمعلوم من سؤال المَلَكين للميت في قبره وجوابه لهما وغير ذلك مما لا ينكر.

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٤).

(٣) حديث عائشة: رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الجنائز (١٣٧١). وانظر: الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات للألوسي.

٤٨ ـ باب قوله تعالى:
﴿ يُـثَـبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَـنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَـيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
[إبراهيم: ٢٧] الآية

عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْـيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر. يقال له: مَنْ ربك؟ فيقول: اللَّه ربِّي، ونبيِّي محمد. فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْـيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[1].

وفي رواية أنه قول البراء. ولم يذكر النبي ﷺ[2].

قلت: وهذا الطريق وإن كان موقوفاً فهو لا يقال من جهة الرأي فهومحمول على أن النبي ﷺ قاله كما في الرواية الأولى، وهذا لفظ البخاري: عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: «إذا أُقعد العبد المؤمن في قبره، أتي ثم يشهد أن لا إلـه إلَّا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية.

وخرّجه أبو داود أيضاً في سننه، فقال فيه عن البراء بن عازب أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن المسلم إذا سئل في القبر فشهد أن لا إلـه إلَّا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه فذلك قوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْـيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[3]. وقد مضى هذا المعنى في حديث البراء الطويل مرفوعاً، والحمد للَّه.

---

(١) رواه البخاري بنحوه في الجنائز (١٣٦٩)، وفي التفسير (٤٦٩٩)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٧١).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة (٧٤ تحت ٢٨٧١).

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة (٤٧٥٠).

وقد روىٰ هذا الخبر، أبو هريرة وابن مسعود وابن عباس وأبو سعيد الخدري. قال أبو سعيد الخدري: كنا في جنازة مع النبيﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلىٰ في قبورها، فإذا الإنسان دُفن وتفرّق عنه أصحابه جاءه مَلَك بيده مطراق فأقعده، فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول له: صدقت، فيفتح له باب إلىٰ النار فيقول له: هذا منزلك لو كفرت بربك. وأما الكافر والمنافق فيقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يفتح له باب إلىٰ الجنة. فيقال له: هذا منزلك لو آمنت بربك. فأما إذ كفرت فإن اللّه أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلىٰ النار، ثم يقمعه المَلَك بالمطراق قمعة يسمعه خلق اللّه كلهم إلّا الثقلين». قال بعض أصحاب رسول اللّه ﷺ: ما أحد يقوم علىٰ رأسه مَلَك بيده مطراق إلّا هيل عند ذلك. فقال رسول اللّه ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(١).

فصل: صحّت الأخبار عن النبي ﷺ في عذاب القبر علىٰ الجملة فلا مطعن فيها ولا معارض لها. وجاء فيما تقدّم من الآثار: أن الكافر يفتن في قبره، ويسأل ويهان ويعذب.

قال أبو محمد عبد الحق: واعلم أن عذاب القبر ليس مختصّاً بالكافرين ولا موقوفاً علىٰ المنافقين، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين، وكلّ علىٰ حاله من عمله وما استوجبه من خطيئته وزلله. وإن كانت تلك النصوص المتقدمة في عذاب القبر إنما جاءت في الكافر والمنافق.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٥)، والطبري في تفسيره (١٣/ ١٤٢) وغيرهم.

قال أبو عمر ابن عبد البر في كتاب التمهيد: الآثار الثابتة تدلّ على: أن الفتنة في القبر لا تكون إلَّا لمؤمن أو منافق ممن كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام ممن حقن دمه بظاهر الشهادة، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يُسأل عن هذا أهل الإسلام، واللّه أعلم. فيثّبت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت ويرتاب المبطلون. قال ابن عبد البر: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها»[١] ومنهم من يرويه: «تسأل»[٢]. وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصّت بذلك، وهذا أمر لا يقطع عليه، واللّه أعلم.

* * *

٤٩ ـ باب ما ينجي المؤمن من أهوال القبر وفتنته وعذابه

وذلك خمسة أشياء: رباط. قتل. قول. بطن. زمان

الأول: عن سلمان قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجري عليه رزقه وأمن من الفتّان»[٣].

فالرباط من أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلَّا من ثلاثة» (الحديث). وقد تقدّم وهو حديث صحيح،

(١) رواية: «إن هذه الأمة تبتلى»: رواها مسلم، وقد مر تخريجها في باب (٤٦) ما جاء أن البهائم تسمع عذاب القبر.

(٢) انظر: التمهيد (٢٢/ ٢٥٤). وقد نسب هذه الرواية إلى ابن أبي شيبة والذي عثرنا عليه في المصنف (٣/ ٣٧٣) بلفظ: «تبتلى».

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٩١٣).

انفرد بإخراجه مسلم، وكذلك ما ورد أنه يلحق الميت بعد موته، فإن ذلك مما ينقطع بنفاده وذهابه، كالصدقة بنفادها، والعلم بذهابه، والولد الصالح بموته، والنخل بقطعه إلى غير ذلك مما ذكر. والرباط يُضاعف أجره لصاحبه إلى يوم القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام: «وإن مات أجري عليه عمله».

وقد جاء مفسراً مبيناً في كتاب الترمذي عن فضالة بن عبيد عن رسول اللَّه ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلَّا الذي مات مرابطاً في سبيل اللَّه، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر»[١]. قال: حديث حسن صحيح. وأخرجه أبو داود بمعناه وقال: «ويؤمن من فتاني القبر»[٢].

ولا معنى للنماء إلَّا المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من اللَّه تعالى؛ لأن أعمال البر لا يتمكن منها إلَّا بالسلامة من العدو والتحرز منهم بحراسته بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام، وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة.

وبإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ مُرابطًا في سبيل اللَّه أجرى اللَّه عليه عملِهِ الصالح الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان، وبعثه اللَّه آمناً من الفزع»[٣].

وخرّج أبو نعيم الحافظ عن جبير بن بكير وكبير بن مرة وعمرو بن الأسود عن العرباض بن سارية رضي اللَّه عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات إلَّا المرابط في سبيل اللَّه، فإنه يُنمِّي عليه عمله ويجري عليه رزقه

---

(٢) رواه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢١). وفيه: «فإنه يُنْمىٰ له عمله».

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٠٠) وفيه: «فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمَّن من فتَّان القبر».

(٣) رواه أحمد (٢/ ٤٠٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٧) وغيرهما.

إلىٰ يوم الحساب»[١].

وفي هذا الحديث وحديث فضالة بن عبيد قيد ثان: وهو: الموت حالة الرباط. واللَّه أعلم.

وعن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «من رابط ليلة في سبيل اللَّه كانت له كألف ليلة صيامها وقيامها»[٢].

مسألة: الرباط: هو الملازمة في سبيل اللَّه. مأخوذ من ربط الخيل ثم سمي الملازم لثغر من ثغور المسلمين: مرابطاً؛ فارساً كان أو راجلاً. واللفظة مأخوذة من الرباط، وقول النبي ﷺ في منتظري الصلاة: «فذٰلكم الرباط»[٣] إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل اللَّه، والرباط اللغوي هو الأول، وهو الذي يشخص إلىٰ ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما، فأما سكان الثغور دائماً بأهلهم الذين يعمرون ويكتسبون هناك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين. قاله علماؤنا، وقد بيّناه في كتاب الجامع لأحكام القرآن من سورة آل عمران، والحمد للَّه[٤].

الثاني: روىٰ النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول اللَّه ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول اللَّه، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلَّا الشهيد؟ قال: «كفىٰ ببارقة السيوف علىٰ رأسه فتنة»[٥].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٥٧)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥٦ـ٢٥٧) وغيرهما.

(٢) رواه أحمد (١/ ٦١، ٦٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٦). وفي إسناده لين؛ ولكنه جاء بنحوه من طريق آخر يتقوىٰ به. ورواه أحمد (١/ ٦٢، ٦٥)، وعبد اللَّه بن أحمد في زوائد المسند (١/ ٦٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٧)، والنسائي في الجهاد (٦/ ٣٩، ٤٠)، والدارمي في الجهاد (٢٣٣٥) وغيرهم.

(٣) رواه مسلم في كتاب الطهارة (٢٥١).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٠٦): الآية (٢٠٠) من سورة آل عمران.

(٥) رواه النسائي في الجنائز (٤/ ٩٩).

وعن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «للشهيد عند اللَّه ستّ خصال: يُغفر له في أول دفعة، ويُرىٰ مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع علىٰ رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويُزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفَّع في سبعين من أقاربه» لفظ الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب. وقال ابن ماجه: «يغفر له في أول دفعة من دمه. قال: ويحلىٰ حلة الإيمان» بدل «ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار»[١].

قال المؤلف: ووقع في جميع نسخ الترمذي وابن ماجه: «ست خصال» وهي في متن الحديث: «سبع» وعلىٰ ما ذكر ابن ماجه: «ويحلىٰ بحلة الإيمان» تكون ثمانية، وكذا ذكره أبو بكر أحمد بن سلمان النجاد بسنده عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «للشهيد عند اللَّه ثمانية خصال».

الثالث: عن ابن عباس قال: ضرب رجل من أصحاب النبي ﷺ خباءه علىٰ قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك حتىٰ ختمها، فأتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه ضربت خبائي علىٰ قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا بقبر إنسان يقرأ سورة الملك حتىٰ ختمها. فقال ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر»[٢].

الرابع: عن جامع بن شداد قال: سمعت عبد اللَّه بن يسار يقول: كنت جالساً عند سليمان بن صرد، وخالد بن عرفطة فذكرا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يشهدا جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول اللَّه ﷺ:

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣١)، (٥/ ٣٤٨)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٩) وغيرهم.

(٢) رواه الترمذي فضائل القرآن (٢٨٩٠)، والطبراني في الكبير (١٢٨٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٨١) وغيرهم. وله شاهد من حديث ابن مسعود وغيره. انظر: السلسلة الصحيحة (١١٤٠).

«مَنْ يقتله بطنه لم يعذّب في قبره»؟. أخرجه أبو داود الطيالسي وزاد: فقال الآخر: بلىٰ[1].

الخامس: عن عبد اللَّه بن عمرو قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ قال: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلَّا وقَّاه اللَّه فتنة القبر»[2].

قلت: اعلم رحمك اللَّه أن هذا الباب لا يعارض ما تقدّم من الأبواب؛ بل يخصصها ويبيّن من لا يسأل في قبره ولا يفتن فيه، ممن يجري عليه السؤال، ويقاسي تلك الأهوال. وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس ولا مجال للنظر فيه، وإنما فيه التسليم والانقياد لقول الصادق المرسل إلىٰ العباد ﷺ.

فصل: قوله عليه السلام في الشهيد: «كفىٰ ببارقة السيوف علىٰ رأسه فتنة» معناه: أنه لو كان في هؤلاء المقتولين نفاق كان إذا التقىٰ الزحفان، وبرقت السيوف فرّوا؛ لأن من شأن المنافق: الفرار والروغان عند ذلك. ومن شأن المؤمن: البذل والتسليم للَّه نفساً وهيجان حميّته للَّه، والتعصب له لإعلاء كلمته. فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر؟ قاله الترمذي الحكيم.

قلت: وإذا كان الشهيد لا يفتن فالصدّيق أجل خطراً وأعظم أجراً، فهو أحرىٰ أن لا يفتن لأنه المقدم ذكره في التنزيل علىٰ الشهداء في قوله تعالىٰ: ﴿فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء: ٦٩] . وقد جاء في المرابط الذي هو أقل مرتبة من الشهيد أنه لا يُفتن، فكيف بمن هو أعلىٰ مرتبة منه ومن الشهيد؟ واللَّه أعلم فتأمله.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٢)، (٥/ ٢٩٢)، والترمذي في الجنائز ١٠٦٤٠)، والنسائي في الجنائز (٤/ ٩٨)، والطيالسي (١٢٨١) وغيرهم.

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٦٩، ١٧٦، ٢٢٠)، والترمذي في الجنائز (١٠٧٤) وغيرهم.

فصل: في الحديث الآخر: «من يقتله بطنه» وفيه قولان:

أحدهما: أنه الذي يصيبه الذرب وهو الإسهال. تقول العرب أخذه البطن إذا أصابه الداء، وذرب الجرح إذا لم يقبل الدواء، وذربت معدته فسدت.

الثاني: أنه الاستسقاء، وهو أظهر القولين فيه؛ لأن العرب تنسب موته إلىٰ بطنه، تقول: قتله بطنه؛ يعنون الداء الذي أصابه في جوفه، وصاحب الاستسقاء قلّ أن يموت إلّا بالذرب؛ فكأنه قد جمع الوصفين وغيرهما من الأمراض. والوجود شاهد للميت بالبطن أنّ عقله لا يزال حاضراً، وذهنه باقياً إلىٰ حين موته. ومثل ذلك صاحب السلّ إذ موت الآخر إنما يكون بالذرب، وليست حالة هؤلاء كحال من يموت فجأة أو يموت بالسام والبرسام، والحميات المطبقة أو القولنج أو الحصاة، فتغيب عقولهم لشدة الآلام، ولزوم أدمغتهم، ولفساد أمزجتها، فإذا كان الحال هكذا فالميت يموت وذهنه حاضر وهو عارف. واللَّه أعلم.

* * *

٥٠ ـ باب ما جاء أن الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي

عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتىٰ يبعثك اللَّه إليه يوم القيامة»[1].

فصل: قوله: «عرض عليه مقعده» ويروىٰ: «عرض علىٰ مقعده» قال علماؤنا: وهذا ضرب من العذاب كبير، وعندنا المثال في الدنيا، وذلك كمن عرض عليه القتل أو غيره من آلات العذاب، أو من يهدد به من غير أن يرىٰ الآلة، ونعوذ باللَّه من عذابه وعقابه بكرمه ورحمته. وجاء في التنزيل في حق

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز (١٣٧٩)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٦).

الكافرين: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]. فأخبر تعالىٰ أن الكافرين يُعرضون علىٰ النار، كما أن أهل السعادة يُعرضون علىٰ الجنان بالخبر الصحيح في ذلك، وهل كل مؤمن يُعرض علىٰ الجنان؟ فقيل ذلك مخصوص بالمؤمن الكامل الإيمان، ومن أراد اللَّه إنجاءه من النار، وأما من أنفذ اللَّه عليه وعيده من المخلطين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فله مقعدان يراهما جميعاً، كما أنه يرىٰ عمله شخصين في وقتين أو وقت واحد قبيحاً وحسناً، وقد يحتمل أن يراد بأهل الجنة كل من يدخلها كيفما كان، واللَّه أعلم.

ثم قيل هذا العرض إنما هو علىٰ الروح وحده، ويجوز أن يكون مع جزء من البدن، ويجوز أن يكون عليه مع جميع الجسد فيرد إليه الروح كما ترد عند المسألة حين يقعده الملكان، ويقال له: انظر إلىٰ مقعدك من النار قد أبدلك اللَّه به مقعداً من الجنة كيفما كان، فإن العذاب محسوس، والألم موجود، والأمر شديد.

وقد ضرب بعض العلماء لتعذيب الروح مثلاً في النائم، فإن روحه تعذَّب أو تنعم والجسد لا يحسّ بشيء من ذلك، وقال عبد اللَّه بن مسعود: أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون علىٰ النار كل يوم مرتين يقال لهم: هذه داركم، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وعنه أيضاً: أن أرواحهم في جوف طير سود تغدو علىٰ جهنم وتروح كل يوم مرتين، فذلك عرضها.

والغداة والعشي إنما هو بالنسبة إلينا علىٰ ما اعتدناه لا لهم؛ إذ الآخرة ليس فيها مساء ولا صباح، فإن قيل: فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] قلنا: الجواب عنهما واحد، وسيأتي له مزيد بيان في وصف الجنان إن شاء اللَّه تعالىٰ.

* * *

٥١ ـ باب ما جاء أن أرواح الشهداء في الجنة دون أرواح غيرهم

يدلّ على ذلك قوله عليه السلام في حديث ابن عمر الذي مرّ: «هذا مقعدك حتى يبعثك اللّه إليه يوم القيامة». وهذه حالة مختصة بغير الشهداء.

عن مسروق قال: سألنا عبد اللّه بن مسعود عن هذ الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»(١).

قلت: وهنا اعتراضات خمسة:

الأول: إن قيل: ما قولكم في الحديث الذي ذكرتم: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلّم عليه إلاّ عرفه ورد عليه السلام»؟(٢).

قلنا: هو عموم يخصصه ما ذكرناه، فهو محمول على غير الشهداء.

الثاني: فإن قيل: فقد روى مالك عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك الأنصاري أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن نسمة المؤمن طائر يعلَق في شجر الجنة حتى يرجعه اللّه إلى جسده

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٨٧).

(٢) رواه الخطيب في تاريخه (٦/ ١٢٧)، والبيهقي في الشعب (٩٢٩٦) موقوفاً على أبي هريرة بإسناد لا بأس به. وانظر: التذكرة رقم (٥٧).

يوم يبعثه»؟[1].

قلنا: قال أهل اللغة «تعلُق» بضم اللام تأكل. يقال علقت تعلق علوقاً. ويروىٰ يعلَق تعلَق بفتح اللام وهو الأكثر ومعناه: تسرح. وهذه حالة الشهداء لا غيرهم بدليل الحديث المتقدّم. وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ولا يرزق إلّا حيّ، فلا يتعجل الأكل والنعيم لأحد إلّا للشهيد في سبيل اللّه بإجماع من الأمة. حكاه القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين، وغير الشهيد بخلاف هذا الوصف إنما يملأ عليه قبره خضراً ويفسح له فيه. وقوله: «نسمة المؤمن» أي روح المؤمن الشهيد. يدلّ عليه قوله في نفس الحديث «حتىٰ يرجعه اللّه تعالىٰ إلىٰ جسده يوم يبعثه».

الثالث: فإن قيل: فقد جاء أن الأرواح تتلاقىٰ في السماء والجنة في السماء يدلّ عليه قوله عليه السلام: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء» وفي رواية «أبواب الجنة»؟[2].

قلنا: لا يلزم من تلاقي الأرواح في السماء أن يكون تلاقيها في الجنة، بل أرواح المؤمنين غير الشهداء تارة تكون في الأرض علىٰ أفنية القبور، وتارة في السماء لا في الجنة.

قال ابن العربي: وبحديث الجرائد يستدل الناس علىٰ أن الأرواح في القبور تعذّب أو تنعّم، وهو أبين في ذلك من حديث ابن عمر في الصحيح: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي»؛ لأن عرض مقعده ليس فيه بيان عن

---

(١) رواه مالك في الموطأ في الجنائز ١/ ٢٤٠ (٤٩)، وأحمد (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٦٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤١)، والنسائي في الجنائز (٤/ ١٠٨)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٤٩)، وفي الزهد (٤٢٧١).

(٢) رواه البخاري في الصوم (١٨٩٨)، ١٨٩٩)، ومسلم في الصيام (١٠٧٩).

موضعه الذي يراه منه، وحديث الجرائد نص على أن أولئك يعذبون في قبورهم وكذلك حديث اليهود[١].

الرابع: فإن قيل فقد قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قُتل في سبيل اللّه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه»[٢]. وهذا يدلّ على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة، من حين القتل ولا تكون أرواحهم في جوف طير، ولاتكون في قبورهم فأين تكون؟ قلنا: قد خرّج ابن وهب بإسناده عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيّاً»[٣]. فلعلهم هؤلاء أو من منعه من دخول الجنة حقوق الآدميين إذ الدّين ليس مختصاً بالمال على ما يأتي. ولهذا قال علماؤنا أحوال الشهداء طبقات مختلفة ومنازل متباينة يجمعها أنهم يرزقون، والشهداء مختلفو الحال. وسيأتي: كم الشهداء؟ إن شاء اللّه تعالى.

الخامس: فإن قيل: فقد روى ابن ماجه عن أبي أمامة قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «لشهيد البحر مثل شهيدي البر، والمائد في البحر كالمتشحط في دمه في البر، وما بين الموجتين كقاطع الدنيا في طاعة اللّه عز وجل، وإن اللّه وكّل مَلَك الموت بقبض الأرواح إلّا شهيد البحر فإنه يتولّى قبض أرواحهم، ويغفر لشهيد البر الذنوب كلها إلّا الدّين، ولشهيد البحر الذنوب كلها والدّين»؟[٤].

---

(١) حديث الجرائد: هو حديث: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير . . ». وحديث اليهود: هو حديث: «إن يهود تعذب في قبورها . . » وقد مرّا.

(٢) رواه النسائي في البيوع (٧/ ٢١٤ ـ ٣١٥)، والحاكم (٢/ ٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٢١٤٥). وهو حديث حسن.

(٣) رواه أحمد (١/ ٢٦٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٩٠)، والطبراني في الكبير (١٠٨٢٥) وفي الأوسط (١٢٣)، والحاكم (٢/ ٧٤)، وابن حبان (٤٦٥٨). وهو حديث حسن.

(٤) حديث موضوع. رواه ابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٨).

قلنا: الدَّين إذا أخذه المرء في حق واجب لفاقة أو عسر ومات ولم يترك وفاء فإن اللَّه تعالىٰ لا يحبسه عن الجنة إن شاء اللَّه شهيداً كان أو غيره؛ لأن علىٰ السلطان فرضاً أن يؤدي عنه دينه. قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ ترك دَيْـنًا أو ضياعًا فعلىٰ اللَّه ورسوله، ومَنْ ترك مالاً فلورثته فإن لم يؤد عنه السلطان فإن اللَّه تعالىٰ يقضي عنه ويرضي خصمه»[١].

وأما من أدان في سفه أو سرف فمات ولم يوفّه، أو ترك له وفاء ولم يوص به، أو قدر علىٰ الأداء فلم يوفّه، فهذا الذي يحبس به صاحبه عن الجنة حتىٰ يقع القصاص بالحسنات والسيئات علىٰ ما يأتي، فيحتمل أن يكون قوله عليه السلام في شهيد البحر عاماً في الجميع، وهو الأظهر؛ لأنه لم يفرق بين دَين ودَين، ويحتمل أن يكون قوله فيمن أدان ولم يفرّط في الأداء وكان عزمه ونيته الأداء لا إتلاف المال علىٰ صاحبه، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدىٰ اللَّه عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه اللَّه»[٢].

علىٰ أن حديث أبي أمامة في إسناده لين[٣]، وأعلىٰ منه إسناداً وأقوىٰ ما رواه مسلم عن عبد اللَّه بن عمرو أن رسول اللَّه ﷺ قال: «القتلُ في سبيل اللَّه يُكفِّر كل شيء إلَّا الدَّيْـن»[٤] ولم يخصّ برّاً من بحر.

وكذلك ما رواه أبو قتادة: أن رجلاً قال: يا رسول اللَّه، أرأيت إن قُتلت في سبيل اللَّه أيُكفِّر اللَّه عني خطاياي؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: «نعم إن قتلت في سبيل اللَّه وأنت صابر محتسب مُقبل غير مُدبر» ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «كيف قلت؟» فقال: أرأيت إن قُتلت في سبيل اللَّه أيكفِّر اللَّه عنِّي خطاياي؟ فقال

(١) رواه البخاري مختصراً في كتاب الكفالة (٢٢٩٨)، ومسلم في الفرائض (١٦١٩).
(٢) رواه البخاري في الاستقراض (٢٣٨٧).
(٣) بل هو موضوع.
(٤) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٦).

رسول اللَّه ﷺ: «نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلَّا الدَّين، فإن جبريل قال لي ذلك»[١].

وقد روى ابن المبارك: عن خالد بن معدان قال: حدث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: «أرواح المؤمنين في طير كالزرازير يتعارفون، يرزقون من الجنة»[٢].

وعن منصور بن أبي منصور قال: سألت عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه عنه، فقلت: أخبرني عن أرواح المسلمين أين هي حين يتوفَّون؟ قال: ما تقولون أنتم يا أهل العراق؟ قلت: لا أدري. قال: فإنها صور طير بيض في ظل العرش، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وذكر الحديث[٣].

قلت: فهذه حجة من قال: إن أرواح المؤمنين كلهم في الجنة، واللَّه أعلم. على أنه يحتمل أن يدخله من التأويل ما تقدم واللَّه أعلم، فيكون المعنى: أرواح المؤمنين الشهداء وكذا فقلت: أخبرني عن أرواح المؤمنين الشهداء. واللَّه أعلم.

وعن عبد اللَّه بن أبي يزيد أنه سمع ابن عباس رضي اللَّه عنهما يقول: «إن أرواح الشهداء تجول في طير خضر»[٤].

فصل: وقع في حديث ابن مسعود: «أرواحهم في جوف طير خضر». وفي حديث مالك عن كعب بن مالك: «نسمة المؤمن طائر». وروى الأعمش عن عبداللَّه بن مرة قال: سئل عبد اللَّه بن مسعود عن أرواح الشهداء؟ فقال: أرواح الشهداء عند اللَّه كطير خضر في قناديل تحت العرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم ترجع إلى قناديلها. وذكر الحديث[٥].

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٥).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٤٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٧٠).

(٣) ابن المبارك في زوائد الزهد (١٦٤).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٩٠)، وعبد الرزاق (٩٥٥٧) وغيرهما.

(٥) هذه الروايات مرّ تخريجها.

وروىٰ ابن شهاب عن ابن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ قال: «أرواح الشهداء طير خضر تعلَق في شجر الجنة» وهذا كله مطابق لحديث مالك فهو أصح من رواية من روىٰ أن أرواحهم في جوف طير خضر!؟! قاله أبو عمر في الاستذكار. وقال أبو الحسن القابسي: أنكر العلماء قول من قال في حواصل طير لأنها رواية غير صحيحة؛ لأنها إذا كانت كذلك فهي محصورة مضيّق عليها!؟!

قلت: الرواية صحيحة؛ لأنها في صحيح مسلم بنقل العدل عن العدل فيحتمل أن تكون (الفاء) بمعنىٰ (علىٰ) فيكون المعنىٰ أرواحهم علىٰ جوف طير خضر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي علىٰ جذوع النخل، وجائز أن يسمىٰ الظهر: جوفاً. إذ هو محيط به ومشتمل عليه. قال أبو محمد عبد الحق: وهو حسن جداً.

وذكر شبيب بن إبراهيم في كتاب «الإفصاح المنعم» علىٰ جهات مختلفة: منها ما هو طائر يعلق من شجر الجنة، ومنها ما هو في حواصل طير خضر. ومنها ما يأوي في قناديل تحت العرش. ومنها ما هو في حواصل طير بيض. ومنها ما هو في حواصل طير كالزرازير. ومنها ما هو في أشخاص صور من صور الجنة. ومنها ما هو في صور تخلق لهم من ثواب أعمالهم. ومنها ما تسرح وتعود إلىٰ جثتها تزورها. ومنها ما تتلقىٰ أرواح المقبوضين. وممن سوىٰ ذلك ما هو في كفالة ميكائيل. ومنها ما هو في كفالة آدم. ومنها ما هو في كفالة إبراهيم عيه السلام. وهذا قول حسن فإنه يجمع الأخبار حتىٰ لا تتدافع. واللّه بغيبه أعلم وأحكم.

* * *

٥٢ ـ باب كم الشهداء؟ ولم سمي شهيداً؟ ومعنى الشهادة

عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «الشهداء خمسة: المبطون، والمطعون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل اللَّه عز وجل»(١).

وعن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الشهداء سبعة سوىٰ القتل في سبيل اللَّه: المطعون، والمبطون، والغرق، والحرق، وصاحب ذات الجنب، والذي يموت تحت الهدم، والمرأة تمت بجمع»(٢)، قيل: هي التي تموت من الولادة وولدها في بطنها قد تم خلقه، وقيل: إذا ماتت من النفاس فهي شهيدة، سواء ألقت ولدها أو ماتت وهو في بطنها، وقيل: التي تموت بكراً لم يمسها الرجال، وقيل: التي تموت قبل أن تحيض وتطمث. فهذه أقوال لكل قول وجه، وفي (جُمَع) لغتان: ضم الجيم وكسرها. وفي بعض الآثار: «المجنوب شهيد»(٣) يريد: صاحب الجنب، يقال منه رجل جَنِب بكسر النون وفتح الجيم إذا كانت به ذات الجنب وهو الشوصة.

وعن سعيد بن زيد، قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَاله فهو شهيد، ومَنْ قُتِلَ دون دَمِه فهو شهيد، ومَنْ قُتِلَ دون دينه فهو شهيد، ومَنْ قُتِلَ دون أهله فهو شهيد»(٤). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومن حديث سويد بن مقرن قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دونَ مَظْلمة

---

(١) رواه البخاري في الأذان (٦٥٢)، (٦٥٣)، ومسلم في الإمارة (١٩١٤).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦)، وأبو داود في الجنائز (٣١١١)، والنسائي في الجنائز (٤/ ١٣)، وفي الجهاد (٦/ ٥١)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠٣) وغيرهم.

(٣) رواه النسائي في الجنائز (٤/ ١٤)، وفي الجهاد (٦/ ٥١، ٥٢).

(٤) رواه أحمد (١/ ١٩٠)، وأبو داود في السنة (٤٧٧٢)، والترمذي في الديات (١٤٢١)، والنسائي في تحريم الدم (٧/ ١١٥ ـ ١١٦)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٨٠) وغيرهم.

فهو شهيد»[١].

ومن حديث أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الشهادة صادقًا أُعطيها وإن لم تصبْه»[٢].

وعن سهل بن حنيف أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سأل اللَّه الشهادة بصدق بلّغه اللَّه منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[٣].

فصل: الشهداء جمع الشاهد. والشهيد: القتيل في سبيل اللَّه. كذا قال أهل اللغة: الجوهري وغيره. وسمّي بذلك؛ لأنه مشهود له بالجنة، فالشهيد بمعنى مشهود له فعيل بمعنى مفعول، وقال ابن فارس اللغوي في المجمل: والشهيد القتيل في سبيل اللَّه. قالوا: لأن ملائكة اللَّه تشهده. وقيل: سمّي شهيداً لأن أرواحهم أحضرت دار السلام لأنهم ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة. فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة، وقيل: سمي بذلك لسقوطه بالأرض والأرض الشاهدة. وقيل: سمي بذلك لشهادته على نفسه للَّه عز وجل حين لزمه الوفاء بالبيعة التي بايعه في قوله الحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. فاتصلت شهادة الشهيد الحق بشهادة العبد فسمّاه شهيداً. ولذلك قال عليه السلام: «واللَّه أعلم بمن يُكْلَم في سبيله»[٤]، وقال في شهداء أُحُد: «أنا شهيد على هؤلاء»[٥] لبذلهم نفوسهم دونه، وقتلهم بين يديه، تصديقاً لما جاء به ﷺ، هذا الكلام في الشهيد.

---

(١) رواه النسائي في تحريم الدم (٧/ ١١٧)، والطبراني في الكبير (٦٤٥٤). وله شاهد من حديث ابن عباس عند أحمد (١/ ٣٠٥).

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٨).

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٩).

(٤) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٠٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦).

(٥) رواه البخاري في الجنائز (١٣٤٣)، وفي المغازي (٤٠٧٩). وفي مواضع أخرى.

فأما الشهادة، فصفة سمّي حاملها بالشاهد ويبالغ بشهيد.

وللشهادة ثلاثة شروط لا تتم إلّا بتمامها، وهي: الحضور، والوعي، والأداء.

أما الحضور: فهو شهود الشاهد المشهود.

والوعي: زمّ ـ أي ضبط ـ ما شاهده وعلمه في شهوده ذلك.

والأداء: هو الإتيان بالشهادة على وجهها في موضع الحاجة إلى ذلك.

هذا معنى الشهادة، والشهادة عَلَى الكمال إنما هي للّه سبحانه وتعالى، وأن جميع الشاهدين سواه يؤدون شهادتهم عنده. قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَجِيٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِالۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩] والشهداء: هم العدول، وأهل العدالة في الدنيا والآخرة، وهم القائمون بما أوجب الحق سبحانه عليهم في الدنيا.

* * *

باب منه

عن العرباض بن سارية أن رسول اللّه ﷺ قال: «يختصم الشهداء والمتوفون على فُرُشهم إلى ربّنا في الذين يتوفون من الطاعون فيقول الشهداء: قُتلوا كما قُتلنا؟ ويقول المتوفون على فُرشهم: إخواننا ماتوا على فرشهم كما متنا؟ فيقول ربنا عز وجل: انظروا إلى جراحهم، فإن أشبهت جراح المقتولين فإنهم منهم، فإذا جراحهم أشبهت جراحهم»[1].

وروت عائشة رضي اللّه عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «إنّ فناء أمتي الطعن والطاعون» قالت: أما الطعن فقد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «غدة كغدة

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٨، ١٢٩)، والنسائي (٦/ ٣٧)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥٠). وله شاهد عند أحمد (٤/ ١٨٥)، والطبراني (١٧/ ١١٨).

البعير تخرج في المراق والإباط، من مات منها مات شهيداً»[١].

* * *

٥٣ ـ باب ما جاء أن الإنسان يُبلى ويأكله التراب إلاَّ عَجْبَ الذَّنب

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ليس من الإنسان شيء إلَّا يبلىٰ إلَّا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[٢].

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلَّا عجب الذنب، منه خلق، ومنه يركب»[٣].

فصل: يقال عجم وعجب بالميم والباء: لغتان، وهو جزء لطيف في أصل الصلب. وقيل: هو رأس العصعص، كما في حديث أبي سعيد الخدري: قيل: يا رسول اللَّه وما هو؟ قال: «مثل حبة خردل ومنه تنشأون»[٤]. وقوله: «منه خلق ومنه يركب» أي أول ما خلق من الإنسان هو، ثم إن اللَّه يبقيه إلىٰ أن يركب الخلق منه تارة أخرىٰ.

* * *

٥٤ ـ باب لا تأكل الأرض أجساد الأنبياء ولا الشهداء وأنهم أحياء

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ولذلك

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٣٣، ١٤٥، ٢٢٥) وله شواهد. انظر المجمع (٢/ ٣١٥).

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٨١٤)، ومسلم في الفتن (٢٩٥٥).

(٣) رواه مسلم في الفتن (١٤٢ تحت ٢٩٥٥).

(٤) رواه أحمد (٣/ ٢٨)، والحاكم (٤/ ٦٠٩)، وابن حبان (٣١٤٠)، وأبو يعلىٰ (١٣٨٢). قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٢): رواه أحمد وإسناده حسن.

لا يُغسَّلون ولا يُصلَّىٰ عليهم. ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة في شهداء أُحُد وغيرهم، ليس هذا موضع ذكرها.

عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وعبد اللَّه بن عمرو الأنصاريين ثم السلميين كانا قد حفر السيل قبرهما، وكان قبرهما مما يلي السيل وكانا في قبر واحد، وهما ممن استشهد يوم أُحُد فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما، فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده علىٰ جرحه فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه، ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين أُحُد وبين يوم حفر عنهما ست وأربعون سنة[١].

قال المؤلف رضي اللَّه عنه: وهكذا حُكْم من تقدّمنا من الأمم ممن قتل شهيداً في سبيل اللَّه أو قتل علىٰ الحق كأنبيائهم. وفي الترمذي في قصة أصحاب الأخدود: «وأن الغلام الذي قتله الملك دُفن، قال: فيذكر أنه أخرج في زمن عمر ابن الخطاب وأصبعه علىٰ صدغه كما وضعها حين قُتل». قال: حديث حسن غريب. وقصة الأخدود مخرّجة في صحيح مسلم، وكانوا بنجران في الفترة بين عيسىٰ ومحمد ﷺ، وقد ذكرناها مستوفاة في «البروج» في كتاب الجامع لأحكام القرآن والمبين من السنَّة وآي الفرقان[٢].

وروىٰ نقلة الأخبار: أن معاوية رحمه اللَّه لما أجرىٰ العين التي استنبطها بالمدينة في وسط المقبرة. وأمر الناس بتحويل موتاهم. وذلك في أيام خلافته، وبعد الجماعة بأعوام، وذلك بعد أُحُد بنحو من خمسين سنة. فوُجِدوا علىٰ

---

(١) ذكره مالك في الموطأ في كتاب الجهاد (ص٤٧٠ رقم ٤٩)، ورواه ابن سعد في طبقاته (٣/ ٥٦٢ ـ ٥٦٣)، وابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٢٤١).

(٢) قصة غلام الأخدود: رواها مسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٥)، وأحمد (٦/ ١٦)، (٨/ ٢٩)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٠)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٦٦١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٧٥١)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٨٩ ـ ١٩٣).

حالهم حتى أن الكل رأوا المسحاة، وقد أصابت قدم حمزة بن عبد المطلب فسال منه الدم. وأن جابر بن عبد اللَّه أخرج أباه عبد اللَّه بن حرام كأنما دُفِن بالأمس. وهذا أشهر في الشهداء من أن يحتاج فيه إلى إكثار[1].

وخرّج أبو داود وابن ماجه في سننهما عن أوس بن أوس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إنّ أفضل أيامكم يوم الجمعة؛ فيه خُلِق آدم، وفيه قُبِض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإنّ صلاتكم معروضةٌ عليَّ» قالوا: يا رسول اللَّه، وكيف تُعرَض صلاتنا عليك وقد أَرِمْت؟ يقولون: بليت. فقال: «إن اللَّه عز وجل حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[2] لفظ أبي داود. وقال ابن العربي: حديث حسن.

قلت: وخرّجه أبو بكر البزار عن شداد بن أوس، واتفقوا في السند، عن حسين بن عليّ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني فقال: عن أوس بن أوس أو عن شداد بن أوس، وقال البزار: لا يعلم أحداً يرويه بهذا اللفظ إلّا شداد بن أوس، ولا نعلم له طريقاً غير هذا الطريق، عن شداد بن أوس، ولا رواه إلّا حسين بن علي الجعفي، وقال أبو محمد عبد الحق، ويقال: إن عبد الرحمن هذا هو ابن يزيد بن تميم. قاله البخاري وأبو حاتم: وهو منكر الحديث ضعيفه.

قلت: وقد خرّجه ابن ماجه من غير هذا الطريق فقال: حدثنا عمرو بن سواد المصري، حدثنا عبد اللَّه بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عبادة بن نسيّ، عن أبي الدرداء، قال: (قال رسول

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر (١٣/ ١٤٢)، (١٩/ ٢٤٢).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود في الصلاة (١٠٤٧)، (١٥٣١)، والنسائي في الجمعة (٣/ ٩١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٥) وفي الجنائز (١٦٣٦) وغيرهم.

اللَّه ﷺ: «أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة، فإنه مشهود تشهده الملائكة، وإن أحداً لن يُصلِّي عليّ إلَّا عرضت عليّ صلاته حتى يفرغ منها» قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: «وبعد الموت، إن اللَّه حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» فنبي اللَّه حي يُرزق ﷺ»[1]. ورواه أبو جعفر الطبري في تهذيب الآثار من حديث سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسيّ عن أبي الدرداء.

قال أبو محمد عبد الحق: وزيد بن أيمن لا أعلم رواة عنه إلَّا سعيد بن هلال.

قال المؤلف: قال البخاري في التاريخ: زيد بن أيمن عن عبادة بن نسيّ مرسل روى عنه سعيد بن أبي هلال. واللَّه أعلم.

* * *

٥٥ ـ باب في انقراض الخلق وذكر النفخ والصعق وكم بين النفختين؟ وذكر البعث والنشر والنار

عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ـ لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً ـ فيبعث اللَّه تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل اللَّه عز وجل ريحاً باردة من قِبَل الشمال، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلَّا قَبَضَتْهُ، حتى إن أحدكم لو دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه، فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألَا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في

---

(١) رواه ابن ماجه في الجنائز (١٦٣٧) إلا أنه منقطع في موضعين. ولكن له شواهد يتحسن بها.

الصور فلا يسمعه أحد إلَّا أصغىٰ لِيتاً ورفع لِيتاً»(١) قال: «فأول من سمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس» ثم قال: «يُرسل اللَّه - أو قال: يُنزل اللَّه - مطراً كأنه الطلّ، فينبت منه أجساد الناس ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ثم يُقال: يا أيها الناس هلمّوا إلىٰ ربّكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» قال: «فذلك يوم يجعل الولدان شيبًا، وذلك يوم يُكشف عن ساق»(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعين يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعين شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعين عاماً؟ قال: أبيت، ثم ينزل اللَّه من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال: «وليس من الإنسان شيء إلَّا يبلىٰ، إلَّا عظماً واحداً - وفي رواية: «لا تأكله الأرض أبداً» - وهو عجب الذَّنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة(٣).

فصل: هذان الحديثان مع صحتهما في غاية البيان فيما ذكرناه ويزيدهما أيضاً بياناً في أبواب، إن شاء اللَّه تعالىٰ.

وأصغىٰ معناه: أمال. ليتا: يعني صفحة العنق. يلوط: يطيّن ويصلح.

وقول أبي هريرة: أبيت. فيه تأويلان:

الأول: أبيت أي امتنعت من بيان ذلك وتفسيره، وعلىٰ هذا كان عنده علم من ذلك أي سمعه من النبي ﷺ.

الثاني: أبيت: أي أبيت أن أسأل عن ذلك النبي ﷺ، وعلىٰ هذا لم يكن

---

(١) إلَّا أصغىٰ لِيتا ورفع لِيتا: الليت: صفحة العنق. وهذا التعبير كناية عن شدة الأمر.

(٢) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٤٠).

(٣) مرّ بعضه مع تخريجه في باب (٥٣) ما جاء أن الإنسان يبلىٰ ويأكله التراب إلا عَجْبَ الذنب.

عنده علم من ذلك. والأول أظهر وإنما لم يبيّنه؛ لأنه لم تلجئ لذلك حاجة؛ ولأنه ليس من البينات والهدى الذي أمر بتبليغه. وفي البخاري عنه أنه قال: «حفظت وعاءين من علم فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم»(١).

قال أبو عبد اللّه: البلعوم: مجرى الطعام، وقد جاء أن بين النفختين أربعين عاماً، واللّه أعلم وسيأتي.

* * *

٥٦ ـ باب في قول اللّه تعالى

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

وهم الملائكة، أو الشهداء، أو الأنبياء، أو حملة العرش، أو جبريل، أو ميكائيل، أو ملك الموت. صعق: مات.

روى الأئمة، عن أبي هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر، فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه. قال: تقول هذا وفينا رسول اللّه ﷺ؟ فذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ، فقال: «قال اللّه عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْـرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنـظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] فأكون أوّل من رفع رأسه، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى اللّه؟ ومن قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» لفظ ابن ماجه وأخرجه البخاري ومسلم بمعناه(٢).

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم (١٢٠).

(٢) رواه البخاري بنحوه في مواضع منها: كتاب الخصومات (٢٤١١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٧٤).

فصل: واختلف العلماء في المستثنىٰ: مَنْ هو؟ فقيل الملائكة. وقيل الأنبياء. وقيل الشهداء، واختاره الحليمي، قال: وهو مروي عن ابن عباس أن الاستثناء لأجل الشهداء. فإن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩]، وضعف غيره من الأقوال علىٰ ما يأتي.

وقال شيخنا أبو العباس: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل.

قلت: قد ورد حديث أبي هريرة بأنهم الشهداء وهو الصحيح علىٰ ما يأتي[1].

وقال الحليمي: مَنْ زعم أن الاستثناء لأجل حملة العرش أو جبريل وميكائيل وملك الموت، أو زعم أنه لأجل الولدان والحور العين في الجنة، أو زعم أنه لأجل موسىٰ، فإنّ النبي ﷺ قال: «أنا أول مَنْ تنشقّ عنه الأرض فأرفع رأسي فإذا موسىٰ متعلّق بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو كان ممن استثنىٰ اللَّه عز وجل» فإنه لم يصح شيء منها.

أما الأول: فإن حَمَلَة العرش ليسوا من سكان السمٰوات والأَرض؛ لأن العرش فوق السمٰوات كلها، فكيف يكون حملته في السمٰوات؟ وأما جبريل وميكائيل وملك الموت فمن الصافين المسبحين حول العرش. وإذا كان العرش فوق السمٰوات لم يكن الاصطفاف حوله في السمٰوات. وكذلك القول الثاني؛ لأن الولدان والحور في الجنة، والجنات وإن كان بعضها أرفع من بعض فإن جميعها فوق السمٰوات ودون العرش، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء فلا شك أنها بمعزل عما خلق اللَّه تعالىٰ للفناء، وصرفه إلىٰ موسىٰ فلا وجه؛ لأنه قد مات بالحقيقة فلا يموت عند نفخ الصور ثانية، ولهذا لم يعتد في ذكر اختلاف

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٨) حيث أورده من رواية أبي يعلىٰ وقال: «رجاله كلهم ثقات إلّا شيخ إسماعيل بن عياش فإنه غير معروف».

المتأولين في الاستثناء بقول من قال: إلّا من شاء اللّه، أي الذين سبق موتهم قبل نفخ الصور؛ لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة، فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها فلا معنى لاستثنائه منها، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بغرض أن يصعقوا، فلا وجه لاستثنائهم. وهذا في موسى موجود فلا وجه لاستثنائه.

وقال النبي ﷺ في ذكر موسى ما يُعارض الرواية الأولى وهو أن قال: «الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول مَنّ يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور؟» فظاهر هذا الحديث: أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

وصرف ذكر يوم القيامة إلى أنه أراد أوائله قيل: المعنى أن الصور إذا نفخ فيه أخرى كنت أول من يرفع رأسه، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور؟ أي فلا أدري أبعثه قبلي كان وهباً له وتفضيلاً من هذا الوجه، كما فضّل في الدنيا بالتكليم أو كان جزاء له بصعقة الطور؛ أي قدم بعثه على بعث الأنبياء الآخرين بقدر صعقته عندما تجلّى ربه للجبل إلى أن أفاق ليكون هذا جزاء له بها.

وما عدا هذا فلا يثبت. قال شيخنا أحمد بن عمر: وظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية، نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق. ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى عليه السلام، ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل بما تقدّم من ذكر موته، وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه الصعقة صعقة فزع بعد النشر حين تنشق السمٰوات والأرض، قال: فتستقل الأحاديث والآيات واللّه أعلم.

قال شيخنا أبو العباس: وهذا يرده ما جاء في الحديث أنه عليه السلام حين يخرج من قبره يلقىٰ موسىٰ وهو متعلّق بالعرش، وهذا إنما هو عند نفخة البعث.

قال شيخنا أحمد بن عمر: والذي يزيح هذا الإشكال إن شاء اللّه تعالىٰ أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلىٰ حال، ويدل علىٰ ذلك: أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولىٰ.

مع أنه قد صحّ عن النبي ﷺ: «أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء»[1]، وأن النبي ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء وخصوصاً بموسىٰ[2]، وقد أخبرنا النبي ﷺ بما يقتضي أن اللّه تبارك وتعالىٰ يرد عليه روحه حتىٰ يرد السلام علىٰ كل من سلّم عليه[3]، إلىٰ غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلىٰ أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم موجودون أحياء ولا يراهم أحد من نوعنا إلّا مَن خصّه اللّه بكرامة من أوليائه. وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السمـٰوات ومن في الأرض إلّا مَنْ شاء اللّه، فأمّا صعق غير الأنبياء فموت. وأما صعق الأنبياء، فالأظهر: أنه غشية؛ فإذا نفخ في الصور نفخة البعث، فمن مات حيي، ومن غشي عليه أفاق.

وكذلك قال ﷺ في صحيح مسلم والبخاري: «فأكون أول من يفيق»[4]وهي رواية صحيحة وحسنة، فنبينا ﷺ أول مَنْ يخرج من قبره قبل الناس كلهم قبل

---

(١) مرّ تخريجه في باب (٥٤) لا تأكل الأرض أجساد الأنبياء.

(٢) حديث الإسراء: وردت أحاديث كثيرة في ذلك في الصحيحين وغيرهما.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٢٧)، وأبو داود في المناسك (٢٠٤١)، والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٢٤٥) وغيرهم. وهو حديث حسن.

(٤) مرّ تخريجه قريباً.

الأنبياء وغيرهم إلَّا موسى، فإنه حصل له فيه تردد: هل بُعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً؛ لأنه حوسب بغشية الطور؟ وهذه فضيلة عظيمة في حق موسى عليه السلام. ولا يلزم من فضيلة أحد الأمرين المشكوك فيهما فضيلة موسى عليه السلام على محمد ﷺ مطلقاً؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كليّاً. واللَّه أعلم.

قال المؤلف: ما اختاره شيخنا هو ما ذكره الحليمي واختاره في قوله، فإن حمل عليه الحديث فذاك. قال الحليمي: وأما الملائكة الذين ذكرناهم صلوات اللَّه عليهم فإنا لم ننف عنهم الموت، ولا أحلناه، وإنما أبينا أن يكونوا هم المرادين بالاستثناء من الوجه الذي ذكرناه، ثم قد وردت الأخبار بأن اللَّه تعالى يميت حملة العرش وملك الموت وميكائيل ثم يميت آخر من يميت جبريل ويحييه مكانه ويحيي هؤلاء الملائكة الذين ذكرناهم. وأما أهل الجنة فلم يأت عنهم خبر: والأظهر أنها دار الخلد. فالذي يدخلها لا يموت فيها أبداً مع كونه قابلاً للموت، والذي خُلق فيها أوْلى أن لا يموت أبداً. وأيضاً فإن الموت لقهر المكلفين، ونقلهم من دار إلى دار، وأهل الجنة لم يبلغنا أن عليهم تكليفاً؛ فإن أعفوا من الموت كما أعفوا من التكليف لم يكن بعيداً.

فإن قيل: فقد قال اللَّه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وهو يدلّ على أن الجنة نفسها تفنى ثم تُعاد يوم الجزاء، فلم أنكرتم أن يكون الولدان والحور يموتون ثم يحيَوْن؟ قيل: يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: ما من شيء إلَّا هو قابل للهلاك فيهلك إن أراد اللَّه به ذلك ـ إلَّا وجهه ـ أي إلَّا هو سبحانه، فإنه تعالى قديم؛ والقديم لا يمكن أن يفنى، وما عداه محدَث، والمحدَث إنما يبقى قدر ما يبقيه محدِثه فإذا حبس البقاء عنه فني. ولم يبلغنا في خبر صحيح ولا معلول أنه يهلك العرش فلتكن الجنة مثله.

فصل: قوله ﷺ في الحديث: «وَمَنْ قال أنا خير من يونس بن متىٰ فقد كذب». للعلماء فيه تأويلات: أحسنها وأجملها ما ذكره القاضي أبو بكر بن العربي قال: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد اللّه بن يوسف الجويني أنه سئل: هل الباري في جهة؟ فقال: لا هو متعال عن ذلك[1]. قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبي ﷺ: «لا تفضّلوني علىٰ يونس بن متىٰ» فقيل له: ما وجه الدليل من هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتىٰ يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها ديناً، فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال: لا يتبع بها اثنين لأنه يشق عليه. فقال واحد: هي عليّ. فقال: إن يونس بن متىٰ رمىٰ بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، وصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث ونادىٰ: ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْـتَ سُبْـحَانَكَ إِنِّي كُنْـتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] كما أخبر اللّه، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس علىٰ الرفرف الأخضر وارتقىٰ صعداً حتىٰ انتهىٰ به إلىٰ موضع يسمع فيه صريف الأقلام وناجاه ربه بما ناجاه به، وأوحىٰ إليه ما أوحىٰ بأقرب إلىٰ اللّه من يونس في ظلمة البحر.

قال المؤلف: فاللّه سبحانه قريب من عباده يسمع دعاءهم، ولا يخفىٰ عليه حالهم، كيفما تصرفت من غير مسافة بينه وبينهم، فيسمع ويرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، تحت الأرض السفلىٰ، كما يسمع ويرىٰ تسبيح حملة عرشه من فوق السبع السمـٰوات العلىٰ، سبحانه لا إله إلَّا هو عالم الغيب والشهادة، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصىٰ كل شيء عددًا، ولقد أحسن أبو العلاء بن سليمان المغربي حيث يقول:

---

(١) تنبيه: عقيدة السلف: أن اللّه فوق سمـٰواته، مستو علىٰ عرشه، بائن من خلقه. وعلىٰ إثبات صفة العلو للعلي الغفار. ومن قال غير ذلك فهو معطل.

يا مَنْ يرىٰ مدّ البعوض جناحها — في ظلمة اللّيل البهيم الألْـيَلِ
ويرىٰ مناط عُروقها في لحمها — والمخّ في تلك العظام النُّحَّلِ
آجالُها محتومةٌ، أرزاقُها — مقسومة بعطا، وإن لم تَسْأَلِ
إمننْ عليّ بتوبةٍ تمحو بها — ما كان مِنّي في الزّمان الأوّلِ

* * *

٥٧ ـ باب يفنىٰ العباد ويبقىٰ الملك للّه وحده

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يقبض اللّه الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»؟[1].

وعن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يطوي اللّه السمـٰوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنىٰ. ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون»؟[2].

وعن عبد اللّه بن مقسم أنه نظر إلىٰ عبد اللّه بن عمر كيف يحكي رسول اللّه ﷺ؟ قال: «يأخذ اللّه سماواته وأرَضيه بيديه، فيقول: أنا اللّه ويقبض أصابعه ويبسطها فيقول: «أنا الملك» حتىٰ نظرت إلىٰ المنبر يتحرك من أسفل حتىٰ إني أقول: أساقط هو برسول اللّه ﷺ[3].

فصل: هذه الأحاديث تدلّ علىٰ أن اللّه سبحانه يفني جميع خلقه أجمع كما تقدّم ثم يقول اللّه عز وجل: ﴿لِمَنِ الْمُلْـكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فيجيب نفسه المقدسة بقوله: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦][4].

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٣٨٢) وفي مواضع أخرىٰ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين (٢٧٨٧).

(٢) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٨).

(٣) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٥ تحت ٢٧٨٨).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الأهوال (١٤٦)، وابن المبارك في زوائد الزهد (٣٨٨)، والطبري في تفسيره (١٣/ ١٤٩). وغيرهم بسند حسن.

وقيل: إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله عليها على ما يأتي: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيجيبه العباد: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. رواه أبو وائل عن ابن مسعود واختاره أبو جعفر النحاس قال: والقول صحيح عن ابن مسعود، وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل.

قال المؤلف رضي الله عنه: والقول الأول أظهر؛ لأن المقصود إظهاره انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين وانتساب المنتسبين. إذ قد ذهب كل ملك ومُلكه وكل جبار ومتكبر ومُلكه، وانقطعت نسبتهم ودعاويهم، وهذا أظهر. وهو مقتضى قوله الحق: «أنا الملك أين ملوك الأرض؟».

* * *

٥٨ - باب البرزخ

روى هناد بن السري قال: حدثنا محمد بن فضيل ووكيع عن فطر قال: سألت مجاهداً عن قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] قال: هو ما بين الموت والبعث[1].

وقيل للشعبي: مات فلان. قال: ليس هو في الدنيا ولا في الآخرة هو في برزخ[2]، والبرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان: ٥٣] أي: حاجزاً، وكذلك هو في الآية من وقت الموت إلى البعث؛ فمن مات فقد دخل في البرزخ وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. أي: من أمامهم وبين أيديهم.

* * *

(١) رواه هناد في الزهد (٣١٤).

(٢) رواه هناد في الزهد (٣١٥).

٥٩ ـ باب ذكر النفخ الثاني للبعث في الصور وكيفية البعث، وأول مَنْ تنشقّ عنه الأرض، وأول منْ يحيا من الخلق وبيان السن الذي يخرجون عليه من قبورهم، وفي لسانهم وبيان قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]

قال اللّه عز وجل: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨] وسمّاه اللّه تعالىٰ أيضاً بالناقور. في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨].

قال المفسرون: الصُّور ينقر فيه مع النفخ الأول لموت الخلق علىٰ ما يأتي بيانه، قال اللّه تعالىٰ مخبراً عن كفار قريش ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ [يسٓ: ٤٩] أي ما ينتظرون كفار آخر هذه الأمة الدائنون بدين أبي جهل وأصحابه ـ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ـ يعني النفخة الأولىٰ التي يكون بها هلاكهم ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يسٓ: ٤٩] أي يختصمون في أسواقهم وحوائجهم. قال اللّه: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي أن يوصوا ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يسٓ: ٥٠] أي من أسواقهم وحيث كانوا ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يسٓ: ٢٩] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [يسٓ: ٥١] النفخة هي النفخة الثانية نفخة البعث. والصور: قرن من نور يجعل فيه الأرواح، يقال إن فيه من الثقب علىٰ عدد أرواح الخلائق علىٰ ما يأتي. قال مجاهد هو كالبوق ذكره البخاري، فإذا نفخ فيه صاحب الصور النفخة الثانية ذهب كل روح إلىٰ جسده ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يخرجون سراعًا. يقال نسل ينسِلُ وينسُل بالضم أيضاً: إذا أسرع في مشيه؛

فالمعنىٰ يخرجون مسرعين. وفي الخبر: أن بين النفختين أربعين عامًا. وفي البخاري عن ابن عباس في قوله تعالىٰ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] الصُّور. قال: (والراجفة) النفخة الأولىٰ (والرادفة) الثانية.

وروي عن مجاهد أنه قال: للكافرين هجعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور قاموا مذعورين عجلين ينظرون ما يُراد بهم لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وقد أخبر اللَّه عز وجل عن الكفار أنهم يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾؟ [يسٓ: ٥٢] فيقول لهم الملائكة أو المؤمنون علىٰ اختلاف المفسرين: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يسٓ: ٥٢]. وقيل: إن الكفار هم القائلون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ وذلك أنهم لما بعثوا قال بعضهم لبعض: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾؟ صدّقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به ثم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فكذبنا به؛ أقرُّوا حين لم ينفعهم الإقرار، ثم يؤمر بحشر الجميع إلىٰ الموقف للحساب.

وقال عكرمة: إن الذين يغرقون في البحر تقتسم لحومهم الحيتان فلا يبقىٰ منهم شيء إلَّا العظام، فتلقيها الأمواج إلىٰ الساحل فتمكث حيناً ثم تصير حائلة نخرة، ثم تمر الإبل فتأكلها ثم تسير الإبل فتبعر، ثم يجيء قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه، ثم تخمد تلك النار فيجيء الريح فيلقي ذلك الرماد علىٰ الأرض فإذا جاءت النفخة ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ يخرج أولئك وأهل القبور سواء ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي نفخة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يسٓ: ٥٣].

قال علماؤنا رحمهم اللَّه: فالنفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور وغيرهم، فيعيد اللَّه الرفات من أبدان الأموات، ويجمع ما تفرق منها في البحار

وبطون السباع وغيرها، حتى تصير كهيئاتها الأولى، ثم يجعل فيها الأرواح فتقوم الناس كلهم أحياء حتى السقط. وهذا السقط: هو الذي تم خلقه، ونفخ فيه الروح قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] فدلّ على أن الموءودة تُحشر وتسأل، ومن قبرها تخرج وتبعث. وأما من لم ينفخ فيه الروح فهو وسائر الأموات سواء، قاله الحاكم أبو الحسين ابن الحسن الحليمي رحمه اللَّه في كتاب منهاج الدين له. وبالحقيقة إنما خروج الخلق بدعوة الحق قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢] فتقومون فتقولون: سبحانك اللَّهم وبحمدك. قالوا: فيوم القيامة يومٌ يبدأُ بالحمد، ويختم به؛ قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصُّور؟ قال: «قرن يُنفخ فيه»(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الإذْن متى يُؤْمر بالنَّفخ»؟!، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: قولوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣](٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما طرف صاحب الصُّور منذ وكّل به مستعدّاً بحذاء العرش مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتد طرفه، كأن عينيه كوكبان درّيان»(٣).

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٠)، وفي التفسير (٣٢٤٤) وغيرهم.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٧٣)، والترمذي في صفة القيامة (٣٤٣١) وغيرهما. وهو حديث ضعيف، ولكن له شواهد يتقوى بها.

(٣) رواه الحاكم (٤/ ٥٥٨ـ٥٥٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٩) وغيرهما.

وروي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧] إن هذا خطاب للأرواح بأن ترجع إلىٰ أجسادها ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي صاحبك، كما تقول رب الغلام، ورب الدار، ورب الدابة، أي صاحب الغلام، وصاحب الدار، وصاحب الدابة ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي في أجسادهم. فاللَّه أعلم.

فصل: الصُّور: بالصاد، قرن ينفخ فيه النفحة الأولىٰ للفناء، وهي نفخة الصعق ويكون معها نقر لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] أي في الصور، فإذا نفخ فيه للإصعاق جمع بين النقر والنفخ لتكون الصيحة أشد وأعظم، ثم يمكث الناس أربعين، حتىٰ يجعلهم بشراً، كما روي في قصة الذين يخرجون من النار، وقد صاروا حمماً، أنهم يغتسلون من نهر بباب الجنة فيُنبتون نبات الحبة في حميل السيل. وعن ذلك عبر في حديث أبي هريرة وغيره: «فيُنبتون نبات البقل»[1] فإذا تهيأت الأجسام، وكملت نفخ في الصور نفخة البعث من غير نقر؛ لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلىٰ أجسادها لا تنقيرها من أجسادها فالنفخة الأولىٰ للتنقير، وهي نظير صوت الرعد الذي قد يقوىٰ فيمات منه، ونظير الصيحة: الصيحة الشديدة التي يصيحها الرجل بصبي فيفزع منه فيموت، فإذا نفخ للبعث من غير نقر كما ذكرنا خرجت الأرواح من المجال التي هي فيه فتأتي كل روح إلىٰ جسدها فيحييها اللَّه. كل ذلك في لحظة كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] . وعند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنيوية تُعاد بأعيانها وأعراضها بلا خلاف بينهم. قال بعضهم: بأوصافها. فيعاد الوصف أيضاً كما يعاد الجسم واللون. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وذلك

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٣٥)، ومسلم في الفتن (٢٩٥٥).

جائز في حكم اللَّه وقدرته وهين عليه جميعه. ولكن لم يرد بإعادة الوصف خبر.

فصل: وليس الصُّور جمع صورة كما زعم بعضهم، أي ينفخ في صور الموتى بدليل الأحاديث المذكورة، والتنزيل يدل على ذلك. قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٨] ولم يقل: فيها، فعلم أنه ليس جمع صورة. قال الكلبي: لا أدري ما الصور؟ ويقال: هو جمع صورة مثل: بُسْرة وبُسْر، أي: ينفخ في صور الموتى: الأرواح. وقرأ الحسن: ﴿يَوْمَ يَنفُخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وأيضاً لا ينفخ في الصور للبعث مرتين بل ينفخ مرة واحدة، وإسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور الذي هو القرن، واللَّه سبحانه يحيي الصور فينفخ فيها الروح، كما قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] و﴿نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢].

قال علماؤنا: والأمم مجمعون على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام.

قلت: وما خرّجه أبو عيسى الترمذي وغيره يدلّ على أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه وحده. وحديث أبي عبد اللَّه محمد بن يزيد بن ماجه يدلّ على أن معه غيره[1].

وذكر هناد بن السري: قال: حدثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي عمرو قال: «ما من صباح إلّا ومَلَكان يقولان: يا طالب الخير أقبل، ويا طالب الشر أقصر، وملَكان موكلان يقولان: اللّهم أعط

---

(١) حديث الترمذي: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن . .» حديث صحيح. وقد مرّ تخريجه قريباً. أما حديث ابن ماجه في الزهد (٤٢٧٣) فهو: «إن صاحبي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يلاحظان . .» وهو حديث ضعيف.

منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً، وملكان موكلان يقولان: سبحان الملك القدوس، وملكان موكلان بالصور»(١).

فصل: واختلفت في عدد النفخات: فقيل ثلاث: نفخة الفزع لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] ونفخة الصعق، ونفخة البعث لقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْـرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْـظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقيل: هما نفختان؛ ونفخة الفزع هي نفخة الصعق؛ لأن الأمرين لازمان لها، أي فزعوا فزعاً ماتوا منه. والسنّة الثابتة علىٰ ما تقدّم من حديث أبي هريرة وحديث عبد اللّه بن عمر وغيرهما يدلّ علىٰ أنهما نفختان لا ثلاث، وهو الصحيح إن شاء اللّه تعالىٰ. قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فاستثنىٰ هنا كما استثنىٰ في نفخة الفزع فدلّ علىٰ أنهما واحدة.

وقال الحليمي: اتفقت الروايات علىٰ أن بين النفختين أربعين سنة. وذلك بعد أن يجمع اللّه تعالىٰ ما تفرّق من أجساد الناس من بطون السباع، وحيوانات الماء وبطن الأرض، وما أصاب النيران منها بالحرق، والمياه بالغرق، وما أبلته الشمس، وذرته الرياح. فإذا جمعها وأكمل كل بدن منها، ولم يبق إلّا الأرواح جمع الأرواح في الصور، وأمر إسرافيل عليه السلام فأرسلها بنفخة من ثقب الصور، فرجع كل ذي روح إلىٰ جسده بإذن اللّه تعالىٰ.

وجاء في بعض الأخبار ما يبين أن من أكله طائر أو سبع: حُشر من جوفه.

---

(١) رواه هناد في الزهد (٦٢٤)، (٨٨٦).

وهو ما رواه الزهري عن أنس قال: مرّ رسول اللَّه ﷺ بحمزة يوم أُحُد وقد جدع ومثّل به فقال: «لَوْلَا أنْ تجدَ صَفيّة في نَفسِها لتَركتُه حتَّىٰ يَحشرُه اللَّهُ من بُطون السِّباع والطَّير»(١).

وقد أنكر بعض أهل الزيغ أن يكون الصور قرناً. قال أبو الهيثم: من أنكر أن يكون الصور قرناً، فهو كمن ينكر العرض والصراط والميزان. وطلب لها تأويلات.

* * *

٦٠ - باب في صفة البعث، وما آية ذلك في الدنيا؟

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ إلىٰ قوله ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٥٠]، ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]. والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

* * *

٦١ - باب يبعث كل عبد على ما مات عليه

عن جابر بن عبد اللَّه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه»(٢). وعن عبد اللَّه بن عمر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إذا أراد اللَّه بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا علىٰ نيّاتهم». ولفظ

---

(١) رواه أحمد (١٢٨/٣)، وأبو داود في الجنائز (٣١٣٦)، والترمذي في الجنائز (١٠١٦) وغيرهم.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٨).

البخاري قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «إذا أنزل اللّٰه بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم»(١).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده لا يُكْلَم أحد في سبيل اللّٰه ـ واللّٰه أعلم بمن يكلم في سبيله ـ إلَّا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا اللون لون الدم، والعرف عرف المسك» خرّجه البخاري ومسلم(٢).

وعن عبد اللّٰه بن عمرو أنه قال: يا رسول اللّٰه، أخبرني عن الجهاد والغزو. فقال: «يا عبد اللّٰه إن قُتِلْتَ صابرًا محتسبًا بُعِثْتَ صابرًا محتسبًا، وإن قُتلت مرائيًا مكاثرًا بعثت مرائيًا مكاثرًا؛ على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك اللّٰه بتلك الحال»(٣).

عن ابن عباس أن رجلاً كان مع رسول اللّٰه ﷺ محرماً فوقصته ناقته فمات، فقال رسول اللّٰه ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفّنوه في ثوبه، ولا تمسّوه بطيب، ولا تخمّروا رأسه، فإنه يُبعث يوم القيامة مُلبيّاً» وفي رواية: «ملبدًا»(٤).

وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «النياحة من أمر الجاهلية، وإن النائحة إذا ماتت قطْع اللّٰه لها ثياباً من نار ودرعاً من لهب النار» لفظ ابن ماجه. وقال مسلم: «تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»(٥).

عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «النياحة على الميت من أمر الجاهلية. وإن النائحة إذا لم تتب قبل أم تموت فإنها تُبعث يوم القيامة عليها

---

(١) رواه البخاري في الفتن (٧١٠٨)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٧٩).

(٢) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٠٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦). وقد مرّ بعضه.

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥١٩) وغيره، وله شواهد أخرىٰ. وهو حديث حسن.

(٤) رواه البخاري في الجنائز (١٨٤٩)، ومسلم في الحج (١٢٠٦).

(٥) رواه مسلم في الجنائز (٩٣٤)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٨١).

سرابيل من قطران، ثم يعلى عليها بدرع من لهب النار»[1].

وفي التنزيل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] قال أهل التأويل: المعنى لا يقومون من قبورهم. قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة والربيع والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم. قال: بعضهم يجعل معه شيطان يخنقه. وقالوا: كلهم يبعث كالمخنوق عقوبة له، وتمقيتاً عند جميع أهل المحشر. فجعل اللّه هذه العلامة لأكلة الربا، وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون لعظم بطونهم وثقلها عليهم. نسأل اللّه الستر والسلامة والعافية في الدنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وروي عن النبي ﷺ: «مَنْ مات على مرتبة من المراتب بعث عليها يوم القيامة»[1] وهو صحيح المعنى يدلّ على صحته ما ذكرناه، وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في باب الحشر إلى الموقف إن شاء اللّه تعالى.

* * *

٦٢ ـ باب ما جاء في بعث الأيام والليالي ويوم الجمعة

عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن اللّه عز وجل يبعث الأيام يوم القيامة على هيأتها، ويبعث يوم الجمعة: زهراء منيرة أهلها محتفون بها كالعروس تهدى إلى كريمها تضيء لهم يمشون في ضوئها. ألوانهم كالثلج بياضاً، وريحهم يسطع كالمسك، يخوضون في جبال الكافور، ينظر إليهم الثقلان ما يطرفون تعجباً. يدخلون الجنة لا يخالطهم إلّا المؤذنون المحتسبون» إسناده صحيح[3].

---

(١) رواه ابن ماجه في الجنائز (١٥٨٢). وهو صحيح بشواهده.

(٢) رواه أحمد (٦/ ١٩، ٢٠)، والحاكم (٢/ ١٤٢)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٥) وغيرهم.

(٣) رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٧٣٠).

وقال أبو عمران الجوني: «ما من ليلة تأتي إلّا تنادي: اعملوا فيّ ما استطعتم من خير، فلن أرجع إليكم إلىٰ يوم القيامة»[١].

* * *

٦٣ ـ باب ما جاء أن العبد المؤمن إذا قام من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا وعمله

عن ثابت البناني أنه قرأ: ﴿حمٓ﴾ السجدة، حتىٰ إذا بلغ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠] وقف فقال: «بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له: لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت تُوعَد. قال: فأمّن اللَّه خوفه، وأقرّ اللَّه عينه، فما عظيمة تغشىٰ الناس يوم القيامة فالمؤمن في قرّة عين لما هداه اللَّه له، ولما كان يعمل له في الدنيا».

* * *

٦٤ ـ باب أين يكون الناس ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؟

عن ثوبان مولىٰ رسول اللَّه ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول اللَّه ﷺ فجاء حَبْر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد وذكر الحديث وفيه: فقال اليهودي: أين يكون الناس ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» الحديث بطوله[٢].

وعن عائشة قالت: سُئل رسول اللَّه ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: «علىٰ الصراط»[٣].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣١٠). (٢) رواه مسلم في كتاب الحيض (٣١٥).
(٣) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين (٢٧٩١).

وأخرجه الترمذي: عن عائشة قالت: يا رسول الله ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] فأين يكون المؤمنين يومئذ؟ قال: «على الصراط يا عائشة»[١].

وعن مجاهد قال: قال ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا. قال: أجل والله ما تدري. حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ قال: فقلت: فأين الناس يا رسول الله؟ قال: على جسر جهنم»[٢].

فصل: هذه الأحاديث نصّ في أن الأرض والسمٰوات تبدّل وتزال ويخلق الله أرضاً أخرى يكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط، لا كما قال كثير من الناس أن تبدل الأرض عبارة عن تغيير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها ومد أرضها.

وذكر ابن المبارك من حديث ابن عباس قال: «إن كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم، وزيد في سعتها كذا وكذا» وذكر الحديث[٣].

وما بدأنا بذكره أصحّ؛ لأنه نص ثابت عن النبي ﷺ. فإن قال قائل: إن بدّل في كلام العرب معناه: تغيير الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] ولا يقتضي هذا إزالة العين وإنما معناه تغيير الصفة.. ولو كان المعنى الإزالة لقال: «يوم تُبْدَل الأرض» مخففاً من أبدلت الشيء إذا أزلت عينه وشخصه؟ قيل له: ما ذكرته صحيح، ولكن قد قرىء قوله عز وجل:

---

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣١٢١)، (٣٢٤٢).

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٤١).

(٣) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦١).

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ [القلم: ٣٢] مخففاً ومثقلاً بمعنى واحد. قال: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] وقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. وكذا ذكر تاج اللغة أبو نصر الجوهري في الصحاح، وأبدلت الشيء بغيره، وبدّله اللّه من الخوف أمناً، وتبديل الشيء أيضاً تغييره، فقد دلّ القرآن وكلام العرب على أن بدل وأبدل بمعنى واحد، وقد فسّر النبي ﷺ أحد المعنيين، فهو أعلى ولا كلام معه.

قال ابن عباس وابن مسعود: تبدل الأرض ناراً والجنة من ورائها يرى أكوابها وكواعبها[1].

وأمّا تبديل السماء فقيل تكوير شمسها وقمرها وتناثر نجومها. قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها تارة كالمهل، وتارة كالدهان. حكاه ابن الأنباري. وقال كعب: تصير السماء دخاناً، وتصير البحار نيراناً. وقيل تبديلها: أن تطوى كطيّ السجل للكتاب.

* * *

باب منه

أمور تكون قبل الساعة

لما نبأ النبي ﷺ بذكر الزلزلة التي تكون عند النفخة الأولى ذكر ما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظام التي يعظمها قوله: ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ومن فزعها ما لا تطيق حمله النفوس وهو قوله لآدم: «ابعث بعث النار»[2] فيكون ذلك في أثناء ذلك اليوم، ولا يقتضي أن يكون ذلك متصلاً بالنفخة الأولى التي يشيب فيها الوليد وتضع الحوامل، وتذهل المراضع، ولكن يحتمل أمرين:

---

(١) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٨٨).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢).

أحدهما: أن يكون آخر الكلام منوطاً بأوله تقديره يقال لآدم: ابعث بعث النار أثناء يوم يشيب فيه الوليد، وتضع الحوامل، وتذهل المراضع من أوله.

الثاني: أن شيب الوليد ووضع الحوامل وذهول المراضع يكون في النفخة الأولى حقيقة. وفي هذا القول الثاني تكون صفته بذلك إخباراً عن شدته وإن لم يوجد غير ذلك الشيء فيه، وهذه طريقة العرب في فصاحتها.

قلت: قد تقدّم أن الصحيح في النفخ إنما هو مرتان لا ثلاث، وحديث مسلم في قول اللّه تعالى لآدم: «يا آدم ابعث بعث النار» إنما هو بعد البعث يوم القيامة. ونفخة الفزع هي نفخة الصعق على ما تقدم، أو نفخة البعث على ما قيل على ما يأتي، ولأنه لو كانت نفخة الفزع غير نفخة الصعق لاقتضى ذلك أن يكون بقاء الناس بعدها أحياء ما شاء اللّه، ويكون هناك ليل ونهار حتى تأتي نفخة الصعق التي يموت لسماعها جميع الخلق، كما في حديث عبد اللّه بن عمر بن العاص؛ وعلى هذا لا يكون قوله «ابعث» في أثناء اليوم الذي يكون مبدؤه نفخة الفزع على ما ذكره ابن العربي، واللّه أعلم.

ولا يلزم من زلزال الأرض أن تكون عن نفخة؛ فإنا نشاهد تحرك الأرض وميدها بمن عليها وما عليها من جبال ومياه كالسفينة في البحر إذا تلاطمت أمواجه من غير نفخ. وإنما تلك الزلزلة من أشراط الساعة ومقدماتها كسائر أشراطها.

وقد قال علقمة والشعبي: الزلزلة من أشراط الساعة وهي في الدنيا. وكذلك قال أنس بن مالك والحسن البصري. وقد ذكر القشيري أبو نصر عبدالرحيم بن عبد الكريم في تفسيره: أن المراد بنفخة الفزع؛ والنفخة الثانية أي يحيون فزعين يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ [يسٓ: ٥٢] ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم. واللّه أعلم. ونحو ذلك ذكره الماوردي واختاره.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ [الحج: ٢] الضمير المنصوب في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ للزلزلة أو القيامة قولان: فعلىٰ الأول: أن ذلك في الدنيا قبل نفخة الصعق لعظم تلك الزلزلة وقوة حركتها بالأرض؛ لأن القيامة لا رضاع فيها ولا حمل فترىٰ الناس سُكَارَىٰ يعني من الخوف. وعلىٰ القول الثاني: يكون فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون مثلاً، والمعنىٰ أنه يكون يوماً لا يهم أحداً فيه إلَّا نفسه، والحامل تسقط من مثله كما تسقط الحوامل من الصيحة الشديدة ويكون الهول عظيماً.

والوجه الآخر: أن يكون ذلك حقيقة لا مثلاً. ويكون المعنىٰ أن من كانت محشورة مع ولد رضيع فإنها إذا رأت هول ذلك اليوم ذهلت عن من ولدت، وأن الحوامل إذا بعثن أسقطن من فزع يوم القيامة الأحمال التي كانت أحياء فماتت بموت أمهاتها أحياء ثم لا يمتن بالإسقاط؛ لأن الموت لا يتكرر عليهن مرتين؛ لأنه لا موت في القيامة، وإنما هو يوم الحياة وتضع الحوامل حملها.

ثم يحتمل أن يحيي اللَّه كل حمل كان قد أتم خلقه ونفخ فيه الروح ويسويه ويعدّله فإن الأم تذهل عنه، ولو لم تذهل ما قدرت علىٰ إرضاعه؛ لأنه لا غذاء يومئذ لها ولا لبن، واليوم يوم الحساب لا يقبل فيه من عذر ولا علّة، فكيف تخلىٰ والاشتغال بالولد مع ما عليها من الحساب وهي بصدده من الجزاء. والحمل الذي لم ينفخ فيه قط إذا سقط يكون مع الوحوش تراباً ولم يبتدأ إحياؤه؛ لأن اليوم يوم الإعادة. فمن لم يمت في الدنيا لم يحيىٰ في الآخرة. قاله الحليمي في منهاج الدين.

وقال الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ أي من العذاب والخوف ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢] من الشراب. ومما يبين ما قلناه: أن إبليس قال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ سأل النظرة والإمهال إلىٰ يوم البعث

والحساب، طلب أن لا يموت؛ لأن يوم البعث لا موت بعده، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الأعراف: ١٥]. قال ابن عباس والسدّي وغيرهما: أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم، وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى اللَّه ذلك عليه.

فصل: فأما التكوين يوم القيامة قبل الحساب. فقد قال اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ـ ٢] وقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٨] إلى آخرها.

والذي ثبت بسياق الآيات: أن هذ الزلزلة إنما تكون بعد إحياء الناس وبعثهم من قبورهم؛ لأنه لا يراد إلَّا إذعان الناس والتهويل عليهم، فينبغي أن يشاهدوها ليفزعوا منها ويهولهم أمرها، ولا تمكن المشاهدة منهم وهم أموات؛ ولأنه تعالى قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] أي تخبر عما عمل عليها من خير وشر ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦] فدلّ ذلك على أن هذه الزلزلة إنما تكون والناس أحياء واليوم يوم الجزاء، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ يعني الآخرة ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ إلى قوله ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣ ـ ١٨] فدلّت هذه السورة على أن اصطدام الأرض والجبال لا يكون إلَّا بعد الإحياء، فدلّت هذه الآية على أن الكوائن إنما تكون بعد النشأة الثانية. واللَّه أعلم.

وأمّا قوله فيه: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢] فقال الحسن وقتادة: ذلك يوم ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وينادي أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣] يعني عن النار أي غير قادرين وغير معجزين

في تفسير مجاهد. وقيل: معناه يوم ينادي أهل النار بالويل والثبور، ويولون مدبرين من شدة العذاب. وقيل: إن ذلك نداء بعض الناس لبعضهم في المحشر، وتوليهم مدبرين إذا رأوا عنقاً من النار.

وقال قتادة: ﴿تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ منطلقاً بكم إلى النار ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي مانع يمنعكم. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧] إلى أن قال: ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣، الصافات: ١٩] وهذا يقتضي بظاهره أنها ثلاث؟ قيل له: ليس كذلك، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانية التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم، كذلك قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن زيد وغيرهم. وقال مجاهد: هما صيحتان، أما الأولى فيموت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فيحيا كل شيء بإذن الله.

وقال مجاهد أيضاً: ﴿الرَّادِفَةُ﴾ حين تنشق السماء وتحمل الأرض والجبال فتدكّ دكّة واحدة. وقال عطاء ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ القيامة، و﴿الرَّادِفَةُ﴾ البعث، وقال ابن زيد: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ الموت، و﴿الرَّادِفَةُ﴾ الساعة، فهذا يبين لك ما قلناه من أن المراد بالزجرة النفخة الثانية.

واختلفوا في ﴿السَّاهِرَةُ﴾ [النازعات: ١٤] اختلافاً كثيراً، فقال ابن عباس: وأما الساهرة فأرض من فضة بيضاء لم يعص الله عليها طرفة عين خلقها الله يومئذ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقال بعضهم: الساهرة اسم الأرض السابعة يأتي الله بها فيحاسب عليها الخلائق، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض. وقال قتادة: هي جهنم، أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم، وقيل صحراء قريب من شفير جهنم.

وقال الثوري: الساهرة أرض الشام، وقيل غير هذا، وإنما قيل لها ساهرة؛

لأنهم لا ينامون عليها حينئذ، ومعنى ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] أي على الأرض بعدما كانوا في بطنها، والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض: ساهرة، قال أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحر ... وما فاهوا به لهم مقيمُ

* * *

٦٥ ـ باب الحشر ومعناه الجمع

وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة.

أما الذي في الدنيا فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء، وكان اللّه عز وجل قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا، وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام. قال ابن عباس: من شك أن الحشر في الشام فليقرأ هذه الآية؛ وذلك أن النبي ﷺ قال لهم: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»(١). قال قتادة: هذا أول الحشر.

الثاني: عن أبي هريرة رضي اللّه عنه النبي ﷺ قال: «يُحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وتحشر بقيتهم النار، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا»(٢).

وقال قتادة: الحشر الثاني، نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم من تخلّف. قال القاضي

---

(١) هذا الحديث ضعيف الإسناد. ولكن ثبت معناه من حديث معاوية بن حيدة، رواه أحمد (٤/ ٤٤٦) وغيره. وسيأتي في باب (٦٨) ما جاء في حشر الناس إلى اللّه عز وجل.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٢)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦١).

عياض: هذا الحشر في الدنيا قبل قيام الساعة وهو آخر أشراطها، كما ذكره مسلم بعد هذا في آيات الساعة، قال فيه: وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن تزجر الناس. وفي رواية: تطرد الناس إلىٰ محشرهم[١]. وفي حديث آخر: «لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحجار»[٢] ويدل علىٰ أنها قبل يوم القيامة قوله: «فتقيل معهم حيث قالوا، وتمسي معهم حيث أمسوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا»[١]. وقال: وفي بعض الروايات في غير مسلم: «فإذا سمعتم به فاخرجوا إلىٰ الشام» كأنه أمر بسبقها إليه قبل إزعاجها لهم.

قال المؤلف رحمه اللَّه: وذكره الحليمي في منهاج الدين له من حديث ابن عباس، وذكر أن ذلك في الآخرة فقال: يحتمل قوله عليه السلام: «تحشر الناس علىٰ ثلاث طرائق» إشارة إلىٰ الأبرار والمخلطين والكفار، فالأبرار هو الراغبون إلىٰ اللَّه تعالىٰ فيما أعد لهم من ثوابه، والراهبون هم الذين بين الخوف والرجاء، وأما المخلطون فهم الذين أريدوا في هذا الحديث، وقيل: إنهم يحملون علىٰ الأبعرة، وأما الفجار الذين تحشرهم النار فإن اللَّه تعالىٰ يبعث إليهم ملائكة فتقيّض لهم ناراً تسوقهم . . . وقد يحتمل أن يكونوا ثلاثة أصناف: صنف مسلمون وهم ركبان، وصنفان من الكفار: أحدهما العتاة وأعلام الكفار، فهؤلاء يحشرون علىٰ وجوههم، والآخرون الأتباع فهم يمشون علىٰ أقدامهم.

قال المؤلف رحمه اللَّه: وإلىٰ هذا القول ذهب أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة في قوله عليه السلام: كيف تحشر الناس يا رسول اللَّه؟ قال: «اثنان علىٰ بعير وخمسة علىٰ بعير وعشرة علىٰ بعير»[٣].

---

(١) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٠١).

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧١١٨)، ومسلم في الفتن (٢٩٠٢).

(٣) مرّ تخريجه قريباً.

ومعنى هذا الحديث والله أعلم: أن أقواماً يأتلفون في الإسلام برحمة الله يخلق الله لهم من أعمالهم بعيراً يركبون عليه، وهذا من ضعف العمل لكونهم يشتركون فيه؛ كقوم خرجوا في سفر بعيد وليس مع واحد منهم ما يشتري به مطية توصله فاشترك في ثمنها رجلان أو ثلاثة فابتاعوا مطية يتعقبون عليها في الطريق، ويبلغ بعير مع عشرة.

فاعمل هداك الله عملاً يكون لك به بعير خالص من الشركة، واعلم أن ذلك هو المتجر الرابح، فالمتقون وافدون كما قال الجليل: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

قال المؤلف رحمه الله: ما ذكره القاضي عياض من أن ذلك في الدنيا أظهر، والله أعلم لما في الحديث نفسه من ذكر المساء والمبيت والصباح والقائلة، وذلك ليس في الآخرة.

وعن أبي ذر قال: «إن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج: فوجاً راكبين طاعمين كاسين، وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم، ويحشر الناس فوجاً يمشون ويسعون، يلقي الله الآفة على الظهر فلا تبقى حتى إن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها»[١].

وذكر عمر بن شبة في كتاب المدينة على ساكنها السلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: آخر من يحشر رجلان: رجل من جهينة وآخر من مزينة فيقولان: أين الناس؟ فيأتيان المدينة فلا يريان إلّا الثعلب، فينزل إليهما ملكان فيسحبانهما على وجوههما حتى يلحقاهما بالناس»[٢]. وهذا كله مما يدلّ على أن ذلك في

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٤)، والنسائي في الجنائز (٤/ ١١٦) وغيرهما. وهو حديث حسن.

(٢) هذا الحديث أصله في البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٤)، ومسند أحمد (٢/ ٢٤٣)، ومستدرك الحاكم (٤/ ٥٦٥).

الدنيا، كما قال القاضي عياض، وأما الآخرة فالناس أيضاً مختلفو الحال على ما ذكروه، وسنذكر من ذلك ما فيه كفاية في الباب بعد هذا.

والحشر الثالث: حشرهم إلى الموقف على ما يأتي بيانه في الباب بعد هذا إن شاء الله، قال الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

والرابع: حشرهم إلى الجنة والنار. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] أي ركباناً على النجب، وقيل: على الأعمال كما تقدّم.

وسُمّي المتقون ﴿وَفْدًا﴾ لأنهم يسبقون الناس إلى حيث يدعون إليه فهم لا يتباطئون، لكنهم يجدّون ويسرعون والملائكة تتلقاهم بالبشارات. قال الله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيزيدهم ذلك إسراعاً وحق للمتقين أن يسبقوا لسبقهم في الدنيا بالطاعات ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أي عطاشاً. وقال: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقال: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يحشرون على وجوههم أيُحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» قال قتادة حين بلغه: بلى وعزة ربنا[١].

فصل: قال أبو حامد: وذكر هذا الفصل: وفي طبع الآدمي إنكار ما لم يأنس به ولم يشاهده، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها لأنكر المشي

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٦٠)، وفي الرقاق (٦٥٢٣)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٦).

من غير رجل، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا، فإنك لو لم تشاهد عجائب الدنيا ثم عُرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها، فأحْضِر رحمك اللّه في قلبك صورتك، وأنت قد وقفت عارياً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء.

* * *

٦٦ ـ باب بيان الحشر

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ الآية

قال قتادة: المنادي هو صاحب الصور، وقيل: إن المنادي جبريل واللّه أعلم.

قال عكرمة: ينادي منادي الرحمـٰن فكأنما ينادي في آذانهم يوم يسمعون الصيحة بالحق يريد النفخ في الصُّور ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ـ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [قٓ: ٤٢ ـ ٤٤] إلى المنادي صاحب الصُّور إلى بيت المقدس أرض المحشر ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [قٓ: ٤٤] أي هيّن وسهل.

فإن قيل: فإذا كانت الصيحة للخروج فكيف يسمعونها وهم أموات؟

قيل له: إن نفخة الإحياء تمتد وتطول، فتكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج من القبور؛ فلا يسمعون ما يكون للإحياء، ويسمعون ما يكون للإزعاج. ويحتمل أن تتطاول تلك النفخة والناس يحيون منها أولاً فأولاً، وكلما حيي واحد سمع ما يحيى به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج، وقد تقدم أن الأرواح في الصُّور، فإذا نفخ فيه النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده، ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يسٓ: ٥١].

وقال محمد بن كعب القرظي: يُحشر الناس يوم القيامة في ظلمة، وتُطوى السماء وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد فيتبع الناس

الصوت يومئذ، فذلك قول اللَّه عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨] الآية. وقال اللَّه عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ١ - ٣] فجّر عذبها في ملحها وملحها في عذبها في تفسير قتادة ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤] أي أخرج ما فيها من الأموات، وقال تعالىٰ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي سمعت وأطاعت ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي وحق لها أن تفعل ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١ - ٣] تمد مد الأديم، وهذا إذا بدلت بأرض بيضاء كأنها فضة لم تعمل عليها خطيئة قط، وألقت ما فيها من الأموات فصاروا علىٰ ظهرها.

عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة علىٰ أرض بيضاء عفراء كقُرْصة النقيِّ ليس فيه عَلَمٌ لأحد»(١).

عن عبد اللَّه بن مسعود: «يُحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأظمأ ما كانوا قط، وأعرىٰ ما كانوا قط، وأنصب ما كانوا قط، فمن أطعم للَّه أطعمه، ومن سقا للَّه سقاه، ومن كسا للَّه كساه، ومن عمل للَّه كفاه، ومن نصر اللَّه أراحه اللَّه في ذلك اليوم».

ومن الناس من يحشر بفتنته الدنيوية، فقوم مفتونون بالعود معتكفون عليه دهرهم، عند قيام أحدهم من قبره يأخذه بيمينه فيطرحه من يده ويقول: سحقاً لك شغلتني عن ذكر اللَّه، فيعود إليه يقول: أنا صاحبك حتىٰ يحكم اللَّه بيننا وهو خير الحاكمين. وكذلك يبعث السكران سكران، والزامر زامراً، وكل واحد علىٰ الحال الذي صده عن سبيل اللَّه. وشارب الخمر يحشر والكوز معلّق في عنقه والقدح بيده، وهو أنتن من كل جيفة علىٰ الأرض، يلعنه كل من يمر به من الخلق. فإذا استوىٰ كل أحد قاعداً علىٰ قبره فمنهم العريان، ومنهم المكسو،

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢١)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٩٠).

والأسود والأبيض، ومنهم من يكون له نور كالمصباح الضعيف، ومنهم من يكون كالشمس، حتى تقوم نار لها دوي تساق فيدهش لها رؤوس الخليقة إنساً وجنّاً وطيراً ووحشاً، فيأتي كل واحد من المخاطبين عمله ويقول له: قم فانهض إلى المحشر، ويُجعل لكل واحد منهم نور شعاعي بين يديه وعن يمينه ومثله يسري بين يديه في الظلمات، وهو قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، وليس عن شمائلهم نور بل ظلمة حالكة لا يستطيع البصر نفاذَها، يحار فيها الكفار ويتردد المرتابون، والمؤمن ينظر إلى قوة حلكتها وشدة حندسها ويحمد اللّه تعالى على ما أعطاه من النور المهتدي به في تلك الشدة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم؛ لأن للّه تعالى يكشف للعبد المؤمن المنعم عن أحوال المعذب الشقي ليستبين له سبيل الفائدة، كما فعل بأهل الجنة وأهل النار حيث يقول: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] وكما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧] لأن أربعاً لا يعرف قدرها إلّا أربع:

لا يعرف قدر الحياة إلّا الموتى.

ولا يعرف قدر الأغنياء إلّا الفقراء.

ولا يعرف قدر الصحة إلّا أهل البلاء والسقم.

ولا يعرف قدر الشباب إلّا الشيوخ.

وفي نسخة: ولا يعرف قدر النعيم إلّا أهل الجحيم.

ومن الناس من يبقى على قدميه وعلى طرف بنانه ونوره يطفأ تارة ويشتعل أخرى، وإنما هم عند البعث على قدر إيمانهم وأعمالهم، وقد مضى في باب يبعث كل عبد على ما مات عليه ما فيه كفاية، والحمد للّه.

* * *

٦٧ ـ باب الجمع بين آيات وردت في الكتاب في الحشر ظاهرها التعارض

منها قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وفي آية ثالثة: إنهم يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يسٓ: ٥٢] وهذا كلام وهو مضاد للبكم والتعارف تخاطب وهو مضاد للصمم والبكم معاً، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: ٦] والسؤال لا يكون إلّا بالإسماع وإلّا لناطق يتسع للجواب، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وقال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يسٓ: ٥١] وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] والنسلان والإسراع مخالفان للحشر علىٰ الوجوه.

والجواب: لمن سأل عن هذا الباب أن يُقال له: إن الناس إذا أحيوا وبعثوا من قبورهم، فليست حالهم حالة واحدة ولا موقفهم ولا مقامهم واحداً، ولكن لهم مواقف وأحوال، واختلفت الأخبار عنهم لاختلاف مواقفهم وأحوالهم. وجملة ذلك أنها خمسة أحوال: حال البعث من القبور، والثانية: حال السَّوق إلىٰ موضع الحساب، والثالثة: حال المحاسبة، والرابعة: حال السَّوق إلىٰ دار الجزاء، والخامسة: حال مقامهم في الدار التي يستقرون فيها.

فأمّا حال البعث من القبور: فإن الكفار يكونون كاملي الحواس والجوارح لقول اللّه تعالىٰ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣] وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ إلىٰ قوله ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٥].

والحال الثانية: حال السَّوق إلى موضع الحساب وهم أيضاً في هذه الحال بحواس تامة لقوله عز وجل: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٤] ومعنى ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أي دلوهم. ولا دلالة لأعمى أصم ولا سؤال لأبكم، فثبت بهذا أنهم يكونون بأبصار وأسماع وألسنة ناطقة.

والحالة الثالثة: وهي حالة المحاسبة وهم يكونون فيها أيضاً كاملي الحواس ليسمعوا ما يقال لهم، ويقرأوا كتبهم الناطقة بأعمالهم، وتشهد عليهم جوارحهم بسيئاتهم فيسمعونها، وقد أخبر اللَّه تعالى عنهم أنهم يقولون: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] وأنهم يقولون لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] وليشاهدوا أحوال القيامة وما كانوا مكذبين في الدنيا به من شدتها وتصرف الأحوال بالناس فيها.

وأما الحالة الرابعة: وهي السَّوق إلى جهنم فإنهم يسلبون فيها أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء: ٩٧] ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] إشارة إلى ما يشعرون به من سلب الأبصار والأسماع والمنطق.

والحالة الخامسة: حال الإقامة في النار. وهذه الحالة تنقسم إلى بدوٍ ومآل. فبدوّها: أنهم إذا قطعوا المسافة التي بين موقف الحساب وشفير جهنم عمياً وبكماً وصمًا إذلالاً لهم تمييزاً عن غيرهم، ثم ردّت الحواس إليهم ليشاهدوا النار، وما أعد اللَّه لهم فيها من العذاب، ويعاينوا ملائكة العذاب وكل ما كانوا به مكذبين؛ فيستقرون في النار ناطقين سامعين مبصرين، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورىٰ: ٤٥] وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩] وقال ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨، ٩] وأخبر تعالىٰ أنهم ينادون أهل الجنة فيقولون ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] وأن أهل الجنة يُنادونهم ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤] وأنهم يقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول لهم ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وأنهم يقولون لخزنة جهنم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ فيقولون ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ. قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وأما العقبىٰ والمآل: فإنهم إذا قالوا: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فقال اللَّه تعالىٰ ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]. وكتب عليهم الخلود بالمثل الذي يضرب لهم وهو أن يؤتىٰ بكبش أملح ويسمىٰ الموت، ثم يذبح علىٰ الصراط بين الجنة والنار، وينادوا: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت سلبوا في ذلك الوقت أسماعهم؛ وقد يجوز أن يسلبوا الأبصار والكلام، لكن سلْب السمع يقين؛ لأن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠] فإذا سلبوا الأسماع صاروا إلىٰ الزفير والشهيق، ويحتمل أن تكون الحكمة في سلْب الأسماع من قِبل أنهم سمعوا نداء الرب سبحانه علىٰ ألسنة رسله فلم يجيبوه بل جحدوه

وكذبوا به بعد قيام الحجة عليهم بصحته، فلما كانت حجة اللَّه عليهم في الدنيا الاستماع عاقبهم على كفرهم في الأخرى بسلْب الأسماع؛ يبين ذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وأن قوم نوح عليه السلام كانوا يستغشون ثيابهم تستراً منه لئلَّا يروه ولا يسمعوا كلامه. وقد أخبر اللَّه تعالى عن الكفار في وقت نبينا محمد ﷺ مثله فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ [هود: ٥] وإن سلبت أبصارهم فلأنهم أبصروا العبر فلم يعتبروا، والنطق فلأنهم أوتوه فكفروا؛ فهذا وجه الجمع بين الآيات على ما قاله علماؤنا، واللَّه أعلم.

* * *

٦٨ ـ باب ما جاء في حشر الناس إلى اللَّه عز وجل حفاة عراة غرلاً وفي أول من يُكسى منهم وفي أول ما يتكلم من الإنسان

عن ابن عباس رضي اللَّه عنه قال: قام فينا رسول اللَّه ﷺ بموعظة فقال: «أيها النّاس إنّكم تحشرون إلى اللَّه حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين، ألَا وإنّ أوّل النّاس يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام، ألَا وإنّه يُؤتى برجال من أمّتي فيُؤخذ بهم ذات الشّمال، فأقول: يا ربّ أصحابي. فيقول: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصّالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨] قال: فيقال إنّهم لم يزالوا مدبرين مرتدّين على أعقابهم مذّ فارقتهم»[١].

وعن معاوية بن حيدة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال:

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٤٠)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٦٠).

وأشار بيده إلى الشام فقال: «هـٰهنا إلى هـٰهنا تحشرون ركباناً ومشاة، وتجرون على وجوهكم يوم القيامة، على أفواهكم الفدام، توفون سبعين أمة أنتم خيرهم على اللّٰه، وأكرمهم على اللّٰه، وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه» وفي رواية أخرى ذكرها ابن أبي شيبة: «وإنّ أوّل ما يتكلّم من الإنسان فخذه وكفّه»[١].

فصل: قوله (غرلاً) أي غير مختونين، والفدام: مصفاة الكوز والإبريق. قاله الليث. قال أبو عبيدة: يعني أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم. فشبّه ذلك بالفدام الذي يجعل على الإبريق. وقوله: «أول من يُكسى إبراهيم» فضيلة عظيمة لإبراهيم وخصوص له، كما خصّ موسى عليه السلام بأن النبي ﷺ يجده معلّقاً بساق العرش مع أن النبي ﷺ أول من تنشق عنه الأرض، ولا يلزم من هذا أن يكون أفضل منه مطلقاً؛ بل هو أفضل من وافى القيامة، على ما يأتي بيانه في أحاديث الشفاعة والمقام المحمود إن شاء اللّٰه تعالى.

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر في كتاب المفهم له: ويجوز أن يراد بالناس من عداه من الناس فلم يدخل تحت خطاب نفسه، واللّٰه أعلم.

قلت: هذا حسن لولا ما جاء منصوصاً خلافه، فقد روى ابن المبارك في رقائقه عن علي رضي اللّٰه عنه قال: «أول مَنْ يكسى خليل اللّٰه إبراهيم قبطيّتين، ثم يكسى محمد ﷺ حلّة حبرة عن يمين العرش»[٢].

وهذا نصّ على إن إبراهيم أول مَنْ يكسى، ثم نبينا بإخباره ﷺ. فطوبى ثم طوبى لمن كسي في ذلك الوقت من ثياب الجنة، فإن من لبسه فقد لبس جبة تقيه مكاره الحشر وعرقه وحر الشمس وغير ذلك من أهواله.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٤٦)، (٥/ ٤، ٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) وغيرهما.

(٢) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٦٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٣٤٨)، وأحمد في الزهد (ص١٠١) وغيرهم.

فصل: وتكلم العلماء في حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة؛ فروي أنه لم يكن في الأولين والآخرين للّه عز وجل عبد أخوف من إبراهيم عليه السلام، فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه، ويحتمل أن يكون ذلك لما روي من أنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر، وحفظاً لفرجه من أن يماس مصلّاه ففعل ما أمر به فيجزئ بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة، ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يفعل بمن يراد قتله، وكان ما أصابه من ذلك في ذات اللّه عز وجل، فلما صبر واحتسب وتوكل على اللّه تعالى دفع اللّه عنه شر النار في الدنيا والآخرة، وجزاه بذلك العري أن جعله أول من يدفع عنه العري يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وهذا أحسنها، واللّه أعلم.

وإذا بدىء في الكسوة بإبراهيم وثنّى بمحمد ﷺ أوتي محمد بحلة لا يقوم لها البشر لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة، فيكون كأنه كسي مع إبراهيم عليهما السلام، قاله الحليمي. وقوله: «تجدون على أفواهكم الفدام» الفدام: مصفاة الكوز والإبريق قاله الليث. قال أبو عبيد يعني أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم، فشبه ذلك بالفدام الذي يجعل على الإبريق. قال سفيان: وفدامهم أن يؤخذ على ألسنتهم. وهذا مثل.

* * *

باب منه

وبيان قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه﴾

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً» قلت: يا رسول اللّه، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى

بعض»[1].

عن ابن عباس رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ قال: «تُحشرون حفاة عراة غرلا» فقالت امرأة: أيبصر بعضنا ـ أو يرى بعضنا ـ عورة بعض؟ قال: «يا فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه»[2].

فصل: قلت: هذا الباب والذي قبله يدل على أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلا غير مختونين كما بدأنا أول خلق نعيده. قال العلماء: يحشر العبد غداً وله من الأعضاء ما كان له يوم وُلد، فمن قطع منه عضو يرد في القيامة عليه حتى الختان.

وقد عارض هذا الباب ما روى أبو داود في سننه، عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه لما حضرته الوفاة دعا بثياب جدد فلبسها، وقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن الميت يبعث بثيابه التي دُفن بها»[3].

قال أبو عمر ابن عبد البر: وقد احتج بهذا الحديث من قال: إن الموتى يبعثون جملة على هيئاتهم. وحمله الأكثر من العلماء على الشهيد الذي أمر أن يزمل في ثيابه ويدفن، ولا يغسل عنه دمه، ولا يغيّر عليه شيء من حاله بدليل حديث ابن عباس وعائشة رضي اللَّه عنهما. قالوا: ويحتمل أن يكون أبو سعيد سمع الحديث في الشهيد فتأوله على العموم، واللَّه أعلم.

قلت: ومما يدل على قول الجماعة مما يوافق حديث عائشة وابن عباس قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ولأن الملابس في الدنيا أموال ولا مال في

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة (٢٨٥٩).

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٣٣٢). وأصله في الصحيحين وغيرهما.

(٣) رواه أبو داود في الجنائز (٣١١٤).

الآخرة، زالت الأملاك بالموت وبقيت الأموال في الدنيا، وكل نفس يومئذ فإنما يقيها المكاره ما وجب لها بحسن عملها أو رحمة مبتدأة من اللَّه عليها. فأما الملابس فلا غنىٰ فيها يومئذ إلَّا ما كان من لباس الجنة.

* * *

٦٩ ـ باب قول النبي ﷺ «من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير] و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار] و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق]» وفي أسماء يوم القيامة

عن ابن عمر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن ينظر إلىٰ يوم القيامة فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾»[١].

فصل: قلت: وإنما كانت هذه السور الثلاث أخصّ بالقيامة لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها وتكوّر شمسها وانكدار نجومها وتناثر كواكبها إلىٰ غير ذلك من أفزاعها وأهوالها، وخروج الخلق من قبورهم إلىٰ سجونهم أو قصورهم بعد نشر صحفهم وقراءة كتبهم وأخذها بأيمانهم أو شمائلهم أو من وراء ظهورهم في موقفهم علىٰ ما يأتي بيانه. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥] فتراها واهية منفطرة متشققة كقوله تعالىٰ: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩] ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض. وقيل: إن (الباء) بمعنىٰ (عن) أي تشقق عن سحاب أبيض. ويقال: انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم، وذلك

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٧، ٣٦، ١٠٠)، والترمذي في التفسير (٣٣٣٣)، والحاكم (٤/٥٧٦) وغيرهم.

إذا بطلت المياه وبرزت النيران، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن، وتتشقق لما يريد اللّه من نقض هذا العالم ورفعه. وقد قيل: إن السماء تتلون فتصفر ثم تحمر أو تحمر ثم تصفر كالمهرة تميل في الربيع إلىٰ الصفرة، فإذا اشتد الحر مالت إلىٰ الحمرة ثم إلىٰ الغبرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال ابن عباس رضي اللّه عنه: تكويرها إدخالها في العرش. وقيل: ذهاب ضوئها قاله الحسن وقتادة. وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وقال أبو عبيدة: كوّرت مثل تكوير العمامة تلف فتمحىٰ، وقال الربيع بن خيثم: كورت رمي بها، ومنه كورته فتكور أي سقط.

قلت: وأصل التكوير: الجمع؛ مأخوذ من كار العمامة علىٰ رأسه يكورها أي لاتها وجمعها فهي تكور ثم يمحىٰ ضوؤها ثم يرمىٰ بها، واللّه أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢] أي انتثرت، قيل تتناثر من أيدي الملائكة؛ لأنهم يموتون. وقال ابن عباس رضي اللّه عنه: انكدرت: تغيّرت. وأصل الانكدار الانصباب فتسقط في البحار فتصير معها نيراناً إذا ذهبت المياه.

وقوله: ﴿وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣] هو مثل قوله ﴿وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠] أي تحول عن منزلة الحجارة فتكون كثيباً مهيلاً أي رملاً سائلاً وتكون كالعهن، وتكون هباء منبثّاً، وتكون سراباً مثل السراب الذي ليس بشيء. وقيل: إن الجبال بعد اندكاكها تصير كالعهن من حرِّ جهنم، كما تصير السماء من حرها كالمهل.

وقوله: ﴿وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤] أي عطّلها أهلها فلم تحلب من الشغل بأنفسهم. والعشار: الإبل الحوامل واحدها عشراء، وهي التي أُتي عليها في الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتىٰ تضع وبعد ما تضع، وإنما

خصّ العشار بالذكر؛ لأنها أعز ما يكون عند العرب، فأخبر أنها تعطل يوم القيامة. ومعناه: أنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضاً، ورأوا الوحوش والدواب محشورة ـ وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم ـ لم يعبئوا بها، ولم يهمهم أمرها. ويحتمل تعطل العشار إبطال اللّه تعالىٰ أملاك الناس عما كان ملّكَهم إياها في الدنيا، وأهل العشار يرونها فلا يجدون إليها سبيلاً. وقيل: العشار السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر. وقيل: العشار الديار تعطل فلا تسكن. وقيل: الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع. والقول الأول أشهر.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] أي: جُمِعَت، والحشر: الجمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي أوقدت وصارت ناراً. رواه الضحاك عن ابن عباس رضي اللّه عنه. وقال قتادة: غار ماؤها فذهب. وقال الحسن والضحاك: فاضت. قال ابن أبي زمنين: ﴿سُجِّرَتْ﴾ حقيقته ملئت فيفضي بعضها إلىٰ بعض فتصير شيئاً واحداً. وهو معنىٰ قول الحسن. ويقال: إن الشمس تلف ثم تلقىٰ في البحار فمنها تحمىٰ وتنقلب ناراً. قال الحليمي: ويحتمل إن كان هذا وهكذا أن البحار في قول من فسّر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها؛ لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة، فإذا كورت وألقيت في البحر فصارت ناراً ازدادت امتلاء.

وقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] تفسير الحسن: أن تلحق كل شيعة شيعتها: اليهود باليهود، والنصارىٰ بالنصارىٰ، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد من دون اللّه شيئاً يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقال عكرمة: المعنىٰ تقرن بأجسادها أي ترد إليها. وقيل:

يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان. وقيل: يقرن المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] يعني بنات الجاهلية كانوا يدفنونهن أحياء لخصلتين:

إحداهما: كانوا يقولون إن الملائكة بنات اللّه، فألحقوا البنات به.

الثانية: مخافة الحاجة والإملاق. وسؤال الموءودة على وجه التوبيخ لقاتلها كما يقال للطفل إذا ضرب: لم ضربت؟ وما ذنبك؟ وقال الحسن: أراد اللّه أن يوبِّخ قاتلها؛ لأنها قتلت بغير ذنب وبعضهم يقرأ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ﴾ تعلّق الجارية بأبيها فتقول: بأي ذنب قتلتني؟ وقيل: معنى سئلت يسأل عنها كما قال: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] أي للحساب وسيأتي.

وقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١] قيل معناه طويت، كما قال اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] أي كطي الصحيفة على ما فيها؛ فاللام بمعنى (على)، يقال: كشطت السقف أي قلعته، فكأن المعنى قلعت فطويت. واللّه أعلم. والكشط والقشط سواء وهو القلع.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢] أي أوقدت.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣] أي قربت لأهلها وأدنيت ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤] أي من عملها، وهو مثل قوله ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] ومثل قوله: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] فهو يوم الانشقاق، ويوم الانفطار، ويوم التكوير، ويوم الانكدار، ويوم الانتثار، ويوم التسيير، قال اللّه تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠] ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣] ويوم التعطيل،

ويوم التسجير، ويوم التفجير، ويوم الكشط والطي، ويوم المد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] إلى غير ذلك من أسماء القيامة، وهي الساعة الموعود أمرها، ولعظمها أكثر الناس السؤال عنها لرسول الله ﷺ حتى أنزل الله عز وجل على رسوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] .

وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، وهذا جميع كلام العرب؛ ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم. وله نظائر. فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سمّاها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة. منها ما ذكرناه، مما وقع في هذه السور الثلاث.

وقيل: إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها[١]، فيوم القيامة يوم يتضمن الأيام كلها فسمي بكل حال يوماً فقيل: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣، طه: ١٠٢، النبأ: ١٨] ثم قيل: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] ثم قيل: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] فهذه حالة أخرى. ثم قيل: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨] ثم قيل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦] .

فهذه أحوال، فقد يجري يوم القيامة بطوله على هذه الأحوال كل حال منها كاليوم المتجدد؛ ولذلك كررت في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] ؛ لأن ذلك اليوم وما بعده يوم، واليوم العظيم متضمن لهذه الأيام فهو لله يوم، وللخلائق أيام، فقد عرفت أيامهم في

(١) انظر: باب (٦٢) ما جاء في بعث الأيام والليالي ويوم الجمعة.

يومه، وقد بطل الليل والنهار. ومما قيل في معنىٰ ما ذكرنا من النظم قول بعضهم:

مثل لنفسك أيُّها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمورُ
إذ كُوِّرت شمسُ النّهار وأُدنيت ... حتىٰ علىٰ رأسِ العباد تسيرُ
وإذا النجومُ تساقطت وتناثرت ... وتبدّلت بعد الضياء كدورُ
وإذا البحارُ تفجّرت من خوفِها ... ورأيتها مثل الجحيم تفورُ
وإذا الجبالُ تقلّعت بأصولها ... فرأيتها مثل السّحاب تسيرُ
وإذا العشارُ تَعطّلت وتخرّبت ... خلت الديارُ فما بها معمورُ
وإذا الوحوشُ لدىٰ القيامةِ أُحشرت ... وتقولُ للأملاك: أين نسيرُ
وإذا تقاةُ المسلمين تزوجت ... من حور عين زانهن شعورُ
وإذا الموءودةُ سئِّلت عن شأنها ... وبأي ذنبٍ قتلها ميسورُ
وإذا الجليلُ طوىٰ السما بيمينه ... طيّ السّجل كتابه المنشورُ
وإذا الصحائف عند ذاك تساقطت ... تبدي لنا يوم القصاص أمورُ
وإذا الصحائف نشِّرت فتطايرت ... وتهتكت للمؤمنين ستورُ
وإذا السماء تكشطت عن أهلها ... ورأيت أفلاكَ السماءِ تدورُ
وإذا الجحيم تسعّرت نيرانها ... فلها علىٰ أهل الذنوب زفيرُ
وإذا الجنانُ تزخرفت وتطيبت ... لفتىً علىٰ طولِ البلاء صبورُ
وإذا الجنينُ بأمّه متعلّقٌ ... يخشىٰ القصاص وقلبه مذعورُ
هذا بلا ذنب يخاف جناية ... كيف المُصِرُّ علىٰ الذنوب دهورُ

ومن أسمائها: الساعة. قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]

وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وهو في القرآن كثير. والساعة: كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود، وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة، واللذيْن هما أصل الأزمنة، وتقول العرب: أفعل كذا الساعة، وأنا الساعة في أمر كذا؛ تريد الوقت الذي أنت فيه، والذي يليه تقريباً له.

وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى الآن، وسميت به القيامة إما لقربها فإن كل آت قريب، وإما أن تكون سميت بها تنبيهاً على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود، وتكسر العظام. وقيل: إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة. وقيل: سميت الساعة لسعي الأرواح إلى الأجساد في تلك السرعة فهي (سائع) وجمعها (ساعة) كقولك: بائع وباعة، وضائع وضاعة، وكائل وكالة، فوصف أن سائر أموره في السرعة كلمح البصر وأمر الساعة أقرب من لمح البصر.

ومنها: القيامة. قال اللّه تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١] وهي في العربية مصدر «قام يقوم» ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب، واختلف في تسميتها بذلك على أربعة أقوال:

الأول: لوجود هذه الأمور فيها.

الثاني: لقيام الخلق من قبورهم إليها. قال اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

الثالث: لقيام الناس لرب العالمين، كما روى مسلم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما عن النبي ﷺ: «يوم يقوم الناس لرب العالمين، قال: يوم يقوم أحدكم في رشحه إلى نصف أذنيه»[1].

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٣٨)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٦٢).

الرابع: لقيام الروح والملائكة صفاً. قال اللّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨].

قال علماؤنا: واعلم أن كل ميت مات فقد قامت قيامته، ولكنها قيامة صغرىٰ وكبرىٰ، فالصغرىٰ: هي ما يقوم علىٰ كل إنسان في خاصته، من خروج روحه، وفراق أهله، وانقطاع سعيه، وحصوله علىٰ عمله؛ إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. والقيامة الكبرىٰ: هي التي تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة. والدليل علىٰ أن كل ميت يموت فقد قامت قيامته قول النبي ﷺ لقوم من الأعراب وقد سألوه متىٰ القيامة؟ فنظر إلىٰ أحدث إنسان منهم فقال: «إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم»[1]. وقال الشاعر:

خرجتُ من الدنيا وقامت قيامتي ... غداة أقيل الحاملون جنازتي
وعجّل أهلي حَفْرَ قبري وصيَّروا ... خروجي وتعجيلي إليه كرامتي
كأنهم لم يعرفوا قط سيرتي ... غداة أتىٰ يومي عليّ وساعتي

ومنها: يوم النفخة، قال اللّه تعالىٰ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النبأ: ١٨].

ومنها: يوم الزلزلة ويوم الرجفة، قال اللّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧].

ومنها: يوم الناقور، كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] وقد تقدّم القول فيه والحمد للّه.

ومنها: القارعة؛ سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها، يقال: «قد أصابتهم قوارع الدهر» أي أهواله وشدائده، قالت الخنساء:

تعرّفني الدهرُ نهشاً وحزّاً ... وأوجعني الدهرُ قرعًا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥١١)، ومسلم في الفتن (٢٩٥٢).

ومنها : يوم البعث، وحقيقته إثارة الشيء عن خفاء، وتحريكه عن سكون، قال عنترة :

وعصابةٍ شمّ الأنوفِ بعثْتهم ليلاً وقد مال الكرا بطلاها

وقال امرؤ القيس :

وفتيانِ صِدْقٍ بعثت بسحرة فقاموا جميعاً بين غاتٍ ونسوانِ[1]

وقد تقدّم القول فيه وفي صفته، والحمد للّه.

ومنها : يوم النشور، وهو عبارة عن الإحياء. يقال : قد أنشر اللّه الموتى فنشروا أي أحياهم اللّه فحيوا، ومنه قوله تعالى : ﴿وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي : نحييها. وقد يكون معناه التفريق، من ذلك قولك : أمرهم نشر.

ومنها : يوم الخروج، قال اللّه تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] فأوّله الخروج من القبور، وآخره خروج المؤمنين من النار، ثم لا خروج ولا دخول على ما يأتي.

ومنها : يوم الحشر، وهو عبارة عن الجمع، وقد يكون مع الفعل إكراه، قال اللّه تعالى : ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣] أي من يسوق السحرة كرهًا.

ومنها : يوم العرض، قال اللّه تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] وقال : ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨] وحقيقته إدراك الشيء بإحدى الحواس ليعلم حاله، وغايته السمع والبصر، فلا يزال الخلق قياماً في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما شاء اللّه أن يقوموا حتى يلهموا أو يهتموا. فيقولون : قد كنا نستشفع في الدنيا فهلم فلنسأل الشفاعة إلى ربنا

---

(١) «غات» : راكض، والركض : شدة الجري. «نسوان» : متروك.

فيقولون: أئتوا آدم . . . الحديث وسيأتي.

وفي كيفية العرض أحاديث كثيرة المعول منها على:

الحديث المشهور الصحيح الذي رواه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري رضي اللّٰه عنهما واللفظ له، قال: إن ناساً في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول اللّٰه هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول اللّٰه ﷺ: «هل تضاورن في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول اللّٰه. قال: «ما تضارون في رؤية اللّٰه يوم القيامة إلّا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير اللّٰه من الأصنام والأنصاب إلّا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلّا من كان يعبد اللّٰه من بر وفاجر وغير أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً بن اللّٰه. فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ اللّٰه من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيُشار ألا تردون؟ فيُحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار، ثم تُدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن اللّٰه. فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ اللّٰه من صاحبة ولا ولد. فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار ألا تردون؟ فيُحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلّا من يعبد اللّٰه من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها. قال: فماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كنت تعبد. قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ باللّٰه منك، لا نشرك باللّٰه شيئاً (مرتين أو ثلاثاً)، حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم.

فيُكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد للَّه من تلقاء نفسه إلَّا أذن اللَّه له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلَّا جعل اللَّه ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحوَّل في الصورة التي رأوه فيها أول مرة. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربُّنا. ثم يُضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللَّهم سلّم سلّم . . .»[(١)].

وصحّ من حديث عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «مَنْ نوقش الحساب عُذِّب» قلت: يا رسول اللَّه، أليس اللَّه يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] ؟ قال: «ليس ذلك الحساب ذلك العرض»[(٢)].

وثبت عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه: «يُؤتى بعبد يوم القيامة فيقال له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وتركتك ترأس وترتع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقال له: اليوم أنساك كما نسيتني»[(٣)].

وثبت من طرق صحاح أن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيضع عليه كفنه فيقول له: عبدي تذكر يوم كذا وكذا حين فعلت كذا وكذا؟ فلا يزال يقرره حتى يرى أنه هلك. ثم يقول له: عبدي أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[(٤)].

---

(١) حديث أبي هريرة: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧)، ومسلم في الإيمان (١٨٢). أما حديث أبي سعيد المذكور واللفظ لمسلم: فرواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٦)، ومسلم في الجنة (٢٨٧٦).

(٣) رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٧) مطولاً من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٥)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨).

وفي الصحيح عن أبي ذر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً من النار: رجل يؤتىٰ به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها» وذكر الحديث[1].

وفي الصحيح عن أنس رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يخرج من النار أربعة فيعرضون علىٰ اللَّه فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب إذا أخرجتني منها فلا تعدني فيها، فينجيه اللَّه منها»[2].

وروىٰ مسلم: «يجمع اللَّه الناس فيقوم المؤمنون حتىٰ تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول لهم: وهل أخرجكم من الجنة إلَّا خطيئة أبيكم آدم؟ لست بصاحب ذلك»[3]. وذكر حديث الشفاعة، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠] وذلك قوله في الحديث المتقدّم: «ألا تردون؟ فيحشرون إلىٰ جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً» قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهذا مما أغفله الأئمة في التفسير.

العرض علىٰ اللَّه: ولا أعلمه في الحديث إلَّا قوله في النص المتقدم: «حتىٰ إذا لم يبق إلَّا من كان يعبد اللَّه من بر وفاجر أتاهم رب العالمين». وذكر الحديث.

عن أبي برزة الأسلمي رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يُسأل عن أربع . . .» الحديث وسيأتي[4].

وعن عدي بن حاتم رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما منكم من

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٩٠).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٩٢).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٩٥) من حديث أبي هريرة وحذيفة.

(٤) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٤١٧) وقال: حسن صحيح.

أحد إلَّا سيكلمه اللَّه ليس بينه وبينه ترجمان . . . » الحديث وسيأتي[١].

وخرّج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُدعىٰ نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب . . . » الحديث وسيأتي[٢].

ويتضمن من غير رواية البخاري عرض اللوح المحفوظ ثم إسرافيل ثم جبرائيل ثم الأنبياء نبيّاً نبيّاً صلوات اللَّه عليهم أجمعين، وسيأتي.

وخرّج الترمذي وابن ماجه حديث الرجل الذي ينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً وسيأتي[٣].

وهذا كله من باب العرض علىٰ اللَّه، وإذا تتبعت الأحاديث كانت أكثر من هذا في مواطن مختلفة وأشخاص متباينة واللَّه أعلم. وفي بعض الخبر أنه يتمنىٰ رجال أن يبعث بهم إلىٰ نار، ولا تعرض قبائحهم علىٰ اللَّه تعالىٰ، ولا يكشف مساوئهم علىٰ رؤوس الخلائق.

ومنها: يوم الجمع، وحقيقته في العربية ضم واحد إلىٰ واحد، فيكون شفعاً أو زوجاً إلىٰ زوج فيكون جمعاً. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وقال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧، الأنعام: ١٢] وهو في القرآن كثير.

ومنها: يوم التفرق: قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤ ـ ١٦] وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ: ٧].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٩)، وفي التوحيد (٧٤٤٣)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦).
(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩)، وفي التفسير (٤٤٨٧)، وفي الاعتصام (٧٣٤٩).
(٣) رواه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠).

ومنها: يوم الصدع، والصدر أيضاً، قال اللّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦] وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] ومعناهما معنىٰ الاسم الذي قبله.

ومنها: يوم البعثرة، ومعناه تتبع الشيء المختلط مع غيره حتىٰ يخلص منه فيخلص اللّه تعالىٰ الأجسام من التراب، والكافرين من المؤمنين والمنافقين، ثم يخلص المؤمنين من المنافقين كما في الحديث الصحيح: «إن اللّه تعالىٰ يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد»[1].

ومنها: ما روي «أنه يخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم» وهو صحيح أيضاً وسيأتي[2].

وقال ﷺ: «يؤخذ برجال ذات الشمال فأقول يا ربّ أصحابي. فيقول: إنك لا تدرك ما أحدثوا بعدك»[3].

ومنها: يوم الفزع، وحقيقته ضعف النفس عن حمل المعاني الطارئة عليها خلاف العادة، فإن استمر كان جبناً، وعند ذلك تتشوق النفس إلىٰ ما يقويها؛ فلأجل ذلك قالوا: فزعت من كذا، أي ضعفت عن حمله عند جريانه علىٰ خلاف العادة، وفزعت إلىٰ كذا، أي تشوقت نفسي عند ذلك إلىٰ ما يقوّيها علىٰ ما نزل بها، والآخرة كلها خلاف العادة، وهي فزع كلها.

وفي التنزيل: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقد اختلف فيه. فقيل: هو قوله ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢] وقيل: إذا طبقت

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤).

(٢) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦١) وغيرهما. وهو موقوف علىٰ ابن عباس.

(٣) مرّ تخريجه في باب (٦٦) ما جاء في حشر الناس إلىٰ اللّه عز وجل.

النار على أهلها وذبح الموت بين الجنة والنار. وقال الحسن: هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار. وعنه: أن الفزع الأكبر: النفخة الآخرة، تتلقاهم الملائكة بالبشارة حتى يخرجوا من قبورهم.

ومنها: يوم التناد، بتخفيف الدال من النداء، وتشديدها من ند إذا ذهب، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣] وهو الذهاب في غير قصد. يقول اللَّه: ﴿مَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] فيسيّر اللَّه الجبال، ويرجّ الأرض بأهلها رجّاً، وهي التي يقول اللَّه: ﴿تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٦ ـ ٩] فيميد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

قال ابن العربي: وقد رويت في ذلك آثار كثيرة هذا أمثلها فدعوها، فالمعنى الواحد يكفينا منها ومن هولها ومن تحقيق المعنى لها.

ومنها: يوم الدعاء، وهو النداء أيضاً.

والنداء على ثمانية وجوه فيما ذكر ابن العربي:

الأول: نداء أهل الجنة أهل النار بالتقريع.

الثاني: نداء أهل النار لأهل الجنة بالاستغاثة كما أخبر اللَّه عنهم.

الثالث: يدعى كل أناس بإمامهم، وهو قوله: «لتتبع كل أمّة ما كانت تعبد». قال المؤلف: ويقال بكتابهم. وقيل: بنبيهم. قال سَرِيّ السقَطي: تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائهم. فيقال: يا أمة موسى، يا أمة عيسى، ويا أمة محمد، غير المحبين للَّه فإنهم ينادون: يا أولياء اللَّه، هلموا إلى اللَّه سبحانه؛ فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً.

الرابع: نداء الملك: ألا إن فلان ابن فلان قد سعد سعادة لا يشقىٰ بعدها أبداً، وإن فلان ابن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وسيأتي.

الخامس: النداء عند ذبح الموت: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

السادس: نداء أهل النار: يا حسرتنا، ويا ويلتنا.

السابع: قول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

الثامن: نداء اللَّه تعالىٰ أهل الجنة فيقول: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: أعطيتكم أفضل من ذلك رضائي.

قال المؤلف رضي اللَّه عنه: ونداء تاسع ذكره أبو نعيم عن مروان بن محمد قال: قال أبو حازم الأعرج يخاطب نفسه:

يا أعرج.

ينادىٰ يوم القيامة يا أهل خطيئة كذا وكذا فتقوم معهم.

ثم ينادىٰ يا أهل خطيئة أخرىٰ فتقوم معهم.

فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل كل خطيئة[1].

وفي التنزيل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤] الآية، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] والنداء في الأخبار كثير، يأتي بيانها وذكرها في باب: من يدخل الجنة بغير حساب.

ومنها: يوم الواقعة، وأصل وقع في كلام العرب: كان ووجد، وجاءت الشريعة في تأكيد ذلك بثبوت ما وجد، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢] والمراد بالقول هنا إخبار الباري عن الساعة وأنها قريبة، ومن أعظم علاماتها الدابة.

وقوله: ﴿كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢] مصدر كالباقية والعاقبة، أي ليس لوقعتها مقالة كاذبة.

ومنها: الخافضة والرافعة، أي ترفع قوماً في الجنة وتخفض آخرين في النار، والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والإهانة، نسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة توسعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يمكن منه الفعل؛ يقولون: ليل قائم، ونهار صائم. وفي التنزيل: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو اللّه تعالى وحده؛ فرفع أولياءه في أعلى الدرجات، وجعل أعداءه في أسفل الدركات، قال اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وقال ﷺ في حديث جابر رضي اللّه عنه: «نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس»[١].

قال ابن العربي: وهذا حديث فيه تخليط في كتاب مسلم لم يتقنه راويه. ومعناه: أن جميع الخلق على بسيط من الأرض سواء إلّا محمداً ﷺ وأمّته فإنهم يرفعون جميعهم على شبه من الكوم ويخفض الناس عنهم. وفي رواية: «أكون أنا وأمّتي يوم القيامة على تل فيكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي؛ فذلك المقام المحمود»[٢].

قلت: وهذا الرفع في المكان بحسب الزيادة في المكانة. قال ابن العربي:

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٩١). وانظر التعليق بهامشه الذي لخصه فؤاد عبد الباقي في شرح النووي ١/ ١٧٧ (١٩١).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٥٦)، والطحاوي في المشكل (١٠١٨).

وهي أنواع فرفع محمداً ﷺ بالشفاعة في أول الخلق، وبأنه أول من يدخل الجنة ويقرع بابها، ورفع العادلين بالحديث الصحيح: «المقسطون يوم القيامة علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمـٰن وكلتا يديه يمين»[١]. ورفع القراء إلىٰ حيث انتهت قراءتهم. قال: «اقرأ ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» وسيأتي[٢]. ورفع الشهداء فقال في الحديث الصحيح: «إنه في الجنة مائة درجة أعدّها اللَّه للمجاهدين في سبيله» الحديث وسيأتي[٣]، ورفع كافل اليتيم فقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»[٤] وأشار مالك بالسبابة والوسطىٰ يريد في الجوار. وقال ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في أفق السماء، وأن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»[٥].

ومنها: يوم الحساب، ومعناه أن الباري سبحانه يعدد علىٰ الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض فما يشفّ منها علىٰ الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشر.

ويروىٰ عن عليّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه وسئل عن محاسبة الخلق فقال: «كما يرزقهم في غداة واحدة كذلك يحاسبهم في ساعة واحدة».

وفي حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: سئل رسول اللَّه ﷺ: هل نرىٰ

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧).

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٩٢)، وأبو داود في الصلاة (١٤٦٤) والترمذي في ثواب القرآن (٢٩١٤).

(٣) رواه البخاري في الجهاد (٢٧٩٠)، وفي التوحيد (٧٤٢٤) من حديث أبي هريرة، وفي الباب عن معاذ وأبي الدرداء وأبي سعيد.

(٤) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٣)، ومالك في الموطأ في كتاب الشعر (ص٩٤٨) من حديث أبي هريرة، والبخاري في الأدب (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد.

(٥) رواه البخاري مختصراً في الرقاق (٦٥٥٥)، ومسلم في الجنة (٢٨٣٠).

ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا: لا. قال: فهل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر وليس في سحابة؟ قالوا: لا. قال: فوالذي نفس محمد بيده لا تضارُّون في رؤية ربكم إلَّا كما تضارُّون في رؤية أحدهما». قال: «فيلقى العبد فيقول: أيا فل ـ [يعني يا فلان] ـ ألمْ أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخّر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترتع؟ فيقول: بلى. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وتصدقت وصمت، ويثني بخير ما استطاع، قال: فيقول ها هنا إذاً، ثم نبعث شاهداً عليك فيقول في نفسه: مَنْ ذا الذي يشهد عليّ؟ فيُختم على فِيهِ، ويُقال لفخذه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله؛ وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط اللَّه عليه»[1].

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] أي حسيباً فعيلاً بمعنى فاعل، وإذا نظر فيها ورأى أنه قد هلك فإن أدركته سابقة حسنة وضعت له لا إلٰه إلَّا اللَّه في كفّة فرجحت له السمٰوات والأرض. وفي رواية: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»[2]. وقال: «من نوقش الحساب عُذِّب» وقد مرّ.

ومنها: يوم السؤال: والباري سبحانه وتعالى يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة. قال اللَّه تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٨).

(٢) حديث البطاقة والسجلات: هو حديث الرجل الذي ينشر له تسعة وتسعون سجلاً. وقد مرّ تخريجه قريباً في هذا الباب.

آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] وقال: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الزخرف: ٤٥] وهو في القرآن كثير. وقال: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] وقال: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. قيل: عن لا إلـه إلّا اللّه. وقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال عليه السلام: «لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتىٰ يُسأل عن أربع» الحديث وسيأتي[١].

ورویٰ ابن عمر رضي اللّه عنهما عن النبي ﷺ قال: «ألَا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع علىٰ أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية علىٰ بيت زوجها وهي مسؤولة عنه، والعبد راع علىٰ مال سيده وهو مسؤول عنه، ألَا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٢].

ومنها: يوم الشهادة، ويوم يقوم الأشهاد.

والشهادة علىٰ أربعة أنواع:

الأول: شهادة محمد وأمته تحقيقاً لشهادة الرسل علىٰ قومها.

الثاني: شهادة الأرض والأيام والليالي بما عمل فيها وعليها.

الثالث: شهادة الجوارح، قال اللّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ [النور: ٢٤] وقال: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] وذلك بيِّن أيضاً في حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه[٣].

---

(١) مرّ تخريجه في هذا الباب من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩).

(٣) حديث أبي هريرة: المقصود به حديثه الذي فيه أن الإنسان يختم علىٰ فيه، ويقال لفخذه: انطقي فتنطق . . إلخ. وقد مرّ قريباً.

الرابع: حديث أنس رضي اللَّه عنه وفيه: «ويختم على فِيهِ ويُقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله»[١]. وسيأتي بيان هذا الباب كله إن شاء اللَّه تعالى.

ومنها: يوم الجدال، قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] أي تخاصم وتحاج عن نفسها. وجاء في الخبر: «أن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي من شدة أهوال يوم القيامة سوى محمد ﷺ فإنه يسأل في أمته». على ما يأتي[٢].

وفي حديث عمر رضي اللَّه عنه أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب خوفنا هيجنا، حدثنا، نبهنا. فقال كعب: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيّاً لأتت عليك تارات ولا يهمك إلَّا نفسك، وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي منتخب إلَّا وقع جاثياً على ركبتيه، حتى إن إبراهيم الخليل ليدلي بالخلة فيقول: أنا خليلك إبراهيم لا أسألك اليوم إلَّا نفسي. قال: يا كعب، أين نجد ذلك في كتاب اللَّه تعالى؟ قال: قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١][٣].

وقال ابن عباس رضي اللَّه عنه في هذه الآية: ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد، فتقول الروح: رب الروح منك، أنت خلقته، لم يكن لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، ولا سمع أسمع به، ولا عقل أعقل به، حتى جئت فدخلت في هذا الجسد؛ فضعِّف

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٩).

(٢) سيأتي مع تخريجه في باب الشفاعة العامة لنبينا محمد ﷺ لأهل المحشر.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (١٥٩)، (٢٢٥)، وأحمد في الزهد (ص١٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٥/٣٦٨ـ٣٦٩) وغيرهم.

عليه أنواع العذاب ونجِّني. فيقول الجسد: رب أنت خلقتني بيدك فكنت كالخشبة، ليس لي يد أبطش بها، ولا قدم أسعىٰ به، ولا بصر أبصر به، ولا سمع أسمع به، فجاء هذا كشعاع الشمس؛ فبه نطق لساني، وبه أبصرت عيني، وبه مشت رجلي، وبه سمعت أذني، فضعِّف عليه أنواع العذاب ونجِّني. قال: فيضرب اللَّه لهما مثلاً: أعمىٰ ومُقعد أُدخلا بستاناً فيه ثمار؛ فالأعمىٰ لا يُبصر الثمر، والُمقعد لا ينالها، فنادىٰ المقعد للأعمىٰ: ائتني فاحملني آكل وأطعمك؛ فدنا منه فحمله، فأصابا من الثمرة؛ فعلىٰ مَنْ يكون العذاب؟ قالا: عليهما، قال: عليكما جميعاً العذاب.

ومنها: يوم القصاص؛ وفيه أحاديث كثيرة يأتي ذكرها في باب إن شاء اللَّه تعالىٰ.

ومنها: يوم الحاقة؛ وسمِّيت بذلك لأن الأمور تحق فيها، قاله الطبري كأنه جعلها من باب: ليل نائم، كما تقدّم.

وقيل: سميت حاقة لأنها كانت من غير شك. وقيل: سميت بذلك لأنها أحقَّت لأقوام النار.

ومنها: يوم الطامة؛ معناها الغالبة، من قولك: طم الشيء إذا علا وغلب، ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء. قال الحسن: الطامة النفخة الثانية، وقيل: حين يساق أهل النار إلىٰ النار.

ومنها: يوم الصاخة: قال عكرمة: الصاخة: النفخة الأولىٰ، والطامة: النفخة الثانية. قال الطبري: أحسبه من صخ فلان فلاناً إذا أصمّه. قال ابن العربي: الصاخة التي تورث الصمم وإنها المسمعة، وهذا من بديع الفصاحة حتىٰ لقد قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان:

* أصم بك الناعي وإن كنت أسمعا *

وقال آخر:

أصمّني شرّهم أيام فرقتهم فهلْ سمعتم بشرٍّ يُورث الصمما؟

ولعمرو اللّه إن صيحة القيامة مسمعة، تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة، وبهذا كله كان يوماً عظيماً، كما قال اللّه تعالىٰ في وصفه بالعظيم. وكل شيء كبر في أجزائه فهو عظيم، وكذلك ما كبر في معانيه. وبهذا المعنىٰ كان الباري عظيماً؛ لسعة قدرته وعلمه، وكثرة ملكه الذي لا يحصىٰ، ولما كان أمر الآخرة لا ينحصر كان عظيماً بالإضافة إلىٰ الدنيا، ولما كان محدثاً له أول صار حقيراً بالإضافة إلىٰ العظيم الذي لا يحد.

ومنها: يوم الوعيد؛ وهو أن الباري سبحانه أمر ونهىٰ، ووعد وأوعد، فهو أيضاً يوم الوعد؛ والوعد للنعيم والوعيد للعذاب الأليم، وحقيقة الوعيد: هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة، والوعد: الخبر عن المثوبة عند الموافقة، وقد ضل في هذه المسألة المبتدعة وقالوا: أن من أذنب ذنباً واحداً فهو مخلد في النار تخليد الكفار؛ أخذاً بظاهر هذا اللفظ في آي، فلم يفهموا العربية ولا كتاب اللّه، وأبطلوا شفاعة رسول اللّه ﷺ.

ومنها: يوم الدين؛ وهو في لسان العرب الجزاء، قال الشاعر:

حصادك يوماً ما زرعت وإنما يُدان الفتىٰ فيه كما هو دائنُ

وقال آخر:

واعلم يقيناً أن ملكك زائلٌ واعلم بأنّك كما تدين تُدانُ

ومنها: يوم الجزاء؛ قال اللّه تعالىٰ ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]. وهو أيضاً يوم الوفاء؛ قال اللّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] أي حسابهم وجزاؤهم والجنة جزاء الحسنات والنار جزاء السيئات. قال اللّه

تعالىٰ في المعنيين ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢] و﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧، الأحقاف: ١٤، الواقعة: ٢٤] وقال في جهة الوعيد: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

ومنها: يوم الندامة: وذلك أن المحسن إذا رأىٰ جزاء إحسانه والكافر جزاء كفره ندم المحسن أن لا يكون مستكثراً، وندم المسيء أن لا يكون استعتب، فإذا صار الكافر إلىٰ عذاب لا نفاد له تحسّر، فلذلك سمي يوم الحسرة قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩] وذلك عند ذبح الموت علىٰ ما يأتي، وهم في غفلة يعني الآن عن ذلك اليوم والحسرة: عبارة عن استكشاف المكروه بعد خفائه.

ومنها: يوم التبديل؛ قال اللّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ومنها: يوم التلاق: قال اللّه تعالىٰ: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] وهو عبارة عن اتصال المعنيين بسبب من أسباب العلم والجسمين. وهو أنواع أربعة:

الأول: لقاء الأموات لمن سبقهم إلىٰ الممات.

الثاني: عمله.

الثالث: لقاء أهل السمٰوات لأهل الأرض في المحشر.

الرابع: لقاء الخلق للباري سبحانه وتعالىٰ، وذلك يكون في عرصات القيامة وفي الجنة علىٰ ما يأتي.

ومنها: يوم الآزفة: تقول العرب: أزف كذا، أي قرب، قال الشاعر:

أزف الترحّل غير أن ركابَنا ... لما نزل برحالنا وكأن قد

وهي قريبة جداً، وكل آت قريب، وإن بعد مداه، قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وما يستبعد الرجل من الساعة

ومدته ساعة؟!

ومنها: يوم المآب: ومعناه الرجوع إلى اللَّه تعالى، ولم يذهب عن اللَّه شيء فيرجع إليه، وإنما حقيقته أن العبدَ يخلقُ اللَّهُ فيه ما شاء من أفعاله فلما خلق فيه علماً، وخلق فيه إيثاراً واختياراً ظن الناس أنه شيء أو أن له فعلاً، فإذا أماته وسلب ما كان أعطاه أذعن وآب في وقت لا ينفعه الإياب.

ومنها: يوم المصير: وهو يوم المآب بعينه قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢] فالخلق سائرون إلى أمر اللَّه تعالى. وآخر ذلك دار القرار وهي الجنة أو النار، قال اللَّه تعالى في حق الكافرين: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

ومنها: يوم القضاء؛ وهو أيضاً يوم الحكم والفصل، وسيأتي أن أول ما يقضي فيه الدماء، وقال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها» الحديث وفيه: «كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد»[1]. والفصل هو الفرق والقطع؛ فيفصل يومئذ بين المؤمن والكافر، والمسيء والمحسن. قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣] الآية. وهو يوم الحكم لأن إنفاذ الحكم هو إنفاذ العلم قال اللَّه تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦] الآية. وقال: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ومنها: يوم الوزن؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] الآية. وسيأتي الكلام في الميزان ووزن الأعمال إن شاء اللَّه تعالى.

ومنها: يوم عقيم؛ وهو في اللغة عبارة عن من لا يكون له ولد. ولما كان الولد يكون بين الأبوين، وكانت الأيام تتوالى قبل وبعد جعل الاتباع بالتعدية فيها

(١) رواه مسلم في الزكاة (٩٨٧).

كهيئة الولد. ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم.

ومنها: يوم عسير؛ وهذا في حق الكافرين خاصة. والعسر ضد اليسر فهو عسير على الكافرين؛ لأنهم لا يرون فيه أملاً ولا يقطعون فيه رجاء حتى إذا خرج المؤمنون من النار طلبوا مثل ذلك، فيقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فحينئذ يكون المنع الصريح على ما يأتي بيانه في أبواب النار إن شاء اللَّه تعالى. وأما المؤمنون فتنحل عقدهم بيسر إلى يسر، فينحل طول الوقوف إلى تعجيل الحساب، وتثقيل الموازين، وجواز الصراط والظلال بالأعمال، ولا تنحل للكافرين من هذه العقد عقدة واحدة إلَّا إلى أشد منها حتى إلى جهنم دار القرار.

ومنها: يوم مشهود؛ سمّي بذلك لأنه يشهده كل مخلوق، وقيل: سمي بذلك لأن الشهداء يشهدون فيه، واللَّه أعلم.

ومنها: يوم التغابن؛ سمّي بذلك لأن الناس يتغابنون في المنازل عند اللَّه: فريق في الجنة وفريق في السعير. وحقيقته في لسان العرب: ظهور الفضل في المعاملة لأحد المتعاملين. والدنيا والآخرة دار لعملين وحالين وكل واحد منهما للَّه، ولا يعطى أحدهما إلَّا من ترك نصيبه من الأخرى، قال اللَّه تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] ومن أراد الآخرة فسعيُه مشكور، وحظه في الآخرة موفور.

ومنها: يوم عبوس قمطرير؛ والقمطرير: الشديد، وقيل: الطويل. وأما العبوس فهو الذي يُعبس فيه؛ سمّي باسم ما يكون فيه، كما يقال ليل قائم ونهار صائم. وكلوح الوجه وعبوسه هو قبض ما بين العينين، وتغيّر السحنة عن عادتها

الطلقة. يقال: «يوم طلق» إذا كانت شمسه نيرة فاترة، وإذا كانت شمسه مدجية قد غطاها السحاب قيل: «يوم عبوس» وأول العبوس والكلوح عند الخروج من القبور ورؤية الأعمال في الصور القبيحة، وآخر ذلك كلوح النار، وهو الكلوح الأعظم؛ يشوي الوجوه، ويُسقط الجلود على ما يأتي، ومع العبوس تشخص الأبصار، وهو ثبوتها راكدة على منظر واحد لهول لا يُنتقل منه إلى غيره، كما قال سبحانه: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ومنها: يوم تُبلى السرائر؛ ومعناه إخراج المخبآت بالاختبار بوزن الأعمال في الصحف، ويكشف الساق عند السجود.

ومنها: يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا؛ وهو مثل قوله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] وقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان: ٤١] فكل نفس بما كسبت رهينة لا يغني أحد عن أحد شيئاً؛ بل ينفصل كل واحد عن أخيه وأبيه، ولذلك كان يوم الفصل ويوم الفرار، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] أما إنه يجزي ويقضي ويعطي ويغني بغير اختياره من حسناته ما عليه من الحقوق على ما يأتي في أحاديث المفلس إن شاء اللّه تعالى.

ومنها: يوم يدعُّون إلى نار جهنم دعّاً؛ والدعّ الدفع أي يدفعون إلى جهنم ويسحبون فيها على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨].

ومنها: يوم التقلّب؛ وهو التحوّل. قال اللّه تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧] أي: قلوب الكفار وأبصارهم، فتقلّب

قلوب الكفار انتزاعها من أماكنها إلىٰ الحناجر؛ فلا هي ترجع إلىٰ أماكنها، ولا هي تخرج. فأما تقلّب الأبصار فالزرقة بعد الكَحَل، والعمىٰ بعد البصر. وقيل: تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم، وإلىٰ أي ناحية يؤخذ بهم. وقيل: إن قلوب الشاكين تتحول عما كانت عليه من الشكّ، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين، إلَّا أن ذلك لا ينفعهم في الآخرة.

ومنها: يوم الشخوص والإقناع؛ قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] أي: لا تغمض فيه من هول ما ترىٰ من ذلك اليوم.

وقال ابن عباس رضي اللَّه عنه: تشخص أبصار الخلائق يومئذ إلىٰ الهواء لشدة الحيرة فلا يغتمضون ﴿مُهْطِعِينَ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: مديمي النظر.

قال مجاهد والضحاك: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: رافعي رؤوسهم، وإقناع الرأس رفعه، قاله ابن عباس ومجاهد. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلىٰ السماء لا ينظر أحد إلىٰ أحد. فإن قيل: فقد قال اللَّه تعالىٰ في غير هذه الآية ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤، القلم: ٤٣] وقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر: ٧] فكيف يكون الرافع رأسه الناظر نظراً طويلاً حتىٰ إن طرفه لا يرتدّ إليه خاشع البصر؟

فالجواب: أنهم يخرجون حال المضي إلىٰ الموقف خاشعة أبصارهم، وفي هذه الحال وصفهم اللَّه تعالىٰ بخشوع الأبصار، وإذا توافَوْا وضمهم الموقف، وطال القيام عليهم؛ فإنهم يصيرون من الحيرة كأنهم لا قلوب لهم، ويرفعون رؤوسهم فينظرون النظر الطويل، ولا يرتد إليهم طرفهم، كأنهم قد نسَوا الغمض أو جهلوه؛ فهو تعسير عليهم.

ومنها: ﴿يَوْمَ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

وذلك حين يقال لهم ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وتطبق عليهم جهنم على ما يأتي بيانه في أبواب النار.

ومنها: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] وإن أذن لهم بأن يمكنوا منها لا بأن يقال لهم اعتذروا كقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآية وكقوله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧] الآية.

ومنها: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

ومنها: يوم الفتنة؛ قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يعذبون، من قولك: فتنت الذهب إذا رميت به في النار.

ومنها: ﴿يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤٣، الشورى: ٤٧] يريد يوم القيامة أي: لا يرده أحد بعد ما حكم اللَّه به وجعل له أجلاً ووقتاً.

ومنها: يوم الغاشية؛ وسميت بذلك لأنها تغشى الناس بإفزاعها. أي تعمهم بذلك.

ومنها: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

ومنها: يوم لا بيع فيه ولا خلال. قال اللَّه تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] والخلة والخلال: الصداقة والمودة.

ومنها: يوم لا ريب فيه؛ وإن وقع فيه ريب الكفار أي شك فليس فيه ريب لقيام الأدلة الظاهرة عليه، كما قال اللَّه تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]

فليس في الباري شك لقيام الأدلة عليه، ولشهادة أفعاله، ولاقتضاء المحدَث أن يكون له محدِث، ولكن قد شك فيه قوم ونفاه آخرون، ولم يوجب ذلك شكاً فيه لقيام الأدلة عليه، فكذلك يوم القيامة لا ريب ولا شك فيه مع النظر في الدليل والعلم، فإذا خلق اللَّه تعالىٰ الرين علىٰ القلب كان الشك. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧].

ومنها: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

ومنها: يوم الأذان؛ دخل طاووس علىٰ هشام بن عبد الملك فقال له: اتّق اللَّه واحذر يوم الأذان فقال: وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الاعراف: ٤٤] فصعق هشام، فقال طاووس: هذا ذل الصفة فكيف ذل المعاينة؟!

ومنها: يوم الشفاعة؛ قال اللَّه تعالىٰ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠].

ومنها: يوم العرق؛ وسيأتي بيانه في أحاديث في الباب بعد هذا بحول اللَّه وقوته.

ومنها: يوم القلق والجولان؛ وهو عبارة عن عدم الاستقرار والثبوت. يقال: قلق الرجل يقلق قلقاً إذا لم يستقر، ومثله جال يجول إذا لم يثبت.

ومنها: يوم الفرار: قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] فيفر كل واحد من صاحبه حذراً من مطالبته إياه، إما لما بينهم من التبعات، أو لئلا يروا ما هو فيه من الشدة.

وقال عبد اللَّه بن طاهر الأبهري: يفر منهم لما يتبين له من عجزهم وقلة حيلتهم إلىٰ من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئاً سوىٰ ربه تعالىٰ.

وقال الحسن: أول مَنْ يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم، وأول مَن يفر من ابنه نوح، وأول مَن يفر من امرأته لوط. قال: فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم، وهذا فرار التبرِّي، نجانا اللَّه من أهوال هذا اليوم بمنّه وكرمه، وصلىٰ اللَّه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال المؤلف: وقد سرد تسمية هذ الأيام علىٰ التوالي من غير تفسير غير واحد من العلماء، وهذا تفسيرها حسب ما ذكره القاضي أبو بكر بن العربي، وربما زدنا عليه في ذلك والحمد للَّه علىٰ ذلك. ولا يمتنع أن تسمىٰ غير ما ذكرنا بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام والخزي والهوان والذل والافتقار والصغار والانكسار ويوم الميقات والمرصاد إلىٰ غير ذلك من الأسماء، وسيأتي التنبيه علىٰ ذلك إن شاء اللَّه تعالىٰ.

* * *

٧٠ ـ باب ما يلقىٰ الناس في الموقف من الأهوال العظام والأمور الجسام

قال المحاسبي في (كتاب التوهم والأهوال): يحشر اللَّه الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء، قد نزع الملك من ملوك الأرض، ولزمهم الصغار بعد عتوهم، والذلة بعد تجبرهم علىٰ عباد اللَّه في أرضه. ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق، وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور، من غير ريبة ولا خطيئة أصابتها حتىٰ وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض علىٰ

الملك الديان، حتىٰ إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر فأظلما عليهم، ومارت سماء الدنيا من فوقهم، فدارت من فوقهم بعظمها فوق رؤوسهم، وجميع ذلك بعينك وعين أهل الموقف ينظرون إلىٰ هوله، ثم انشقت بغلظها فوق رؤوسهم وهي خمسمائة عام! فيا هول صوت انشقاقها في سمعهم، وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيامة من عظم يوم الطامة ثم ذابت حتىٰ صارت مثل الفضة المذابة، كما قال الجبار تبارك وتعالىٰ: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمـٰن: ٣٧] وقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩] أي كالصوف المنفوش، وهو أضعف الصوف، وهبطت الملائكة من حافاتها إلىٰ الأرض بالتقديس لربها. فتوهّم انحدارهم من السماء لعظم أجسامهم، وكثرة أخطارهم، وهول أصواتهم، وشدة فرقهم من خوف ربهم، فتوهم فزعك حينئذ وفزع الخلائق لنزولهم؛ مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم، فأخذوا مصافهم محدقين بالخلائق، منكسي رؤوسهم؛ لعظيم هول يومهم، قد تسربلوا أجنحتهم، ونكسوا رؤوسهم بالذلة والخضوع لربهم، وكذلك ملائكة كل سماء إلىٰ السماء السابعة، قد أُضعف أهل كل سماء علىٰ أهل السماء الذين قبلهم في العدة وعظم الأجسام والأصوات، حتىٰ إذا وافىٰ الموقف أهل السمـٰوات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين، ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين أو قوس فلا ظلّ ذلك اليوم إلّا ظلّ عرش الرحمـٰن، فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضح بحر الشمس قد صهرته واشتد فيها كربه وأقلقته، وقد ازدحمت الأمم وتضايقت ودفع بعضها بعضاً، واختلفت الأقدام، وانقطعت الأعناق من العطش. قد اجتمع عليهم في مقامهم حر الشمس مع وهج أنفاسهم

وتزاحم أجسامهم ففاض العرق منهم على وجه الأرض، ثم على أقدامهم، ثم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء، فمنهم من يبلغ العرق منكبيه وحقويه، ومنهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من قد ألجمه العرق فكاد أن يغيب فيه.

قلت: ذكر المحاسبي وغيره أن انفطار السماء: انشقاقها بعد جمع الناس في الموقف، وقد قدمنا أن ذلك يكون قبل ذلك، وهو ظاهر القرآن كما ذكرنا، والله أعلم.

وما ذكره المحاسبي مروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، وزيد في سعتها كذا وكذا، وجمع الخلائق بصعيد واحد جنّهم وإنسهم، فإذا كان ذلك قبضت هذ السماء عن أهلها فينتشرون على وجه الأرض؛ فلأهل السماء أكثر من أهل جميع الأرض جنهم وإنسهم بالضعف»[1].

وقال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض، وذابت الصَّخَر، وجفت الأنهار، فبينما الخلائق يموجون في تلك الأض البيضاء التي ذكرها الله تعالى حيث يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وهم على أنواع في المحشر. والملوك كالذر في مذلتهم وانخفاضهم، وقوم يشربون ماء باردًا عذبًا صافيًا؛ لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكؤوس من أنهار الجنة يسقونهم.

وعن بعض السلف: أنه نام فرأى القيامة قد قامت، وكأنه في الموقف عطشان، وصبيان صغار يسقون الناس: قال: فناديتهم: ناولوني شربة، فقال لي

---

(١) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٥٣)، وأبونعيم في الحلية (٦/ ٦١) وهو موقوف على ابن عباس. وقد مرّ بعضه في الباب السابق وهو: «يخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم».

واحد منهم: ألك فينا ولد؟ فقلت: لا. فقال: فلا إذاً؛ ولهذا فضّل التزويج.
وقوم قدموا على رؤوسهم ظل يمنعهم من الحر، وهي الصدقة الطيبة لا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور فتوجل له القلوب وتخشع الأبصار لعظيم نقره، وتشتاف ـ [أي: تعلو] ـ الرؤوس من المؤمنين والكافرين، يظنون أن ذلك عذاب يزداد بهم في هول يوم القيامة، فإذا بالعرش تحمله ثمانية أملاك، قَدَمُ المَلَك منهم مسيرة عشرين ألف سنة، وأفواج الملائكة وأنواع الغمام بأصوات التسبيح، لهم هرج عظيم لا تطيقه العقول حتى يستقر العرش في تلك الأرض البيضاء التي خلقها اللَّه تعالى لهذا الشأن خاصة، فتطرق الرؤوس وتخنس، وتشفق البرايا، وترعب الأنبياء وتخاف العلماء، وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب اللَّه سبحانه الذي لا يطيقه شيء؛ إذ غشاهم نور حتى غلب عليه نور الشمس التي كانوا في حرها، فلا يزالون يموج بعضهم في بعض ألف عام، والجليل سبحانه لا يكلمهم كلمة واحدة، فحينئذ يذهب الناس إلى آدم فيقولون: يا أبا البشر الأمر علينا شديد، وأما الكافر فيقول: يا رب أرحني ولو إلى النار من شدة ما يرى من الهول. يقولون: أنت الذي خلقك اللَّه بيده، وأسجد لك ملائكته، ونفخ فيك من روحه، اشفع لنا في فصل القضاء، وذكر أمر الشفاعة من نبي إلى نبي، وأن ما بين إتيانهم من نبي إلى نبي ألف عام، حتى تنتهي الشفاعة إلى نبينا محمد ﷺ على ما يأتي بيانه من أمر الشفاعة في أحاديث إن شاء اللَّه تعالى.

ونحو من هذا ذكره الفقيه أبو بكر بن برجان في كتاب الإرشاد له، قال: فإذا كان يومئذ جمع اللَّه الأولين والآخرين في صعيد واحد، وكورت الشمس، وانكدرت النجوم، ومارت السماء فوق الخلائق موراً، وتفطرت من عظيم هول ذلك اليوم، وتشققت بالغمام المنزل من عليهن فوقهن، ثم صارت وردة كالدهان، وكشطن سماء سماء، ونزلت الملائكة تنزيلاً، وقام الخلائق وطال

قيامهم، أقل ما قيل في قيامهم مقدار أربعين عاماً إلى ثلاثمائة عام، وأيّاً ما كان فاليوم يسعه، قال رسول اللّه ﷺ: «ما من صاحب إبل . . » الحديث، وفيه: «وردت عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» وسيأتي بكماله[١].

وهم في قيامهم ذلك في الظلمة دون الجسر كما في الحديث: «عراة غُرّلاً». أعطش ما كانوا وأجوع ما كانوا عليه قط عراة فلا يسقى ذلك اليوم إلّا من سقى للّه عز وجل، ولا يطعم إلّا من أطعم للّه، ولا يكسى يومئذ إلّا من كسا للّه، ولا يكفى إلّا من اتكل على اللّه. ومصداق هذا من كتاب اللّه عز وجل قوله الحق: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ [الإنسان: ٧ ـ ١١] أي من إزالة الجوع والعطش والعري إلى غير ذلك من أهوال القيامة على ما يأتي بيانه في هذا الباب الذي يليه.

عن سلمان قال: تُعطى الشمس يوم القيامة حرّ عشر سنين، ثم تُدّنى من جماجم الناس حتى تكون قاب قوسين قال: فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض قامة، ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل. قال سلمان: حتى يقول الرجل غرغر، فإذا رأوا ما هم فيه قال بعضهم لبعض: ألَا ترون ما أنتم فيه؛ ائتوا أباكم آدم فيشفع لكم. الحديث بطوله. وأخرجه ابن المبارك عن سلمان قال: «تدنى الشمس من الناس يوم القيامة حتى تكون من رؤوسهم قاب قوسين فتعطى حر عشر سنين، وليس على أحد يومئذ طحرية، ولا يرى فيها عورة مؤمن ولا مؤمنة، لا يضر حرها يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة، وأما الآخرون ـ أو قال الكفار ـ فتطبخهم طبخاً، فإنما تقول أجوافهم: غق غق»[٢]. قال نعيم: الطحرية: الخرقة.

(١) سيأتي بكماله في باب ما جاء في عقوبة مانعي الزكاة.

(٢) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (١٠٠)، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٤٠٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ٤٤٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٨٣) وغيرهم.

عن سليم بن عامر، عن المقداد بن الأسود رضي اللَّه عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل». قال سليم بن عامر: فواللَّه ما أدري ما يعني بالميل؛ أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين؟ قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبته، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً» قال: وأشار رسول اللَّه ﷺ بيده إلى فيه، وأخرجه الترمذي وزاد قوله بعد ذكر الميل: «تكحل به العين فتصهرهم الشمس»[1].

وذكر ابن المبارك، عن عبيد اللَّه بن العيزار قال: إن الأقدام يوم القيامة مثل النبل في القرن، والسعيد الذي يجد لقدميه موضعاً يضعهما عليه، وإن الشمس تدنى من رؤوسهم حتى لا يكون بينها وبين رؤوسهم - إما قال: ميلاً أو ميلين - ثم يزاد في حرها بضعة وستون ضعفاً، وعند الميزان ملك إذا وزن العبد نادى: ألا إن فلان ابن فلان قد ثقلت موزاينه، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ألا إن فلان ابن فلان قد خفت موازينه، وشقي شقاء لا يسعد بعده أبداً»[2].

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعاً، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو آذانهم». يشك ثور أيهما[3]. وعن ابن عمر رضي اللَّه عنهما عن النبي ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] قال: «يوم يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه»[4].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢٨٦٤)، والترمذي في صفات الجنة (٢٤٢١) وغيرهما.

(٢) رواه ابن المبارك كما في زوائد الزهد (٣٧٢) وغيره.

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٢)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٦٣).

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣١)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٦٢).

عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال: قال له رجل: إن أهل المدينة ليوفون الكيل يا أبا عبد الرحمـٰن. قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل؟ وقد قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتىٰ بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦] قال: إن العرق ليبلغ أنصاف آذانهم من هول يوم القيامة وعظمه[١].

فصل: قلت: ظاهر ما روي عن سلمان: أن الشمس لا يضر حرها مؤمن ولامؤمنة: العموم في المؤمنين، وليس كذلك؛ لحديث المقداد المذكور بعده، وإنما المراد لا يضر حرها مؤمناً كامل الإيمان، أو من استظل بظل عرش الرحمـٰن كما في الحديث الصحيح: «سبعة يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظل إلّا ظله . . » الحديث وسيأتي في الباب التالي.

وكذلك ما جاء أن المرء في ظل صدقته، وكذلك الأعمال الصالحة أصحابها في ظلها إن شاء اللّه، وكل ذلك من ظل العرش، واللّه أعلم.

وأما غير هؤلاء فمتفاوتون في العرق علىٰ ما دلّ عليه حديث المقداد، قال ابن العربي: وكل واحد يقوم عرقه معه فيغرق فيه إلىٰ أنصاف ساقيه وإلىٰ جانبيه مثلاً، يمنة: من يبلغ كعبيه، ومن الجهة الشمال: من يبلغ ركبتيه، ومن أمامه: من يكون عرقه إلىٰ نصفه، ومن خلفه: من يبلغ العرق صدره، وهذا خلاف المعتاد في الدنيا فإن الجماعة إذا وقفوا في الأرض المعتدلة أخذهم الماء أخذاً واحداً ولا يتفاوتون، كما ذكرنا مع استواء الأرض ومجاورة المحل، وهذا من القدرة التي تخرق العادات في زمن الآيات.

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه بنحوه في التجارات (٢٢٢٣) من حديث ابن عباس، والنسائي في الكبرىٰ (١١٦٥٤)، وابن حبان (٤٩١٩)، والحاكم (٢/ ٣٣) وغيرهم.

٧١ ـ باب ما ينجي من أهوال يوم القيامة ومن كربها

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عن مسلم كرْبة من كرب الدنيا نَفَّسَ اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة»[١].

وعن أبي مسعود رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلَّا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال: قال اللَّه عز وجل: أنا أحقّ بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي»[٢].

وعن حذيفة عن النبي ﷺ: «أن رجلاً مات فدخل الجنة، فقيل له: ما كنت تعمل؟ فقال: إني كنت أبايع الناس، فكنت أنظر المعسر وأتجاوز في السكة أو في النقد فغفر له». فقال له أبو مسعود رضي اللَّه عنه: وأنا سمعته من رسول اللَّه ﷺ[٣].

وعن أبي قتادة رضي اللَّه عنه: أنه طلب غريماً له فتوارىٰ عنه، ثم وجده فقال: إني معسر. قال: آللَّه؟ فقال: آللَّه. قال: فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّه أن ينجيه اللَّه من كرب يوم القيامة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه»[٤].

وعن أبي اليسر ـ واسمه كعب بن عمرو رضي اللَّه عنه ـ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله اللَّه في ظله»[٥].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر (٢٦٩٩).

(٢) رواه مسلم بنحوه في كتاب المساقاة (١٥٦١).

(٣) رواه البخاري في الاستقراض (٢٣٩١)، ومسلم في المساقاة (٢٨ تحت ١٥٦٠).

(٤) رواه مسلم في المساقاة (١٥٦٠).

(٥) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٦).

وروى الأئمة عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه، عن النبي ﷺ قال: «سبعة يُظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة اللَّه، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف اللَّه، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر اللَّه خالياً ففاضت عيناه»[1]. معنى «في ظلِّه»: أي في ظل عرشه. وقد جاء هكذا تفسيراً في الحديث.

* * *

٧٢ ـ باب في الشفاعة العامة لنبينا محمد ﷺ لأهل المحشر

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه: أتي النبي ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهش منها نهشة، فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع اللَّه الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألَا ترون ما أنتم فيه؟ ألَا ترون ما قد بلغكم؟ ألَا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم؛ فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبونا أبو البشر، خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ اشفع لنا إلى ربك، ألَا ترى ما نحن فيه؟ ألَا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وسمّاك اللَّه عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربنا، ألَا ترى ما نحن فيه؟ ألَا

(١) رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١).

ترىٰ ما قد بلغنا؟ فيقول لهم نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كانت لي دعوة دعوت بها علىٰ قومي. نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي اللَّه وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألَا ترىٰ ما نحن فيه؟ ألَا ترىٰ ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ موسىٰ، فيأتون موسىٰ فيقولون: يا موسىٰ، أنت رسول اللَّه فضّلك اللَّه برسالته وبتكليمه علىٰ الناس، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألَا ترىٰ ما نحن فيه؟ ألَا ترىٰ ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسىٰ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أُؤمر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ، فيأتون عيسىٰ فيقولون: يا عيسىٰ، أنت رسول اللَّه، وكلّمت الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، فاشفع لنا إلىٰ ربك، ألَا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ ألَا ترىٰ إلىٰ ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسىٰ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً. نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ محمد ﷺ، فيأتون فيقولون: يا محمد، أنت رسول اللَّه وخاتم الأنبياء، وغفر اللَّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألَا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ ألَا ترىٰ إلىٰ ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح اللَّه عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد غيري من قبلي. ثم قال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تُشفع. فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي، فيقال: يا محمد أَدْخِلْ الجنة من أمتك من لَا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوىٰ ذلك من الأبواب. والذي نفس

محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصري» وفي البخاري: «كما بين مكة وحِمْيَر»(١).

فصل: هذه الشفاعة العامة التي خصّ بها نبينا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء هي المراد بقوله عليه السلام: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجّل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي»(٢). وهذه الشفاعة العامة لأهل الموقف إنما هي ليعجل حسابهم ويراحوا من هول الموقف وهي خاصة به ﷺ. وقوله: «أقول: يا رب أمَّتي أمَّتي» اهتمام بأمر أمته وإظهار محبته فيهم وشفقته عليهم، وقوله: «فيقال: يا محمد أَدْخِلِ الجنة من أمتك من لا حساب عليه» يدل على أنه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف، فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته، فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم. وكان طلبه هذه الشفاعة من الناس بإلهام من اللّه تعالى لهم حتى يظهر في ذلك اليوم مقام نبيه ﷺ المحمود الذي وعده، ولذلك قال كل نبي: لست لها، لست لها. حتى انتهى الأمر إلى محمد ﷺ فقال: «أنا لها».

عن أنس رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يجمع اللّه الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك». وفي رواية: «فيلهمون فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا. قال: فيأتون آدم . . . » وذكر الحديث(٣).

ذكر أبو حامد، أن الناس في الموقف على طبقات مختلفة وأنواع متباينة بحسب جرائمهم، كمانع الزكاة والغال والغادر على ما يأتي بيانه، وآخرون قد عظمت فروجهم وهي تسيل صديداً يتأذى بنتنها جيرانهم، وآخرون قد صلبوا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٣٤٠)، وفي التفسير (٤٧١٢)، ومسلم في الإيمان (١٩٤).

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٤)، ومسلم في الإيمان (١٩٨)، (١٩٩).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٩٣).

على جذوع النيران، وآخرون قد خرجت ألسنتهم على صدورهم أقبح ما يكون، وهؤلاء المذكورون هم الزناة واللوطية والكاذبون، وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسي وهم آكلو الربا، وكل ذي ذنب قد بدا سوء ذنبه.

كما ذكر أن الرسل يوم القيامة على المنابر والأنبياء والعلماء على منابر صغار، ومنبر كل رسول على قدره، والعلماء العاملون على كراسي من نور، والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤذنون على كثبان من مسك، وهذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسي هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم ونوح حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ.

* * *

٧٣ ـ باب ما جاء أن هذه الشفاعة هي المقام المحمود

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ ـ آدم ومَنْ سواه ـ إلَّا تحت لوائي. وأنا أول مَنْ تنشق عنه الأرض ولا فخر. قال: فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون: أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربنا؟ فيقول: أنا أذنبت ذنباً فأهبطت به إلى الأرض، ائتوا نوحاً، فيأتون نوحاً فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات ـ ثم قال رسول الله ﷺ: ما منها كذبة إلَّا ماحل بها عن دين الله[1] ـ ولكن ائتوا موسى، فيأتون موسى فيقول: إني قد قتلت نفساً، ولكن ائتوا عيسى، فيأتون عيسى فيقول: إني عُبِدْتُ من دون الله، ولكن ائتوا محمداً ﷺ، فيأتوني فأنطلق معهم». قال ابن جدعان قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ قال: «فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها؛ فيقال من هذا؟

---

(١) «ماحل بها عن دين الله»: ماحل: من المماحلة؛ وهي المجادلة والمخاصمة.

فيقال: محمد، فيفتحون لي ويرحبون، فيقولون: مرحباً. فأخرُّ ساجداً للّه، فيلهمني من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، وقل يسمع لقولك. وهو المقام المحمود الذي قال اللّه فيه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] . قال سفيان: ليس عن أنس إلَّا هذه الكلمة فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها[١] .

وعن أبي نضرة قال: خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما من نبي إلَّا وله دعوة كلهم قد تنجزها في الدنيا، وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، ألَا وإني سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأول مَنْ تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد تحته آدم ﷺ ومَنْ دونه ولا فخر، ويشتد كرب ذلك اليوم على الناس فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر فيشفع لنا إلى ربنا عز وجل حتى يقضي بيننا». الحديث وفيه: فيأتون عيسى عليه السلام، فيقولون: اشفع لنا إلى ربنا حتى يقضي بيننا. فيقول: إني لست هناكم، إني اتّخذْتُ وأمِّي إلهين من دون اللّه، ولكن أرأيتم لو أن متاعاً في وعاء قد ختم عليه أكان يوصل إلى ما في الوعاء حتى يفض الخاتم؟ فيقولون: لا. فيقول: إن محمداً ﷺ قد خصّه اليوم، وقد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. قال رسول اللّه ﷺ: «فيأتيني الناس فيقولون: اشفع لنا إلى ربنا حتى يقضي بيننا، فأقول: أنا لها حتى يأذن اللّه لمن يشاء ويرضى، فإذا أراد اللّه أن يقضي بين خلقه نادى مناد: أين محمد ﷺ وأمته؟ فأقوم وتتبعني أمتي غراً محجّلين من أثر الطهور» قال رسول اللّه ﷺ: «فنحن الآخرون الأولون وأول من يحاسب ويفرج لنا في الأمم عن طريقنا، ويقولون:

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢)، والترمذي في التفسير (٣١٤٨). ويشهد له حديث أبي هريرة المتقدم. كما رواه الطيالسي في مسنده (٢٧١١) من حديث ابن عباس. وهو الحديث التالي لهذا.

كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها» وذكر الحديث[١].

وعن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثيّاً، كل أمّة تتبع نبيها تقول: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتىٰ تنتهي الشفاعة إلىٰ النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه اللَّه المقام المحمود»[٢].

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ في قوله ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] سئل عنها قال: «هي الشفاعة»[٣].

فصل: قوله: «فيفزع الناس ثلاث فزعات» إنما ذلك واللَّه أعلم حين يؤتىٰ بالنار تجر بأزمتها وذلك قبل العرض والحساب علىٰ الملك الديان، فإذا نظرت إلىٰ الخلائق فارت وثارت وشهقت إلىٰ الخلائق وزفرت نحوهم وتوثبت عليهم غضباً لغضب ربهم علىٰ ما يأتي في كتاب النار إن شاء اللَّه تعالىٰ، فتتساقط الخلائق حينئذ علىٰ ركبهم جثاة حولها، قد أسبلوا الدموع من أعينهم، ونادىٰ الظالمون بالويل والثبور، ثم تزفر الثانية فيزداد الرعب والخوف في القلوب، ثم تزفر الثالثة فتتساقط الخلائق لوجوههم ويشخصون بأبصارهم وهم ينظرون من طرْف خفيّ؛ خوفاً أن تبلغهم أو يأخذهم حريقها، أجارنا اللَّه منها.

فصل: واختلف الناس في المقام المحمود علىٰ أقوال:

الأول: أنه الشفاعة للناس يوم القيامة، وقد تقدّم. قاله حذيفة بن اليمان وابن عمر رضي اللَّه عنهم.

الثاني: إنه إعطاؤه عليه السلام لواء الحمد يوم القيامة، قلت: وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع.

---

(١) حديث حسن. وانظر الحديث السابق.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٧١٨).

(٣) رواه الترمذي في التفسير (٣١٣٧). وهو حديث حسن لشواهده.

الرابع[1]: إخراجه طائفة من النار، روى مسلم عن يزيد الفقير قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد الحج ثم نخرج على الناس، فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه يحدّث الناس ـ أو القوم ـ إلى سارية عن رسول اللّه ﷺ قال: وإذا هو ذكر الجهنميين. قال: فقلت له: يا صاحب رسول اللّه، ما هذا الذي تحدثون واللّه تعالى يقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] فما هذا الذي تقولون؟ فقال: أتقرأ القرآن؟ فقلت: نعم. فال: فهل سمعت بمقام محمد ﷺ يعني الذي يبعثه اللّه عز وجل فيه؟ قلت: نعم. قال: فإنه مقام محمد ﷺ الذي يخرج اللّه به مَنْ يخرج. وذكر الحديث[2].

ومن حديث أنس رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ وفيه: «وقد سمعته يقول: فأخرج وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلّا مَنْ حبسه القرآن» أي وجب عليه الخلود، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] . قال: هو المقام المحمود الذي وعده نبيكم ﷺ[3].

الخامس: ما روي أن مقامه المحمود شفاعته رابع أربعة، وسيأتي.

فصل: إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ، فيشفع هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف ـ مؤمنهم وكفارهم ـ ليراحوا من هول موقفهم، فاعلم أن العلماء اختلفوا في شفاعاته، وكم هي؟ فقال النقاش: لرسول اللّه ﷺ ثلاث شفاعات: العامة،

---

(١) ذكرنا الأمر الرابع ولم نذكر الأمر الثالث؛ لأنه قول مرغوب عنه.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٣٢٠ تحت ١٩١).

(٣) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب التفسير (٤٤٧٦)، ومسلم في الإيمان (١٩٣).

وشفاعة السبق إلىٰ الجنة، وشفاعة أهل الكبائر. وقال ابن عطية في تفسيره: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء.

قال القاضي عياض: شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمس شفاعات:

الأولى: العامة.

الثانية: إدخال قوم الجنة بغير حساب.

الثالثة: في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا ﷺ، ومن شاء أن يشفع، ويدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة والخوارج والمعتزلة، فمنعتها علىٰ أصولها الفاسدة وهي الاستحقاق العقلي المبني علىٰ التحسين والتقبيح.

الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين فيخرج بشفاعة نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم من المؤمنين.

قلت: وهذه الشفاعة أنكرتها المعتزلة أيضاً، وإذا منعوها فيمن استوجب النار بذنبه وإن لم يدخلها فأحرىٰ أن يمنعوها فيمن دخلها.

الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها.

قلت: وشفاعة سادسة: لعمّه أبي طالب في التخفيف عنه، كما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه، أن رسول اللّه ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»[1].

فإن قيل: فقد قال اللّه تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] قيل له: لا تنفع في الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦٤)، ومسلم في الإيمان (٢١٠).

فصل: واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء صلوات اللَّه عليهم أجمعين بعد النبوة صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها ويشفقون على أنفسهم منها أم لا بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي تزري بفاعلها وتحط منزلته وتسقط مرءوته إجماعاً؟

والذي ينبغي أن يقال: إن اللَّه تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا تقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها. وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم الأمن والأمان والسلامة. وهذا هو الحق.

ولقد أحسن الجنيد رضي اللَّه عنه حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهم صلوات اللَّه عليهم وسلامه وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك مناصبهم ولا قدح في رتبهم؛ بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واصطفاهم صلوات اللَّه عليهم وسلامه.

* * *

٧٤ ـ باب من أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ ؟

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنه قال: قلت يا رسول اللَّه مَنْ أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إلـه إلَّا اللَّه خالصاً من قِبَل نفسه»(١).

---

(١) رواه البخاري في العلم (٩٩)، وفي الرقاق (٦٥٧٠).

٧٥ ـ باب ما جاء في تطاير الصحف عند العرض والحساب وإعطاء الكتب باليمين والشمال ومَنْ أول مَنْ يأخذ كتابه بيمينه من هذه الأمة، وفي كيفية وقوفهم للحساب وما يقبل منهم من الأعمال، وفي دعائهم بأسماء آبائهم وبيان قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وفي تعظيم خلق الإنسان الذي يدخل الناس به النار أو الجنان وذكر القاضي العدل، ومن نُوقش عُذّب

قال الترمذي: وروي عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب على من حاسب نفسه في الدنيا»[١].

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «مَنْ حُوسِبَ يوم القيامة عُذِّب». قالت: فقلت يا رسول اللّه، أليس قد قال اللّه ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]؟ فقال: «ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض. من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب»[٢].

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: ذكرت النار فبكيت؛ فقال رسول اللّه ﷺ: ما يُبكيكِ»؟ قلت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز»[٣].

---

(١) ذكره الترمذي في صفة القيامة تحت (٢٤٥٩)، ورواه أحمد في الزهد (ص١٤٩)، وابن المبارك في الزهد (٣٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٢).

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) رواه أحمد (٦/ ١٠١، ١١٠)، وأبو داود في السنة (٤٧٥٥). وهو حديث حسن

فصل: قال اللَّه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق.

وقال إبراهيم بن أدهم: كل آدمي في عنقه قلادة يكتب فيها نسخة عمله، فإذا مات طويت، وإذا بعث نشرت. وقيل له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وقال ابن عباس رضي اللَّه عنه: طائره: عمله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

قال الحسن: يقرأ الإنسان كتابه؛ أميًّا كان أو غير أميٍّ.

وقال أبو السوار العدوي: وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] قال: هما نشرتان وطية؛ أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة؛ فأمّل فيها ما شئت، فإذا مت طُويت، حتى إذا بُعثت نُشرت: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. فإذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التي يؤتونها بعد البعث حوسبوا بها. قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]، فدلّ على أن المحاسبة تكون عند إتيان الكتب؛ لأن الناس إذا بعثوا لا يكونون ذاكرين لأعمالهم. قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

وقد تقدّم القول في محاسبة اللَّه تعالى لخلقه في يوم الحساب من أسماء القيامة، فإذا بعثوا من قبورهم إلى الموقف وقاموا فيه ما شاء اللَّه تعالى على ما تقدّم: حفاة عراة، وجاء وقت الحساب الذي يريد اللَّه أن يحاسبهم فيه أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأُوتوها، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه، فأولئك هم السعداء، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو من وراء

ظهره، وهم الأشقياء، فعند ذلك يقرأ كلٌّ كتابه، وأنشدوا:

مَثِّل وقوفك يوم العرض عرياناً مستوحشاً قَلِقَ الأحشاءِ حَيْرانا
والنارُ تلهبُ من غيْظٍ ومن حَنَقٍ على العُصاة وربُّ العرش غَضْبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهلٍ فهل ترىٰ فيه حَرْفاً غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادىٰ الجليل: خذوه يا ملائكتي وامضوا بعبدٍ عصىٰ للنار عطشانا
المشركون غداً في النار يلتهبوا والمؤمنون بدار الخلد سكّانا

فتوهَّم نفسك يا أخي: إذا تطايرت الكتب، ونُصبت الموازين، وقد نوديت باسمك على رؤوسك الخلائق: أين فلان ابن فلان، هلم إلىٰ العرض على اللّه تعالىٰ، وقد وكلت الملائكة بأخذك، فقربتك إلىٰ اللّه، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء، إذ قرع النداء قلبك، فعلمت أنك المطلوب، فارتعدت فرائصك، واضطربت جوارحك، وتغيّر لونك، وطار قلبك. تخطّىٰ بك الصفوف إلىٰ ربك للعرض عليه، والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، وأنت في أيديهم وقد طار قلبك، واشتد رعبك؛ لعلمك أين يُراد بك.

فتوهّم نفسك وأنت بين يدي ربك، في يدك صحيفة مخبرة بعملك، لا تغادر بلية كتمتها، ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها، بلسان كليل وقلب منكسر، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها، وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها، وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فردّه عليك في ذلك الموقف، وأحبطه بعد أن كان أمَلُك فيه عظيماً، فيا حسرة قلبك، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩] فعلم أنه من أهل الجنة ﴿فَيَقُولُ

هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] وذلك حين يأذن اللّه فيقرأ كتابه.

فإذا كان الرجل رأساً في الخير، يدعو إليه ويأمر به، ويكثر تبعه عليه دعي باسمه واسم أبيه فيتقدّم، حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض في باطنه السيئات وفي ظاهره الحسنات، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفّر وجهه ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه سيئاتك وقد غفرت لك، فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً، ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلّا فرحاً، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك قد ضوعفت لك، فيبيض وجهه، ويؤتى بتاج فيوضع على رأسه، ويكسى حلتين، ويحلى كل مفصل فيه ويطول ستين ذراعاً، وهي قامة آدم، ويقال له: انطلق إلى أصحابك فبشرهم وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا. فإذا أدبر قال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠] قال اللّه تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي مرضيّة قد رضيها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢٢] في السماء ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها وعناقيدها ﴿دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] أدنيت منهم فيقول لأصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: قد غمرتك كرامة اللّه، مَنْ أنت؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] أي قدّمتم في أيام الدنيا.

وإذا كان الرجل رأساً في الشر؛ يدعو إليه ويأمر به، فيكثر تبعه عليه نودي باسمه واسم أبيه، فيتقدّم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود، بخط أسود، في باطنه الحسنات وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرؤها ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك وقد ردت عليك، فيسودّ وجهه، ويعلوه الحزن، ويقنط من الخير، ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلّا حزناً، ولا يزداد وجهة إلّا سواداً، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه سيئاتك وقد

ضوعفت عليك؛ أي يضاعف عليه العذاب، ليس المعنىٰ أنه يزاد عليه ما لم يعمل. قال: فينظر إلىٰ النار، وتزرقّ عيناه، ويسود وجهه، ويكسىٰ بسرابيل القطران، ويقال له: انطلق إلىٰ أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا. فينطلق وهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٧] يعني الموت ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩] تفسير ابن عباس رضي اللَّه عنهما: هلكت عني حجتّي. قال تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوه * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوه﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١] أي اجعلوه يصلىٰ الجحيم ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوه﴾ [الحاقة: ٣٢] واللَّه أعلم بأي ذراع. قال الحسن وقال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: سبعون ذراعاً بذراع الملك. فاسلكوه فيها أي: تدخل من فيه حتىٰ تخرج من دبره. وقيل: بالعكس. وقيل: يدخل عنقه فيها ثم يجرّ بها، ولو أن حلقة منها وضعت علىٰ جبل لأذابته، فينادي أصحابه فيقول: هل تعرفونني؟ فيقولون: لا، ولكن قد نرىٰ ما بك من الخزي فمن أنت؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان، لكل إنسان منكم مثل هذا.

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فتخلع كتفه اليسرىٰ فتجعل يده خلفه فيأخذ بها كتابه، وقال مجاهد: يحول وجهه في موضع قفاه فيقرأ كتابه كذلك.

فتوهّم نفسك إن كنت من السعداء، وقد خرجت علىٰ الخلائق مسرور الوجه، قد حل لك الكمال والحسن والجمال، كتابك في يمينك، آخذ بضبعيك مَلَك يُنادي علىٰ رؤوس الخلائق: هذا فلان ابن فلان، سعد سعادة لا يشقىٰ بعدها أبداً. أما إن كنت من أهل الشقاوة فيسود وجهك وتتخطىٰ الخلائق. كتابك في شمالك أو من وراء ظهرك، تنادي بالويل والثبور، ومَلَك آخذ بضبعيك ينادي علىٰ رؤوس الخلائق: ألا إن فلان ابن فلان، شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

٧٦ ـ باب في قوله تعالى:
﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾

عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على برج دمشق، فقال أبو أمامة: «كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] إلى آخر الآية، فقلت لأبي أمامة الباهلي: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه إلَّا مرة أو مرتين أو ثلاثاً ـ حتى عدَّ سبعاً ـ ما حدثتكموه[1].

وفي قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قال مالك بن أنس رضي الله عنه: هي في أهل الأهواء. وقال الحسن: هي في المنافقين، وقال قتادة في المرتدين، وقال أُبيّ بن كعب: هي في الكفار، وهو اختيار الطبري.

اللَّهم بيّض وجوهنا يوم تبيض وجوه أوليائك، ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه أعدائك بفضلك يا ذا الفضل العظيم وكرمك يا كريم.

* * *

٧٧ ـ باب في قوله تعالى:
﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ الآية

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، قيل: الصغيرة ما دون الشرك والكبيرة الشرك. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتنا، ضجوا من الله من الصغائر قبل الكبائر.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٥٣، ٢٦٩)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٦) وغيرهم.

وقد روي أن النبي ﷺ ضرب بصغائر الذنوب مثلا فقال: «إنما محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض، وحضر صنيع القوم، فانطلق كل رجل منهم يحتطب، فجعل الرجل يجيء بالعود، والآخر بالعودين، حتىٰ جمعوا سواداً وأججوا ناراً، فشووا خبزهم، وإن الذنب الصغير يجتمع علىٰ صاحبه فيهلكه إلّا أن يغفر اللّه، واتقوا محقرات الذنوب فإن لها من اللّه طالباً»[1].

عن سهل بن سعد رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «إيَّاكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتىٰ جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متىٰ يؤخذ بها صاحبها تهلكه»[2]. ولقد أحسن القائل:

خلِّ الذنوبَ صغيرها وكبيرها ذاك التقىٰ
واصْنعْ كماشٍ فوق أرضِ الشّوك يحذرُ ما يرىٰ
لا تحقرنّ صغيرةً إنّ الجبالَ مِن الحَصَىٰ

وقال جماعة من العلماء: إن الذنوب كلها كبائر. قال بعضهم: لا تنظر إلىٰ صغر الذنب، ولكن انظر مَنْ عصيت؛ فهي من حيث المخالفة كبائر، والصحيح أن فيها صغائر وكبائر، ليس هذا موضع الكلام في ذلك. واللّه أعلم.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٣١). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والطبراني في الثلاثة من طريقين ورجاله رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة.

(٢) انظر ما قبله.

٧٨ ـ باب ما يسأل عنه العبد وكيفية السؤال

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣] وقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧] أي: ما عملتموه. وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] أي يُسأل ويُجازىٰ عليه، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة وقال: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: لما نزلت هذ الآية ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسول اللَّه، عن أي نعيم نُسأل، فإنما هما الأسودان، والعدو حاضر، وسيوفنا علىٰ عواتقنا؟ قال: «إن ذلك سيكون»[(١)].

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة ـ يعني العبد ـ أن يقال له: ألم نصحّ لك جسمك، ونرويك من الماء البارد»[(٢)].

وعن أبي برزة الأسلمي رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه؟ وعن جسده فيما أبلاه؟ وعن علمه ما عمل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟»[(٣)].

وعن معاذ بن جبل رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟»[(٤)].

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٦٤)، والترمذي في التفسير (٣٣٥٧)، وبنحوه مختصراً من حديث الزبير (٣٣٥٦) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٣٥٨) وغيره.

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧) وقال: حسن صحيح.

(٤) لم نعثر عليه من حديث معاذ، وإنما ورد من حديث ابن مسعود بنحوه: رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٦). وهو حديث ضعيف ولكن يشهد له ما قبله.

عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رضي اللَّه عنه: كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في النجوىٰ؟ قال: سمعته يقول: «يُدْنَىٰ المؤمن يوم القيامة حتىٰ يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف. قال فيقول: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. قال: فيعطىٰ صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون، فينادىٰ بهم علىٰ رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا علىٰ اللَّه». أخرجه البخاري وقال في آخره: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨][1].

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: «يدني اللَّه العبد منه يوم القيامة، فيضع عليه كنفه فيستره من الخلائق كلها، ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر، فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك، قل: فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه، ويمر بالسيئة فيسود لها وجهه، قال: فيقول اللَّه تعالىٰ له: أتعرف يا عبدي؟ قال: فيقول: نعم يا رب أعرِف، قال: فيقول: إني أعرَف بها منك، قد غفرتها لك، قال: فلا تزال حسنة تقبل فيسجد، وسيئة تغفر فيسجد، فلا يرىٰ الخلائق منه إلّا ذلك، حتىٰ ينادي الخلائق بعضها بعضاً: طوبىٰ لهذا العبد الذي لم يعص اللَّه قط، ولا يدرون ما قد لقي فيما بينه وبين اللَّه تعالىٰ مما قد وقفه عليه»[2].

عن أبي ذر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وتخبأ كبارها، فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، ثلاث مرات. قال: وهو يقر ليس ينكر. قال: وهو مشفق من الكبائر أن تجيء قال: فإذا أراد اللَّه به خيراً قال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة؛ فيقول حين طمع: يا رب إن لي ذنوباً ما رأيتها ها هنا؟ قال: فلقد رأيت رسول

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٥)، ومسلم في التوبة (٤٧٦٨).

(٢) رواه عبد اللَّه بن أحمد في زوائد الزهد (ص٢١٥) موقوفاً علىٰ أبي هريرة. وإسناده حسن.

اللَّه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. ثم تلا: ﴿فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] (١).

فصل: قوله: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل»: عام لأنه نكرة في سياق النفي، لكنه مخصوص بقوله عليه السلام: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب» على ما يأتي (٢).

وبقوله تعالى لمحمد عليه السلام: أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن، وقد تقدم الحديث (٣).

وبقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمٰن: ٤١].

قوله عليه السلام: «وعن عمله ما عمل فيه».

قلت: هذا مقام مخوف؛ لأنه لم يقل: وعن علمه ما قال فيه، وإنما قال: «ما عمل فيه»، فلينظر العبد ما عمل فيما علمه، هل صدق اللَّه في ذلك وأخلصه؟ حتى يدخل فيمن أثنى اللَّه عليه بقوله: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] أو خالف علمه بفعله فيدخل في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] الآية. وقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٩٠).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الطب (٥٧٥٢)، ومسلم في الإيمان (٢٢٠). وقد جاء هذا المقطع عن غير واحد من الصحابة.

(٣) متفق عليه. وقد مرّ بطوله في باب (٧٢) في الشفاعة العامة لنبينا محمد ﷺ لأهل المحشر.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي ذكرها في أبواب النار إن شاء اللَّه تعالى، قوله: «حتى يضع عليه كنفه» أي ستره ولطفه وإكرامه فيخاطبه خطاب الملاطفة، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة فيقول: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، فيقول اللَّه تعالى: ممتنًا عليه ومُظهراً فضله لديه: فإني قد سترتها عليك في الدنيا؛ أي لم أفضحك بها فيها، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم قيل: هذه ذنوب تاب منها.

قال المؤلف: ولا يعارض هذا ما في التنزيل والحديث من أن السيئات تبدّل بالتوبة حسنات، فلعل ذلك يكون بعد ما يوقفه عليها، واللَّه أعلم.

وقيل في صغائر اقترفها، وقيل كبائر بينه وبين اللَّه تعالى اجترحها، وأما ما كان بينه وبين العباد فلا بد فيها من القصاص بالحسنات والسيئات على ما يأتي، وقيل: ما خطر بقلبه مما لم يكن في وسعه ويدخل تحت كسبه، ويثبت في نفسه وإن لم يعمله، وهذا اختيار الطبري والنحاس وغير واحد من العلماء جعلوا الحديث مفسراً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فتكون الآية على هذا محكمة غير منسوخة. واللَّه أعلم.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: «ما ستر اللَّه على عبد في الدنيا إلَّا ستر اللَّه عليه في الآخرة» وهذا مأخوذ من حديث النجوى، ومن قوله عليه السلام: «لا يستر اللَّه على عبد في الدنيا إلَّا ستره اللَّه يوم القيامة»(١).

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه: «من ستر مسلماً ستره اللَّه في الدنيا والآخرة»(٢).

فصل: وفي قوله: «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»: نصٌ منه

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٩٥٠).

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩).

تعالى على صحة قول أهل السنّة في ترك إنفاذ الوعيد على العصاة من المؤمنين.
والعرب تفتخر بخلف الوعيد حتى قال قائلهم:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ... ولا أختشي من روعة المتهددِ
وإني متى أوعدته أو وعدته ... لمخلِفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

قال ابن العربي: إنه كذلك عند العرب، وأما ملك الملوك القدوس الصادق فلا يقع أبداً خبره إلّا على وفق مخبره كان ثواباً أو عقاباً، فالذي قال المحققون في ذلك قول بديع، وهو أن الآيات وقعت مطلقة في الوعد والوعيد عامة، فخصصتها الشريعة، وبيَّنها الباري تعالى في كتابه في آيات أُخَر، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] الآية. وكقوله تعالى: ﴿حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ١ ـ ٣]، وبالشفاعة التي أكرم اللّه بها ﷺ ومن شاء من الخلق من بعده.

* * *

٧٩ ـ باب ما جاء أن اللّه تعالى يكلم العبد ليس بينه وبينه ترجمان

عن عدي بن حاتم قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما منكم من أحد إلّا سيُكلِّمه اللّه ليس بينه وبينه تُرْجُمان، فينظر أيْمَن منه فلا يرى إلّا ما قدّم، وينظر أيْسَر منه فلا يرى إلّا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلّا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة». زاد ابن حُجْر قال الأعمش: وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة عن عدي مثله وزاد فيه: «ولو بكلمة طيبة»[1].

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الرقاق (٦٥٣٩)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦).

قلت: وقوله: «ما منكم من أحد» مخصوص بما ذكرناه في الباب قبل، أي ما منكم ممن لا يدخل الجنة بغير حساب من أمتي إلَّا وسيكلمه اللَّه، واللَّه أعلم. فتفكَّر في عظيم حيائك إذا ذكّرك ذنوبك شفاها، إذ يقول: يا عبدي أما استحييت مني فبارزتني بالقبح، واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل؟ أكنت أهون عليك من سائر عبادي؟ واستخففت بنظري إليك فلم تكترث به، واستعظمت نظر غيري؟ ألم أنعم عليك؟ فماذا غرَّك بي؟.

وعن ابن مسعود قال: «ما منكم من أحد إلَّا سيخلو اللَّه به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول: يا ابن آدم ما غرّك بي؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك وأنت تنظر بهما إلى ما لا يحل لك؟ ألم أكن رقيباً على أذنيك؟ وهكذا على سائر الأعضاء»[1]. فكيف ترى حياءك وخجلك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك، وأياديه ومساويك؟ فإن أنكرت شهِدَت عليك جوارحك، فنعوذ باللَّه من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء، إلَّا أن اللَّه وعد المؤمن أن يستر عليه، ولا يطلع عليه غيره كما ذكرنا، وذلك بفضل منه.

فصل: فإن قيل: أخبر اللَّه تعالى عن الناس أنهم مجزيون محاسبون، وأخبر أنه يملأ جهنم من الجِنَّة والنَّاس أجمعين، ولم يخبر عن ثواب الجن، ولا عن حسابهم بشيء فما القول في ذلك عندكم؟ وهل يكلمهم اللَّه؟.

فالجواب: أن اللَّه تعالى أخبر أن الإنس والجن يُسألون؛ فقال خبراً عما يقال لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٨) مختصراً. والطبراني في الكبير (٨٨٩٩)، (٨٩٠٠)، وفي الأوسط (٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣١)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٣٦٣، ٣٦٤)، وانظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٧).

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية، وهذا سؤال؛ فإذا ثبت بعض السؤال ثبت كله، ولما كانت الجن ممن يخاطب ويعقل، قال: ﴿مِنكُمْ﴾ وإن كانت الرسل من الإنس، وغلب الإنس في الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث.

وأيضاً لما كان الحساب عليهم دون الخلق قال: ﴿مِنكُمْ﴾ فصير الرسل في مخرج اللفظ من الجميع؛ لأن الثقلين قد ضمتهما عرصة القيامة، فلما صاروا في تلك العرصة في حساب واحد في شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة؛ لأن بدء خلقهم للعبودية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والثواب والعقاب على العبودية إلَّا أن الجن أصلهم من مارج من نار، وأَصلنا من تراب، وخلقهم غير خلقنا، ومنهم مؤمن وكافر، وعدونا إبليس عدو لهم، يعادي مؤمنهم ويوالي كافرهم، وفيهم أهواء: شيعية وقدرية ومرجئة، وهو معنى قوله: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

وقيل: إن اللَّه تعالى لما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢] دخل في الجملة الجن والإنس، فثبت للجن مِنْ وعْد الجنة ـ لعموم الآية ـ ما ثبت للإنس.

فإن قيل: فما الحكمة في ذكر الجنة مع الإنس في الوعيد وترك إفراده الإنس عنهم في الوعد؟

فالجواب: أنهم قد ذكروا أيضاً في الوعد؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨] ثم قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] وإنما أراد لكل من الإنس والجن؛ فقد ذكروا في الوعد مع الإنس.

فإن قيل: فقد ذكر تخاطب الجن والإنس لأن اللَّه تعالىٰ قال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ، ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [قَ: ٢٧] ، ولم يأت عن تفاوض الفريقين في الجنة خبر.

قيل: إنما ذكر من تفاوضهم في النار أن الواحد من الإنس يقول للشيطان الذي كان قرينه في الدنيا: إنه أطغاني وأضلني فيقول له قرينه: ربنا ما أطغيته ولكنه كان ضالاً بنفسه. ولا سبب بين الفريقين يدعو أهل الجنة فيهما إلىٰ التفاوض فلذلك سكت عنهما، وأيضاً فإن اللَّه تعالىٰ أخبر الناس أن عصاتهم يكونون قرناء الشياطين يتخاصمون في النار ليزجرهم بذلك عن التمرد والعصيان، وهذا المعنىٰ مقصود في الأخبار، فلهذا سكت عن ذلك في الوعد به.

* * *

٨٠ ـ باب القصاص يوم القيامة ممن استطال في حقوق الناس وفي حبسه لهم حتى ينصفوا منه

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لتؤدُّن الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[١].

وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «مَنْ كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لايكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٢].

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أتدرون من المُفلِس؟

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٢).
(٢) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٩)

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إن المفلس من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطَىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل انقضاء ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»(١).

عن ابن عمر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من مات وعليه دينار أو درهم قضي من حسناته، ليس ثم دينار ولادرهم، من ترك دينا أو ضياعاً فعلىٰ اللَّه ورسوله»(٢).

وعن عبد اللَّه بن أنيس رضي اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «يحشر اللَّه العباد، أو قال: الناس ـ شك ـ وأومأ بيده إلىٰ الشام: عراة غرلاً بُهْماً، قال: ما بُهْماً؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ ومن قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وواحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتىٰ اللطمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وواحد من أهل الجنة يطلبه حتىٰ اللطمة، قال: قلنا: كيف وإنما نأتي اللَّه عراة حفاة؟ قال: بالحسنات والسيئات»(٣).

قال الشيخ المؤلف رحمه اللَّه: هذا الحديث الذي أراد البخاري بقوله: ورحل جابر بن عبد اللَّه مسيرة شهر إلىٰ عبد اللَّه بن أنيس في حديث واحد.

عن زاذان أبي عمر قال: دخلت علىٰ ابن مسعود فوجدت أصحاب الخز واليمنة قد سبقوني إلىٰ المجلس، فقلت: يا عبد اللَّه من أجل أني رجل أعجمي

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨١).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٧٠، ٨٢) وابن ماجه في الصدقات (٢٤١٤) مختصراً. وله طرق يتقوىٰ بها.

(٣) ذكره البخاري تعليقاً مختصراً في كتاب التوحيد في عنوان الباب (٣٠) قول اللَّه تعالىٰ: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده . .﴾. وقد وصله في الأدب المفرد (٩٧٠) وساقه بتمامه وكذا غيره. انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٦١، ٤٦٥).

أدنيت هؤلاء وأقصيتني، قال: ادن، فدنوت حتىٰ ما كان بيني وبينه جليس، فسمعته يقول: يؤخذ بيد العبد أو الأمَة فينصب علىٰ رؤوس الأولين والآخرين، ثم ينادي مناد: هذا فلان ابن فلان فمَنْ كان له حق فليأت إلىٰ حقه، فتفرح المرأة بأن يدوّن لها الحق علىٰ ابنها أو أختها أو أبيها أو علىٰ زوجها، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ، فيقول الرب تعالىٰ للعبد: ائت هؤلاء حقهم، فيقول: يا رب فنيت الدنيا فمن أين أُوتيهم؟ فيقول للملائكة: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته، فإن كان وليّاً للَّه فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خير ضاعفها حتىٰ يدخله بها الجنة، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وإن كان عبداً شقياً قالت الملائكة: رب فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول للملائكة: خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلىٰ سيئاته وصكوا له صكاً إلىٰ النار»(١) .

عن جابر رضي اللَّه عنه قال: لما رجعتْ إلىٰ رسول اللَّه ﷺ مهاجرة البحر قال: «ألَا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلىٰ يا رسول اللَّه، بينما نحن جلوس مرّت بنا عجوز من عجائزها تحمل علىٰ رأسها قلّة من ماء فمرت بفتىٰ منهم، فجعل إحدىٰ يديه بين كتفيه ثم دفعها فخرت علىٰ ركبتيها فانكسرت قلّتها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غُدَرُ إذا وضع اللَّه الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً. قال: يقول رسول اللَّه ﷺ: «صدقت صدقت، كيف يقدس اللَّهُ أمةً لا يُؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟»(٢) .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٠٢) وغيره. وهو خبر حسن.

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٠).

فصل: أنكر بعض المتغفلة الذين اتبعوا أهواءهم بغير هدىً من اللَّه إعجاباً برأيهم وتحكماً على كتاب اللَّه تعالى وسنّة نبيه محمد ﷺ بعقول ضعيفة وأفهام سخيفة، فقالوا: لا يجوز في حكم اللَّه تعالى وعدله أن يضع سيئات من اكتسبها على مَنْ لم يكتسبها ويؤخذ حسنات من عملها فتُعطى مَنْ لم يعملها، وهذا زعموا جور، وأوَّلوا قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧] فكيف تصح هذه الأحاديث وهي تخالف ظاهر القرآن وتستحيل في العقل؟.

والجواب: أن اللَّه سبحانه وتعالى لم يبن أمورالدين على عقول العباد، ولم يعد ولو يوعد على ما تحتمله عقولهم ويدركونها بأفهامهم، بل وعدوا وعداً بمشيئته وإرادته، وأمر ونهى بحكمته، ولو كان كل ما لا تدركه العقول مردوداً لكان أكثر الشرائع مستحيلاً على موضوع عقول العباد؛ وذلك أن اللَّه تعالى أوجب الغسل بخروج المني الذي هو طاهر عند بعض الصحابة وكثير من الأئمة، وأوجب غسل الأطراف من الغائط الذي لا خلاف بين الأئمة وسائر من يقول بالعقل وغيره في نجاسته وقذارته ونتنه، وأوجب بريح يخرج من موضع الحدث ما أوجب بخروج الغائط الكثير المتفاحش، فبأي عقل يستقيم هذا؟ وبأي رأي تجب مساواة ريح ليس لها عين قائمة بما يقوم عينه وتزيد على الريح نتناً وقذراً؟ قد أوجب اللَّه قطع يمين مؤمن بعشرة دراهم، وعند بعض الفقهاء بثلاثة دراهم ودون ذلك، ثم سوى بين هذا القدر من المال وبين مائة ألف دينار، فيكون القطع فيهما سواء، وأعطى الأم من ولدها الثلث، ثم إن كان للمتوفى إخوة جعل لها السدس من غير أن ترث الإخوة من ذلك شيئاً، فبأي عقل يدرك هذا إلّا تسليماً وانقياداً من صاحب الشرع إلى غير ذلك، فكذلك القصاص بالحسنات والسيئات، وقد قال وقوله الحق: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾

[الأنبياء: ٤٧] الآية. وقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وقال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وهذا يبين قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملة ثقل أخرىٰ إذا لم تتعد، فإذا تعدت واستطالت بغير ما أمرت فإنها تحمل عليها ويؤخذ منها بغير اختيارها، كما تقدم في أسماء القيامة عند قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] .

فصل: وإذا تقرر هذا، فيجب علىٰ كل مسلم البدار إلىٰ محاسبة نفسه، كما قال عمر رضي اللَّه عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا». وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصير في فرائض اللَّه عز وجل، ويرد المظالم إلىٰ أهلها حبة حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسطوته، ويطيب قلوبهم حتىٰ يموت، ولم يبق عليه فريضة ولا مظلمة، فهذا يدخل الجنة بغير حساب، فإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض علىٰ ناصيته، وهذا يتعلق بلبته، وهذا يقول: ظلمتني، وهذا يقول: شتمتني، وهذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: ذكرتني في الغيبة بما يسوءني، وهذا يقول: جاورتني فأسات جواري، وهذا يقول: عاملتني فغششتني، وهذا يقول: بايعتني وأخفيت عني عيب متاعك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: رأيتني محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمتني، وهذا يقول: وجدتني مظلوماً وكنت قادراً علىٰ دفع الظلم فداهنت الظالم وما راعيتني.

فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم، وأحكموا في تلابيبك أيديهم، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم، حتىٰ لم يبق في عمرك أحد عاملته علىٰ درهم أو جالسته في مجلس إلَّا وقد استحق عليك مظلمة، بغيبة، أو

جناية، أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم، ومددت عنق الرجاء إلىٰ سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم؛ إذ قرع سمعك نداء الجبار: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧] فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك اللّٰه به علىٰ لسان رسوله ﷺ حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إلىٰ قوله ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم، وما أشد حسرتك في ذلك اليوم إذا وُقف بك علىٰ بساط العدل، وشُوفهت بخطاب السيئات، وأنت مفلس فقير، عاجز مهين، لا تقدر علىٰ أن ترد حقّاً أو تظهر عذراً، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك، وتنقل إلىٰ خصمائك عوضاً عن حقوقهم، كما ورد في الأحاديث المذكورة في هذا الباب.

فانظر إلىٰ مصيبتك في مثل هذا اليوم؛ إذ ليس لك حسنة قد سلمت من آفات الرياء ومكائد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة في مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها. ويقال: لو أن رجلاً له ثواب سبعين نبياً وله خصم بنصف دانق لم يدخل الجنة حتىٰ يرضي خصمه.

ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب علىٰ صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا يمضي عليك يوم إلّا ويجري علىٰ لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك، فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام، وارتكاب الشهوات، والتقصير في الطاعات؟ وكيف ترجو النجاة من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء؟ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

فكيف بك يا مسكين في يوم ترىٰ فيه صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك؟ فتقول: أين حسناتي؟ فيقال: نُقلت إلىٰ صحيفة خصمائك، وترىٰ

صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك. فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط. فيقال: هذه سيئات الذين اغتبتهم، وشتمتهم، وقصدتهم بالسوء، وظلمتهم في المعاملة، والمبايعة، والمجاورة، والمخاطبة، والمناظرة والمذاكرة، والمدارسة، وسائر أصناف المعاملة. فاتق اللّٰه في مظالم العباد بأخذ أموالهم، والتعرض لأعراضهم وأبشارهم، وتضييق قلوبهم، وإساءة الخلق في معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين اللّٰه خاصة المغفرة إليه أسرع، ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم من حيث لا يطلع عليه إلّا اللّٰه فليكثر من الاستغفار لمن ظلمه، فعساه أن يقربه ذلك إلىٰ اللّٰه؛ فينال به لطفه الذي ادخره لأرباب المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم بإرضائه إياهم.

فصل: واختلف الناس في حشر البهائم، وفي قصاص بعضها من بعض، فروي عن ابن عباس: أن حشر الدواب والطير موتها، وقال الضحاك: وروي عن ابن عباس في رواية أخرىٰ: أن البهائم تُحشر وتبعث قاله أبو ذر، وأبو هريرة، وعمرو بن العاص، والحسن البصري وغيرهم وهو الصحيح؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال أبو هريرة: يحشر اللّٰه الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم والطير والدواب وكل شيء فيبلغ من عدل اللّٰه أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً. فذلك قوله تعالىٰ حكاية عن الكفار: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه مرّ بشاتين تنتطحان فقال: «إن اللّٰه تعالىٰ ليقضين يوم القيامة لهذه الجلحاء من هذه القرناء»[1].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٢). وله طرق يرتقي بها لدرجة الحسن. ويشهد له حديث أبي هريرة، وهو الحديث الأول في هذا الباب.

وعن أبي ذر قال: رأى رسول اللَّه ﷺ شاتين تنتطحان، فقال: «يا أبا ذر أتدري فيم تنتطحان»؟ قلت: لا يا رسول اللَّه. قال: «لكن اللَّه يدري ويقضي بينهما يوم القيامة»[١].

* * *

بـاب منـــه

عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن آبائهم دِنْـيَةً[*] عن رسول اللَّه ﷺ قال: «ألَا من ظلم معاهداً، أو انتقصه في حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[٢].

(*) دِنْـيَةً: مصدر في موضع الحال، ومعناه: لاصقو النسب.

* * *

٨١ ـ باب أول مَنْ يحاسَب أمة محمد ﷺ

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسب يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون». وفي رواية عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما: «فتفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضي غرّاً محجَّلين من آثار الوضوء فتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها»[٣].

* * *

٨٢ ـ باب أول ما يحاسب عليه العبد من عمله: الصلاة وأول ما يقضى فيه بين الناس: الدماء، وفي أول من يُدعَى للخصومة

عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس

---

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الخراج (٣٠٥٢). وله شواهد كثيرة ترتقي به إلى درجة الحسن.

(٣) رواه أبو داود الطيالسي (٢٧١١)، وهو حسن بشواهده.

يوم القيامة في الدماء»[١]. وعنه أيضاً أن رسول اللّه ﷺ قال: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة وأول ما يقضىٰ بين الناس في الدماء»[٢].

وعن عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال: «أنا أول من يجثو يوم القيامة بين يدي الرحمـٰن للخصومة»[٣] يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه الثلاثة من كفار قريش. قال أبو ذر: وفيهم نزلت ﴿هَـٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ الآية [الحج: ١٩]. والخبر بهذا مشهور صحيح خرّجه البخاري ومسلم وغيرهما[٤].

عن عبد اللّه بن عباس قال: «سمعت نبيكم ﷺ يقول: «يأتي المقتول معلقاً رأسه بإحدىٰ يديه متلبباً قاتله بيده الأخرىٰ تشخب أوداجه دماً حتىٰ يوقفا، فيقول المقتول للّه سبحانه: هذا قتلني. فيقول اللّه تعالىٰ للقاتل: تعست. ويذهب به إلىٰ النار»[٥].

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «يجيء المقتول والقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دماً يقول: يا رب قتلني هذا، حتىٰ يدنيه من العرش»[٥].

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، قال يقول ربنا عز وجل لملائكته: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل لعبدي من تطوّع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٨).

(٢) رواه النسائي في تحريم الدم (٧/ ٨٣).

(٣) رواه البخاري في المغازي (٣٩٦٥)، وفي التفسير (٤٧٤٤).

(٤) رواه البخاري في المغازي (٣٩٦٩)، وفي التفسير (٤٧٤٣)، ومسلم في التفسير (٣٠٣٣).

(٥) رواه أحمد (١/ ٢٢٢، ٣٦٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٩)، والنسائي في تحريم الدم (٧/ ٨٥، ٨٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢١) وغيرهم.

فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال علىٰ ذلك»[1].

فصل: قال أبو عمر ابن عبد البر رحمه اللَّه: أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون ذلك واللَّه أعلم فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك، وأما مَنْ تعمد تركها أو شيئاً منها ثم ذكرها فلم يأت بها عامداً واشتغل بالتطوع عن أداء فرضه وهو ذاكر له فلا تكمل له فريضته تلك من تطوعه، واللَّه أعلم.

قلت: ينبغي للإنسان أن يحافظ علىٰ أداء فرضه فيصليه كما أمر من إتمام ركوع وسجود، وحضور قلب. فإن غفل عن شيء من ذلك فيجتهد بعد ذلك في نفله ولا يتساهل فيه ولا في تركه، ومن لا يحسن أن يصلي الفرض فأحرىٰ أن لا يحسن النفل لا جرم، بل تنفُّل الناس في أشد ما يكون من النقصان والخلل في التمام لخفة النفل عندهم وتهاونهم به، ولعمر اللَّه لقد يشاهد في الوجود من يُشار إليه ويظن به العلم بنفله كذلك؛ بل فرضه إذ ينقره نقر الديك، فكيف بالجهّال الذين لا يعلمون؟ وإذا كان هذا فكيف يكمل بهذا النفل ما نقص من الفرض؟ هيهات هيهات! فاعلموا أن الصلاة إذا كانت بهذه الصفة دخل صاحبها في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]! وقال جماعة من العلماء: التضييع للصلاة هو أن لا يقيم حدودها من مراعاة وقت وطهارة وتمام ركوع وسجود ونحو ذلك، وهو مع ذلك يصليها، ولا يمتنع من القيام بها في وقتها وغير وقتها. قالوا: فأما من تركها أصلاً ولم يصلها فهو كافر.

---

(١) رواه الترمذي (٢/ ٧٢، ٢٩٠، ٣٧٧)، وأبو داود في الصلاة (٨٦٤)، (٨٦٥)، والترمذي في الصلة (٤١٣)، والنسائي في الصلاة (١/ ٢٣٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٥)، (١٤٢٦).

عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في الركوع والسجود»(١).

قال الشافعي وأحمد وإسحاق: من لم يقم صلبه في الركوع والسجود فصلاته فاسدة لحديث النبي ﷺ: «لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في الركوع والسجود».

وعن زيد بن وهب عن حذيفة، ورأىٰ رجلاً لا يتم ركوعه ولا سجوده، فلما قضىٰ صلاته قال له حذيفة: ما صليت ولو مُتَّ مُتَّ علىٰ غير سنَّة محمد ﷺ. وعنه أيضاً عن حذيفة أنه رأىٰ رجلاً يصلي فخفف فقال له حذيفة: منذ كم تصلي هذه الصلاة؟ قال: منذ أربعين عاماً قال: ما صليت ولو متَّ وأنت تصلي هذه الصلاة لمتَّ علىٰ غير فطرة النبي ﷺ، ثم قال: إن الرجل ليخفف الصلاة ويتم ويحسن»(٢).

والأخبار في هذا المعنىٰ كثيرة جداً، وهي تبين لك المراد من قوله تعالىٰ: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة صلاته، فإن وجدت تامة كتبت تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل تجدون له من تطوع يكمل له ما ضيع من فريضته من تطوعه؟ ثم سائر الأعمال تجري علىٰ ذلك»(٣). وهذا نص. وقال عمر رضي اللَّه عنه: ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٥٥)، والترمذي في الصلاة (٢٦٥)، والنسائي في افتتاح الصلاة (٢/ ١٨٣)، وفي التطبيق (٢/ ٢١٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٧٠).
(٢) رواه البخاري في الأذان (٧٩١)، وأحمد (٥/ ٣٨٤)، والنسائي في السهو (٣/ ٥٨، ٥٩).
(٣) مرّ تخريجه قريباً.

قلت: ولا اعتبار بقول من قال: إن الواجب من أركان الصلاة ومن الفصل بين أركانها أقل ما ينطلق عليه الاسم، وهو أبو حنيفة؛ لأن من اقتصر على ذلك صدق عليه أنه نقر الصلاة، فدخل في الذم المترتب بقوله عليه السلام: «تلك صلاة المنافقين يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر اللَّه فيها إلَّا قليلاً»[١]. والأحاديث الثابتة تقضي بفساد صلاته كما بيناه مع قوله عليه السلام: «أما الركوع فعظّموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يُستجاب لكم»[٢].

عن النعمان بن مرة الأنصاري أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما ترون في الشارب والسارق والزاني؟ قال: وذلك قبل أن ينزل فيهم قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: هن فواحش، وفيهن عقوبة، وأسوأ السرقة الذي يسرق صلاته قالوا: يا رسول اللَّه وكيف يسرق صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولاسجودها»[٣].

* * *

بـــاب منـــه

عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: إن اللَّه ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول له: ما منعك إذْ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن اللَّه عبداً حجّته قال: يا رب رجوتك وفَرَقْـت من الناس»[٤].

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه إذا

---

(١) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٢٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة (٤٧٩).

(٣) رواه مالك في الموطأ في كتاب قصر الصلاة في السفر (ص١٦٧) وكُتب تحته: قال ابن عبد البر: لم يختلف الرواة عن مالك في إرسال هذا الحديث عن النعمان بن مرة. وهو حديث صحيح مسند من وجوه عن أبي هريرة وأبي سعيد.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٢٩، ٢٧)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٧).

رأىٰ أمرًا للّه عليه فيه مقال فلا يقول فيه، فيقول اللّه عز وجل له يوم القيامة: ما منعك إذا رأيت كذا وكذا أن تقول فيه؟ فيقول له: أي ربِّي خفت الناس، فيقال: إياي كنت أحق أن تخاف»[١].

* * *

٨٣ ـ باب ما جاء في شهادة أركان الكافر والمنافق عليهما ولقائهما اللّه عز وجل

قال اللّه تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يسٓ: ٦٥] وقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وقال: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] الآية. ومن حديث معاوية بن حيدة القشيري أن النبي ﷺ قال: «تجيئون يوم القيامة علىٰ أفواهكم الفدام، وأول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه» وقد تقدّم[٢].

عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول اللّه ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مِمَ أضحك»؟ قلنا: اللّه ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلىٰ. قال: فيقول: فإني لا أجيز علىٰ نفسي إلّا شاهداً مني. قال: فيقول: كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيختم علىٰ فيه فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلىٰ بينه وبين الكلام قال: فيقول بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا فعنكن كنت أناضل»[٣].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٠، ٤٧، ٩١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٨).

(٢) مرّ في أول باب (٦٨) ما جاء في حشر الناس إلىٰ اللّه عز وجل حفاة عراة غرلا.

(٣) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٩).

عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا: قال رسول اللّه ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وتربع، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول: اليوم أنساك كما نسيتني»(١).

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً كنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك». وأخرجه مسلم وقال: «كذبت قد سئلت ما هو أيسر من ذلك»(٢).

فصل: قوله عيله السلام «فأول ما يتكلم من الإنسان فخذه» يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك زيادة في الفضيحة والخزي على ما نطق به الكتاب في قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] لأنه كان في الدنيا يجاهر بالفواحش ويخلو قلبه عندها من ذكر اللّه تعالى، فلا يفعل ما يفعل خائفاً مشفقاً؛ فيجزيه اللّه بمجاهرته بفحشه على رؤوس الأشهاد.

والوجه الآخر: أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه ولا يعترف بما ينطق به؛ بل يجحد فيختم اللّه على فِيهِ عند ذلك، وتنطق منه الجوارح التي لم يكن ناطقة في الدنيا فتشهد عليه سيئاته، وهذا أظهر الوجهين، يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم، أي لفروجهم في قول زيد بن أسلم: لم شهدتم علينا؟ فتمردوا في الجحود، فاستحقوا من اللّه الفضح والإخزاء، نعوذ باللّه منهما.

فصل: قوله: «وتركتك ترأس وتربع» أي ترأس على قومك بأن يكون رئيساً عليهم، ويأخذ الربع مما يحصل لهم من الغنائم والكسب، وكانت عادتهم أن

---

(١) مرّ في باب (٦٩) من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ: ﴿إذا الشمس كُوِّرت﴾.

(٢) رواه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٤)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٥).

أمراءهم كانوا يأخذون من الغنائم الربع، ويسمونه المرباع. قال شاعرهم:

لـك المِرْبـاع مِنْــها والصـفـايـا وحكـمـك والـنـشيـطـة والفضولُ

وقال آخر:

منّـا الّـذي ربـع الجيـوش لصلبه عشرون وهـو يُعـدّ في الأحـياءِ

يقال: ربع الجيش يربعه رباعة إذا أخذ ربع الغنيمة. قال الأصمعي: ربع في الجاهلية وخُمِّس في الإسلام.

وقوله: «اليوم أنساك كما نسيتني» أي اليوم أتركك في العذاب كما تركت عبادتي ومعرفتي.

فإن قيل: فهل يلقىٰ الكافر ربَّه ويسأله؟ قلنا: نعم، بدليل ما ذكرنا. وقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْـهِمْ﴾ [الاعراف: ٦] في أحد التأويلين. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] وقال: ﴿أُولَـٰئِكَ يُعْـرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨] وقال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾[الكهف: ٤٨] .. الآيتين وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْـنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْـنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦] وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْـنَحْـمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْـتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣]، والآي في هذا المعنىٰ كثير.

فإن قيل: قد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يُعْـرَفُ الْمُجْـرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْـدَامِ﴾ [الرحمـٰن: ٤١] وقال عليه السلام: «يخرج عنق من النار فيقول: وُكِّلت بثلاث: بكل جبار عنيد، وكل من جعل مع اللَّه إلهاً آخر، وبالمصورين»[1].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٣٦)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٧٤). وقال: حسن غريب صحيح. وللحديث طرق أخرىٰ.

قلنا: هذا يحتمل أن يكون بعد الوزن والحساب، وتطاير الكتب في اليمين والشمال، وتعظيم الخلق كما تقدم، ويدل عليه قوله: «وبالمصورين» فإنهم وإن كانو موحدين فلا بد لهم من سؤال وحساب، وبعده يكونون أشد الناس عذاباً، وإن كانوا كافرين مشركين فيكون ذكرهم تكراراً في الكلام. علىٰ أنّا نقول:

قال بعض العلماء: ذكر اللّٰه تعالىٰ الحساب جملة، وجاءت الأخبار بذلك، وفي بعضها ما يدلّ علىٰ أن كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، فصار الناس إذاً ثلاث فِرَق: فرقة لا يحاسبون أصلاً، وفرقة تحاسب حساباً يسيراً، وهما من المؤمنين، وفرقة تحسب حساباً شديداً، يكون منها مسلم وكافر، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنىٰ إلىٰ رحمة اللّٰه فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنىٰ إلىٰ غضب اللّٰه فيدخله النار بغير حساب.

وقد ذُكر عن ابن عباس: أن بعد أخذ النار هؤلاء: تنشر الصحف، وتوضع الموازين، وتدعىٰ الخلائق للحساب.

فإن قيل: فقد قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وقال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤] وهذا يتناول بعمومه جميع الكفار.

قلنا: القيامة مواطن؛ فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك. فلا يتناقض الآي والأخبار، واللّٰه المستعان.

قال عكرمة: القيامة مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. وقال ابن عباس: لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ: لم عملتم كذا وكذا؟ والقاطع لهذا قوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩١، ٩٢].

قال أهل التأويل: عن لا إلـٰه إلّا اللّٰه. وقد قيل: إن الكفار يحاسبون بالكفر

بالله الذي كان طول العمر دثارهم وشعارهم. وكل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها وعاندوها، فإنهم يبكتون عليها ويسألون عنها، وعن الرسل وتكذيبهم إياهم لقيام الدلائل على صدقهم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣] والآي في هذا المعنى كثيرة، ومن تأمل آخر سورة المؤمنين ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١١٨] إلى آخرها تبيّن له الصواب في ذلك، والحمد لله على ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن بعد أخذ النار هؤلاء الثلاثة: «تنشر الصحف، وتوضع الموازين، ويدعى الخلائق للحساب»[1].

ومعنى ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي بما يحبونه، قال الطبري: وفي التنزيل ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] . وقد قيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين. أي أن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة أن يقال له: ما كان دينك؟ وما كنت تصنع في الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمناً أو كان كافراً. لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه، منشرحي الصدور، ويكون المشركون سود الوجوه زرقاً مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار وتمييزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم.

---

(١) مرّ بعض هذا الحديث في باب (٦٢) أين يكون الناس ﴿يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ وأوله: «إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مدّ الأديم . . .».

ومن قال هذا فيحتمل أن يقول: إن الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله على ما وردت به الأخبار من سؤال الملكين والميت إذا دفن وانصرف الناس عنه فيسألونه عن ربه ودينه ونبيه، أي إذا كان يوم القيامة لم تسأل الملائكة عند الحاجة إلى تمييز فريق عن هذا لاستغنائهم بمناظرهم عما وراءها، ومن قاله يحتج بقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢] أخبر أنه يسألهم عن أعمالهم، وهذه الآية في الكافرين، ومن قال يسألهم عن أصل كفرهم ثم عن تجريدهم إياه كل وقت باستهزائهم بآيات اللّه تعالى ورسله، فقد سألهم عما كانوا يعملون، وذلك هو المراد.

* * *

٨٤ ـ باب ما جاء في شهادة الأرض وغيرها وفي شهادة المال على صاحبه وقوله تعالى ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾

عن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه يقول: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [قٓ: ١٩ ـ ٢١] قال: سائق يسوقها إلى أمر اللّه، وشاهد يشهد عليها بما عملت.

ومن حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ وفيه: «وإن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ـ أو كما قال رسول اللّه ﷺ ـ وإنه مَن يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة»(١).

وقد جاء في الحديث: «أنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر إلّا شهد له يوم القيامة»(٢).

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٦٥)، ومسلم في الزكاة (١٢٣ تحت ١٠٥٢).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الأذان (٦٠٩).

قال المؤلف: فتفكّر يا أخي، وإن كنت شاهداً عدلاً بأنك مشهود عليك في كل أحوالك من فعلك ومقالك، وأعظم الشهود لديك المطّلع عليك، الذي لا تخفى عليه خافية عين، ولا يغيب عنه زمان ولا أين. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] فاعمل عمل مَنْ يعلم أنه راجع إليه، وقادم عليه، يجازي على الصغير والكبير، والقليل والكثير. سُبْحَانَهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ.

* * *

٨٥ ـ باب لا يشهد العبد على شهادة في الدنيا إلاَّ شهد بها يوم القيامة

يدل على صحته من الكتاب قول الحق: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] . وقوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٨]. واللّه أعلم.

* * *

٨٦ ـ باب ما جاء في سؤال الأنبياء وفي شهادة هذه الأمة للأنبياء على أممهم

قال اللّه تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧] وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. فيبدأ بالأنبياء عليهم السلام: ﴿فَيَقُولُ: مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ قيل: في تفسيرها: كانوا قد علموا، ولكن ذهبت عقولهم، وعزُبت أفهامهم، ونسوا من شدة الهول وعظيم الخطب وصعوبة الأمر فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] ثم يقربهم اللّه تعالى فيُدعَى نوح عليه السلام.

ويقال: إن الهيبة تأخذ بمجامع قلوبهم فيذهلون عن الجواب. ثم إن اللَّه يثبتهم ويحدث لهم ذكراً فيشهدون بما أجابت به أممهم، ويقال: إنما قالوا ذلك تسليماً كما فعل المسيح في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] . والأول أصح؛ لأن الرسل يتفاضلون، والمسيح من أجلِّهم لأنه كلمة اللَّه وروحه.

عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد ﷺ، فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا ﷺ بذلك أن الرسل قد بلّغوا فصدقناه. قال فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»[1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] »[2].

* * *

(١) رواه البخاري بنحوه في مواضع منها: أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

(٢) انظر السابق.

٨٧ ـ باب ما جاء في الشهداء عند الحساب

قال العلماء: وتكون المحاسبة بمشهد من النبيين وغيرهم، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩] وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. وشهيد كل أمة نبيها. وقيل: إنهم كتبة الأعمال وهو الأظهر فتحضر الأمة ورسولها، فيقال للقوم: ماذا أَجبتم المرسلين؟ ويقال للرسل: ماذا أُجبتم؟ فتقول الرسل: لا علم لنا، علىٰ ما تقدّم في الباب قبل، ثم يدْعَىٰ كل واحد علىٰ الانفراد فالشاهد عليه صحيفة عمله وكاتبها، فإنه قد أخبر في الدنيا أن عليه ملَكَين يحفظان أعماله وينسخانها. وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] ثم ينادي بهم فرداً فرداً فيُحاسب كل واحد منهم، فإذا الأقدام تشهد واليدان، وهوقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقد جاء في الخبر أن رجلاً منهم يوقف بين يدي اللَّه تبارك وتعالىٰ فيقول له: يا عبد السوء كنت مجرماً عاصياً، فيقول: ما فعلت؟ فيقال له: عليك بينة، فيؤتىٰ بحفظته فيقول: كذبوا عليّ. فتشهد جوارحه عليه، فيؤمر به إلىٰ النار، فيجعل يلوم جوارحه، فتقول له: ليس عن اختيارنا ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]. وتقدّم أن الأرض والمال ممن يشهد، وإذا قال الكافر: لا أجيز علىٰ نفسي إلَّا شاهداً مني! خُتم علىٰ فِيهِ فتَشهد أركانه، كما تقدّم.

* * *

٨٨ ـ باب ما جاء في عقوبة مانعي الزَّكاة وفضيحة الغادر والغالّ في الموقف وقت الحساب

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا

يؤدي منها حقها إلّا إذا كان يوم القيامة صفّحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوىٰ بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتىٰ يقضىٰ بين العباد فيرىٰ سبيله إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار». قيل: يا رسول اللَّه، فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها، إلّا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاعٍ قَرْقَرٍ[1] أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها. قيل: يا رسول اللَّه، فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلّا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مرّ عليه أولاها ردّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتىٰ يقضي اللَّه بين العباد فيرىٰ سبيله إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار»، وذكر الحديث[2].

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَنْ آتاه اللَّه مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له يومَ القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية»[3].

وذكر مسلم من حديث جابر قال: «ولا صاحب كنز لا يؤدي فيه حقه إلّا جاء يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبعه فاتحاً فاه، فإذا أتاه فرَّ منه فيناديه: خذ كنزك الذي خبأته فأنا عنه غني، فإذا رأىٰ أن لا بد له منه سلك يده في فِيهِ فيقضمها قضم الفحل» وذكر الحديث[4].

---

(١) «بُطح بقاعٍ قرقر»: سيأتي معناها مع غيرها في نهاية الباب.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (٩٨٧).

(٣) رواه البخاري في الزكاة (١٤٠٣)، وفي التفسير (٤٥٦٥).

(٤) رواه مسلم في الزكاة (٩٨٨).

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قام فينا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم فذكر الغلول وعظم أمره، ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول اللَّه أغثني فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة يقول: يا رسول اللَّه أغثني فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا أُلْـفِيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول: يا رسول اللَّه أغثني فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول: يا رسول اللَّه أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لأ ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول اللَّه أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول اللَّه أغثني، فأقول: لا أملك لك من اللَّه شيئاً قد أبلغتك»[(١)].

وعن ابن عمر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا جمع اللَّه الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة»[(٣)].

وعن عمرو بن الحمق الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «إذا آمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله رفع له لواء غدر يوم القيامة»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: الجهاد والسير (٣٠٧٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٣١).

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦١٧٧)، (٦١٧٨)، ومسلم في الجهاد (١٧٣٥).

(٣) رواه مسلم في الجهاد (١٧٣٨).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٤٣٧)، (٦/ ٣٩٤)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٨)، والطيالسي (١٢٨٥)، (١٢٨٦) وغيرهم.

(فصل): قال علماؤنا رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، أن ذلك على الحقيقة كما بينه ﷺ أي يأت به حاملاً له على ظهره ورقبته، معذباً بحمله وثقله، ومرعوباً بصوته، وموبخاً بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد، وكذا مانع الزكاة كما في صحيح الحديث.

قلت: وهذه الفضيحة التي أوقعها الله بالغالّ ومانعي الزكاة نظير الفضيحة التي يوقعها بالغادر، وجعل الله هذه المعاقبات حسب ما يعهده البشر ويفهمونه، ألَا ترى إلى قول الشاعر:

أسُمَيُّ ويْحك هل سمعت بغدرةٍ ... رُفع اللواءُ لنا بها في المجمعِ

فكانت العرب ترفع للغادر لواء في المحافل ومواسم الحج، وكذلك يُطاف بالجاني مع جنايته.

عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى في الناس؛ فيجيئون بغنائمهم فيخمسها ويقسمها، فجاء رجل يوماً بعد النداء بزمام من شعر، فقال: يا رسول الله، هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة. قال: «أسمعت بلالاً»؟ ـ ثلاثاً ـ قال: نعم. قال: «فما منعك أن تجيء به؟ فاعتذر إليه، فقال: كلا، أنت تجيء به يوم القيامة؛ فلن أقبله منك»[1].

فصل: قوله: «يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة» دليل على أن في الآخرة للناس ألوية، فمنها ألوية خزي وفضيحة يعرف بها أهلها، ومنها ألوية حمد وثناء وتشريف وتكريم؛ فعلى هذا من كان إماماً ورأساً في أمر ما معروفاً به فله لواء يعرف به خيراً كان أو شراً، وقد يجوز أن يكون للصالحين الأولياء ألوية يعرفون بها تنويهاً بهم وإكراماً لهم، والله أعلم. وإن كانوا غير معروفين قال النبي ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسَمَ على الله لأبرَّه»[2]. وقال: «إن الله

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧١٢).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢).

يحب العبد التقي الغني الخفي»[١].

فصل: وقوله: «هذه غدرة فلان ابن فلان» دليل على أن الناس يدعون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقد تقدم هذا في غير موضع، وفي هذا رد على من قال إنما يدعون بأسماء أمهاتهم؛ لأن في ذلك ستراً على آبائهم، وهذا الحديث خلاف قولهم. خرّجه البخاري ومسلم وحسبك.

فصل: وقوله «فيكوىٰ بها جنبه» الحديث إنما خص الجنب والجبهة والظهر بالكي لشهرته في الوجه وشناعته، وفي الجنب والظهر لأنه آلم وأوجع. وقيل: خص الوجه: لتقطيبه في وجه السائل أولاً، والجنب: لازوراره عن السائل ثانياً، والظهر: لانصرافه إذا زاد في السؤال وأكثر منه، فرتب اللّٰه تعالىٰ هذه العقوبات في هذه الأعضاء لأجل ذلك، واللّٰه أعلم.

وقيل: لما طلبوا الجاه والمال: شان اللّٰه وجوههم، ولما طووا كشحاً عن الفقير إذا جالسهم: كويت جنوبهم، ولما أسندوا ظهورهم إلىٰ أموالهم ثقة بها واعتماداً عليها: كويت ظهورهم.

فصل: وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] قيل: معناه لو حاسب فيها غير اللّٰه تعالىٰ، وإنما هو سبحانه وتعالىٰ يفرغ منه في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا. عن أبي هريرة قال: «يقصر يومئذ على المؤمن حتىٰ يكون كوقت الصلاة»[٢].

وبُطِحَ: ألقي علىٰ وجهه. قاله بعض المفسرين. وقال أهل اللغة: البطح:

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٥).

(٢) رواه ابن المبارك كما في زوائد الزهد (٣٤٨) موقوفاً. والحاكم في المستدرك (١/ ٨٤) موقوفاً ومرفوعاً وصححه. وقال الذهبي: علىٰ شرطهما، لكن رفعه سويد بن نصر عن ابن المبارك، وهو ثقة، ووقفه عبدان عنه.

هو البسط كيفما كان غير الوجه أو على الوجه، ومنه سميت بطحاء مكة لانبساطها، وبقاع قرقر: أي بموضع مستوٍ واسع، وأصل القاع: الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء، وجمعه قيعان. والعقصاء: الملتوية القرن، والجلحاء: التي لا قرن لها. والعضباء: المكسورة داخلة القرن؛ يريد أنها كلها ذوات قرون صحاح، ويمكن بها النطح والطعن؛ حتى يكون أشد لألمه وأبلغ في عذابه، والله أعلم.

* * *

باب منه وذكر الولاة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلَّا يؤتى به يوم القيامة حتى يفكّه الله بعدله أو يوبقه بجرمه»[(١)].

وعن أبي حميد الساعدي، عن النبي ﷺ: أنه استعمل رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي؟ أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيُهدى إليه أم لا؟ لا يأتي أحد منكم بشيء من ذلك إلَّا جاء يوم القيامة إن كان بعيراً فله رغاء، وإن كانت بقرة فلها خوار أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه، ثم قال: «اللّهم هل بلغت؟ اللّهم هل بلغت؟»[(٢)].

وعن بريدة عن النبي ﷺ: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٣١)، والدارمي في السير (٢٤٢٠) بنحوه، والحاكم في المستدرك (٤/ ٨٩) وغيرهم.

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: الأيمان والنذور (٦٦٣٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٢).

(٣) رواه أبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٤٣).

٨٩ - باب ما جاء في حوض النبي ﷺ في الموقف وسعته وكثرة أوانيه وذكر أركانه ومن عليها

ذهب البعض إلىٰ أن حوض النبي ﷺ إنما هو بعد الصراط، والصحيح أن للنبي ﷺ حوضين: أحدهما في الموقف قبل الصراط، والثاني في الجنة، وكلاهما يسمىٰ كوثراً علىٰ ما يأتي، والكوثر في كلام العرب الخير الكثير. واختلف في الميزان والحوض أيهما قبل الآخر، فقيل: الميزان قبل، وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل.

قلت: والمعنىٰ يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم كما تقدّم، فيقدم قبل الصراط والميزان، واللَّه أعلم.

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «بينا أنا قائم علىٰ الحوض إذا زمرة، حتىٰ إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم، فقلت: إلىٰ أين؟ فقال: إلىٰ النار واللَّه، قلت: ما شأنهم؟ فقال: إنهم قد ارتدوا علىٰ أدبارهم القهقري، ثم إذا زمرة أخرىٰ حتىٰ إذا عرفتهم خرج من بيني وبينهم رجل فقال لهم: هلم. فقلت: إلىٰ أين؟ قال: إلىٰ النار واللَّه. قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدُّوا علىٰ أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلَّا مثل همل النعم»[1].

قلت: فهذا الحديث مع صحته أدل دليل علىٰ أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط؛ لأن الصراط إنما هو جسر علىٰ جهنم ممدود يجاز عليه، فمن جازه سلم من النار علىٰ ما يأتي، وكذا حياض الأنبياء عليهم السلام تكون أيضاً في الموقف علىٰ ما يأتي.

عن أبي ذر رضي اللَّه عنه قال: قلت: يا رسول اللَّه، ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٨٧).

المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل»(١).

وعن ثوبان أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إني لبِعُقْرِ حوضي أزود الناس لأهل اليمين أضرب بعصاي حتى يرفضّ عليهم». فسئل عن عرضه، فقال: «من مقامي إلى عمان». وسئل عن شرابه فقال: «أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يغتُّ فيه ميزابان يمدّانه من الجنة؛ أحدهما من ذهب، والآخر من وَرِق»(٢). في غير كتاب مسلم: «يعب فيه ميزابان من الكوثر . . » الحديث. وفي أخرى: «ما يبسط أحد منكم يده إلَّا وقع عليه قدح».

عن أنس قال: بينا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذا أغْفَى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول اللَّه؟ قال: «نزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ - ٣] ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال: ما تدري ما أحدث بعدك؟». وفي رواية أخرى «ما أحدث»(٣).

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الوَرِقِ، وريحه أطيب من المسك،

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٠٠).

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٠١). وانظر: مسند أحمد (٥/ ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٨٥٣)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٤٣).

(٣) رواه مسلم بنحوه في الفضائل (٢٣٠٤).

وكيزانه كنجوم السماء، مَنْ ورد فشرب منه لم يظمأ بعده أبداً»[١].

وعن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أمامكم حوضاً كما بين جَرْبَا وأَذْرُحَ، فيه أباريق كنجوم السماء، مَنْ ورد فشرب منه لم يظمأ بعدها أبداً» قال عبيد اللَّه: فسألته. فقال: قريتين بالشام بينهما مسيرة ثلاث[٢].

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن حوضي أبعد من أيلة إلىٰ عدن، لهو أشد بياضاً من الثلج وأحلىٰ من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصدّ الناس كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه» قالوا: يا رسول اللَّه أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم لكم سيما ليست لأحد من الأمم، تردون عليّ غرّاً محجّلين من أثر الوضوء»[٣].

فصل: ظن بعض الناس أن هذه التحديدات في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف وليس كذلك، وإنما تحدث النبي ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطباً لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها، فيقول لأهل الشام: ما بين أذرح وجربا، ولأهل اليمن: من صنعاء إلىٰ عدن، وهكذا. وتارة أخرىٰ يقدر بالزمان فيقول: «مسيرة شهر» والمعنىٰ المقصود أنه حوض كبير متسع الجوانب والزوايا فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات فخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها، واللَّه أعلم.

ولا يخطر ببالك أو يذهب وهمك إلىٰ أن الحوض يكون علىٰ وجه هذه الأرض، وإنما يكون وجوده في الأرض المبدلة علىٰ مسامتة هذه الأقطار، أو أن المواضع التي تكون بدلاً من هذه المواضع في هذه الأرض، وهي أرض بيضاء

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٧٩)، ومسلم في الفضائل (٢٢٩٢).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٧٧)، ومسلم في الفضائل (٢٢٩٩).

(٣) رواه مسلم بنحوه في الطهارة (٢٤٨).

كالفضة لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط كما تقدّم. تطهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء.

ويغت: معناه يصب، ويشخب: أي يسيل، والعقر: مؤخر الحوض؛ حيث تقفل الإبل إذا وردته، وتسكّن قافه وتضمّ فيقال: عقْر وعقُر كعسْر وعسُر قاله في الصحاح. والهمل من النَّعم: الضَّوالُّ من الإبل، واحدها هامل، قاله الهروي. والمعنى: أن الناجي منهم قليل كهمل النعم.

* * *

باب منه

عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال: «ما أنتم بجزء من مائة ألف أو سبعين ألف جزء ممن رد على الحوض». وكانوا يومئذ ثمانمائة أو تسعمائة[1]. والله أعلم.

* * *

٩٠ ـ باب فقراء المهاجرين أول الناس ورودًا الحوض على النبي ﷺ

عن الصنابحي الأحمسي قال: قال رسول الله ﷺ: «ألَا إنِّي فَرَطُكم على الحوض، وإني مكاثر بكم الأمم فلا تقتتلنّ بعدي»[2].

وعن أبي سلام الحبشي قال: بعث إليَّ عمر بن العزيز، فحُملت على البريد، قال: فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، لقد شق عليّ مركبي البريد، فقال: يا أبا سلام ما أردت أن أشق عليك، ولكن بلغني عنك حديثٌ تُحدّثه عن ثوبان عن النبي ﷺ في الحوض، فأحببت أن تشافهني به. قال أبو سلام: حدثني ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: [«إن حوضي ما بين عدن إلى أيلة،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٦) وغيرهما.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٤٩، ٣٥١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٤) وغيرهما.

أشد بياضاً من اللبن وأحلىٰ من العسل، أكاويبه كعدد نجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً، وأول الناس من يرد علىٰ الحوض فقراء المهاجرين؛ الدنس ثياباً، الشعث رؤوساً، الذين لا ينكحون المتنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد» قال: فبكىٰ عمر بن عبد العزيز حتىٰ ابتلّت لحيته فقال: لكني نكحت المتنعمات، وفُتحت لي أبواب السدد، لا جرم أني لا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتىٰ يتسخ، ولا أدهن رأسي حتىٰ تشعث][(١)].

* * *

٩١ ـ باب ذكر من يُطرد عن الحوض

عن أنس عن النبي ﷺ قال: «ليردن عليّ ناس من أصحابي الحوض حتىٰ إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول أصحابي، فيقال لي: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[(٢)].

وعن أبي هريرة أنه كان يتحدث أن رسول اللّه ﷺ قال: «يرد عليّ الحوض رهط من أصحابي فيخلون عن الحوض، فأقول: أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا علىٰ أدبارهم القهقري»[(٣)].

عن أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنهما قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «إني علىٰ الحوض حتىٰ أنظر من يرد عليَّ منكم، وسيؤخذ ناس دوني فأقول: يا رب مني ومن أمتي، فيقال: أما شعرت ما عملوا بعدك؟ واللّه ما برحوا بعدك يرجعون علىٰ أعقابهم»[(٤)].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٣).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٨٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٤).

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٨٥)، ومسلم في الطهارة (٢٤٧) بنحوه، وفي الفضائل (٢٣٠٢) مختصراً.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٩٣)، ومسلم في الفضائل (٢٢٩٣).

وفي حديث أنس: فيختلج العبد منهم فأقول: يا رب من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك». وقد تقدم. وكذلك حديث البخاري: «إذا زمرة حتى إذا عرفتهم» تقدم أيضاً. وفي حديث أبي هريرة فقالوا: كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك يا رسول اللّه؟ الحديث. وفيه قال: «فإنهم يأتون غرّاً محجلين من أثر الوضوء».

فصل: قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين اللّه أو أحدث فيه ما لا يرضاه اللّه ولم يأذن به اللّه، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي. وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع.

ثم البعد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة، إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد، وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء يعرفون به، ثم يقال لهم: سحقاً، وإن كانوا من المنافقين الذي كانوا على عهد رسول اللّه ﷺ يظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقول لهم: سُحْقًا سُحْقًا، ولا يخلد في النار إلّا كافر جاحد مبطل ليس في قلبه مثقال حبَّة من خردل من إيمان.

وقد يقال: إن من أنفذ اللّه عليه وعيده من أهل الكبائر إنه وإن ورد الحوض وشرب منه فإنه إذا دخل النار بمشيئة اللّه تعالى لا يعذب بعطش، واللّه أعلم.

عن كعب بن عجرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أعيذك باللّه يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي؛ فمَنْ غشي أبوابهم؛ فصدقهم في كذبهم،

وأعانهم علىٰ ظلمهم، فليس مني ولست منه، ولا يرد علىٰ الحوض، ومَنْ غشي أبوابهم، ولم يصدقهم في كذبهم، ولم يعنهم علىٰ ظلمهم، فهو منىٰ وأنا منه، وسيرد علىٰ حوض. يا كعب بن عجرة، الصلاة برهان، والصبر جُنَّة حصينة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، يا كعب بن عجرة، إنه لا يربو لحم نَبت من سُحْت إلَّا كانت النار أوْلَىٰ به»(١).

* * *

٩٢ ـ باب ما جاء أن لكل نبي حوضاً

عن سمرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر وارده، وإني أرجو أن أكون أكثرهم وارده»(٢).

* * *

٩٣ ـ باب ما جاء في الكوثر الذي أُعطيه ﷺ في الجنة

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر في الجنة حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك؛ فإذا طينه ـ أو طينته ـ مسك أذفر» ـ شك هدبة ـ خرّجه أبو عيسىٰ الترمذي بمعناه. وزاد: «ثم رفعت إلىٰ سدرة المنتهىٰ فرأيت عندها نوراً عظيماً»(٣).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٤٣)، والترمذي في كتاب الجمعة (٦١٤)، (٦١٥)، وفي الفتن (٢٢٥٩)، والنسائي في البيعة (٧/ ١٦٠، ١٦١). وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر رحمه اللَّه علىٰ الترمذي (٦١٥).

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٣٤)، والطبراني في الكبير (٦٨٨١). وله شواهد يتقوىٰ بها.

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٨١)، والترمذي في التفسير (٣٣٦٠).

عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج»[1]، واللَّه أعلم.

* * *

تم اختصار الجزء الأول

من كتاب

التذكرة

في أحوال الموتى وأمور الآخرة

ويليه

اختصار الجزء الثاني

* * *

(١) رواه أحمد (٢/ ٦٧، ١٥٨)، والترمذي في التفسير (٣٣٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٤).



أبواب الميزان

٩٤ ـ باب ما جاء في الميزان وأنه حق

قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩]. قال العلماء: وإذا انقضىٰ الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الآية.

وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ إلىٰ آخر السورة.

وقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: ٩، والمؤمنون: ١٠٣].

وهذه الآيات إخبار لوزن أعمال الكفار؛ لأن عامة المعنيين بقوله: «خفّت موازينه» في هذه الآيات هم الكفار، وقال في سورة المؤمنين: ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥] وفي الأعراف: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ وقال: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ وهذا الوعيد بإطلاقه للكفار، وإذا جمع بينه وبين قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ثبت أن الكفار يسألون عما خالفوا فيه الحق من أصل الدين وفروعه؛ إذ لم يسألوا عما خالفوا فيه أصل دينهم من ضروب تعاطيهم، ولم يحاسبوا به، ولم يعتد بها في الوزن أيضاً، فإذا كانت موزونة دل علىٰ أنهم يحاسبون بها وقت الحساب، وفي القرآن ما يدل أنهم مخاطبون بها ومسؤولون عنها ومحاسبون بها مجزيون علىٰ

الإخلال بها؛ لأن اللّه تعالىٰ يقول: ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] فتوعدهم علىٰ منعهم الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] الآية. فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها، مجزيون علىٰ الإخلال بها.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند اللّه جناح بعوضة، واقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥]»(١).

قال العلماء: معنىٰ هذا الحديث أنه لا ثواب لهم وأعمالهم مقابلة بالعذاب فلا حسنة لهم توزن في موازين يوم القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النار، وقال أبو سعيد الخدري: يؤتىٰ بأعمال كجبال تهامة فلا تزن شيئاً. وقيل: يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة كأنه قال: فلا قدر لهم عندنا يومئذ، واللّه أعلم. وفيه من الفقه ذم السمن لمن تكلفه لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم؛ بل يدل علىٰ تحريم كثرة الأكل الزائد علىٰ قدر الكفاية المبتغىٰ به الترفه والسمن.

* * *

باب منه
وبيان كيفية الميزان ووزن الأعمال فيه

عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه يستخلص رجلاً من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مدِّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٥).

أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذر؟ فقال: لا يا رب، فيقول: بل إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إلـه إلّا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة وهذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة؛ فلا يثقل مع اسم اللّه شيء». وفي رواية بدل قوله في أول الحديث: «إن اللّه يستخلص رجلاً من أمتىٰ علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة» «يُصاح برجل من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق . . » وذكر الحديث[1].

فصل: قال المؤلف: الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل قوله عليه السلام: «فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه. .» الحديث[2]. وقوله تعالىٰ ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمـٰن: ٤١] الآية. وإنما يكون لمن بقي من أهل المحشر ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين، وقد يكون للكافرين علىٰ ما ذكرنا ويأتي.

وقال أبو حامد: والسبعون الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً.

فصل: فإن قيل: أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فتقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن، والكافر لا يكون له حسنات، فما الذي يقابل بكفره وسيئاته؟ وأنّىٰ يتحقق في أعماله الوزن؟

فالجواب: إن ذلك علىٰ وجهين:

أحدهما: أن الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره وسيئاته في إحدىٰ كفتيه،

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

ثم يقال له: هل لك من طاعة تضعها في الكفة الأخرىٰ؟ فلا يجدها فيشال الميزان، فترتفع الكفة الفارغة، وتقع الكفة المشغولة، فذلك خفة ميزانه وهذا ظاهر الآية؛ لأن اللَّه تعالىٰ وصف «الميزان» بالخفة لا «الموزون»، وإن كان فارغاً فهو خفيف.

والوجه الآخر: أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومؤاساة الناس وعتق المملوك ونحوهما مما لو كانت من المسلم لكانت قربة وطاعة، فمن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تجمع وتوضع في ميزانه، غير أن الكفر إذا قابلها له رجح بها، ولم يخل من أن يكون الجانب الذي فيه الخيرات من ميزانه خفيفاً، ولو لم يكن له إلّا خير واحد أو حسنة واحدة لأحضرت ووزنت كما ذكرنا.

فإن قيل: لو احتسبت خيراته حتىٰ يوزن لجوزي بها جزاء مثلها، وليس له منها جزاء؛ لأن رسول اللَّه ﷺ سئل عن عبد اللَّه بن جدعان وقيل له: إنه كان يقري الضيف، ويصل الرحم، ويعين في النوائب، فهل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا؛ لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[(1)]. وسأله عدي بن حاتم عن أبيه مثل ذلك، فقال: «إن أباك طلب أمراً فأدركه»[(2)] يعني الذكر، فدل أن الخيرات من الكافر ليست بخيرات، وأن وجودها وعدمها بمنزلة واحدة سواء.

والجواب: أن اللَّه تعالىٰ قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] ولم يفصل بين نفس ونفس، فخيرات الكافر توزن ويجزىٰ بها، إلّا أن اللَّه تعالىٰ حرّم عليه الجنة فجزاؤه أن يخفف عنه بدليل حديث أبي طالب فإنه قيل له: يا رسول اللَّه، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢١٤). والحديث المذكور عاليه مروي بالمعنىٰ.

(٢) رواه أحمد (٤/٢٥٨، ٣٧٩)، والطبراني في الكبير (١٧/٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١)، وابن حبان (٣٣١) وغيرهم. وإسناده حسن.

فهل نفعه ذلك؟ فقال: «نعم؛ وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»(١). وما قاله عليه السلام في ابن جدعان وأبي عدي إنما هو في أنهما لا يدخلان الجنة ولا يتنعمان بشيء من نعيمها، والله أعلم.

فصل: وقد أنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بأنفسها، ومن المتكلمين من يقول كذلك، وروي ذلك عن ابن عباس: أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساماً فيزنها يوم القيامة، وقد تقدّم بهذا المعنى.

والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة وبها تخف كما دل عليه الحديث الصحيح والكتاب العزيز، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] وهذا نص قال ابن عمر: «توزن صحائف الأعمال». وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار. وروي عن مجاهد والضحاك والأعمش أن الميزان هنا معنى العدل والقضاء، وذكرُ الوزنِ والميزانِ ضربُ مثل، كما يقال هذا الكلام في وزان هذا وفي وزنه، أي يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن.

قلت: وهذا القول مجاز وليس بشيء، وإن كان شائعاً في اللغة للسنّة الثابتة في الميزان الحقيقي، ووصفه بكفتين ولسان، وأن كل كفة منهما طباق السموات والأرض.

وروي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال: توضع الموازين يوم القيامة، فلو وضعت فيهن السموات والأرض لوسعتهن، فتقول الملائكة: يا

(١) مرّ تخريجه.

ربنا ما هذا؟ فيقول: أزن به لمن شئت من خلقي، فتقول الملائكة عند ذلك: ربنا ما عبدناك حق عبادتك[١].

وفي الصحيحين: «فيعطىٰ صحيفة حسناته» . . . «فيخرج له بطاقة». وذلك يدل علىٰ الميزان الحقيقي، وأن الموزون صحف الأعمال كما بيّنا، وباللّٰه توفيقنا.

ولقد أحسن من قال:

تذكَّر يومَ تأتي اللّٰه فرداً وقد نُصِبتْ موازينُ القَضَاءِ

وهُتِّكَتِ الستورُ عن المعاصي وجاء الذّنبُ منكشفَ الغطاءِ

فصل: قال علماؤنا رحمهم اللّٰه: الناس في الآخرة ثلاث طبقات: متقون لا كبائر لهم، ومخلطون وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر، والثالث الكفار.

فأمّا المتّقون: فإن حسناتهم توضع في الكفة النيرة، وصغائرهم إن كانت لهم صغائر في الكفة الأخرىٰ، فلا يجعل اللّٰه لتلك الصغائر وزناً، وتثقل الكفة النيرة حتىٰ لا تبرح، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي.

وأما المخلطون: فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون لكبائرهم ثقل، فإن كانت الحسنات أثقل ولو بصؤابة[٢] دخل الجنة، وإن كانت السيئات أثقل ولو بصؤابة دخل النار، إلّا أن يغفر اللّٰه، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف علىٰ ما يأتي؛ هذا إن كانت الكبائر فيما بينه وبين اللّٰه، وأما إن كان عليه تبعات وكانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات لكثرة ما عليه من التبعات، فيحمل عليه من أوزار من ظلمه، ثم يعذب علىٰ الجميع. هذا ما تقتضيه الأخبار علىٰ ما تقدّم ويأتي.

قال أحمد بن حرب: تبعث الناس يوم القيامة علىٰ ثلاثة فرق: فرقة أغنياء

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ١٧٨).

(٢) «ولو بصؤابة»: الصؤابة: بيضة القمل.

بالأعمال الصالحة، وفرقة فقراء، وفرقة أغنياء ثم يصيرون فقراء مفاليس في شأن التبعات.

وقال سفيان الثوري: إنك إن تلقىٰ اللَّه عز وجل بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد.

قال المؤلف: هذا صحيح؛ لأن اللَّه غني كريم، وابن آدم فقير مسكين يحتاج في ذلك اليوم إلىٰ حسنة يدفع بها سيئة إن كانت عليه، حتىٰ يرجح ميزانه، فيكثر خيره وثوابه.

وأما الكافر؛ فإنه يوضع كفره في الكفة المظلمة، ولا يوجد له حسنة توضع في الكفة الأخرىٰ، فتبقىٰ فارغة لفراغها وخلوّها عن الخير، فيأمر اللَّه بهم إلىٰ النار، ويعذب كل واحد منهم بقدر أوزاره وآثامه.

وأما المتقون؛ فإن صغائرهم تكفّر باجتنابهم الكبائر، ويؤمر بهم إلىٰ الجنة ويثاب كل واحد منهم بقدر حسناته وطاعته، فهذان الصنفان هما المذكوران في القرآن في آيات الوزن؛ لأن اللَّه تعالىٰ لم يذكر إلّا من ثقلت موازينه ومن خفّت موزينه، وقطع لمن ثقلت موازينه بالإفلاح والعيشة الراضية، ولمن خفّت موازيته بالخلود في النار بعد أن وصفه بالكفر. وبقي الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فبيَّنهم النبي ﷺ حسب ما ذكرناه.

وإنما توزن أعمال المؤمن المتقي لإظهار فضله، كما توزن أعمال الكافر لخزيه وذله، فإن أعماله توزن تبكيتاً له علىٰ فراغه وخلوه عن كل خير، فكذلك توزن أعمال المتقي تحسيناً وإشارة لخلوه من كل شر، وتزييناً لأمره علىٰ رؤوس الأشهاد. وأما المخلط السيئ بالصالح فإن دخل النار فيخرج بالشفاعة علىٰ ما يأتي.

فصل: فإن قيل: أخبر اللَّه عن الناس أنهم محاسبون مجزيون، وأخبر أنه

يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين، ولم يخبر عن ثواب الجن ولا عن حسابهم بشيء. فما القول في ذلك عندكم؟ وهل توزن أعمالهم؟

فالجواب: أنه قد قيل إن اللَّه تعالىٰ لما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢] دخل في الجملة الجن والإنس، فثبت للجن من وعد الجنة بعموم الآية ما ثبت للإنس، وقال: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨] ثم قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] وإنما أراد لكل من الجن والإنس، فقد ذُكِروا في الوعد والوعيد مع الإنس، وأخبر تعالىٰ أن الجن يسألون فقال خبراً عما يقال لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] وهذا سؤال، وإذا ثبت بعض السؤال ثبت كله، وقد تقدم هذا، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢] وهذا يدل صريحاً علىٰ أن حكمهم في الآخرة كالمؤمنين. وقال حكاية عنهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ . . .﴾ [الجن: ١٤] الآيتين.

ولما جعل رسول اللَّه ﷺ: «زادهم كل عظم، وعلف دوابهم كل روث؛ فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجان»[1]، فجعلهم إخواننا، وإذا كان كذلك فحكمهم كحكمنا في الآخرة سواء، واللَّه أعلم. وقد تقدّمت الإشارة إلىٰ هذا في باب: ما جاء أن اللَّه يكلم العبد ليس بينه وبينه ترجمان.

---

(١) انظر: صحيح البخاري ـ كتاب مناقب الأنصار (٣٨٦٠) حديث أبي هريرة، وصحيح مسلم ـ كتاب الصلاة (٤٥٠) حديث ابن مسعود.

فصل: قوله في الحديث: «فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إلـه إلَّا اللَّه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»: ليست هذه شهادة التوحيد؛ لأن من شأن الميزان أن يوضع في كفة شيء، وفي أخرىٰ ضده، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، فهذا غير مستحيل؛ لأن العبد يأتي بهما جميعاً، ويستحيل أن يأتي الكفر والإيمان جميعا عند واحد حتىٰ يوضع الإيمان في كفة والكفر في كفة، فلذلك استحال أن توضع شهادة التوحيد في الميزان، وأما بعد ما آمن العبد فإن النطق منه بلا إلـه إلَّا اللَّه حسنة توضع في الميزان مع سائر الحسنات.

وقيل: إن النطق بها زيادة ذكر علىٰ حسن نية، وتكون طاعة مقبولة قالها علىٰ خلوة وخفية من المخلوقين، فتكون له عند اللَّه تبارك وتعالىٰ وديعة يردها عليه في ذلك اليوم بعظم قدرها ومحل موقعها، وترجح خطاياه وإن كثرت، وبذنوبه وإن عظمت، وللَّه الفضل علىٰ عباده؛ يتفضل علىٰ مَنْ يشاء بما يشاء.

قلت: ويدل علىٰ هذا قوله في الحديث: «فيقول: بلىٰ إن لك عندنا حسنة» ولم يقل: (إن لك إيمانا)، وقد سئل رسول اللَّه ﷺ عن لا إلـه إلَّا اللَّه أمن الحسنات هي؟ فقال: «من أعظم الحسنات»[1].

ويجوز أن تكون هذه الكلمة هي آخر كلامه في الدنيا، كما في حديث معاذ ابن جبل قال: «قال رسول اللَّه ﷺ «مَنْ كان آخر كلامه في الدنيا لا إلـه إلَّا اللَّه وجبت له الجنة»[2].

وقيل: يجوز حمل هذ الشهادة علىٰ الشهادة التي هي الإيمان، ويكون ذلك في كل مؤمن ترجح حسناته، ويوزن إيمانه كما توزن سائر حسناته، وإيمانه يرجح سيئاته كما في هذا الحديث، ويدخله النار بعد ذلك فيطهره من ذنوبه ويدخله

(١) رواه أحمد (٥/١٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/٢١٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص١٠٧) وغيرهم.

(٢) مرّ تخريجه في باب (٩) تلقين الميت: لا إلـه إلَّا اللَّه. إلَّا أنه هناك لم يذكر فيه: «في الدنيا».

الجنة بعد ذلك، وهذا مذهب قوم يقولون: إن كل مؤمن يعطىٰ كتابه بيمينه، وكل مؤمن يثقل ميزانه، ويتأولون قول اللَّه تعالىٰ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢] أي الناجون من الخلود، وهو في قوله ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦] يوماً ما، وكذلك في قول النبي ﷺ: «مَنْ كان آخر كلامه لا إلـٰه إلَّا اللَّه وجبت له الجنة». إنه صائر إليها لا محالة، أصابه قبل ذلك ما أصابه.

قلت: هذا تأويل فيه نظر يحتاج إلىٰ دليل من خارج ينص عليه، والذي تدل عليه الآي والأخبار أن من ثقل ميزانه فقد نجا وسلم، وبالجنة أيقن، وعلم أنه لا يدخل النار بعد ذلك، واللَّه أعلم. وقال عليه السلام: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من خُلُقٍ حَسَنٍ»[1].

* * *

بـــاب منـــه

عن عائشة رضي اللَّه عنها: أن رجلاً قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: «يا رسول اللَّه، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك فإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل» قال: فتنحىٰ الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أما تقرأ كتاب اللَّه تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] الآية؟ فقال الرجل: واللَّه يا رسول اللَّه ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم، أُشهدك أنهم أحرار كلهم[2].

وعن وهب بن منبه في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٢)، (٢٠٠٣).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٨٠)، والترمذي في التفسير (٣١٦٥).

قال: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها، وإذا أراد اللَّه بعبد خيراً ختم له بخير، وإذا أراد اللَّه به شرّاً ختم له بشرِّ عمله».

قال المؤلف: هذا صحيح؛ يدل عليه قوله عليه السلام: «وإنما الأعمال بالخواتيم»(١)، واللَّه تعالى أعلم.

فصل: ذكر اللَّه تعالى الميزان في كتابه بلفظ الجمع، وجاء في السنة بلفظ الإفراد والجمع، فقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعمل الواحد يوزن بكل ميزان منها صنف من الأعمال، كما قال أحدهم:

مَلكٌ تقومُ الحادثات لعدلِه ... فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ
تتصرف الأشياء في مَلَكُوتِهِ ... ولكُلِّ شيءٍ مدّة وأوانُ

ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عبر عنه بلفظ الجمع، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وإنما هو رسول واحد، وقيل: المراد بالموازين جمع موزون أي الأعمال الموزونة لا جمع ميزان.

حكاية

روي عن بعض الصالحين رضي اللَّه عنه قال: أخذتني ذات ليلة سِنَةٌ فنمت فرأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن الناس يحاسبون، فقوم يمضى بهم إلى الجنة، وقوم يمضى بهم إلى النار، قال: فأتيت إلى الجنة فناديت أهل الجنة: بماذا نلتم سكنى الجنة في محل الرضوان؟ فقالوا: بطاعة الرحمن ومخالفة الشيطان، ثم أتيت إلى باب النار فناديت: يا أهل النار، بماذا نلتم النار؟ قالوا: بطاعة الشيطان ومخالفة الرحمن. قال: فنظرت فإذا أنا بقوم موقوفون بين الجنة والنار، فقالوا لي: لنا ذنوب جلّت وحسنات قلّت، فالسيئات منعتنا من دخول

(١) مرّ تخريجه في باب (١٢) ما جاء في سوء الخاتمة وأن الأعمال بالخواتيم.

الجنة، والحسنات منعتنا دخول النار. وأنشدوا:

نحنُ قومٌ لنا ذنوبٌ كبارُ منعتْنا من الوصول إليهِ
تركتنا مذبذبين حَيَارىٰ أمسكتنا من القدوم عليهِ

* * *

٩٥ ـ باب إذا كان يوم القيامة تتبع كل أمة ما كانت تعبد فإذا بقي في هذه الأمة منافقون امتحنوا وضرب الصراط

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ قال: «يجمع اللَّه الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول: ألَا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد، فيمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره؛ فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقىٰ المسلمون» وذكر الحديث(١).

وعنه: أن أناساً قالوا لرسول اللَّه ﷺ: يا رسول اللَّه، هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: هل تضارّون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول للَّه. قال: هل تضارّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك؛ يجمع اللَّه الناس يوم القيامة فيقول: مَنْ كان يعبد شيئاً فليتبعه. فيتبع مَنْ كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع مَنْ كان يعبد القمر القمر، ويتبع مَنْ كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقىٰ هذه الأمة فيها منافقوها؛ فيأتيهم اللَّه في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم؛ فيقولون: نعوذ باللَّه منك، هذا مكاننا حتىٰ يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه. فيأتيهم اللَّه في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا؛ فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول مَنْ يجوز، ولا يتكلم يومئذ إلَّا الرسل، ودعوىٰ الرسل يومئذ: اللَّهم سلِّم سلِّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٦٨)، والترمذي في كتاب صفة الجنة (٢٥٥٧).

السعدان. هل رأيتم السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول اللَّه. قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلَّا اللَّه، تخطف الناس بأعمالهم؛ فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المجازىٰ حتىٰ ينجىٰ». وذكر الحديث[1].

فصل: قوله: «هل تضارّون» بضم التاء وفتحها وبتشديد الراء وتخفيفها، وضم التاء وتشديد الراء أكثر، وأصله «تضاررون» أسكنت الراء الأولىٰ وأدغمت مع الثانية، وماضيه: «ضورر» علىٰ ما لم يسم فاعله، ويجوز أن يكون مبنياً للفاعل بمعنىٰ تضاررون بكسر الراء إلَّا أنها سكنت الراء وأدغمت، وكله من الضر المشدد، وأما التخفيف فهو من ضاره يضيره ويضوره مخففاً.

والمعنىٰ أن أهل الجنة إذا امتنّ اللَّه عليهم برؤيته سبحانه تجلَّىٰ لهم ظاهراً بحيث لا يحجب بعضهم بعضاً ولا يضره ولا يزاحمه ولا يجادله كما يفعل عند رؤية الأهلّة؛ بل كالحال عند رؤية الشمس والقمر ليلة تمامه.

وقد روي: «تضامُّون» من المضامّة وهي الازدحام أيضاً، أي لا تزدحمون عند رؤيته تعالىٰ كما تزدحمون عند رؤية الأهلّة.

وروي: «تضامُون» بتخفيف الميم من الضيم الذي هو الذل، أي يذل بعضكم بعضاً بالمزاحمة والمنافسة والمنازعة، وسيأتي هذا المعنىٰ مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ في أبواب الجنة إن شاء اللَّه.

قوله: «فإنكم ترونه كذلك» هذا تشبيه للرؤية وحالة الرائي لا المرئي؛ لأن اللَّه سبحانه لا يحاط به وليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء.

وقوله: «فيأتيهم اللَّه في صورة غير صورته التي يعرفون» هذا موضع الامتحان ليميز المحق من المبطل، وذلك أنه لما بقي المنافقون والمراؤون متلبسين بالمؤمنين والمخلصين، زاعمين أنهم منهم، وأنهم عملوا مثل أعمالهم، وعرفوا

(١) مرّ تخريجه في باب (٦٩) من سره أن ينظر إلىٰ يوم القيامة فليقرأ: ﴿إذا الشمس كُوِّرت﴾.

اللَّه مثل معرفتهم. امتحنهم اللَّه بأن أتاهم بصورة قالت للجميع: أنا ربكم. فأجاب المؤمنون بإنكار ذلك والتعوذ منه؛ لما قد سبق لهم من معرفتهم باللَّه عز وجل في دار الدنيا. وأنه منزه عن صفات هذه الصور إذ سماتها سمات المحدثين.

ولهذا قال في حديث أبي سعيد الخدري: فيقولون: نعوذ باللَّه منك، لا نشرك باللَّه شيئاً «مرتين أو ثلاثاً» حتىٰ إن بعضهم ليكاد أن ينقلب.

وهذا لمن لم يكن له رسوخ العلماء، ولعلهم الذين اعتقدوا الحق وجزموا عليه من غير بصيرة؛ ولذلك كان اعتقداهم قابلاً للانقلاب. واللَّه أعلم.

قلت: ويحتمل أن يكونوا المنافقين والمرائين وهو أشبه، واللَّه أعلم؛ لأن في الامتحان الثاني يتحقق ذلك لأن في حديث أبي سعيد بعد قوله: حتىٰ إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق فلا يبقىٰ مَنْ كان يسجد للَّه من تلقاء نفسه إلَّا أذن اللَّه له بالسجود، ولا يبقىٰ مَنْ كان يسجد اتقاء ورياء إلَّا جعل اللَّه ظهره طبقة واحدة؛ كلما أراد أن يسجد خرّ علىٰ قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها فيقول: أنا ربكم؟ فيقولون: أنت ربنا، ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم وتحل الشفاعة، وسيأتي قوله: «فيأتيهم اللَّه في صورته التي يعرفون» أي يتجلىٰ لهم في صفته التي هو عليها من الجلال والكمال والتعالي والجمال بعد أن رفع الموانع عن أبصارهم. «فيتبعونه». أي يتبعون أمره أو ملائكته ورسله الذين يسوقونهم إلىٰ الجنة. واللَّه أعلم.

والدعوىٰ: الدعاء. قال اللَّه سبحانه وتعالىٰ ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] أي دعاؤهم. والكلايب: جمع كلوب. والسعدان: نبت كثير الشوك، شوكه كالخطاطيف والمحاجن ترعاه الإبل فيطيب لبنها. تقول

العرب: مرعىٰ ولا كالسعدان. والموبق: المهلك، أوبقه ذنبه: أهلكه ومنه الحديث: «اجتنبوا السبع الموبقات»[١]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يُوبِقْـهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورىٰ: ٣٤] والمُجازَىٰ: الذي جوزي بعمله.

* * *

٩٦ ـ باب كيف الجواز على الصراط؟ وصفته ومن يحبس عليه ويزل عنه وفي شفقة النبي ﷺ على أمته عند ذلك وبيان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾

ذكر في حديث أبي هريرة: «فيأتون محمداً ﷺ فيؤذن لهم، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولهم كالبرق الخاطف». قال: قلت: بأبي أنت وأمي وأي شيء كمر البرق؟ قال: «ألم تر إلىٰ البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم ﷺ قائم علىٰ الصراط يقول: ربِّ سلِّم سلِّم، حتىٰ تعجز أعمال العباد، حتىٰ يجيء الرجل ولا يستطيع السير إلّا زحفًا». قال: «وفي حافّتيّ الصراط كلاليب معلّقة مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه؛ فمخدوش ناج، ومكردس في النار. والذي نفس محمد بيده: إن قعر جهنم لسبعون خريفاً»[٢].

ومن حديث أبي سعيد الخدري وفيه: «ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللّهم سلم سلّم» قيل: يا رسول اللّه، وما الجسر؟ قال: «دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان: فيمر المؤمنون كطرْف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب؛ فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكردس في نار

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٩٥).

جهنم» الحديث وسيأتي بتمامه إن شاء اللَّه تعالىٰ[١].

وفي رواية قال أبو سعيد الخدري: «بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحدّ من السيف»[٢]. وفي رواية: «أرق من الشعر».

وحديث أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول اللَّه يقول: «يوضع الصراط بين ظهراني جهنم علىٰ حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس فناج مسلم، ومخدوج به، ثم ناج ومحتبس به ومنكوس فيها»[٣].

عن أبي الزعراء قال: قال عبد اللَّه: «يأمر اللَّه بالصراط فيضرب علىٰ جهنم. قال: فيمر الناس علىٰ قدر أعمالهم، أولهم كلمح البرق، ثم كمر الريح، ثم كأسرع البهائم، ثم كذلك حتىٰ يمر الرجل سعياً، وحتىٰ يمر الرجل ماشياً، ثم يكون آخرهم يتلبط علىٰ بطنه، يقول: يا رب لم أبطأت بي؟ فيقول: لم أبطء بك إنما أبطأ بك عملك»[٤].

فتفكّر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك علىٰ سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيّظها، وقد كلّفت أن تمشي علىٰ الصراط مع ضعف حالك، واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار، المانعة لك من المشي علىٰ بساط الأرض، فضلاً عن حدة الصراط. فكيف بك إذا وضعت عليه إحدىٰ رجليك فأحسست بحدته، واضطررت إلىٰ أن ترفع القدم الثاني، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكّسون

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨٣).

(٣) وراه أحمد (٣/ ١١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٠).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٨٩٩٢)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٦٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عاصم وقد وثق.

فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم، وتعلو أرجلهم. فيا له من منظر ما أفظعه، ومرتقى ما أصعبه، ومجاز ما أضيقه.

فتوهّم نفسك يا أخي إذا صرت على الصراط، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة، قد لظي سعيرها، وعلا لهيبها، وأنت تمشي أحياناً وتزحف أخرى.

أبتْ نفسي تتوبُ فما احتيالي ... إذا بَرَز العبادُ لذي الجلالِ
وقاموا من قبورهم سُكَارى ... بأوزارٍ كأمثالِ الجبالِ
وقد نُصِبَ الصراط لكي يجوزوا ... فمنهم من يكبّ على الشمالِ
ومنهم من يسير لدار عدْنٍ ... تلقّاه العرائسُ بالغوالي
يقول له المهيمن: يا وليي ... غفرتُ لك الذنوب فلا تُبالي

وقال آخر:

إذا مُـدّ الصراط على جحيم ... تصولُ على العصاة وتستطيلُ
فقومٌ في الجحيم لهم ثبورُ ... وقوم في الجنان لهم مقيلُ
وبانَ الحقّ وانكشف الغطاءُ ... وطالَ الويلُ واتّصلَ العويلُ

فصل: ذهب بعض من تكلم على أحاديث هذا الباب في وصف الصراط بأنه أدقّ من الشّعر وأحدّ من السّيف، أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدود ذلك إلّا اللّه تعالى لخفائها وغموضها. وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي: دقيق. فضرب المثل بدقة الشعر. فهذا واللّه أعلم من هذا الباب.

فصل: أحاديث هذا الباب تبين لك معنى الورود المذكور في القرآن في قوله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود على النار، والجهل بالصدر،

كان أبو ميسرة إذا أوىٰ إلىٰ فراشه يقول: ليت أمي لم تلدني، فتقول له امرأته: يا أبا ميسرة، إن اللَّه قد أحسن إليك وهداك إلىٰ الإسلام، قال: أجل، ولكن اللَّه قد بيّن لنا أنّا واردوا النار ولم يبيّن لنا أنّا صادرون(١).

وعن الحسن قال: قال رجل لأخيه: أي أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك إذاً؟ قال: فما رُئي ضاحكاً حتىٰ مات(٢).

وروي عن ابن عباس أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي: «أمّا أنا وأنت فلا بد أن نردها، فأمّا أنا فينجيني اللَّه منها، وأما أنت فما أظنه ينجيك»(٣).

عن قيس بن أبي عاصم قال: بكىٰ ابن رواحة فبكت امرأته، فقال لها: ما يبكيكِ؟ قالت: بكيت حين رأيتك تبكي. فقال عبد اللَّه: إني علمت أني وارد النار فما أدري أناج منها أم لا؟(٤) وفي معناه قيل:

وقَدْ أتانا ورُود النَّارِ ضاحية ... حقًا يقينًا، ولما يأتنا الصَّدرُ

* * *

٩٧ ـ باب ما جاء في شعار المؤمنين على الصراط

في صحيح مسلم: ونبيكم ﷺ قائم علىٰ الصراط يقول: «رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ». وقد تقدّم.

* * *

(١) أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٤١)، وابن المبارك في الزهد (٣١٢).
(٢) ابن المبارك في الزهد (٣١١).
(٣) عبد الرزاق في تفسيره (١٧٨٠).
(٤) رواه أحمد في الزهد (ص٢٠٠).

٩٨ ـ باب ثلاثة مواطن لا يخطئها النبي ﷺ لعظم الأمر فيها وشدته

عن أنس قال: سألت رسول اللَّه ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة. قال: «أنا فاعل إن شاء اللَّه». قال: فأين أطلبك؟ قال: «أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فإن لم ألقك؟ قال: فاطلبني عند الميزان. قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن»[1]. وقد تقدّم عن عائشة أنه عليه السلام قال: «أما ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان، وعند تطاير الصحف، وعند الصراط».

* * *

٩٩ ـ باب ذكر الصراط الثاني وهو القنطرة التي بين الجنة والنار

اعلم رحمك اللَّه أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم؛ ثقيلهم وخفيفهم، إلَّا من دخل الجنة بغير حساب، أو من يلتقطه عنق النار. فإذا خلص من خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه، ولا يخلص منه إلَّا المؤمنون الذين علم اللَّه منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم؛ حبسوا على صراط آخر خاص لهم. ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء اللَّه؛ لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم، الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه، وأربى على الحسنات بالقصاص جُرْمه.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي

(١) رواه أحمد (٣/ ١٧٨)، والترمذي في صفة القيامة (٣٤٣٣).

نفس محمد بيده لأحدهم أهدىٰ بمنزله في الجنة منه بمنزله كان له في الدنيا»[(١)].

فصل: قلت: معنىٰ «يخلص المؤمنون من النار» أي يخلصون من الصراط المضروب علىٰ النار، ودلّ هذا الحديث علىٰ أن المؤمنين في الآخرة مختلفو الحال. قال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا علىٰ قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتىٰ إذا هذبوا وطيبوا قال لهم «رضوان» وأصحابه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، بمعنىٰ التحية، ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

* * *

١٠٠ ـ باب من دخل النار من الموحدين مات واحترق ثم يخرجون بالشفاعة

عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال: [قال رسول اللّه ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فأماتهم اللّه إماتة حتىٰ إذا كانوا فحماً أُذن لهم في الشفاعة، فيجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثّوا علىٰ أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول اللّه ﷺ قد كان يرعىٰ الغنم بالبادية][(٢)].

فصل: هذه الموتة للعصاة موتة حقيقية؛ لأنه أكدها بالمصدر، وذلك تكريماً لهم حتىٰ لا يحسوا ألم العذاب بعد الاحتراق بخلاف الحي الذي هو من أهلها

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٥).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨٥). وقوله: «ضبائر ضبائر»: معناه: جماعات جماعات ـ بكسر الصاد ـ وهي الجماعات من الناس. و«بثوا»: فرّقوا. و«الحبة»: بكسر الحاء ـ بذر البقول. و«حميل السيل»: ما يحتمله من غثاء وطين.

ومخلد فيها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقيل: يجوز أن تكون إماتتهم عبارة عن تغييبه إياهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتاً على الحقيقة، فإن النوم قد يغيب عن كثير من الآلام والملاذ، وقد سمَّاه اللَّه موتاً. فقال اللَّه تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فهو وفاة ليس بموت على الحقيقة الذي هو خروج الروح عن البدن، وكذلك الصعقة قد عبَّر اللَّه بها عن الموت في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وأخبر عن موسى عليه السلام أنه خر صعقاً، ولم يكن ذلك موتاً على الحقيقة، غير أنه لما غيب عن أحوال المشاهدة من الملاذ والآلام جاز أن يسمى موتاً، وكذلك يجوز أن يكون أماتهم غيبهم عن الآلام وهم أحياء بلطيفة يحدثها اللَّه فيهم، كما غيب النسوة اللاتي قطّعن أيديهن بشاهد ظهر لهن فغيبهن فيه عن آلامهن، والتأويل الأول أصح لما ذكرناه من تأكيده بالمصدر، ولقوله في نفس الحديث: «حتى إذا كانوا فحماً» فهم أموات على الحقيقة، كما أن أهلها أحياء على الحقيقة وليسوا بأموات.

فإن قيل: فما معنى إدخالهم النار وهم فيها غير عالمين؟ قيل: يجوز أن يدخلهم تأديباً لهم وإن لم يعذبهم فيها، ويكون صرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبة لهم كالمسجونين في السجون، فإن الحبس عقوبة لهم، وإن لم يكن معه غل ولا قيد واللَّه أعلم. وسيأتي لهذا مزيد بيان في أبواب النار إن شاء اللَّه تعالى.

* * *

١٠١ ـ باب في الشافعين لمن دخل النار وذكر من يبقى في جهنم بعد ذلك

عن عبد اللَّه بن أبي الجدعاء أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم» قالوا: يا رسول اللَّه، سواك؟ قال: «سواي» قلت: أنت سمعته من رسول اللَّه ﷺ؟ قال: أنا سمعته[١].

قال المؤلف رحمه اللَّه: وخرّجه البيهقي في «دلائل النبوة»، وفي آخره قال عبد الوهاب الثقفي، قال هشام بن حيان: كان الحسن يقول: إنه أويس القرني[٢].

عن ثابت أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة»[٣].

فصل: إن قال قائل: كيف تكون الشفاعة لمن دخل النار، واللَّه تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦] ومن ارتضاه اللَّه لا يخزيه. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨] الآية؟ قلنا: هذا مذهب أهل الوعيد الذي ضلوا عن الطريق، وحادوا عن التحقيق.

وأما مذهب أهل السنة الذين جمعوا بين الكتاب والسنَّة، فإن الشفاعة تنفع العصاة من أهل الملّة، حتىٰ لا يبقىٰ منهم أحد إلَّا دخل الجنة. والجواب عن الآية

---

(١) رواه أحمد (١/ ٧٠، ٧١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٨)، وابن ماجة في الزهد (٤٣١٦).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٧٨).

(٣) رواه البزار (٣٤٧٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٢): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

الأولى ما قاله أنس بن مالك رضي اللَّه عنه: أن معنى ﴿مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ﴾ من يخلد. وقال قتادة: «يدخل» مقلوب «يخلد»، ولا تقول كما قال أهل حروراء. فيكون قوله على هذا ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ على بابه من الهلاك، أي أهلكته وأبعدته ومقته. وبهذا قال سعيد بن المسيب، فإن الآية جاءت خاصة في قوم لا يخرجون من النار. دليله قوله في آخر الآية: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي الكفار.

وإن قدَّرنا الآية في العصاة من الموحدين، فيحتمل أن يكون الخزي بمعنى الحياء. يقال: خزي يخزى خزاية إذا استحيى فهو خزيان وامرأة خزيانة كذا قال أهل المعاني. فخزي المؤمنين يومئذ: استحياؤهم في دخول النار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا منها. والخزي للكافرين هو هلاكهم فيها من غير موت، والمؤمنون يموتون، فافترقوا في الخزي والهوان، ثم يخرجون بشفاعة من أذن اللَّه له في الشفاعة، وبرحمة الرحمـٰن وشفاعته على ما يأتي في الباب بعد هذا، وعند ذلك يكونون مرضيين قد رضي عنهم، ثم لا يأتي الإذن في أحد حتى لا يبقى عليه من قصاص ذنبه إلَّا ما تجيزه الشفاعة فيؤذن فيه فيلحق بالفائزين الراضين، والحمد للَّه رب العالمين.

وأمّا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨] فمعناه: لا يعذبه ولا يعذب الذين آمنوا، وإن عذب العصاة وأماتهم فإنه يخرجهم بالشفاعة وبرحمته، على ما يأتي بيانه في الباب بعد هذا، واللَّه أعلم.

* * *

١٠٢ ـ باب منه في الشفعاء وذكر الجهنميين

عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ قال: «إن الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام: رب منعته الطعام والشراب والشهوات بالنهار

فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه. فيشفّعان»[١].

ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه، وفيه بعد قوله في نار جهنم: «حتىٰ إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة للّه تعالىٰ في استيفاء الحق من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار»[٢].

وخرّجه ابن ماجه ولفظه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «إذا خلّص اللّه المؤمنين من النار وأَمِنُوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا أشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار. قال: يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم علىٰ النار، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلىٰ نصف ساقه وإلىٰ ركبتيه، يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، ثم يقول اللّه عز وجل: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير أخرجوه. فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم مثال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً». وكان أبو سعيد الخدري رضي اللّه عنه يقول: «إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا ما شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]»[٣].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٧٤)، والحاكم (١/ ٥٥٤)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٦١)، وابن المبارك في زوائد الزهد (٣٨٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٨١): رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجال الطبراني رجال الصحيح. وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر علىٰ المسند (٦٦٢٦).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨٣).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٩٤)، والنسائي في الإيمان (٨/ ١١٢، ١١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٠).

فيقول اللَّه تعالىٰ: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين». في البخاري «وبقيت شفاعتي» بدل قوله «ولم يبق إلّا أرحم الراحمين»، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط عادوا حمماً فيلقيهم في نهر علىٰ أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة؛ فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل. ألَا ترونها تكون إلىٰ الحجر أو الشجر ما يكون إلىٰ الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلىٰ الظل يكون أبيض» قالوا: يا رسول اللَّه، كأنك كنت ترعىٰ بالبادية. قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة، وهؤلاء عتقاء اللَّه الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا. فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[(١)].

فصل: هذا الحديث بيّن أن الإيمان يزيد وينقص، فإن قوله: «أخرجوا من في قلبه مثقال دينار ونصف دينار وذرّة» يدل علىٰ ذلك، وقوله: «من خير» يريد من إيمان، وكذلك ما جاء ذكره في الخبر في حديث قتادة عن أنس: «وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ما يزن برة ما يزن ذرّة» أي من الإيمان بدليل الرواية الأخرىٰ التي فيها: «فأقول: يا رب أمتي أمتي» فيقال: «انطلق من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل». الحديث بطوله أخرجه مسلم؛ فقوله: «من إيمان» أي من أعمال الإيمان، التي هي أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالة علىٰ أن الأعمال الصالحة من شرائع الإيمان ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم.

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٩).

وقد قيل: إن المراد في هذا الحديث أعمال القلوب، كأنه يقول: أخرجوا من عمل عملاً بنيّة من قلبه، كقوله «الأعمال بالنيات»[١].

ويجوز أن يراد به: رحمة على مسلم، رقة على يتيم، خوفاً من اللَّه، رجاء له، توكلاً عليه، ثقة به، مما هي أفعال القلوب دون الجوارح، وسمّاها إيماناً لكونها في محل الإيمان.

والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلنا، ولم يرد مجرد الإيمان ـ الذي هو التوحيد له، ونفي الشركاء، والإخلاص بقول لا إلـه إلَّا اللَّه ـ ما في الحديث نفسه من قوله: «أخرجوا . . أخرجوا». ثم هو سبحانه بعد ذلك يقبض قبضة فيخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط، يريد إلَّا التوحيد المجرد عن الأعمال، وقد جاء هذا مبنياً في الزيادة التي في حديث الشفاعة: «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً قال: فيقال لي: محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إلـه إلَّا اللَّه. قال: ليس ذاك لك، أو قال: ليس ذلك إليك، وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبروتي لأخرجن من قال: لا إلـه إلَّا اللَّه . . ».

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين يريد اللَّه إخراجهم فتميتهم النار، ثم يخرجون منها فيلقون في نهر الحياة، فيرسل اللَّه عليهم من مائها، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ويدخلون الجنة؛ فيسميهم أهل الجنة: الجهنميين، فيدعون اللَّه تعالى فيذهب ذلك الاسم عنهم»[٢].

عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بعد ما مسهم منها سفع

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨٥). وقد مرّ في باب (٩٧) من دخل النار من الموحدين.

فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين»[١].

عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «ليخرجن قوم من النار بشفاعتي يسمون الجهنميين»[٢].

وعن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٣].

وخرّجه أبو داود الطيالسي وابن ماجه من حديث جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي». زاد الطيالسي قال: فقال لي جابر: مَنْ لم يكن من أهل الكبائر فما له وللشفاعة؟[٤].

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «خيِّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى. أترونها للمتقين؟ لا. ولكنها للخاطئين المذنبين المتلوثين»[٥].

عن عوف بن مالك الأشجعي يقول: قال رسول اللّه ﷺ: «أتدرون ما خيرني ربي الليلة؟ قلنا: اللّه ورسوله أعلم. قال: إنه خيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة. قلنا: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلنا من أهلها. قال: هي لكل مسلم»[٦].

فشفاعة النبي ﷺ والملائكة والنبيين والمؤمنين لِمَنْ كان له عمل زائد على مجرد

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥٩)، وفي التوحيد (٧٤٥٠).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٣٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٠)، والترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٠) وابن ماجه في الزهد (٤٣١٥).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٢١٣) وأبو داود في السنة (٤٧٣٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٥) وابن ماجه في الزهد (٤٣١٠) من حديث جابر.

(٤) رواه الطيالسي (١٦٦٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٣١٠).

(٥) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣١١).

(٦) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣١٧).

التصديق، ومَنْ لم يكن معه من الإيمان خير كان من الذين يتفضل اللَّه عليهم فيخرجهم من النار فضلاً وكرماً وعداً منه حقاً وكلمةً صدقاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فسبحان الرؤوف بعباده الموفي بعهده.

* * *

١٠٣ ـ باب معرفة المشفوع فيه بأثر السجود وبياض الوجوه

قد تقدّم من حديث أبي سعيد الخدري أن المؤمنين يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون أدخلتهم النار، فيقول لهم: اذهبوا فمن عرفتم أخرجوه. وذكر الحديث، وقد تقدّم.

ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ وفيه بعد قوله: «. . . حتىٰ إذا فرغ اللَّه من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك باللَّه شيئاً ممن أراد اللَّه أن يرحمه ممن يقول لا إلـٰه إلَّا اللَّه، فيعرفونهم في النار بأثر السجود؛ تأكل النار ابن آدم إلَّا أثر السجود، وحرَّم اللَّه علىٰ النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل السيل» وذكر الحديث، وقد تقدّم.

عن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن قوماً يخرجون من النار يحترقون فيها إلَّا دارات وجوههم حتىٰ يدخلوا الجنة»[1].

فصل: هذا الحديث أدلّ دليل علىٰ أن أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ لا تسوّد لهم وجوه، ولا تزرّق لهم أعين، ولا يغلّون؛ بخلاف الكفار.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣١٩ تحت ١٩١).

فصل: قوله «إذا فرغ اللّه» مشكل وفي التنزيل: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] ومعناه المبالغة في التهديد والوعيد من عند اللّه تعالى لعبادة كقول القائل: سأفرغ لك، وإن لم يكن مشغولاً عنه بشغل. وليس باللّه تعالى شغل، تعالى عن ذلك.

وقيل: المعنى: سنقصد لمجازاتكم وعقوبتكم، كما يقول القائل لمن يريد تهديده: إذاً أتفرغ لك، أي أقصد قصدك. وفرغ بمعنى قصد وأحكم. قال جرير ابن نمير الجعفي:

ألانَ وقد فرغت إلى نُمَيْرٍ ... فهذا حين كنت لها عذابا

يريد: وقد قصدت نحوه. فمعنى فرغ اللّه من القضاء بين العباد: أي تمم عليهم حسابهم وفصل بينهم؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن سبحانه وتعالى.

* * *

١٠٤ ـ باب ما يرجى من رحمة اللّه تعالى ومغفرته وعفوه يوم القيامة

قال الحسن: يقول اللّه تعالى يوم القيامة: «جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم».

وروي أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فقال الأعرابي: واللّه ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها، فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه.

وقال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في الموت فبكيت فقال: مهلاً، لِمَ تبكي؟ فواللّه ما من حديث سمعته من رسول اللّه ﷺ لكم فيه خير إلّا حدثتكموه إلّا حديثاً واحداً، وسوف أحدثكموه اليوم، وقد أحيط بنفسي. سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من شهد أن لا إلـه إلّا اللّه وأن محمّداً

رسول اللّٰه حرَّم اللّٰه عليه النار»[١].

من حديث سلمان الفارسي قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «إن اللّٰه تعالىٰ خلق يوم خلق السمٰوات والأرض مائة رحمة؛ كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فجعل في الأرض منها رحمة واحدة، فيها تعطف الوالدة علىٰ ولدها، والطير والوحوش بعضها علىٰ بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»[٢].

وعن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه أنه قال: قدم علىٰ رسول اللّٰه ﷺ بسبي، وإذا بامرأة من السبي تبتغي ولداً لها، إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول اللّٰه ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها؟» قلنا: لا واللّٰه وهي قادرة علىٰ أن لا تطرحه، فقال رسول اللّٰه ﷺ: «للّٰه أرحم بعباده من هذه بولدها»[٣].

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: يقول اللّٰه تعالىٰ: «أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام»[٤].

* * *

١٠٥ - باب حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات

عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «حفّت الجنّة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٥].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٢٣)، ومسلم في الإيمان (٢٩).

(٢) رواه مسلم في التوبة (٢١ تحت ٢٧٥٣). وقد ورد من حديث أبي هريرة: رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٢).

(٣) رواه البخاري في الأدب (٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٤).

(٤) رواه أحمد (٣/ ٢٧٦)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٩٤) وقال: حديث حسن غريب.

(٥) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٨٧)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٢).

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما خلق اللَّه الجنة أرسل جبريل إلىٰ الجنة فقال: انظر إليها وإلىٰ ما أعددت لأهلها فيها. قال: فجاءها ونظر إليها وإلىٰ ما أعد اللَّه لأهلها فيها. قال: فرجع إليه وقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلَّا دخلها. قال: فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال: فارجع إليها فانظر إلىٰ ما أعددت لأهلها فيها. قال: فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلىٰ النار فانظر إليها وإلىٰ ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت ألَّا يسمع بها أحد فيدخلها؛ فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألَّا ينجو منها أحد إلَّا دخلها»[1].

فصل: المكاره: كل ما يشق علىٰ النفس ويصعب عليها عمله كالطهارة في السَّبَرَات[2] وغيرها من أعمال الطاعات، والصبر علىٰ المصائب، وجميع المكروهات. والشهوات: كل ما يوافق النفس ويلائمها وتدعو إليه ويوافقها وحُفّت: أصل الحفاف الدائر بالشيء المحيط به، الذي لا يتوصل إليه إلَّا بعد أن يتخطىٰ، فمثّل ﷺ المكاره والشهوات بذلك، فالجنة لا تنال إلَّا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها، والنار لا ينجو منها إلَّا بترك الشهوات وفطام النفس عنها.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ومعنىٰ قوله عليه السلام: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» أي جعلت علىٰ حافاتها وهي جوانبها ويتوهم الناس أنه ضرب فيها المثل فجعله في جوانبها من الخارج، ولو كان ذلك ما كان مثلاً صحيحاً، وإنما هي من داخل وهذه صورتها:

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٣٢، ٣٧٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٤)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩). والنسائي في الأيمان والنذور (٧/ ٣، ٤).

(٢) السبرات: جمع سبرة، وهي الغداة الباردة.

الجنـة

الصبر	الألـم
المكاره	الغـزو

النـار

الجاه	المال	النساء

وعن هذا قال ابن مسعود: «حفت الجنة بالمكاره والنار حفت بالشهوات». فمن اطلع الحجاب فقد واقع ما وراءه، وكل من تصورها من خارج فقد ضلّ عن معنىٰ الحديث وعن حقيقة الحال. فإن قيل: فقد حجبت النار بالشهوات. قلنا: المعنىٰ واحد؛ لأن الأعمىٰ عن التقوىٰ: الذي أخذت سمعه وبصره الشهوات يراها ولا يرىٰ النار التي هي فيها، وإن كانت باستيلاء الجهالة ورين الغفلة علىٰ قلبه، كالطائر يرىٰ الحبة في داخل الفخ وهي محجوبة عنه ولا يرىٰ الفخ لغلبة شهوة الحبة علىٰ قلبه وتعلق باله بها، وجهله بما جعلت فيه وحجبت.

* * *

١٠٦ ـ باب احتجاج الجنة والنار وصفة أهلهما

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت هذه: يَدخلني الجبارون والمتكبرون. وقالت هذه: يَدخلني الضعفاء والمساكين، فقال اللّه لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»[(١)].

المساكين: فالمراد بهم المتواضعون، وهم المشار إليهم في قوله عليه السلام: «اللّهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»[(٢)]. ولقد أحسن من قال:

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٨٥٠)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٦).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٥٢) عن حديث أنس، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٦) من حديث أبي سعيد. وهو حديث حسن بمجموع طرقه.

إذا أردت شريفَ النَّاسِ كلهم فانظر إلىٰ ملك في زي مسكين
ذاك الذي عظمت في اللَّه رغبته وذاك يصلح للدنيا وللدِّين

ومعنىٰ «تحاجّت الجنة والنار»: أي حاجّت كل واحدة صاحبتها وخاصمتها، وسيأتي بيانه عند قوله عليه السلام: «اشتكت النار إلىٰ ربها»[١].

* * *

١٠٧ ـ باب منه في صفة أهل الجنة وأهل النار وفي شرار الناس مَنْ هم؟

عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول اللَّه ﷺ قال يوماً في خطبته: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربىٰ ومسلم، وعفيف ضعيف متضعف ذو عيال، قال: «وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْر له، الذين هم فيكم تبع، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفىٰ له طمع وإن دق إلَّا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلَّا وهو يخادعك عن أهلك ومالك» ـ وذكر البخل والكذب ـ «والشنظير الفحاش»[٢].

وعن حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم علىٰ اللَّه لأبرَّ قسمه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»[٣]. وفي رواية: «زنيم متكبر».

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري»[٤] قال: والجواظ: الغليظ الفظ.

وعن أنس قال: (مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيراً؛ فقال رسول اللَّه ﷺ وجبت وجبت وجبت، ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شراً، فقال رسول اللَّه ﷺ: وجبت

---

(١) سيأتي ذلك في باب منه وما جاء في شكوىٰ النار وكلامها.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥).

(٣) رواه البخاري في التفسير (٤٩١٨)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٥٣).

(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٢٧) وأبو داود في الأيمان (٤٨٥١).

وجبت وجبت. فقال عمر: فداك أبي وأمي مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيراً فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شرّاً فقلت: وجبت وجبت وجبت، فقال رسول اللّه ﷺ: «من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرّاً وجبت له النار. أنتم شهداء اللّه في الأرض» قالها ثلاثاً(١).

فصل: قوله «ذو سلطان مقسط» وما بعده مرفوع على أنها صفات لذو، وهي بمعنى صاحب. والمقسط: العادل، والمتصدق: المعطي الصدقات، والموفَّق: المسدَّد لفعل الخيرات. ورقيق القلب: لينه عند التذكر والموعظة، ويصلح أن يكون بمعنى الشفيق.

وقوله: «ضعيف متضعف» يعني ضعيف في أمورالدنيا قوي في أمر دينه كما قال عليه السلام: «المؤمن القوي أحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير» الحديث خرّجه مسلم(٢).

أمّا من كان ضعيفاً في أمور دينه لا يعني بها فمذموم، وذلك من صفات أهل النار كما قال: «وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبر له» أي لا عقل له، ومن لا عقل له ينفك به عن المفاسد، ولا ينزجر به عنها؛ فحسبك به ضعفاً وخسارة في الدين، وقد قيل في الزبر: إنه المال، وليس بشيء؛ لأن النبي ﷺ فسّر ذلك بقوله: «الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلاً ولا مالاً». فيعني بذلك أن هؤلاء ضعفاء العقول فلا يسعون في تحصيل مصلحة دنيوية ولا فضيلة نفسية ولا دينية، بل يهملون أنفسهم إهمال الأنعام، ولا يبالون بما يثبون عليه من الحلال والحرام. وقد قال مطرف بن عبد اللّه بن الشخير راوي الحديث: (واللّه لقد أدركتهم في الجاهلية وإن الرجل ليرعى على الحي ما به إلّا وليدتهم يطاولها).

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٧)، ومسلم في الجنائز (٩٤٩).
(٢) رواه مسلم في كتاب القدر (٢٦٦٤).

و«يخفىٰ» بمعنىٰ يظهر، وهو من الأضداد.

وقوله: «وذكر البخل والكذب» هكذا الرواية المشهورة ـ بالواو الجامعة ـ «والكذب»، وقد رواه ابن أبي جعفر عن الطبراني بأو التي للشك قاله القاضي عياض، ولعله الصواب وبه تصح القسمة؛ لأنه ذكر أن أصحاب النار خمسة: الضعيف الذي وصفه، والخائن الذي وصف، والرجل المخادع الذي وصف[1].

قال: وذكر البخل والكذب، ثم ذكر الشنظير والفحاش؛ فرأىٰ هذا القائل أن الرابع هو أحد الصنفين، وقد يحتمل أن يكون الرابع قد جمعهما علىٰ رواية وَاو العطف كما جمعهما في الشنظير الفحاش.

وقوله: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربىٰ ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»[2].

قال القاضي عياض: كذا قيدناه بخفض مسلم عطفاً علىٰ ما قبله، وفي رواية أخرىٰ: ومسلم عفيف بالرفع وحذف الواو شيخنا. انتهىٰ كلام القاضي عياض رحمه اللّٰه.

والعفيف: الكثير العفة؛ وهي الانكفاف عن الفواحش وعن ما لا يليق. والمتعفف: المتكلف العفة. والشنظير: السيئ الخلق، ويقال شنظيرة أيضاً. قاله الجوهري، وأنشد قول أعرابية:

شنظيرة زوجنيه أهلي ... من حمقه يحسب رأسي رجلي

* كأنه لم ير أنثىٰ قبلي *

وربما قالوا: شنذيرة بالذال المعجمة، لقربها من الظاء لغة أو لثغة.

---

(١) الذي في صحيح مسلم: «البخل أو الكذب».

(٢) «وعفيف متعفف ذو عيال»: هذا هو الموافق لما في صحيح مسلم، ولكن النص الذي مرّ في صدر الباب فيه: «وعفيف ضعيف متضعف ذو عيال».

والفحاش: الكثير الفحش، وقيل الشنظير: هو الفحاش. قال صاحب العين: يقال: شنظر بالقوم إذا شتم أعراضهم، والشنظير: الفحاش من الرجال القلق، وكذلك من الإبل. والجواظ: الجموع المنوع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١٨].

وقيل: الجواظ الكثير اللحم المختال. وقيل: هو الجافي القلب. والعتل: قيل: الجافي الشديد الخصومة. وقيل: هو الأكول الشروب الظلوم.

قال المؤلف: ويقال: إنه الفظ الغليظ الذي لا ينقاد لخير. والجعظري: الفظ الغليظ القصير. والزنيم: المعروف بالشر. وقيل: اللئيم، وأما الزنيم المذكور في القرآن فرجل معين له زنمة كزنمة التيس. وقيل: هو الوليد، وكان له زنمة تحت أذنه. وقيل: هو الملصق بالقوم. وقيل: هو الأخنس بن شريق.

وقوله عليه السلام: «من أثنيتم عليه شراً وجبت له النار» يعارضه قوله عليه السلام: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلىٰ ما قدموا»[١].

والثناء بالشر: سبّ. فقيل ذلك خاص بالمنافقين الذين شهدت الصحابة فيهم بما ظهر لهم، ولذلك قال عليه السلام: «وجبت له النار». والمسلم لا تجب له النار. وقيل: ذلك جائز فيمن كان يظهر الشر ويعلن به، فيكون ذلك من باب لا غيبة لفاسق. وقيل: إن النهي إنما هو بعد الدفن، وأما قبله فممنوع؛ لقوله عليه السلام: «لا تسبوا الأموات»، فالنهي عن سبّ الأموات متأخر فيكون ناسخاً، والله أعلم.

وقوله: «أنتم شهداء الله في الأرض» معناه عند الفقهاء: إذا أثنىٰ عليه أهل الفضل والصدق والعدالة؛ لأن الفسقة قد يثنون علىٰ الفاسق فلا يدخل في الحديث، وكذلك لو كان القائل فيه عدواً له ـ وإن كان فاضلاً ـ لأن شهادته في

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٣)، وفي الرقاق (٦٥١٦).

حياته لو كانت عليه كانت غير مقبولة، وكذلك الحكم في الآخرة، والله أعلم.

وقيل: إن تكرار: «أنتم شهداء الله في الأرض» ثلاثاً؛ إشارة إلى القرون الثلاثة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»(١).

قلت: الأول أصح؛ لأن الله تعالى مدح هذه الأمة بالفضل والعدالة إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني في الآخرة كما تقدّم، فلا يشهد إلّا العدول.

عن أنس قال: «مُرّ على النبي ﷺ بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال: وجبت. ثم مرّ عليه بأخرى فأثنوا عليها شرّاً، أو قال غير ذلك، فقال: وجبت. فقيل: يا رسول الله قلت لهذا وجبت ولهذا وجبت. فقال: المؤمنون شهداء الله في الأرض»(٢).

عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة. قلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة. فقلنا: واثنان؟ قال: واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد»(٣). قال أبو محمد عبد الحق: وهذا الحديث مخصوص والله أعلم. والذي قبله يعطي العموم وإن كثرت شهوده وانطلقت ألسنة المسلمين فيه بالخير والثناء الصالح كانت له الجنة، والله أعلم

قال المؤلف رحمه الله: ومن هذا المعنى ما ذكر عن عبد الله بن السائب قال: «مرّت جنازة بعبد الله بن مسعود فقال لرجل: قم فانظر من أهل الجنة هو أم من

---

(١) حديث ابن مسعود: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، وحديث عمران بن حصين: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥).

(٢) مرّ تخريجه قريباً.

(٣) رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٨)، وفي الشهادات (٢٦٤٣).

أهل النار؟ قال الرجل: ما يدريني أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار؟ وكيف أنظر؟ قال: ثناء الناس عليه؛ فإنهم شهداء اللّه في الأرض»[١]. قال أبو محمد: وغير مستنكر إذا أحب اللّه عبداً أمر أن يلقى على ألسنة المسلمين الثناء عليه وفي قلوبهم المحبة له، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

وقال عليه السلام: «إذا أحبّ اللّه عبداً قال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن اللّه يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء ثم يُوضع له القبول في الأرض، وذكر في البغضاء مثل ذلك»[٢]. قال أبو محمد عبد الحق: وقد شوهد رجال من المسلمين علماء صالحون كثر الثناء عليهم، وصرفت القلوب إليهم في حياتهم وبعد مماتهم، ومنهم مَنْ كثر المشيعون لجنازته، وكثر الحاملون لها، والمشتغلون بها.

* * *

باب منه في صفة أهل الجنة وأهل النار

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[٣].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير»[٤].

(١) رواه هناد في الزهد (٣٧٠) بسند صحيح.

(٢) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٨٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢١٢٨).

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢٨٤٠).

فصل: للعلماء في تأويل هذا الحديث وجهان:

أحدهما: أنها مثلها في الخوف والهيبة، والطير أكثر الحيوانات خوفاً؛ حتى قالوا: (أحذر من الغراب). وقد غلب الخوف على كثير من السلف حتى انصدعت قلوبهم فماتوا.

الثاني: أنه مثْلها في الضعف والرقة، كما جاء في الحديث الآخر في أهل اليمن: «هم أرق قلوباً وأضعف أفئدة»[١].

قلت: ويحتمل وجهاً ثالثاً أنها مثلها خالية من كل ذنب، سليمة من كل عيب، لا خبرة لهم بأمور الدنيا.

قلت: ونظير ما ذكرناه وما قاله هؤلاء الأئمة من الكتاب قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] وقوله عليه السلام وقد سئل أي الناس أفضل؟ قال: «الصادق اللسان المخموم القلب» قالوا: أما الصادق اللسان فقد عرفناه، فما المخموم القلب؟ قال: «النقي الذي لا غل فيه ولا حسد»[٢]. والعرب تقول: خممت البيت، أي كنسته، ومنه سميت «الخمامة» وهي مثل القمامة والكناسة.

فصل: قال الحافظ ابن دحية أبو الخطاب: قوله «صنفان من أهل النار لم أرهما» الصنف ـ فيما ذكر عن الخليل ـ: الطائفة من كل شيء. والسوط في اللغة: اسم للعذاب وإن لم يكن له ثم ضرب. قاله الفراء. وقال ابن فارس في المجمل: السوط من العذاب النصيب، والسوط: خلط الشيء بعضه ببعض؛ وإنما سمي سوطاً لمخالطته. وإنما أراد النبي ﷺ عظم السياط وخروجها عن حد ما يجوز به الضرب في التأديب، وهذه الصفة للسياط مشاهدة عندنا بالمغرب إلى الآن وغيره.

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٣٨٨)، ومسلم في الإيمان (٥٢).

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٦).

وقوله: «نساء كاسيات عاريات» يعني أنهن: كاسيات من الثياب، عاريات من الدين؛ لانكشافهن وإبدائهن بعض محاسنهن. وقيل: كاسيات ثياباً رقاقاً يظهر ما خلفها وما تحتها؛ فهن كاسيات في الظاهر، عاريات في الحقيقة. وقيل: كاسيات في الدنيا بأنواع الزينة من الحرام وما لا يجوز لبسه، عاريات يوم القيامة.

ثم قال عليه السلام: «مائلات مميلات» قيل: معناه زائغات عن طاعة اللّٰه تعالىٰ، وطاعة الأزواج، وما يلزمهن من صيانة الفروج، والتستر عن الأجانب، و«مميلات»: يعلمن غيرهن الدخول في مثل فعلهن. وقيل: «مائلات»: متبخترات في مشيهن، «مميلات»: يملن رؤوسهن وأعطافهن من الخيلاء والتبختر، ومميلات لقلوب الرجال إليهن لما يبدين من زينتهن وطيب رائحتهن. وقيل: يتمشطن (الميلاء) وهي مشطة البغايا، والمميلات: اللواتي يمشطن غيرهن المشطة الميلاء. قال ﷺ: «رؤوسهن كأسنمة البخت» معناه يعظمن رؤوسهن بالخُمر والمقانع ويجعلن علىٰ رؤوسهن شيئاً.

* * *

١٠٨ ـ باب ما جاء في أكثر أهل الجنة وأكثر أهل النار

عن أسامة بن زيد قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «قمت علىٰ باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين، وإذا أصحاب الجَدِّ محبوسون إلَّا أصحاب النار فقد أمر بهم إلىٰ النار، وقمت علىٰ باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»(١).

ومن حديث ابن عباس في حديث كسوف الشمس: «ورأيت النار؛ فلم أر منظراً كاليوم قط، ورأيت أكثر أهلها النساء. قالوا: بم يا رسول اللّٰه؟ قال: بكفرهن، قيل: أيكفرن باللّٰه؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان؛ لو أحسنت إلىٰ إحداهن الدهر كله ثم رأت منك ما تكره قالت: ما رأيت منك خيراً قط»(٢).

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٤٧)، ومسلم في كتاب الذكر (٢٧٣٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الكسوف (١٠٥٢)، ومسلم في الكسوف (٩٠٧).

وعن عمران بن حصين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أقل ساكني الجنة النساء»[١].

فصل: قال علماؤنا: إنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوىٰ، والميل إلىٰ عاجل زينة الدنيا؛ لنقصان عقولهن أن تنفذن بصائرها إلى الأخرىٰ، فيضعفن عن عمل الآخرة والتأهب لها، ولميلهن إلىٰ الدنيا والتزين بها ولها، ثم مع ذلك هن أقوىٰ أسباب الدنيا التي تصرف الرجال عن الآخرة؛ لما لهم فيهن من الهوىٰ والميل لهن. فأكثرهن معرضات عن الأخرىٰ بأنفسهن، صارفات عنها لغيرهن. سريعات الانخداع لداعيهن من المعرضين عن الدين. عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلىٰ الأخرىٰ وأعمالها من المتقين[٢].

ومن كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه: أيها الناس لا تطيعوا للنساء أمرًا، ولا تأمنوهن علىٰ مال، ولاتدعوهن يدبّرن أمر عشير، فإنهن إن تُركن وما يُردن أفسدن الملك، وعصين المالك. وجدناهن لا دين لهن في خلواتهن، ولا ورع لهن عند شهواتهن ـ إلَّا من رحم ربك ـ، واللذة بهن يسيرة، والحيرة بهن كثيرة. فيهن ثلاث خصال من اليهود: يتظلمن وهن ظالمات، ويحلفن وهن كاذبات، ويتمنعن وهن راغبات، فاستعيذوا باللَّه من شرارهن، وكونوا علىٰ حذر من خيارهن. والسلام.

وقال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء»[٣] وسيأتي.

وقال: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل الحازم من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر (٢٧٣٧).

(٢) رحم اللَّه الإمام القرطبي الذي قال هذا الكلام في زمانه، فكيف لو رأىٰ نساء هذا الزمان وما يفعله بهن دعاة الإباحية باسم تحرير المرأة؟!

(٣) رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠).

إحداكن يا معشر النساء»[1]. وهو معنىٰ قوله عليه السلام في الحديث المتقدّم: «مائلات مميلات». قال الحافظ ابن دحية: تحفظوا عباد اللَّه منهن، وتجنبوا غيهن، ولا تثقوا بودّهن ولا عهدهن، ففي نقصان عقولهن ودينهن ما يغني عن الإطناب فيهن.

* * *

بـــاب منـــه

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة لَّا من يأبىٰ. قيل: ومَنْ يأبىٰ يا رسول اللَّه؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبىٰ»[2].

* * *

بـــاب

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ويل للأمناء وويل للعرفاء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملاً»[3].

قال علماؤنا: العريف هنا: القيم بأمر القبيلة والمحلة؛ يلي أمورهم، ويتعرف أخبارهم، ويعرف الأمير منه أحوالهم. ومعناه التحذير من الرئاسة والتأمّر علىٰ الناس لما فيه من الفتنة، واللَّه أعلم. وفي الصحيح في قصة هوازن: «فارجعوا حتىٰ يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»[4].

---

(١) رواه البخاري في الحيض (٣٠٤) من حديث أبي سعيد، ومسلم في الإيمان (٧٩) من حديث أبي هريرة، وبرقم (٨٠) من حديث أبي سعيد.

(٢) رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٠).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٥٢)، والطيالسي (٢٥٢٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٦٦٠)، والحاكم (٤/ ٩١) وغيرهم. وهو حديث حسن.

(٤) رواه البخاري في المغازي (٤٣١٨)، (٤٣١٩).

١٠٩ ـ باب لا يدخل الجنة صاحب مكس ولا قاطع رحم

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦] نزلت في المكّاسين والعشارين في قول بعض العلماء، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣] الآية.

عن جبير بن مطعم، عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع» قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطع رحم[1].

عن عقبة بن عامر رضي اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة صاحب مكس»[2].

فصل: قال علماؤنا: صاحب المكس هو الذي يعشر أموال الناس ويأخذ من التجار والمختلفين ما لا يجب عليهم إذا مروا به مكساً باسم العشر أو الزكاة، وليس هو الساعي الذي يأخذ الصدقات والحق الواجب للفقراء[3]. وقد قلنا: إن التبديل إذا كان في الأعمال وليس في العقائد صاحبه في المشيئة، وإن عذب، فإنه يخرج بالشفاعة على ما تقدّم، وهكذا القول في أهل الكبائر المتوعد عليها بالنار واللعنة؛ يخرجون بالشفاعة إذا ارتكبوها على غير وجه الاستحلال.

* * *

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٦).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٣، ١٥٠)، وأبو داود في الإمارة (٢٩٣٧)، والدارمي في سننه في كتاب الزكاة (١٦٢٠). وهو حديث حسن.

(٣) المكوس والعشور: من صورها ما يعرف في العصر الراهن باسم «الضرائب» و«الجمارك». وخلاصتها أنها أكل لأموال الناس بالباطل. جاء في المنجد الأبجدي: «الجمرك: ما يؤخذ من رسوم على البضائع الداخلة والخارجة. ومكان استيفاء هذه الرسوم. وهي فارسية عربيّها: مكْس، وما يُدفع عن البضائع في الجمرك: المكْس».

١١٠ ـ باب ما جاء في أوَّل مَنْ تُسعَّر بهم جهنَّم

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضىٰ عليه يوم القيامة: رجل استُشهد، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقد قرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل وسّع اللَّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلّا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل. ثم أمر فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار». خرّجه أبو عيسىٰ الترمذي بمعناه وقال في آخره: ثم ضرب رسول اللَّه ﷺ علىٰ ركبتي، فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق اللَّه تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة»(١).

* * *

١١١ ـ باب فيمن يدخل الجنة بغير حساب

عن عمران بن حصين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب» قالوا: مَنْ هم يا رسول اللَّه؟ قال: «هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلىٰ ربهم يتوكلون»(٢).

عن أبي أمامة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «وعدني ربي أن يدخل

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٩٠٥)، والترمذي بنحوه في كتاب الزهد (٢٣٨٢).

(٢) رواه البخاري في الطب (٥٧٠٥)، ومسلم في الإيمان (٢١٨).

الجنة من أمتي سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات ربي»(١).

فصل: لا تظن أن من استرقى واكتوى لا يدخل الجنة بغير حساب، فإن النبي ﷺ رقى نفسه، وأمر بالرقى، وكذلك كوى أصحابَه ونفسَه فيما ذكر الطبري وغيره، فمحمل نهي النبي ﷺ عن رُقًى مخصوصة؛ بدليل قول رسول اللَّه ﷺ لآل عمرو بن حزم: «اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»(٢). وكذلك الكي الذي لا يوجد عنه غنى؛ فمن فعله في محله وعلى شرطه لم يكن ذلك مكروهاً في حقه، ولا منقصاً له من فضله، ويجوز أن يكون من السبعين ألفاً.

واختلفت الرواية في الكي، فروي أن النبي ﷺ اكتوى من الكَلَم ـ أي الجرح ـ الذي أصابه في وجهه يوم أُحُد، وكوى سعد بن زرارة من الشوكة، وكوى سعد ابن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمـٰن، وأُبي بن كعب المخصوص بأنه أَقْـرَأ الأمَّة للقرآن، وقد اكتوى عمران بن حصين، وقطع رجله عروة بن الزبير، فمن اعتقد أن هؤلاء لا يصلحون أن يكونوا من السبعين ألفاً ففساد كلامه لا يخفى.

* * *

باب منه

عن ابن عباس قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، ليقم الحامدون للَّه تعالى على كل حال، فيقومون فيسرحون إلى الجنة، ثم ينادي ثانية: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، ليقم الذين كانت

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٨)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب السلام (٢٢٠٠)

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] قال: فيقومون فيسرحون إلىٰ الجنة. قال: ثم ينادي ثالثة: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، ليقم الذين كانوا ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] الآية. فيسرحون إلىٰ الجنة»(١).

* * *

١١٢ ـ باب أمّة محمد ﷺ شطر أهل الجنة وأكثر

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يقول اللّه تبارك وتعالىٰ: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير بين يديك. قال: فيقول: أخرج بعث النار من ولدك، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون. قال: فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حَملها، وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ، ولكن عذاب اللّه شديد»، قال: فاشتد ذلك عليهم. قالوا: يا رسول اللّه، أينا ذلك الرجل؟ قال: «أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم واحد، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة» فحمدنا اللّه وكبّرنا، ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فحمدنا اللّه وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة. إنَّ مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الدابة»(٢).

وعن عبد اللّه بن مسعود وفيه: فقال رسول اللّه ﷺ: «أهل الجنة يوم القيامة

---

(١) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦١) وأوله: «إذا كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم . . .». وهو صحيح موقوفاً علىٰ ابن عباس. وقد مرّ بعضه.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨)، وفي التفسير (٤٧٤١)، وفي الرقاق (٦٥٣٠)، وفي التوحيد (٧٤٨٣)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢).

عشرون ومائة صف، أنتم منها ثمانون صفاً»(١).

وعن بريدة بن حصيب قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف؛ ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»(٢).

وقول الصحابة رضوان اللّه عليهم: «أينا ذلك الرجل» يريدون من الواحد الذي لا يدخل النار؛ توهماً منهم أن القضية واردة فيهم، فقال ﷺ: «إن من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم رجلاً». وأطلق لفظ البشارة، وبيّن أن الألف كلها في النار لكن من غير هذه الأمة المحمدية، ومن هذه الأمة واحد في الجنة على ما يقتضيه ظاهر هذا اللفظ.

* * *

١١٣ ـ باب في ذكر أبواب جهنم وما جاء فيها وفي أهوالها وأسمائها ـ أجارنا اللّه منها برحمته وفضله إنه ولي ذلك والقادر عليه

ذكر اللّه عز وجل النار في كتابه، ووصفها على لسان نبيه ﷺ، ونعتها فقال عز من قائل: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥، ١٦] الشوى: جمع شواة وهي جلدة الرأس، وقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٧ ـ ٢٩] أي: مغيّرة. يقال: لاحته الشمس ولوحته إذا غيّرته. وقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]. وقال: ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤] أي ليرمين فيها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: ٥] الآية. وقال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦]. وقال: ﴿وَإِذَا

(١) رواه أحمد (١/ ٤٥٣). وله طرق أخرى يتقوى بها. وانظر التالي.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٤٧، ٣٥٥)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٩) وغيرهم.

الجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢] أي أوقدت وأضرمت. وقال: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١٠] الآية. وقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦] الآية. وقال: ﴿إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] فأوعد بها الكافرين، وخوّف الطغاة والمتمردين، والعصاة من الموحدين؛ لينزجروا عما نهاهم عنه، فقال وقوله الحق: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١٠]. وقال: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦]. والآي في هذا المعنى كثير، والله تعالى أعلم.

* * *

١١٤ ـ باب ما جاء فيمن سأل الله الجنة واستجار به من النار

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللَّهم أدخله الجنة. ومَنْ استجار بالله من النار ثلاث مرات قالت النار: اللَّهم أجره من النار»(١).

* * *

١١٥ ـ باب في ما تقرر من الكتاب والسنَّة

تقرر من الكتاب والسنة: أن الأعمال الصالحة والإخلاص فيها مع الإيمان موصلة إلى الجنان، ومباعدة عن النيران، وذلك يكثر إيراده والقطع به مع الموافاة على ذلك بما يغني عن ذكر ذلك، ويكفيك الآن من ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يصوم يوماً في سبيل

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١١٧، ١٤١، ١٥١، ٢٦٢)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٧٢)، والنسائي في الاستعاذة (٨/ ٢٧٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٤٠).

اللَّه إلَّا باعد اللَّه بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً»[١].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صام يوماً في سبيل اللَّه زحزح اللَّه وجهه عن النار سبعين خريفاً»[٢].

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل»[٣].

* * *

١١٦ ـ باب ما جاء في جهنم، وأنها أدراك، ولِمَنْ هي؟

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] فالنار دركات سبعة؛ أي طبقات ومنازل، وإنما قال: أدراك ولم يقل درجات لاستعمال العرب لكل ما تسافل «درك»، ولما تعالىٰ «درج»، فيقول للجنة درج، وللنار درك، فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار، وهي الهاوية؛ لغلظ كفرهم، وكثرة غوائلهم، وتمكنهم من أذىٰ المؤمنين.

عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: توابيت من حديد تصمت عليهم في أسفل النار[٤].

وعن حطان بن عبد اللَّه الرقاشي يقول: سمعت علياً يقول: هل تدرون كيف أبواب جهنم؟ قال: قلت: هي مثل أبوابنا هذه؟ قال: لا، بل هي هكذا بعضها فوق بعض[٥].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٤٠)، ومسلم في الصيام (١١٥٣).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٠٠، ٣٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٢)، والنسائي في الصيام (٤/ ١٧٢)، وابن ماجه في الصيام (١٧١٨).

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٩)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦).

(٤) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٠٠).

(٥) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٢٩٤).

وقال العلماء: أعلىٰ الدركات جهنم، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ، وهي التي تخلو من أهلها فتصفق الرياح أبوابها، ثم لظىٰ، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد يقال للدركات: درجات لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢، الأحقاف: ١٩].

ووقع في كتاب «الزهد والرقائق» أسماء هذه الطبقات، وأسماء أهلها من أهل الأديان، علىٰ ترتيب لم يرد في أثر صحيح. ثم من هذه الأسماء ما هو اسم علم للنار كلها بجملتها، نحو: جهنم، وسقر، ولظىٰ، وسموم. فهذه أعلام ليست لباب دون باب فاعلم ذلك. وفي التنزيل: ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] يريد النار بجملتها، كما ذكرنا. أجارنا اللَّه منها بمنه وكرمه آمين.

* * *

١١٧ ـ باب في قول اللَّه تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾

قال اللَّه تعالىٰ في محكم كتابه: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: ٤٤]، وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

* * *

باب منه
وفي بعد أبواب جهنم بعضها عن بعض
وما أعد اللَّه تعالى فيها من العذاب

ذكر عن بعض أهل العلم في قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] قال: من الكفار، والمنافقين، والشياطين. وبين الباب والباب خمسمائة عام.

فالباب الأول: يسمىٰ جهنم؛ لأنه يتجهم في وجوه الرجال والنساء فيأكل

لحومهم، وهو أهون عذاباً من غيره.

والباب الثاني: يقال له ﴿لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ﴾. يقول: أكله اليدان والرجلان. ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن التوحيد، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عمّا جاء به محمد ﷺ.

والباب الثالث: يقال له سقر، وإنما سمي سقر لأنه يأكل اللحم دون العظم.

الباب الرابع: يقال لها الحطمة، فقد قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٥، ٦] تحطم العظام وتحرق الأفئدة، قال اللّه تعالىٰ: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧] تأخذه النار من قدميه، وتطلع علىٰ فؤاده، وترمي بشرر كالقصر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣] الآية: يعني سوداً فتطلع الشرر إلىٰ السماء ثم تنزل فتحرق وجوههم وأيديهم وأبدانهم فيبكون الدمع حتىٰ ينفد، ثم يبكون الدماء، ثم يبكون القيح حتىٰ ينفد القيح.

والباب الخامس: يقال له الجحيم، وإنما سمي جحيماً لأنه عظيم الجمرة، الجمرة الواحدة أعظم من الدنيا.

والباب السادس: يقال له الهاوية؛ من وقع فيه لم يخرج منه أبدًا، وفيه بئر الهبهاب، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] إذا فتح الهبهاب يخرج منه نار تستعيذ منه النار، وفيه الذين قال اللّه تعالىٰ: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] أو هو جبل من نار يوضع أعداء اللّه علىٰ وجوههم علىٰ ذلك الجبل، مغلولة أيديهم إلىٰ أعناقهم، مجموعة أعناقهم إلىٰ أقدامهم، والزبانية وقوف علىٰ رؤوسهم، بأيديهم مقامع من حديد، إذا ضُرب أحدهم بالمقمعة ضربة سَمع صوتها الثَّقلان.

وأبواب النار: حديد. فرشها: الشوك. غشاوتها: الظلمة. أرضها: نحاس ورصاص وزجاج. النار من فوقهم، والنار من تحتهم، ولهم من فوقهم ظلل من

النار ومن تحتهم ظلل، أُوقد عليها ألف عام حتىٰ احمّرت، وألف عام حتىٰ ابيضت، وألف عام حتىٰ اسودت، فهي سوداء مظلمة مدلهمة مظلمة قد مزجت بغضب اللَّه.

وذكر ابن عباس أن جهنم سوداء مظلمة لا ضوء لها ولا لهب، وهي كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

* * *

١١٨ ـ باب ما جاء في عظم جهنم وأزمتها وكثرة ملائكتها وفي عظم خلقهم

عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يؤتىٰ بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[(١)].

وليس في الموقف من تحمله ركبتاه؛ وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] الآية، وعند تفلتها تكبو من الغيظ والحنق، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] أي تعظيماً لغيظها وحنقها، يقول اللَّه تعالىٰ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] أي تكاد تنشق نصفين من شدة غيظها.

فصل: هذا يبيّن لك ما قلناه أن جهنم اسم علم لجميع النار، ومعنىٰ: «يؤتىٰ بها» يجاء بها من المحل الذي خلقها اللَّه تعالىٰ فيه، فتدار بأرض المحشر حتىٰ لا يبقىٰ للجنة طريق إلّا الصراط كما تقدّم. والزمام: ما يزم به الشيء أي يشد ويربط به، وهذه الأزمة التي تساق بها جهنم تمنع من خروجها علىٰ أرض المحشر، وملائكتها كما وصفهم اللَّه: غلاظ شداد.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٢).

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] فالمراد رؤساؤهم على ما يأتي، وأما جملتهم فالعبارة عنهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

* * *

١١٩ ـ باب ما جاء أن التسعة عشر خزنة جهنم

قال اللَّه تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠].

عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ: هل يعلم نبيكم عدة خزنة جهنم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأله، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد غُلب أصحابك اليوم. فقال: «وبماذا غلبوا»؟ قال: سألهم اليهود: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قال: «فماذا قالوا»؟ قال: قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا. قال: «لا يغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون، فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا، لكنهم سألوا نبيهم فقالوا: أرنا اللَّه جهرة، عليَّ بأعداء اللَّه، إني سائلهم عن تربة الجنة وهي الدرمك؛ فلما جاءوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟ قال: «هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسعة» قالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: «ما تربة الجنة؟» قال: فسكتوا، ثم قالوا: خبزة يا أبا القاسم، فقال النبي ﷺ: «الخبز من الدرمك»[١].

* * *

١٢٠ ـ باب ما جاء في سعة جهنم وعظم سرادقها

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٦١)، والترمذي في التفسير (٣٣٢٧).

عن مجاهد قال: قال ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟ قال: قلت: لا. قال: أجل، واللّه ما تدري أن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً تجري منها أودية القيح والدم، قلت: لها أنهار؟ قال: لا بل أودية، ثم قال: أتدري ما سعة جسر جهنم؟ قلت: لا. قال: قلت: أجل حدثتني عائشة أنها سألت رسول اللّه ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] قلت: فأين الناس يومئذٍ؟ قال: علىٰ جسر جهنم»[1].

* * *

١٢١ ـ باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ وما جاء أن الشمس والقمر يقذفان في النار

قال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] قال: أوقدت فصارت ناراً، وذكر ابن وهب عن عطاء بن يسار أنه تلا هذه الآية: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] قال: يُجمعان يوم القيامة ثم يُقذفان في النار، فتكون نار اللّه الكبرىٰ.

وعن أنس يرفعه إلىٰ النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار»[2].

فصل: قلت: كذا الرواية «ثوران» بالثاء المثلثة، وإنما يجمعان في جهنم لأنهما قد عبدا من دون اللّه، ولا تكون النار عذاباً لهما؛ لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم. هكذا قال بعض أهل العلم.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١١٦، ١١٧)، والحاكم (٢/ ٢٥٢)، وابن المبارك في زوائد الزهد (٢٩٨).
وحديث عائشة: رواه الترمذي في التفسير (٣٢٤١).

(٢) رواه الطيالسي في مسنده (٢١٠٣). وله شاهد يتقوىٰ به. رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٠) عن أبي هريرة.

وإن للّه مائة رحمة؛ نزل منها واحدة إلى الأرض، فبها تتعاطف البهائم، ويتراحم الخلق، وتتواصل الأرحام، فإذا كان يوم القيامة قبض اللّه هذه الرحمة وردَّها إلى التسعة والتسعين، وأكملها مائة كما كانت، ثم جعل المائة كلها رحمة للمؤمنين، وخلت دار العذاب ومن فيها من الفاسقين من رحمة رب العالمين؛ فبزوال هذه الرحمة زال ما كان فيه القمر من رطوبة وأنوار، ولم يبق إلَّا ظلمة وزمهرير، وبزوالها زال ما كان بالشمس من وضح وإشراق، ولم يبق إلَّا فرط سواد واحتراق، وبما كانا به قبل من الصفة الرحمانية، كان إمهالهما للعاصين، وإبقاؤهما على القوم الفاسقين. وهي زِمَام الإمساك، ولجام المنع عن التدمير والإهلاك، وهي سنة اللّه تعالى في الإبقاء إلى الأوقات، والإمهال إلى الآجال، إلا أن يشاء غير ذلك، فلا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سبحانه.

* * *

١٢٢ ـ باب ما جاء في صفة جهنم وحرّها وشدّة عذابها

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة»(١).

وعنه أيضاً أنه قال: «ترونها كناركم؟! لهي أشد سواداً من القار»(٢). والقار: هو الزفت.

وعن سلمان قال: «النار سوداء، لا يضيء لهبها ولا جمرها. ثم قرأ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]»(٣).

---

(١) رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٠١)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٠)، ومالك في الموطأ في كتاب جهنم (ص٩٩٤).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣١٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ١٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٧).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم. قالوا: يا رسول اللَّه، وإن كانت لكافية. قال: فإنها فضلت بتسعة وستين جزءًا» خرجه مسلم وزاد: «كلها مثل حرها»[١].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما كان لأحد فيها منفعة»[٢].

وعن ابن عباس: «وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات، ولولا ذلك ما انتفع بها»[٣].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا يوم القيامة من أهل النار فيصبغ في النار ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا واللَّه يا رب. ويؤتىٰ بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة من الجنة، فيقال له: هل رأيت بؤساً قط، هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا واللَّه يا رب، ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»[٤].

وقال كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده، لو كنت بالمشرق والنار بالمغرب، ثم كشف عنها لخرج دماغك من منخريك من شدة حرها. يا قوم هل لكم بهذا قرار؟ أم لكم علىٰ هذا صبر؟ يا قوم طاعة اللَّه أهون عليكم من هذا العذاب؛ فأطيعوه.

فصل: قوله: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم» يعني أنه لو جمع كل ما في الوجود من النار التي يوقدها ابن آدم لكانت

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في صفة الجنة (٢٨٤٣).

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣١٨)، والحاكم (٤/ ٥٩٣) وقال: صحيح الإسناد علىٰ شرط الشيخين. وبعضه في الصحيحين من حديث أبي هريرة. انظر السابق.

(٣) رواه عبد الرزاق (٢٠٣٥٧)، والطبراني في الكبير (٩٠٥٧) بنحوه.

(٤) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٧).

جزءاً من أجزاء جهنم المذكور: بيانه؛ أنه لو جمع حطب الدنيا فأوقد كله حتىٰ صار ناراً لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو سبعين جزءاً أشد من حر نار الدنيا، كما بيّنه في آخر الحديث.

وقوله: «وإن كانت لكافية» إن هنا مخففة من الثقيلة عند البصريين نظيره ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي أنها كانت كافية، فأجابهم النبي ﷺ: «بأنها كما فضلت عليها في المقدار والعدد بتسعة وستين فضلت عليها أيضاً في شدة الحر بتسعة وستين ضعفاً».

* * *

باب منه
وما جاء في شكوى النار وكلامها وبُعد قعرها وأهوالها وفي قدر الحجر الذي يرمىٰ به فيها

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «اشتكت النار إلىٰ ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً؛ فجعل لها نَفَسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف. فأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها، وأشد ما تجدون من الحر من سمومها»[1].

وعن أبي هريرة قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ إذ سمع وجبة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار إلىٰ الآن حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قعرها»[2].

الوجبة: الهدة، وهي صوت وقع الشيء الثقيل.

عن الحسن قال: قال عتبة بن غزوان علىٰ منبرنا هذا ـ يعني منبر البصرة ـ عن

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢٦٠)، ومسلم في كتاب المساجد (٦١٧).

(٢) رواه مسلم في صفة الجنة (٢٨٤٤).

النبي ﷺ قال: «إن الصخرة العظيمة لتلقىٰ من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين عاماً وما تفضي إلىٰ قرارها»[١]. ويقال: كان ابن عمر يقول: أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد.

عن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان، وكان أميراً علىٰ البصرة، فحمد اللَّه وأثنىٰ عليه، ثم قال: أما بعد فإن الدنيا قد أذنت بِصُرْمٍ، وولّت حذّاءَ، ولم يبق منها إلّا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلىٰ دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر ليلقىٰ من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً لا يدرك لها قعراً. واللَّه لتملأن . . » الحديث[٢]. وسيأتي في أبواب الجنة إن شاء اللَّه تعالىٰ.

فصل: قوله: «اشتكت النار»: شكواها إلىٰ ربها بأن أكل بعضها بعضاً، محمول علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز؛ إذ لا إحالة في ذلك، وليس يحتاج في الشكوىٰ إلىٰ أكثر من وجود الكلام. وأما الاحتجاج في قوله عليه السلام: «احتجَّت النار والجنة»[٣] فلا بدَّ فيه من العلم والتفطن للحجَّة. وقيل: إن ذلك مجاز عبَّر عنه بلسان الحال، كما قال عنترة:

فازورَّ مِن وقْعِ القَنا بِلَبَانِه ... وشكَا إليَّ بعَبرةٍ وتَحَمْحُمِ

وقال آخر:

شكا إليَّ جملي طول السُّرىٰ ... صبراً جميلاً فكلانا مبتلَىٰ

---

(١) رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٧٥). والحسن لم يدرك عتبة، ولكن يشهد له ما قبله وما بعده.

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٧) وسيأتي في باب (١٤٥): ما جاء في أبواب الجنة وكم هي؟. ومعنىٰ: «أذنت بصرم»: الصرم: الانقطاع والذهاب. و«ولت حذّاء»: أي مسرعة الانقطاع. و«الصُبابة» البقية اليسيرة تبقىٰ في أسفل الإناء. ويتصابُّها: يشرب صبابتها.

(٣) مرّ تخريجه.

والأول أصح؛ إذْ لا استحالة في ذلك، وقد قال اللَّه تعالىٰ وهو أصدق القائلين: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٧] الآية، أي ﴿أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان، و﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن اتباع الحق، ﴿وَجَمَعَ﴾ يعني المال ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١٨] أي جعله في الوعاء؛ أي كنزه ولم ينفقه في طاعة اللَّه تعالىٰ. قال ابن عباس: «تدعو المنافق والكافر بلسان فصيح، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطائر الحَبَّ».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وكلت بثلاث: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع اللَّه إلـٰهًا آخر، وبالمصورين»[١].

* * *

١٢٣ ـ باب ما جاء في مقامع أهل النار وسلاسلهم وأغلالهم وأنكالهم

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١]، وقال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] الآية، وقال: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢]، وقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢] الآية. وروي عن الحسن أنه قال: «ما في جهنم وادٍ ولا مغار ولا غُل ولا سلسلة ولا قيد إلَّا واسم صاحبها مكتوب عليه».

عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لو أن رُضَاضَةً مثل هذه ـ وأشار إلىٰ مثل الجمْجُمة ـ أرسلت من السماء إلىٰ الأرض ـ وهي مسيرة خمسمائة عام ـ لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس

---

(١) مرّ تخريجه.

السلسة لسارت أربعين خريفاً ـ الليل والنهار ـ قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها»[١].

عن أبي بن كعب قال: «إن حلقة من السلسلة التي قال اللَّه: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ إن حلقة منها مثل جميع حديد الدنيا»[٢].

وعن سفيان في قوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قال: بلغنا أنها تدخل في دبره حتىٰ تخرج من فِيه. وقال ابن زيد ويقال: إن الحلقة من غُل أهل جهنم، لو ألقيت علىٰ أعظم جبل في الدنيا لهدّته.

* * *

باب منه
وما جاء في كيفية دخول أهل النار النار

عن عبد الرحمن بن زيد قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة بشرر كالنجوم فيولون هاربين، فيقول الجبار تبارك وتعالىٰ: ردّوهم عليها، فيردونهم. فذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣] أي مانع يمنعكم، ويلقاهم وهجها قبل أن يدخلوها فتندر أعينهم فيدخلونها عمياً مغلولين في الأغلال أيديهم وأرجلهم ورقابهم».

قال ابن زيد: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١] يقمعون بها هؤلاء، فإذا قال: خذوه فيأخذوه كذا وكذا ملك فلا يضعون أيديهم علىٰ شيء من عظامه إلّا صار تحت أيديهم رفاتاً، العظام واللحم يصير رفاتاً. قال: فتُجمع أيديهم وأرجلهم ورقابهم في الأغلال فيلقون في النار مصفودين، فليس لهم شيء يتقون به إلّا الوجوه، فهم عمي قد ذهبت أبصارهم، ثم قرأ ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٩٧)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٨) وقال: هذا حديث إسناده حسن صحيح.

(٢) ابن المبارك في زوائد الزهد (٢٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٧٥) بسند حسن.

سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] الآية. فإذا ألقوا فيها يكادون يبلغون قعرها، فيلقاهم لهبها فيردهم إلى أعلاها، حتى إذا كادوا يخرجون تلقتهم الملائكة بمقامع من حديد فيضربونهم بها، فجاء أمر غلب اللهب، فهووا كما هم أسفل السافلين، هكذا دأبهم، وقرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] فهم كما قال الله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣، ٤].

والأنكال: القيود. عن الحسن ومجاهد، واحدها: نكل، وسميت القيود أنكالاً لأنه ينكل بها أي يمنع. قال الهروي: والأصفاد: هي الأغلال ويقال: القيود. أعاذنا الله منها بمنّه وكرمه.

* * *

باب منه

وفي بيان قوله تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]

قال ابن عمرو وابن عباس: هذه العقبة جبل في جهنم.

وقال محمد بن كعب، وكعب الأحبار: هي سبعون درجة في جهنم. وقال الحسن وقتادة: هي عقبة شديدة صعبة في النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة الله عز وجل.

وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط، وقيل: النار نفسها.

وقال الكلبي أيضاً: هي جبل بين الجنة والنار، يقول: فلأجاوز هذه العقبة بعمل صالح، ثم بيّن اقتحامها بما يكون فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] الآية.

وقال ابن زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام والاستفهام، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، يقول: هلاّ أنفق ماله في فك الرقاب، وإطعام السغبان ليجاوز به العقبة، فيكون خيراً له من إنفاقه في المعاصي؟

وقيل: معنىٰ الكلام التمثيل والتشبيه؛ فشبّه عظم الذنوب وثقلها بعقبة، فإذا أعتق رقبة وعمل صالحاً كان مثله كمثل من اقتحم العقبة، وهي الذنوب التي تضره وتؤذيه وتثقله، فإذا أزالها بالأعمال الصالحة والتوبة الخالصة، كان كمن اقتحم عقبة يستوي عليها ويجوزها.

قال الحسن: هي واللَّه عقبة شديدة، مجاهدة الإنسان نفسه، وهواه، وعدوه الشيطان، وأنشد بعضهم:

إني بُليتُ بأربع يرمينني ... بالنَّبلِ قد نصبوا عليَّ شراكا
إبليسُ، والدنيا، ونفسي، والهوىٰ ... من أين أرجو بينهن فِكاكا
يا رب ساعدني بعفوٍ إنَّـني ... أصبحت لا أرجو لهنَّ سِواكا

وأنشد غيره أيضاً في معنىٰ ذلك:

إني بُليتُ بأربعٍ يرمينني ... بالنبل عن قَوْسٍ لها توتيرُ
إبليسُ، والدنيا، ونفسي، والهوىٰ ... يا رب أنت علىٰ الخلاص قديرُ

وقال آخر:

إني بُليتُ بأربعٍ ما سلّطوا ... إلَّا لعُظْـم بليّتي وشقائي
إبليسُ، والدنيا، ونفسي، والهوىٰ ... كيف الخلاصُ وكلهم أعدائي

ومعنىٰ ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾: أي لم يقتحم العقبة، وهذا خبر، أي أنه لم يفعل، والعرب تقول: لا فَعَلَ بمعنىٰ لم يفعل.

ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ يقول للنبي ﷺ: أي لم تكن تدريها حتىٰ أعلمتك ما العقبة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: أي عتق رقبة من الرق، أو إطعام في يوم ذي مسغبة: مجاعة، يتيماً ذا مقربة: أي قرابة. أو مسكيناً ذا متربة: يعني به اللاصق بالتراب من الحاجة. في تفسير الحسن.

وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فإنه أخبره به، وكل

شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فإنه لم يخبره به.

قلت: قال: فمن أطاع مولاه، وجاهد نفسه وهواه، وخالف شيطانه ودنياه، كانت الجنة نزله ومأواه، ومن تمادى في غيّه وطغيانه، وأرخى في الدنيا زمام عصيانه، ووافق نفسه وهواه في مناه ولذاته، وأطاع شيطانه في جمع شهواته؛ كانت النار أولى به، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ـ٤١].

* * *

١٢٤ ـ باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، التحريم: ٦]

الوقود بفتح الواو على وزن الفَعول بفتح الفاء: الحطب، وكذلك الطَّهُور اسم للماء، والسَّحُور: اسم الطعام، وبضم الفاء: اسم للفعل وهو المصدر، والناس (عموم) ومعناه (الخصوص) ممن سبق عليه القضاء أنه يكون حطباً لها، أجارنا اللّه منها. قال: حَطَبُ النار: شباب وشيوخ وكهول ونساء عاريات طال منهن العويل.

* * *

١٢٥ ـ باب ما جاء في تعظيم جسد الكافر وأعضاؤه بحسب اختلاف كفره، وتوزيع العذاب على العاصي المؤمن بحسب أعمال الأعضاء

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ضِرْسُ الكافر أو ناب الكافر مثل أُحُد، وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»[1].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢٨٥١).

وعنه، عن النبي ﷺ قال: «إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أُحُد، وإن مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة». وفي رواية: «وفخذه مثل البيضاء، ومقعده من النار مسيرة ثلاث مثل الربذة»[١].

وقال: مثل الربذة: يعني به كما بين مكة والمدينة. والبيضاء: جبل مثل أُحُد.

عن أبي هريرة قال: «ضرس الكافر يوم القيامة أعظم من أُحُد، يعظمون لتمتلئ منهم وليذوقوا العذاب»[٢].

عن أبي هريرة قال: «ضرس الكافر مثل أُحُد، وفخذه مثل البيضاء، وجبينه مثل الورقان، ومجلسه من النار كما بيني وبين الربذة، وكثف بصره سبعون ذراعاً، وبطنه مثل إضم»[٣]. إضم بالكسر: جبل. قاله الجوهري.

قلت: والورقان جبل بالمدينة.

وعن عبيد بن عمير قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بصر الكافر ـ يعني غلظ جلده ـ سبعون ذراعاً، وضرسه مثل أُحُد في سائر خلقه»[٤].

عن سمرة بن جندب أن نبي اللَّه ﷺ قال: «منهم من تأخذه النار إلىٰ كعبيه، ومنهم من تأخذه إلىٰ ركبتيه، ومنه من تأخذه إلىٰ حجزته، ومنهم من تأخذه إلىٰ ترقوته»[٥]. وفي رواية: «حقويه» مكان «حُجْزته».

فصل: هذا الباب يدلك علىٰ أن كُفْر من كَفر فقط، ليس ككفر من طغىٰ وكفر وتمرد وعصىٰ، ولاشك في أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد

---

(١) رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٧٧)، (٢٥٧٨).

(٢) ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٠٤) بنحوه.

(٣) ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٠٤)، والحاكم (٤/ ٥٩٦) وصححه وأقره الذهبي.

(٤) ابن المبارك في زوائد الزهد (٣٠٥)، (٣١١).

(٥) رواه مسلم في كتاب صفة جهنم (٢٨٤٥).

علم من الكتاب والسنة؛ ولأنّا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين وفتك فيهم، وأفسد في الأرض وكفر، مساوياً لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين. ألا ترى أبا طالب كيف أخرجه النبي ﷺ إلى ضحضاح لنصرته إيّاه، وذبّه عنه وإحسانه إليه؟ وحديث الإمام مسلم عن سمرة يصح أن يكون في الكفار بدليل حديث أبي طالب، ويصح أن يكون فيمن يعذب من الموحدين، إلّا أن اللّه تعالى يميتهم إماتة حسب ما تقدّم بيانه.

وذكر الفقيه أبو بكر بن برجان أن حديث مسلم في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩] قال: أرى ـ واللّه أعلم ـ أن هؤلاء الموصوفين في هذه الآية والحديث أهل التوحيد، فإن الكافر لا تعاف النار منه شيئاً، وكما اشتمل في الدنيا على الكفر شملته النار في الآخرة، قال اللّه تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، أي أن ما فوقهم ظلل لهم، وما تحتهم ظلل لمن تحتهم.

* * *

١٢٦ ـ باب ما جاء في شدة عذاب أهل المعاصي

عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون»(١).

وعن عبد اللّه بن مسعود أيضاً قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي، أو مصور يصور التماثيل»(٢).

قلت: وقد تقدّم حديث البخاري الطويل عن سمرة بن جندب، وحديث ابن

---

(١) رواه البخاري في اللباس (٥٩٥٠)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٩).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٧)، والطبراني في الكبير (١٠٤٩٧).

عباس وأبي هريرة وابن مسعود في «باب ما يكون منه عذاب القبر»، وحديث أبي هريرة في الذين تُسعَّر بهم جهنم، وغير ذلك مما تقدّم في معنىٰ هذا الباب.

وقد تقدّم الكلام في أن من أدان أموال الناس في غير سفه ولا إسراف ولم يجد قضاء ونيته الأداء ومات أن اللّه لا يحبسه عن الجنة ولا يعذبه، بل يُرضي عنه خصماءه إن شاء اللّه، ويكون الجميع في رحمته بكرمه وفضله، فأما من أدانها لينفقها في المعاصي ثم لا يقدر علىٰ الأداء فلعله الذي يعذب.

* * *

بـــاب منـــه

وفي عذاب من عذّب الناس في الدنيا

عن خالد بن الوليد رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس في الدنيا»[1].

وعن خالد بن حكيم بن حزام: أن أبا عبيدة تناول رجلاً من أهل الأرمن فكلمه خالد بن الوليد، فقالوا: أغضبت الأمير؟ فقال: لم أرد غضبه. سمعت النبي ﷺ يقول: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس في الدنيا»[2].

وعن هشام بن حكيم بن حزام أنه مرَّ علىٰ أناس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا علىٰ الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن اللّه عز وجل يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا»[3].

* * *

(١) رواه أحمد (٤/ ٩٠) والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٤٣)، والطبراني في الكبير (٣٨٢٤)، (٤١٢١)، (٤١٢٢) وغيرهم.

(٢) انظر السابق.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦١٣).

١٢٧ ـ باب ما جاء في شدة عذاب من أمر بالمعروف ولم يأته ونهى عن المنكر وأتاه، وذكر الخطباء وفيمن خالف قوله فعله

عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «يجاء برجل فيطرح في النار، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار. فيقولون: أي فلان! ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله»[١].

وعنه أيضاً قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه في النار، فيدور كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ابن فلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى! كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[٢].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أتيت ليلة أُسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت رُدَّت، قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرأون كتاب اللَّه ولا يعملون»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «رأيت ليلة أُسريَ بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: فقلت: مَنْ هؤلاء يا

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٧)، وفي الفتن (٧٠٩٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٩).

(٢) انظر السابق.

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٨٠، ٢١٠، ٢٣١، ٢٣٩)، وابن المبارك في الزهد (٢٨٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٤٣، ٤٤، ١٧٢، ٢٣٩) وغيرهم.

جبريل؟ فقال: خطباء، أي من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب»[1].

فصل: قال بعض السادة: أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة: رجل ملك عبداً فعلمه شرائع الإسلام، فأطاع العبد وأحسن، وعصىٰ السيد، فإذا كان يوم القيامة أُمر بالعبد إلىٰ الجنة، وأُمر بسيده إلىٰ النار، فيقول عند ذلك: واحسرتاه! واغبناه! أما هذا عبدي؟ أما كنت مالكاً لمهجته وماله؟ وقادراً علىٰ جميع ماله؟ فما له سعد، وما لي شقيت؟. ورجل كسب مالاً، فعصىٰ اللَّه تعالىٰ في جمعه ومنعه، ولم يقدمه بين يديه حتىٰ صار إلىٰ وارثه، فأحسن في إنفاقه، وأطاع اللَّه سبحانه في إخراجه، وقدمه بين يديه؛ فإذا كان يوم القيامة أمر بالوارث إلىٰ الجنة، وأمر بصاحب المال إلىٰ النار، فيقول: واحسرتاه! واغبناه! أما هذا مالي؟ فما أحسنت به أحوالي وأعمالي. ورجل علم قوماً ووعظهم؛ فعملوا بقوله ولم يعمل؛ فإذا كان يوم القيامة أُمر بهم إلىٰ الجنة، وأُمر به إلىٰ النار، فيقول: واحسرتاه! واغبناه! أما هذا علمي؟ فما لهم فازوا به وما فزت؟ وسلموا به وما سلمت؟.

فصل: قال إبراهيم النخعي رضي اللَّه عنه: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وقوله تعالىٰ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

قلت: وألفاظ هذ الآيات تدل مع ما ذكرناه من الأحاديث علىٰ أن عقوبة مَنْ كان عالماً بالمعروف وبالمنكر، وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم

---

(١) انظر السابق.

يعلمه، وإنما كان كذلك لأنه كالمستهين بحرمات اللَّه، وهو كمن لم ينتفع بعلمه.

وقوله: تندلق، أي: تخرج، والاندلاق: الخروج بسرعة، يقال: اندلق السيف، خرج من غمده، ورُوي: فتنفلق، بدل فتندلق. والأقتاب: الأمعاء، واحدها: قِتب، بكسر القاف. وقال الأصمعي: واحدها: قتيبة، ويقال لها أيضاً: الأقصاب، واحدها: قصبة، قاله أبو عبيد.

وقد قال ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي يجر قُصْبَهُ في النار، وهو أول من سيب السوائب»[1]. والقُصْب: الأمعاء.

قلت: إن قال قائل: قد تقدّم من حديث أبي سعيد الخدري أن من ليس من أهل النار إذا دخلوها أحرقوا فيها وماتوا، على ما ذكرتموه في أصح القولين، وهذه الأحاديث التي جاءت في العصاة بخلاف، فكيف الجمع بينهما؟.

قيل له: الجمع ممكن. وذلك ـ واللَّه أعلم ـ أن أهل النار الذين هم أهلها، كما قال اللَّه تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] قال الحسن: تنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة، والعصاة بخلاف هؤلاء، فيعذبون وبعد ذلك يموتون. وقد تختلف أيضاً أحوالهم في طول التعذيب بحسب جرائمهم وآثامهم.

* * *

١٢٨ ـ باب ما جاء في طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم

قال اللَّه تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ [الحج: ١٩] وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٥] وقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٥٢١)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٥٦).

بَرْدًا﴾ أي نومًا ﴿وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٢٦] وقال: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] وقال عز من قائل: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٥، ٦] وقال: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥، ٣٦] قال الهروي: معناه من صديد أهل النار، وما ينغسل ويسيل من أبدانهم.

قلت: وهو الغساق أيضاً، وعن إبراهيم وأبي رزين في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [صٓ: ٥٧] قالا: ما يسيل من صديدهم، وقيل الغساق: القيح الغليظ المنتن.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] أي: وافق أعمالهم الخبيثة.

واختلف في الضريع فقيل: هو النبت ينبت في الربيع، فإذا كان في الصيف يبس، واسمه إذا كان عليه ورقه شبرق، وإذا تساقط ورقه فهو الضريع؛ فالإبل تأكله أخضر، فإذا يبس لم تذقه. وقيل: هو حجارة. وقيل: الزقوم واد في جهنم.

وقال المفسرون: إن شجرة الزقوم أصلها في الباب السادس، وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجر ببرد الماء، فلا بد لأهل النار من أن يتحدر إليها من كان فوقها فيأكلوا منها.

وقال أبو عمران الجوني في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٥] قال: بلغنا أن ابن آدم لا ينهش منها نهشة إلَّا نهشت منه مثلها. والمهل: ما كان ذائباً في الفضة والنحاس، وقيل: المهل عكر الزيت الشديد السواد، وقوله تعالىٰ: ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٥، ٤٦] يعني الماء الشديد الحر.

باب منه وما جاء أن أهل النار يجوعون ويعطشون وفي دعائهم وإجابتهم

قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] الآية.

وعن أبي حجيرة، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم، فينفُذُ الحميمُ حتى يخلص إلى جوفه، فَيَسْلِتُ ما في جوفه حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان»[١]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وعن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟»[٢].

* * *

١٢٩ ـ باب ما جاء في بكاء أهل النار ومن أدناهم عذاباً فيها

عن أنس بن مالك قال: «يا أيها الناس ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون؛ فلو أن سُفُنًا أُجريت فيها لجرت»[٣].

---

(١) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٣١٣)، ومن طريقه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٢).

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٠١، ٣٣٨)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٥) وغيرهم.

(٣) ابن المبارك في زوائد الزهد (٢٩٥)، وابن ماجه بنحوه في الزهد (٤٣٢٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٩٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٤١٩)، وانظر مجمع الزوائد (١٠/ ٣٩١). والصحيح هو الموقوف كما سيأتي عن أبي موسى.

عن النعمان بن بشير أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: رجل في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه»[١].

وروي عن أبي موسىٰ الأشعري موقوفاً أنه قال: «إن أهل النار ليبكون الدموع في النار، حتىٰ لو أجريت فيها السفن لجرت، ثم إنهم يبكون الدم بعد الدموع، ولمثل ما هم فيه فليبك»[٢].

قال المؤلف رحمه اللّه وهو يستند من معنىٰ ما تقدّم: وفي التنزيل ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢].

ومن حديث أبي ذر رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «واللّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[٣]. فمَنْ كثر بكاؤه خوفاً من اللّه تعالىٰ وخشية منه ضحك كثيراً في الآخرة. قال اللّه تعالىٰ مخبراً عن أهل الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] ووصف أهل النار فقال: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١] قال: ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠] وسيأتي بيانه.

* * *

١٣٠ ـ باب ما جاء أن لكل مسلم فداء من النار من الكفار

عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع اللّه لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول: هذا فكاكك من النار»[٤].

وفي رواية أخرىٰ: «لا يموت رجل مسلم إلّا أدخل اللّه مكانه من النار يهودياً

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦٢)، ومسلم في الإيمان (٢١٣).

(٢) رواه أحمد في الزهد (ص٢٤٧). وانظر حديث أنس الأسبق.

(٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٠). وهذا المقطع تكرر في حديث عائشة وأنس في الصحيحين.

(٤) رواه مسلم في كتاب التوبة (٢٧٦٧).

أونصرانياً». قال: فاستحلفه عمر بن عبد العزيز باللّه الذي لا إلـه إلّا هو ثلاث مرات: أن أباه حدّثه عن رسول اللّه، قال: فحلف له[١].

فصل: قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم: هذه الأحاديث ظاهرها الإطلاق والعموم وليست كذلك، وإنما هي في ناس مذنبين تفضل اللّه تعالى عليهم برحمته ومغفرته، فأعطى كل إنسان منهم فكاكاً من النار من الكفار، واستدلوا بحديث أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها اللّه لهم ويضعها على اليهود والنصارى»[٢].

قالوا: وما معنى فيغفرها لهم؟ أي: يسقط المؤاخذة عنهم بها حتى كأنهم لم يذنبوا.

ومعنى قوله: «ويضعها على اليهود والنصارى» أنه يُضاعف عليهم عذاب ذنوبهم، حتى يكون عذابهم بقدر جرمهم وجرم مذنبي المسلمين، لو أخذوا بذلك؛ لأنه تعالى لا يأخذ أحداً بذنب أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧] وله سبحانه أن يُضاعف لمن يشاء العذاب، ويخفف عمن يشاء بحكم إرادته ومشيئته، إذ لا يُسأل عن فعله.

قالوا: وقوله في الرواية الأخرى: «لا يموت رجل مسلم إلّا أدخل اللّه مكانه يهودياً أو نصرانياً»؛ فمعنى ذلك أن المسلم المذنب لما كان يستحق مكاناً من النار بسبب ذنوبه، وعفا اللّه عنه وبقي مكانه خالياً منه، أضاف اللّه تعالى ذلك المكان إلى يهودي أو نصراني؛ ليعذب فيه زيادة على تعذيب مكانه الذي يستحقه بحسب كفره. ويشهد لهذا قوله عليه السلام في حديث أنس للمؤمن الذي يثبت

---

(١) رواه مسلم في كتاب التوبة (٥٠ تحت ٢٧٦٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة (٥١ تحت ٢٧٦٧).

عند السؤال في القبر فيقال له: «انظر إلىٰ مقعدك من النار، قد أبدلك اللَّه به مقعداً من الجنة»[١].

قلت: قد جاءت أحاديث دالة علىٰ أن لكل مسلم: مذنباً كان أو غير مذنب. منزلين: منزلاً من الجنة. ومنزلاً من النار، وذلك هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠] أي يرث المؤمنون منازل الكفار، ويجعل الكفار في منازلهم في النار علىٰ ما يأتي بيانه، وهو مقتضىٰ حديث أنس عن النبي ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره» الحديث وقد تقدّم، إلّا أن هذه الوراثة تختلف، فمنهم من يرث ولا حساب، ومنهم من يرث بحسابه وبمناقشته وبعد الخروج من النار، حسب ما تقدّم من أحوال الناس، واللَّه أعلم.

وقد يحتمل أن يسمىٰ الحصول علىٰ الجنة وراثة من حيث حصولها لهم دون غيرهم. وهو مقتضىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

* * *

١٣١ ـ باب في قوله تعالى:
﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠]

عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لا تزال جهنم يلقىٰ فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتىٰ يضع رب العزة قدمه فيها؛ فيُزْوَىٰ بعضها إلىٰ بعض، وتقول: قط قط. وعزتك وكرمك. ولا يزال في الجنة فضل حتىٰ ينشئ اللَّه لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة»[٢].

وفي رواية أخرىٰ من حديث أبي هريرة: «فأما النار فلا تمتلئ حتىٰ يضع اللَّه

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٣٨)، (١٣٧٤)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٧٠).

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٨٤٨)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٤٨).

عليها رجله، فتقول: قط قط. فهنالك تمتلئ ويُزْوَىٰ بعضها إلىٰ بعض، فلا يظلم اللَّه من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن اللَّه ينشئ لها خلقاً»(١).

فصل: للعلماء في قول النار: «هل من مزيد؟» تأويلان: أحدهما: أن اللَّه وعدها لَيَملأنَّها فقال: أوفيتك؟ فقالت: وهل من مسلك؟ أي: قد امتلأت، كما قال:

امتلأ الحوضُ وقال: قطني — مهلاً رويداً قد ملأتَ بطني

وهذا تفسير مجاهد وغيره، وهو ظاهر الحديث الثاني: زدني، تقول ذلك غيظاً علىٰ أهلها وحنقاً عليهم، كما قال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] أي تنشق، ويبيّن بعضها من بعض.

* * *

١٣٢ ـ باب ذكر آخر من يخرج من النار وآخر من يدخل الجنة

عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل النار دخولاً الجنة، رجل يخرج من النار حَبْواً فيقول اللَّه تعالىٰ: اذهب فادخل الجنة فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأىٰ، فيقول: يا رب وجدتها ملأىٰ، فيقول اللَّه: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأىٰ، فيرجع يقول: يا رب وجدتها ملأىٰ، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو أن لك عشرة أمثال الدنيا، قال فيقول: أتسخر بي؟ أو أتضحك بي وأنت الملك؟ قال: لقد رأيت رسول اللَّه ضحك حتىٰ بدت نواجذه، قال: فكان يقال: ذلك أدنىٰ أهل الجنة منزلة»(٢).

وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة،

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٨٥٠)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٤٦).

(٢) رواه البخاري الرقاق (٦٥٧١)، ومسلم في الإيمان (١٨٦).

ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني اللّٰه شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول: أي ربِّ أَدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلّها وأشرب من مائها، فيقول اللّٰه تعالىٰ: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول: لا يا رب! ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم تُرفع له شجرة هي أحسن من الأولىٰ، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأن يرىٰ ما لا صبر عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه ترفع له شجرة عند باب الجنة أحسن من الأوليين، فيقول مثله، فيدنيه منها؛ فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب أدخلنيها، يقول: يا ابن آدم ما يَصْرِيني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: أي رب أتستهزئ بي، وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول اللّٰه ﷺ، فقالوا: مّم تضحك يا رسول اللّٰه؟ قال: مِن ضحك رب العالمين، فيقول: إني لا أستهزئ منك ولكني علىٰ ما أشاء قادر»[1].

قوله: «ما يَصْرِيني منك»: معناه: ما يقطع مسألتك مني. قال أهل اللغة: الصري: هو القطع. فإن السائل متىٰ انقطع من المسئول؛ انقطع المسئول منه. والمعنىٰ: أي شيء يرضيك ويقطع السؤال بيني وبينك.

فصل: قوله: أتستهزئ مني؟[2] ـ وفي رواية: أتسخر؟ ـ والهزوء والسخرية

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٧).

(٢) «أتستهزئ مني»: كذا الرواية في صحيح مسلم. ولكن في بعض الروايات: «أتستهزئ بي».

بمعنىٰ واحد، وفيه تأويلان:

أحدهما: أنه صدر منه هذا القول عند غلبة الفرح عليه واستخفافه إياه، كما غلط الذي قال: «اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك»(١).

الثاني: أن يكون معناه: أتجازيني علىٰ ما كان مني في الدنيا من قلة احتفالي بأعمالي، وعدم مبالاتي بها؟ فيكون هذا علىٰ وجه المقابلة، كما قال اللَّه تعالىٰ مخبراً عن المنافقين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥] أي ينتقم منهم ويجازيهم علىٰ استهزائهم، والاستهزاء في اللغة: الانتقام. قال الشاعر:

قد استهزءوا منهم بألفي مدجّجٍ ... سُراتهم وسط الضحاضح جُثّمُ

ومثله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] الآية.

* * *

باب منه

قال تعالىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ ـ ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]. قال بعض العلماء: لولا أن اللَّه عز وجل عرفه إياه ما عرفه، لقد تغير حِبْرُهُ وسِبْرُهُ، فعند ذلك يقول: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٦، ٥٧] في النار.

والحبر والسبر: اللون والهيئة. من قولهم: جاءت الإبل حسنة الأحبار والأسبار، قاله الفراء. وقال الأصمعي: هو البهاء والجمال وأثر النعمة، يقال: فلان حسن الحبر والسبر، إذا كان جميلاً حسن الهيئة.

---

(١) رواه البخاري مختصراً في الدعوات (٦٣٠٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٤٧).

قال ابن أحمد:

لبسنا حبرة حتىٰ اقتضينا لآجالٍ وأعمارٍ قضينا

ويقال أيضاً: فلان حسن الحبر والسبر بالفتح، وهذا كله مصدر قولك: حبرته تحبيراً. والأول اسم، وتحبير الخط والشعر وغيرهما: تحسينه وتزيينه.

* * *

١٣٣ ـ باب ما جاء في ميراث أهل الجنة منازل أهل النار

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما منكم من أحد إلَّا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار؛ فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله» فذلك قوله تعالىٰ: ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠][(١)] إسناده صحيح.

قلت: وهذا بيِّن في أن لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، كما تقدم. وقد قال ها هنا: ما منكم؛ فخاطب أصحابه الكرام المنزهين عن الذنوب العظام الموجبة للنيران رضي اللَّه عنهم، وسيأتي لهذا مزيد بيان في أبواب الجنان إن شاء اللَّه تعالىٰ.

* * *

١٣٤ ـ باب ما جاء في خلود أهل الدارين وذبح الموت على الصراط ومن يذبحه

عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلىٰ الجنة وأهل النار إلىٰ النار، جيء بالموت حتىٰ يُجعل بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلىٰ فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلىٰ حزنهم»[(٢)].

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣٤١).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٤٨)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٥٠).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء يوم القيامة بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، فيقولون: نعم، هذا الموت. قال: ثم يقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، فيقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت فيها، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا»[1].

وفي رواية عنه يرفعه قال: «إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار»[2].

وفي حديث فيه طول عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يُجاء بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط، فيقال: يا أهل الجنة، فيطلعون خائفين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، ثم يقال: يا أهل النار، فيطّلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم! هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين كليهما: خلود فيما تجدون لا موت فيه أبداً»[3].

وبمعناه مطولاً عن أبي هريرة أيضاً، وفيه: «فإذا أدخل اللّه أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أُتي بالموت مُلبباً، فيوقف على السور الذي بين الجنة وبين النار،

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٠)، ومسلم في الجنة (٢٨٤٩).

(٢) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٨).

(٣) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣٢٧).

ثم يقال: يا أهل الجنة، فيطّلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار، فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون ـ هؤلاء وهؤلاء ـ: قد عرفناه، هو الموت الذي وكّل بنا، فيضجع فيذبح ذبحاً على السور الذي بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت»[1].

فصل: هذه الأحاديث مع صحتها نص في خلود أهل النار فيها، لا إلى غاية ولا إلى أمد، مقيمين على الدوام والسرمد، من غير موت ولا حياة ولا راحة ولا نجاة، بل كما قال اللّه في كتابه الكريم وأوضح فيه عن عذاب الكافرين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ إلى قوله ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧] . وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] . وقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢] . وقد تقدّمت هذه المعاني كلها؛ فمن قال: إنهم يخرجون منها، وأن النار تبقى خالية، بجملتها خاوية على عروشها، وأنها تفنى وتزول؛ هو خارج عن مقتضى المعقول، ومخالف لما جاء به الرسول، وما أجمع عليه أهل السنة والأئمة العدول، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فصل: قد تقدّم أن الموت «معنى» ، والكلام في ذلك، وفي الأعمال وأنها لا تنقلب جوهراً؛ بل يخلق اللّه أشخاصاً من ثواب الأعمال، وكذلك الموت يخلق

(١) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٧).

اللَّه كبشاً يسميه الموت، ويلقي في قلوب الفريقين أن هذا هو الموت، ويكون ذبحه دليلاً على الخلود في الدارين.

قال الترمذي: والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة رضي اللَّه عنهم مثل: سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وابن المبارك، وابن عيينة، ووكيع وغيرهم. أنهم رووا هذه الأشياء وقالوا: ونروي هذه الأحاديث، ولا يقال: كيف؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تروى هذه الأشياء ويؤمن بها، ولا تفسّر ولا تتوهّم؟ ولا يقال: كيف؟ وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه.

ومعنى يشرئبون: يرفعون رؤوسهم. والأملح من الكباش: الذي يكون فيه بياض وسواد، والبياض أكثر. قاله الكسائي. وقال ابن الأعرابي: وهو النقي البياض.

تــم

كتاب النار

بحمد اللَّه العزيز الغفار

أجارنا اللَّه منها بمنه وبفضله وكرمه لا رب غيره

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أبواب الجنة وما جاء فيها وفي صفتها ونعيمها

وصف اللّٰه تعالىٰ الجنات في كتابه وصفاً يقوم مقام العيان في غير ما سورة من القرآن، وأكثر ذلك في سورة الواقعة والرحمـٰن، وهل أتاك حديث الغاشية، وسورة الإنسان، وبيّن ذلك أيضاً نبينا محمدﷺ بأوضح بيان، فنذكر من ذلك ما بلغنا في الأخبار الصحاح والحسان، وعن السلف الصالح أهل الفضل والإحسان، رضي اللّٰه عنهم، وحشرنا معهم آمين.

* * *

١٣٥ ـ باب صفة أهل الجنة في الدنيا

قال ابن وهب: سمعت ابن زيد يقول: وصف اللّٰه أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا؛ فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول اللّٰه عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكّه فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّه ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَىٰ﴾ [الانشقاق: ١٣ ـ ١٥] وقد تقدّم من صفة أهلها ما فيه كفاية، والحمد للّٰه وحده.

* * *

باب منه
وهل تفضُل جنةٌ جنةً؟

قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمـٰن: ٤٦]، وعن ابن عباس في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أي بعد أداء الفرائض جنتان، قيل: علىٰ حدة، فلكل خائف جنتان، وقيل: جنتان لجميع الخائفين، والأول أظهر. والجنتان: جنة لخوفه من ربه، وجنة لتركه لشهوته.

و(المقام): الموضع، أي: خاف مقامه بين يدي ربه للحساب؛ فترك المعصية. وقيل: خاف قيام ربه عليه، أي: إشرافه واطلاعه عليه، بيانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] قال ابن عباس: أي وله من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان، قال ابن عباس: ومن دونهما، أي في الدرج، والجنات لمن خاف مقام ربه؛ فيكون في الأوليين: النخل والشجر، وفي الأخريين: الزرع والنبات وما انبسط.

قال الماوردي: ويحتمل أن يكون ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ لأتباعه؛ لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين، والأخرى للولدان المخلدين؛ ليتميز فيها الذكور من الإناث.

وقال ابن جريج: هي أربع جنان: جنتان منها للسابقين المقربين، فيهما من كل فاكهة زوجان، وعينان تجريان. وجنتان لأصحاب اليمين، فيهما فاكهة ونخل ورمان، وفيهما عينان نضاختان. وقال ابن زيد: الأوليان من ذهب للمقربين، والأخريان من وَرِق لأصحاب اليمين. وعن ابن عباس ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ إلى قوله ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦ ـ ٦٤] قال: هاتان للمقربين وهاتان لأصحاب اليمين، وعن أبي موسى الأشعري نحو ذلك.

ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما: فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] وفي الأخريين ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦] أي فوّارتان بالماء، لكنهما ليستا كالجاريتين؛ لأن النضخ دون الجري، وقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] معروف وغريب أو رطب ويابس، فعمّ ولم يخصّ، وفي الأخريين ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] ولم يقل من كل فاكهة، وقال في الأوليين ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ

﴿فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمـٰن: ٥٤] وهو الديباج، وفي الأخريين ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمـٰن: ٧٦].

والعبقري: الوشي. ولا شك أن الديباج أعلىٰ من الوشي، والرفرف كسر الخباء. ولا شك أن الفُرُش المعدّة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء، وقال في الأوليين في صفة الحور العين: ﴿كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَانُ﴾ [الرحمـٰن: ٥٨] وفي الأخريين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمـٰن: ٧٠] وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمـٰن: ٤٨] وفي الأخريين: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمـٰن: ٦٤] أي خضراوان كأنهما من شدة خضرتهما سوداوان. ووصف الأوليين بكثرة الأغصان، والأخريين بالخضرة وحدها. وفي هذا كله تحقيق للمعنىٰ الذي قصدناه، بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمـٰن: ٦٢]. ولعل ما لم يذكره من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر.

فإن قيل: كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين؟ قيل: الجنان الأربع لمن خاف مقام ربِّه، إلَّا أن الخائفين لهم مراتب؛ فالجنتان الأوليان لأعلىٰ العباد رتبة في الخوف من اللَّه تعالىٰ، والجنتان الأخريان لمن قصر حاله في الخوف من اللَّه تعالىٰ.

قال المؤلف رحمه اللَّه: فهذا قول، والقول الثاني أن الجنتين في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أعلىٰ وأفضل من الأوليين، ذهب إلىٰ هذا الضحاك، وأن الجنتين الأوليين من ذهب وفضة، والأخريين من ياقوت وزمرّد.

وقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي ومن أمامهما ومن قبلهما. وإلىٰ هذا القول ذهب أبو عبد اللَّه محمد الترمذي الحكيم في: (نوادر الأصول)، وقال: ومعنىٰ ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: أي دون هاتين إلىٰ العرش أي أقرب وأدنىٰ إلىٰ العرش، وقال مقاتل: الجنتان الأوليان: جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة

الفردوس وجنة المأوىٰ.

قال المؤلف رحمه اللَّه: ويدل علىٰ هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «إذاسألتم اللَّه فاسألوه الفردوس» الحديث[1]، وسيأتي. قال الترمذي: وقوله ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمـٰن: ٦٦] أي بألوان الفواكه والنعيم والجواري المزينات، والدواب المسرجات والثياب الملونات، وهذا يدل علىٰ أن النضخ أكثر من الجري.

قال المؤلف رحمه اللَّه: علىٰ هذا تدل أقوال المفسرين: روي عن ابن عباس نضاختان: أي فوارتان بالماء، والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء، وعنه أيضاً: أن المعنىٰ نضاختان بالخير والبركة، قاله الحسن ومجاهد. وعن ابن عباس أيضاً وابن مسعود: تنضخ علىٰ أولياء اللَّه بالمسك والكافور والعنبر في دور أهل الجنة، كما ينضخ رش المطر، وقال سعيد بن جبير: بأنواع الفواكه والماء.

وقوله: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمـٰن: ٦٨] قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأن الشيء لا يعطف علىٰ نفسه، وهذا ظاهر الكلام. وقال الجمهور: هما من الفواكه، وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما علىٰ الفواكه، كقوله تعالىٰ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقيل: إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا؛ لأن النخل عامة قوتهم، والرمان كالثمرات، كان يكثر غرسها عندهم لحاجتهم إليها. وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي

---

(١) ورد هذا في صحيح البخاري في الجهاد (٢٧٩٠)، وفي التوحيد (٧٤٢٣) من حيث أبي هريرة. وسيأتي بتمامه في باب (١٣٨) من أين تفجر أنهار الجنة؟، وفي سنن الترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٠) من حديث معاذ. وسيأتي في باب (١٤٦) ما جاء في درج الجنة.

يعجبون بها، وإنما ذكر الفواكه ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاهما من بلاد اليمن، فأخرجهما في الذكر من الفواكه، وأفرد الفواكه على حدتها.

وقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] يعني النساء، والواحدة خيرة، قال الترمذي: الخيرة: ما اختارهن اللّه فأبدع خلقهن باختياره، واختيار اللّه لا يشبه اختيار الآدميين، ثم قال: ﴿حِسَانٌ﴾ فوصفهن بالحسن، فإذا وصف خالق الشيء شيئاً بالحسن فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن؟ فانظر ما هنالك، وفي الأوليين ذكر بأنهن قاصرات الطرف وكأنهن الياقوت والمرجان؛ فانظر كم بين الخيرة ـ وهي مختارة اللّه ـ وبين قاصرات الطرف؟ ثم قال: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] وقال في الأوليين: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] قصرن طرفهن على الأزواج، ولم يذكر أنهن مقصورات، فدلّ على أن المقصورات أعلى وأفضل.

ثم قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] اختلف في الرفرف، ما هو؟ فقيل: كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها، الواحدة رفرفة. وقيل: الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمرجاح يميناً وشمالاً، ورفعاً وخفضاً. يتلذذ به مع أنيسته. واشتقاقه على هذا من: رف يرف إذا ارتفع، ومنه: رفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء، وربما سمّي الظليم رفرفاً بذلك؛ لأنه يرف بجناحيه ثم يعدو، ورفرف الطائر أيضاً: إذا حرّك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه.

وذكر في الأوليين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] وقال هنا: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ فالرفرف هومستقر الولي على شيء إذا استوى عليه الولي رفرف به، أي طار به هكذا وهكذا حيثما يريد كالمرجاح.

فهذا الرفرف الذي سخره اللّه لأجل الجنتين الدانيتين هو متكأهما وفرشهما، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان.

ثم قال: ﴿وعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ والعبقري: ثياب منقوشة تبسط، فإذا قال خالق النقوش: إنها حسان، فما ظنك بتلك العباقر؟ والعبقري: قرية من ناحية اليمن فيما بلغنا ينسج فيها بُسُط منقوشة، فذكر اللّه ما خلق في تلك الجنتين من البسط المنقوشة الحسان والرفرف الخضر. وإنما ذكر لهم من الجنان ما يعرفون أسماءها هنا؛ فبان تفاوت هاتين الجنتين.

فصل: لما قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ دلّ على أن الجنان أربع لا سبع على ما يأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى.

* * *

١٣٦ ـ باب صفة الجنة ونعيمها وما أعد اللّه لأهلها فيها

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: يقول اللّه عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذُخرًا. بَلْهِ ما أطلعكم عليه، ثم قرأ سول اللّه ﷺ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّا أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[1]. بله: بمعنى: غير. وقيل: اسم من أسماء الأفعال بمعنى «دع».

عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول اللّه، ممَّ خُلق الخلق؟ قال: «من الماء» قلت: الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة من فضة، ولبنة من ذهب، بلاطها المسك

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، وفي التفسير (٤٧٧٩)، (٤٧٨٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤).

الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، مَنْ دخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم». وذكر الحديث(١).

وفي رواية عنه يقول: قلنا يا رسول اللّه، إنا إذا كنا عندك رقّت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة؛ فإذا فارقناك وشممنا النساء والأولاد أعجبتنا الدنيا؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «لو أنكم تكونون إذا فارقتموني كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأكفها، ولزارتكم في بيوتكم، ولو كنتم لا تذنبون لجاء اللّه بقوم يذنبون كي يستغفروا فيغفر لهم» قلنا: يا رسول اللّه أخبرنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وبلاطها المسك الأذفر، وحصباؤها الدر والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها يبقى لا ييأس، ويخلد لا يموت، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»(٢).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ لابن صياد: «ما تربة الجنة؟» قال: درمكة بيضاء مسك يا أبا القاسم، قال: «صدقت». وعنه أن ابن صياد سأل رسول اللّه ﷺ عن تربة الجنة فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص»(٣).

عن أبي هريرة قال: «حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب، ودرجها اللؤلؤ والياقوت، قال: وكنا نحدث أن رضاختها اللؤلؤ، وترابها الزعفران»(٤). والرضاخة: الحصى الصغير.

قلتُ: كل هذا مرفوع حسب ما تقدّم في هذا الباب ويأتي.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٤٤٥)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٦) وغيرهما. وهو حديث حسن.

(٢) رواه الطيالسي (٢٥٨٣). وانظر السابق.

(٣) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٢٨).

(٤) ابن المبارك في زوائد الزهد (٢٥٢)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٩١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٨٧٥).

١٣٧ ـ باب ما جاء في أنهار الجنة وجبالها وما جاء في الدنيا منها

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. وروي أنها تجري في غير أخدود، منضبطة بالقدرة.

ويروىٰ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أنهار في الجنة تخرج من تحت تلال أو جبال مسك»[١].

عن حكيم بن معاوية، عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر اللبن، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تنشق الأنهار بعد ذلك»[٢].

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة»[٣]. وقال كعب: نهر دجلة نهر ماء الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر.

عن أنس في حديث الإسراء: «.. فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطَّرِدان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: النيل والفرات عنصرهما، ثم مضىٰ به في السماء؛ فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك»[٤].

---

(١) رواه ابن حبان (٧٤٠٨)، وله شاهد موقوف على ابن مسعود، رواه ابن أبي شيبة (١٣/ ٩٦، ١٤٧)، وهناد في الزهد (٩٤).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٥)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٧١)، والدارمي في سننه في الرقاق (٢٧٣١) وغيرهم.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢٨٣٩).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد (٧٥١٧).

١٣٨ ـ باب من أين تفجر أنهار الجنة ؟

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من آمن باللَّه ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على اللَّه أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل اللَّه أو جلس في أرضه التي ولد فيها، قالوا: يا رسول اللَّه، أفلا نبشِّر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيل اللَّه، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمـٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة»(١).

وقال أبو حاتم البستي: معنى قوله: «فإنه أوسط الجنة» يريد في الارتفاع.

وقال قتادة: الفردوس: «ربوة الجنة، وأوسطها، وأعلاها، وأفضلها، وأرفعها».

وقد قيل: إن الفردوس اسم يشمل جميع الجنة، كما أن جهنم اسم لجميع النيران كلها؛ لأن اللَّه تعالى مدح في أول سورة المؤمنين أقواماً وصفهم، ثم قال: ﴿هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، ثم أعاد ذكرهم في سورة المعارج فقال: ﴿أُولَـٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] فعلمنا أن الفردوس جنات لا جنة واحدة، قاله وهب بن منبه.

* * *

١٣٩ ـ باب ما جاء أن الخمر شراب أهل الجنة ومن شربه في الدنيا لم يشربه في الآخرة وفي لباس أهل الجنة وآنيتهم

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة» ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «لباس أهل

---

(١) رواه البخاري في الجهاد (٢٧٩٠)، وفي التوحيد (٧٤٢٣).

الجنة، وشراب أهل الجنة، وآنية أهل الجنة». [١]

قلتُ: إن قال قائل: قد سوىٰ النبي ﷺ بين الأشياء الثلاثة، وأنه يحرمها في الآخرة، فهل يحرمها إذا دخل الجنة؟ قلنا: نعم! إذا لم يتب منها؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة»[٢]. وكذلك لابس الحرير، ومن أكل في آنية الذهب والفضة، أو شرب فيها لاستعجاله ما أخّر اللّه له في الآخرة، وارتكاب ما حرّم اللّه عليه في الدنيا.

* * *

١٤٠ ـ باب ما جاء في أشجار الجنة وفي ثمارها وما يشبه ثمر الجنة في الدنيا

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يقول اللّه عز وجل «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر». اقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧] وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة: ٣٠] وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، واقرأوا إن شئتم ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥][٣].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين ـ أو قال: مائة ـ سنة، وهي شجرة الخلد»[٤].

---

(١) رواه ابن ماجه في الأشربة (٣٣٧٤) مختصراً. ورواه النسائي بطوله في الكبرىٰ (٦٨٦٩). وهو حديث حسن.

(٢) رواه البخاري في الأشربة (٥٥٧٥)، ومسلم في الأشربة (٢٠٠٣).

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) رواه البخاري في التفسير (٤٨٨١)، ومسلم في كتاب الجنة (٢٨٢٦).

وعن زياد مولىٰ بني مخزوم، أنه سمع أبا هريرة يقول: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، واقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾. فبلغ ذلك كعباً فقال: صدق والذي أنزل التوراة علىٰ لسان موسىٰ بن عمران، والفرقان علىٰ محمد ﷺ؛ لو أن رجلاً ركب حِقّةً أو جَذَعَةً ثم دار في أصل تلك الشجرة ما يبلغها حتىٰ يسقط هرماً. إن اللَّه تعالىٰ غرسها بيده، ونفخ فيها من روحه، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، وما في الجنة نهر إلَّا ويخرج من أصل تلك الشجرة»(١).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «لما رفعت لي سدرة المنتهىٰ في السماء السابعة، نبقها مثل قلال هجر، وورقها مثل آذان الفيلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران، ونهران باطنان، قلت: يا جبريل ما هذه؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»(٢).

قلتُ: كله لفظ مسلم إلَّا قوله: «نبقها مثل قلال هجر»(٣).

وعن مالك بن صعصعة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: الحديث ـ حديث الإسراء ـ وفيه: «ورفعت لي سدرة المنتهىٰ، فإذا نبقها كأنه قلال هجر، وورقها كأنه آذان الفيلة، وفي أصلها أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان». وذكر الحديث(٤).

وذكر مسلم من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، قالوا: يارسول اللَّه، رأيناك تناولت في مقامك شيئاً، ثم رأيناك تكعكعت؟ فقال: «إني رأيت الجنة

---

(١) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٢٦٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١٣٦) بنحوه.

(٣) الدارقطني في سننه (١/ ٢٥).

(٤) رواه البخاري في مواضع منها: بدء الخلق (٣٢٠٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٤).

فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منها ما بقيت الدنيا»[١]. تكعكعت: معناه تأخرت، يقال منه: كع يكع كعوعاً: تأخر، والكع: الضعيف العاجز، قال الشاعر:

ولكنني أمضي على ذاك مقدماً   إذا بعض من لاقى الخطوب تكعكعا

* * *

١٤١ ـ باب في كسوة الجنة وكسوة أهلها

قال اللَّه تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١] وقال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

عن البراء بن عازب قال: أُهدي لرسول اللَّه ﷺ سرقة من حرير فجعلوا يتداولونها بينهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أتعجبون منها؟» قالوا: نعم يا رسول اللَّه. قال: «والذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها»[٢].

* * *

١٤٢ ـ باب ما جاء أن شجر الجنة وثمارها تنفتق عن ثياب الجنة

عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ إذ جاء رجل فقال: يا رسول اللَّه، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة، أخلقًا تخلق، أو نسجاً تنسج؟ فضحك بعض القوم. فقال: «مِمَّ تضحكون؟ إن جاهلاً يسأل عالماً» فجلس يسيراً أو قليلاً، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أين السائل عن ثياب الجنة؟» فقالوا: ها هو ذا يا رسول اللَّه، قال: «لا. بل تنفتق عنها ثمر الجنة» قالها ثلاثاً[٣]. واللَّه أعلم.

---

(١) رواه البخاري في الكسوف (١٠٥٢)، ومسلم في الكسوف (٩٠٧).

(٢) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٦٨).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٠٣، ٢٢٤، ٢٢٥)، والنسائي في الكبرى (٥٨٧٢)، والطيالسي (٢٢٢٧). وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على المسند (٦٨٩٠).

١٤٣ ـ باب ما جاء في نخيل الجنة وثمرها وخيرها

عن ابن عباس قال: «نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرمها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال، والدلاء أشد بياضاً من اللبن وأحلىٰ من العسل، وألين من الزبد ليس فيها عجم»(١).

* * *

١٤٤ ـ باب الزرع في الجنة

عن أبي هريرة: أن رسول اللّه ﷺ كان يوماً يحدث ـ وعنده رجل من أهل البادية ـ أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له: أو لست فيما شئت؟ قال: بلىٰ! ولكني أحب أن أزرع؛ فأسرع وبذر فبادر الطرْفَ نباتُه واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال؛ فيقول اللّه: دونك يا ابن آدم فإنه لايشبعك شيء، فقال الأعرابي: يا رسول اللّه، لا تجد هذا إلّا قُرشياً أو أنصارياً، فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك رسول اللّه ﷺ(٢).

* * *

١٤٥ ـ باب ما جاء في أبواب الجنة، وكم هي؟ ولمن هي؟ وفي تسميتها وسعتها

قال اللّه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] قال جماعة من أهل العلم: هذه واو الثمانية، فللجنة ثمانية أبواب. واستدلوا بقوله

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٤٨٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٨٧)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٨٤) وغيرهم. وله شواهد يتقوىٰ بها عن درجة الحسن.

(٢) رواه البخاري في الحرث والمزارعة (٢٣٤٨)، وفي التوحيد (٧٥١٩).

عليه الصلاة والسلام: «وما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إلـٰه إلّا اللّه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلّا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» رواه عمر بن الخطاب(١).

وجاء في تعيين هذ الأبواب لبعض العلماء كما جاء في حديث أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل اللّه نودي في الجنة: يا عبد اللّه هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان؛ فقل أبو بكر: يا رسول اللّه، ما علىٰ أحد يدعىٰ من هذه الأبواب من ضرورة فهل يدعىٰ أحد من هذه الأبواب؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم»(٢).

قال القاضي عياض: ذكر مسلم في هذا الحديث من أبواب الجنة أربعة، وزاد غيره بقية الثمانية فذكر منها: باب التوبة، وباب الكاظمين الغيظ، وباب الراضين، والباب الأيمن الذي يدخل منه من لا حساب عليه.

عن خالد بن عمير، قال: خطبنا عتبة بن غزوان، وكان أميراً علىٰ البصرة فحمد اللّه وأثنىٰ عليه، وذكر الحديث علىٰ ما تقدّم، وفيه: ولقد ذُكر لنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أبعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام» الحديث(٣).

وعن أنس في حديث الشفاعة: «والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرىٰ»(٤).

---

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٤).

(٢) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٤١)، وفي بدء الخلق (٣٢١٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٢٧).

(٣) رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٧)، وقد مرّ في: باب منه وما جاء في شكوىٰ النار.

(٤) مرّ تخريجه.

وعن سهل بن سعد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف ـ لا يدري أبو حازم أيهما قال ـ متماسكون آخذ بعضهم بعضاً، لايدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، ووجوههم على صورة القمر ليلة البدر»(١).

فصل: قوله: «من أنفق زوجين في سبيل اللَّه» قال الحسن البصري: يعني اثنين من كل شيء: دينارين، درهمين، ثوبين، خفين. وقيل: يريد شيئين ديناراً ودرهماً، درهماً وثوباً، ونحو هذا. وقال الباجي: يحتمل أن يريد بذلك العمل من صلاتين أو صيام يومين.

* * *

بـــاب منـــه

عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن في الجنة باباً يقال له الريان، يدخل منه الصائمون فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم أُغْـلِقَ فلم يدخل منه أحد»(٢).

قلتُ: وهكذا واللَّه أعلم سائر الأبواب المختصة بالأعمال.

وجاء في حديث أبي هريرة الذي مرّ: أنّ من الناس من يدعى من جميع الأبواب. فقيل: ذلك الدعاء دعاء تنويه وإكرام وإعظام ثواب العاملين تلك الأعمال؛ إذ قد جمعها، ثم يدخل من الباب الذي غلب عليه العمل.

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال: أبو بكر: أنا. قال: فمَنْ تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمَنْ أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمَنْ عاد منكم اليوم

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥٤)، ومسلم في الإيمان (٢١٩).

(٢) رواه البخاري في الصوم (١٨٩٦)، ومسلم في الصيام (١١٥٢).

مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا، قال رسول اللَّه ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلّا دخل الجنة»[١].

* * *

١٤٦ ـ باب ما جاء في دَرَج الجنة وما يحصلها للمؤمن

عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «الجنة مائة درجة، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، وإن أعلاها الفردوس وأوسطها الفردوس، وإن العرش على الفردوس، منها تفجر أنهار الجنة، فإن سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس»[٢].

قلتُ: قد خرَّجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه كما تقدم[٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد؛ فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه»[٤].

عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٥].

فصل: قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: حملة القرآن وقرَّاؤه هم العالمون بأحكامه وبحلاله وحرامه، والعاملون بما فيه. وقال مالك: قد يقرأ القرآن من لا خير فيه.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة (١٠٢٨).

(٢) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٠). وقد قيل إن عطاء لم يدرك معاذ بن جبل ولكن يشهد له حديث أبي هريرة.

(٣) مرّ في باب (١٣٨) من أين تفجر أنهار الجنة؟

(٤) رواه أحمد (٢/ ١٩٢) عن ابن عمرو، و(٣/ ٤٠) عن أبي سعيد، ورواه ابن ماجه في الأدب (٣٧٨٠) عنه. وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على المسند (٦٧٩٩)، (١١٣٧٨).

(٥) رواه أبو داود في الصلاة (١٤٦٤)، والترمذي في ثواب القرآن (٢٩١٤).

وفي البخاري: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجَّة، طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالثمرة طعمها طيب ولا ريح لها»[1].

وقد تقدّم: أن في الجنة مائة درجة أعدّها اللّه للمجاهدين في سبيله؛ فالجهاد يحصل مائة درجة، وقراءة القرآن تحصل جميع الدرجات، واللّه المستعان على ذلك والإخلاص فيه بمنه وفضله.

* * *

١٤٧ ـ باب ما جاء في غرف الجنة، ولمن هي؟

قال اللّه تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠] الآية. وقال: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] وقال: ﴿أُولَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

عن سهل بن سعد أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدريّ الغائر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول اللّه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلىٰ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا باللّه وصدّقوا المرسلين»[2].

وروىٰ أبو سعيد الخدري رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الغرف ليتراءون عليين كما تتراءون الكوكب الدريّ في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»[3].

---

(١) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٢٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٧).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥٦)، ومسلم في صفة الجنة (٢٨٣١).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٢٧، ٥٠، ٦١، ٧٢، ٩٣)، وأبو داود في كتاب الحروف والقراءات (٣٩٨٧)، والترمذي في المناقب (٣٦٥٨)، وابن ماجه في المقدمة (٩٦) وغيرهم. وهو حديث حسن.

وعن علي رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرىٰ ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها» فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول اللَّه؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلىٰ للَّه بالليل والناس نيام»[1].

فصل: اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلو والصفة بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال، فبعضها أعلىٰ من بعض وأرفع، وقوله: «الغائر في الأفق من المشرق أو المغرب» يروىٰ بالياء اسم فاعل، من غار. وقد روي في غير مسلم: الغارب بتقديم الراء، والمعنىٰ واحد. وروي الغابر بالياء بواحدة، ومعناه الذاهب أو الباقي، فإن غبر من الأضداد، يقال غبر إذا ذهب، وغبر إذا بقي، ويعني به أن الكوكب حالة طلوعه وغروبه بعيد عن الأبصار فيظهر صغيراً لبعده، وقد بيَّنه بقوله: من المشرق أو المغرب. وقد روي العازب بالعين المهملة والزاي، أي البعيد ومعانيها كلها متقاربة المعنىٰ[2].

وقوله: «والذي نفسي بيده رجال آمنوا باللَّه وصدّقوا المرسلين» لم يذكر عملاً ولا شيئاً سوىٰ الإيمان والتصديق للمرسلين؛ وذلك ليعلم أنه عَنَىٰ الإيمان البالغ وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج، وإلَّا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة؟! ولو كان كذلك كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات وأرفع الدرجات، وهذا محال، وقد قال اللَّه تعالىٰ ﴿أُولَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥] والصبر بذل النفس والثبات له وقوفاً بين يديه بالقلوب عبودية. وهذه صفة المقربين. وقال في آية أخرىٰ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٥٦)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٧). وله شواهد يتقوىٰ بها.

(٢) الذي في البخاري (الغارب)، وفي مسلم (الغابر).

الضِّعْـفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] ، فذكر شأن الغرفة وأنها لا تنال بالأموال والأولاد، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، ثم بيّن لهم جزاء الضعف وأن محلّهم الغرفات، يعلمك أن هذا إيمان طمأنينة وتعلّق قلب به مطمئنّاً به في كل ما نابه، وبجميع أموره وأحكامه؛ فإذا عمل عملاً صالحاً فلا يخلطه بضده وهو الفاسد، فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلّا مع إيمان بالغ. مطمئن صاحبه بمن آمن وبجميع أموره وأحكامه، والمخلط ليس إيمانه وعمله هكذا. فلهذا كانت منزلته دون غيره.

وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الأَبْـرَارَ يَشْـرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ [الإنسان: ٥] وقال: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْـنًا يَشْـرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨] فلما باين بين الأبرار والمقربين في الشراب باين بينهم في المنازل والدرجات وأعالي الغرفات حسب ما باين بينهم في الأعمال الصالحات بالاجتهاد في الطاعات. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْـرَارِ لَفِي عِلِّيِينَ﴾ [المطففين: ١٨] فيجتهد الإنسان أن يكون من الأبرار المقربين ليكون في عليين، وأصحاب عليين جلساء الرحمٰن، وهم أصحاب المنابر من النور في المقعد الصدق، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ إلىٰ قوله ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٢] فأصحاب اليمين في علو الجنان أيضاً وجميعها عوالي، وجنات المقربين جميعها علالي، وإحداهن: علية، كقول الشاعر:

ألَا يا عين ويحك أسعديني	بغزر الدّمع في ظلم الليالي
لعلك في القيامة أن تفوزي	بخير الدار في تلك العلالي

* * *

١٤٨ ـ باب ما جاء في قصور الجنة ودورها وبيوتها وبما ينال ذلك المؤمن

عن بريد بن الحصيب قال: أصبح رسول اللّه ﷺ فدعا بلالاً فقال: «يا بلال بما سبقتني إلى الجنة؟ فما دخلت الجنة إلّا سمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل عربي، فقلت: أنا عربي لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من قريش. قلت: أنا قرشي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد. قلت: أنا محمد لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فقال بلال: يا رسول اللّه ما أذّنت قط إلّا صليت ركعتين، وما أصابني حدَثٌ إلّا توضأت عنده ورأيت أن للّه تعالى عليَّ ركعتين، فقال رسول اللّه ﷺ: «بهما»[1].

عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت لمن هذا؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب»[2].

عن أبي سنان قال: دفنت ابني سناناً وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر فقال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمـٰن عن أبي موسى قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا قبض اللّه عز وجل ابن العبد قال للملائكة: ماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسمُّوه بيت الحمد»[3].

* * *

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٥٤، ٣٦٠)، والترمذي في المناقب (٣٦٨٩) وغيرهما. وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٠٧)، والترمذي في المناقب (٣٦٨٨) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٤١٥)، والترمذي في الجنائز (١٠٢١). وهو حسن لغيره.

١٤٩ ـ باب ما جاء في خيام الجنة وأسواقها

عن أبي موسىٰ الأشعري أن رسول اللَّه ﷺ قال: «في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل للمؤمن ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن» في رواية، قال: «الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل للمؤمن ما يرون الآخرين»(١).

وعن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم المسك؛ فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلىٰ أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: واللَّه لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً»(٢).

* * *

١٥٠ ـ باب أول الناس يسبق إلى الجنة الفقراء

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام: نصف يوم». وفي طريق أخرىٰ: «يدخل فقراء المسلمين قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام»(٣).

قلتُ: وقد احتج بأحاديث هذا الباب من فضل الفقير علىٰ الغني، وقد اختلف الناس في هذا المعنىٰ، وطال فيه الكلام بينهم حتىٰ صنفوا فيه كتباً وأبواباً، واحتج كل فريق لمذهبه في ذلك، والأمر قريب. وقد سئل أبو علي الدقاق: أي الوصفين أفضل: الغنىٰ أو الفقر؟ فقال: الغنىٰ؛ لأنه وصف الحقّ والفقر وصف الخَلق، ووصف الحق أفضل من وصف الخَلق، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٨).

(٢) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٣).

(٣) رواه أحمد (٢/٢٩٦، ٤٥١، ٥١٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٥٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٢).

﴿أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] . وبالجملة: فالفقير بالحقيقة العبد، وإن كان له مال، وإنما يكون غنياً إذا عوّل على مولاه، ولم ينظر إلى أحد سواه. فإن تعلّق باله بشيء من الدنيا، ورأى نفسه أنه فقير إليه؛ فهو عبده. قال رسول اللَّه ﷺ: «تعس عبد الدينار . . » الحديث[(١)]، وإنما شرف العبد افتقاره إلى مولاه، وعزه في خضوعه له

ولقد أحسن من قال:

وإذا تذلّلت الرّقاب تواضعاً ... منّا إليك فعزّها في ذلّها

فالغنيّ المعلق بالمال، الحريص عليه، الراغب فيه هو الفقير حقيقة، وخادمه الذي يقول: ما أبالي به، ولا لي رغبة فيه، وإنما هو ضرورة العيش؛ فإذا وجدتها فغيرها زيادة تشغل عن الإرادة فهو الغني حقيقة. قال رسول اللَّه ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»[(٢)]. وأخذ عثمان بن سعدان الموصلي هذا المعنى فقال:

تقنع بما يكفيك واستعمل الرضى ... فإنك لا تدري أتصبح أم تمسي

فليس الغنى عن كثرة المال إنما ... يكون الغنى والفقر من قبل النفس

قلتُ: هنا درجة ثالثة رفيعة وهي الكفاف، التي سألها رسول اللَّه ﷺ فقال: «اللّهم اجعل رزق آل محمد قوتًا» وفي رواية: «كفافًا»[(٣)]. ومعلوم أنه عليه الصلاة والسلام لا يسأل إلّا أفضل الأحوال وأسنى المقامات والأعمال. واتفق الجميع على: أن ما أحوج من الفقر مكروه، وما أبطر من الغنى مذموم.

فالكفاف: حالة متوسطة بين الغنى والفقر، فهي حالة سليمة من آفات الغنى

---

(١) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٧٦)، و(٢٨٨٧)، وفي الرقاق (٦٤٣٥).
(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١).
(٣) رواه مسلم في الزكاة، وأعاده في الزهد (١٠٥٥).

المطغي وآفات الفقر المدقع، الذي كان يتعوّذ منهما النبي ﷺ، فكانت أفضل منهما. ثم إن حالة صاحب الكفاف حالة الفقير الذي لا يترفه في طيبات الدنيا ولا في زهرتها، فكانت حاله إلىٰ الفقر أقرب. لقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب علىٰ الصبر، وكُفِيَ مرارته وآفاته؛ وعلىٰ هذا فأهل الكفاف هم إن شاء اللَّه صدر كتيبة الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؛ لأنهم وسطهم، والوسط: العدل كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدولاً خياراً، وليسوا من الأغنياء كما ذكرنا.

* * *

بـــاب منــــه

عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: «يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول اللَّه ﷺ فينا فقال: أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتىٰ يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يتشهد. ولا يخلون رجل بامرأة لا تحل له إلّا كان ثالثهما الشيطان. عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الإثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ومن سرّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن»(١).

* * *

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٨، ٢٦)، (٣/ ٤٤٦)، والترمذي في الفتن (٢١٦٥).

باب منه
ما جاء في صفة أهل الجنة ومراتبهم وسنهم وطولهم وشبابهم وعرقهم وثيابهم وأمشاطهم ومجامرهم وأزواجهم وليس في الجنة عزب

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة (وفي رواية: من أمتى) على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دريّ في السماء أضاء (وفي رواية: ثم هم بعد ذلك منازل). لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب (وفي رواية: الفضة) ورشحهم المسك ومجامرهم الألُوّة، وأزواجهم الحور العين (وفي رواية: لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقيها من وراء اللحم من الحسن) لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يُسبّحون اللّه بكرة وعشيّاً»[1].

قال أبو علي: الألوة: هو العود. وفي رواية: «أخلاقهم على خلق رجل واحد على طول أبيهم». وفي رواية: «على صورة أبيهم ستون ذراعاً في السماء».

وقال أبو كريب: على خلق رجل واحد. وقال أبو هريرة حين تذاكروا: الرجال في الجنة أكثر أم النساء؟ فقال: لكل رجل منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ ساقيها من وراء اللحم، وما في الجنة عزب.

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[2].

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٣٤).
(٢) رواه البخاري في الجهاد (٢٧٩٦)، وفي الرقاق (٦٥٦٨).

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أهل الجنة جرد مرد كحل، لا يفنىٰ شبابهم ولا تبلىٰ ثيابهم»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ قال: «لو أن ما يقله ظفر مما في الجنة بدا إلىٰ الدنيا لتزخرف له ما بين خوافق السمٰوات والأرض، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدت أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم»(٢).

فصل: في حديث أبي هريرة: «لكل واحد منهم زوجتان»، وقد تقدم من حديث عمران بن حصين: «أن أقل ساكني الجنة النساء».

قال علماؤنا: لم يختلفوا في جنس النساء، وإنما اختلفوا في نوع من الجنس، وهو «نساء الدنيا ورجالها» أيهما أكثر في الجنة، فإن كانوا اختلفوا في المعنىٰ الأول وهو جنس النساء مطلقاً، فحديث أبي هريرة حجة، وإن كانوا اختلفوا في نوع من الجنس وهم أهل الدنيا فالنساء في الجنة أقل.

قلتُ: يحتمل أن يكون هذا في وقت كون النساء في النار، وأما بعد خروجهن في الشفاعة ورحمة اللَّه تعالىٰ حتىٰ لا يبقىٰ فيها أحد ممن قال لا إلـٰه إلَّا اللَّه، فالنساء في الجنة أكثر، وحينئذ يكون لكل واحد منهم زوجتان من نساء الدنيا، وأما الحور العين فقد تكون لكل واحد منهم الكثير منهن.

وقوله: «وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة». قد يقال هنا: أيُّ حاجة في الجنة للامتشاط ولا تتلبد شعورهم ولا تتسخ؟ وأيُّ حاجة للبخور وريحهم أطيب من المسك؟ فيجاب عن ذلك: بأن نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن رفع ألم اعتراهم، فليس أكلهم عن جوع، ولا شرابهم عن ظمأ، ولا تطيبهم

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٩٥)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٩). وله شواهد يتقوىٰ بها.
(٢) رواه أحمد (١/ ١٧١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٨).

عن نتن، وإنما هي لذّات متوالية، ونِعَمٌ متتابعة؛ ألا ترى قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]؛ وحكمة ذلك أن اللَّه تعالى نعّمهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلَّا اللَّه عز وجل.

قلتُ: وقد جاء مثل هذا في أهل النار؛ حيث قال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] وقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢] فعذبهم في النار بنوع ما كانوا يعذبون به في الدنيا. قال الشعبي: أترون أن اللَّه جعل الأنكال في الرجل خشية أن يهربوا؟ لا واللَّه، ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استثقلت بهم.

* * *

١٥١ ـ باب ما جاء أن الأعمال الصالحة مهور الحور العين

قال اللَّه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلى قوله ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «للشهيد عند اللَّه ست خصال» الحديث وفيه: «ويُزوَّج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين»، وقد تقدم في باب ما ينجي من أهوال القبر وفتنته.

قلت: وهذا يؤيد ما ذكرناه في حديث أبي هريرة: «لكل واحد منهم زوجتان»، أن ذلك من نساء الدنيا، وقال يحيى بن معاذ: ترك الدنيا شديد، وفوت الجنة أشد، وترك الدنيا مهر الآخرة.

ويُروى عن أبي هريرة: «يتزوج أحدكم فلانة بنت فلان بالمال الكثير، ويدع الحور العين باللقمة، والتمرة، والكسوة!؟!».

وروي عن سحنون أنه قال: كان بمصر رجل يُقال له سعيد، وكانت له أمّ من

المتعبدات، وكانت إذا قام من الليل يصلي تقوم والدته خلفه، فإذا غلب عليه النوم ونعس تناديه والدته: يا سعيد، إنه لا ينام من يخاف النار، ويخطب الحور الحسان؛ فيقوم مرعوباً.

ويروىٰ عن ثابت أنه قال: كان أبي من القوّامين للّه في سواد الليل، قال: رأيت ذات ليلة في منامي امرأة لا تشبه النساء، فقلت لها: مَنْ أنتِ؟ فقالت: حوراء أمة اللّه، فقلت لها: زوجيني نفسك، فقالت: اخطبني من عند ربي وأمهرني. فقلت: وما مهركِ؟ فقالت: طول التهجّد. وأنشدوا:

يا خاطبَ الحُورِ في خِدْرِها ... وطالباً ذاك علىٰ قَدْرِها
انهض بجدٍّ لا تكن وانياً ... وجاهد النَّفْسَ علىٰ صَبْرِها
وجانب الناسَ وارفضهمُ ... وحالف الوحدة في ذكرها
وقمْ إذا الليل بدا وجهه ... وصُمْ نهاراً فهو من مهرها
فلو رأت عيناك إقبالها ... وقد بدت رمانتا صَدْرِها
وهي تماشي بين أترابها ... وعقدها يشرق في نحرها
لهان في نفسك هذا الذي ... تراه في دنياك من زهْرها

وقال مضر القارئ: غلبني النَوم ليلة فنمت عن حزبي، فرأيت في منامي فيما يرىٰ النائم جارية ـ كأن وجهها القمر المستتم ـ ومعها رَقّ، فقالت: أتقرأ أيها الشيخ؟ قلت: نعم. فقالت: اقرأ هذا الكتاب، ففتحته فإذا فيه مكتوب: فواللّه ما ذكرته قط إلّا ذهب عني النوم:

ألهتكَ اللّذائذ والأماني ... عن الفِرْدَوْسِ والظلل الدواني
ولذّة نومة عن خير عيشٍ ... مع الخيراتِ في غُرَفِ الجنانِ
تيقّظ من منامك إنّ خيراً ... من النوم التّهجد بالقُرانِ

وقال مالك بن دينار: كان لي أحزاب أقرؤها كل ليلة، فنمت ذات ليلة، فإذا

أنا في المنام بجارية ذات حسن وجمال وبيدها رقعة، فقالت: أتحسن أن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت إليَّ الرقعة، فإذا فيها مكتوب هذ الأبيات:

لَهَاكَ النومُ عن طلب الأماني ... وعن تلك الأوانس في الجنانِ
تعيشُ مخلّدًا لا موت فيها ... وتلهو في الخيام مع الحسانِ
تنبَّه من منامِك إنّ خيراً ... من النوم التهجّد بالقرآنِ

* * *

١٥٢ ـ باب المرأة لآخر أزواجها في الجنة[١]

خطب معاوية بن أبي سفيان أم الدرداء فأبت وقالت: سمعت أبا الدرداء يحدث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «المرأة لآخر أزواجها في الجنة. وقال لي: إن أردت أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجي من بعدي»[٢].

* * *

١٥٣ ـ باب ما جاء أن في الجنة أكلاً وشرباً ونكاحاً حقيقة ولا قذر فيها ولا نقص ولا نوم

عن جابر بن عبد اللّه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون. قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء أو رشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد (وفي رواية: والتكبير) كما يلهمون النفس»[٣].

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يُعطىٰ المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا

---

(١) هذا العنوان من اختيارنا ليناسب محتوىٰ الباب ويطابقه.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٣١٥٤) وقال: لم يرد هذا الحديث عن أبي بكر بن أبي مريم إلَّا الوليد. قلت: له طرق وشواهد يتقوىٰ بها في الصحيحة (١٢٨١).

(٣) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٥).

في الجماع» قيل: يا رسول اللَّه أَوَ يطيقُ ذلك؟ قال: «يُعطىٰ قوة مائة»(١).

عن زيد بن أرقم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الرجل من أهل الجنة ليُعطىٰ قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة» فقال رجل من اليهود: إن الذي يأكل ويشرب يكون منه الحاجة؟ قال: «ثم يفيض من جلده عرق فإذا بطنه قد ضمر»(٢).

* * *

١٥٤ ـ باب المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «المؤمن إذا اشتهىٰ الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنّه في ساعة كما يشتهي»(٣).

قال الترمذي: وقد اختلف أهل العلم في هذا، فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد. وهكذا يروىٰ عن طاووس ومجاهد وإبراهيم النخعي. وقال محمد: قال إسحاق بن إبراهيم، في حديث النبي ﷺ «إذا اشتهىٰ المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة كما يشتهي، ولكن لا يشتهي هذا أبداً». واللَّه أعلم.

* * *

١٥٥ ـ باب ما جاء أن كل ما في الجنة دائم لا يبلى ولا يفنى ولا يبيد

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إن لكم

---

(١) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٦) من حديث أنس، ورواه أحمد (٤/ ٣٧١) من حديث زيد ابن أرقم ـ وهو التالي ـ؛ فالحديث صحيح بمجموع الطريقين

(٢) انظر السابق.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٦٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٨).

أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»[١].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ولا يبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»[٢].

* * *

١٥٦ ـ باب ما جاء أن المرأة من أهل الجنة ترى زوجها من أهل الدنيا في الدنيا

عن معاذ بن جبل قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلَّا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك اللَّه، فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا»[٣].

* * *

١٥٧ ـ باب ما جاء في طير الجنة وإبلها وخيلها

عن أنس بن مالك قال: سئل رسول اللَّه ﷺ: ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه اللَّه ـ يعني في الجنة ـ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجُزُر» فقال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول اللَّه ﷺ: «أكلها أنعم منها»[٤].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢٨٣٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢٨٣٦).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٤٢)، والترمذي في الرضاع (١١٧٤)، وابن ماجه في النكاح (٢٠١٤). وهو حديث حسن.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٢٢١، ٢٣٦، ٢٣٧)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٢).

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[١].

وسيأتي ذكر «الخيل والنجائب» في الباب التالي.

* * *

١٥٨ ـ باب ما جاء أن الحناء سيد ريحان الجنة

عن عبد اللَّه بن عمرو قال: «الحناء سيد ريحان الجنة، وأن فيها من عتاق الخيل وكرام النجائب يركبها أهلها»[٢].

* * *

١٥٩ ـ باب ما جاء أن الشاة والمعزى من دواب الجنة

عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الشاة من دواب الجنة»[٣]. وفي كتاب البزار، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أحسنوا إلىٰ المعزىٰ وأميطوا عنها الأذىٰ فإنها من دواب الجنة»[٤]. وفي التنزيل: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] وإنما سمّي عظيماً لأنه رعىٰ في الجنة أربعين عاماً، روي ذلك عن ابن عباس رضي اللَّه عنه.

* * *

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٩٢).

(٢) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (٢٣١).

(٣) رواه ابن ماجه في التجارات (٢٣٠٦). وله طرق وشواهد يتقوىٰ بها. انظر: السلسلة الصحيحة (١١٢٨).

(٤) رواه البزار (١٣٢٩)، (١٣٣٠) وأعله في الطريقين، وقد جاء بنحوه موقوفاً علىٰ أبي هريرة في الموطأ في كتاب صفة النبي ﷺ (ص٩٣٣ ـ ٩٣٤)، ومسند أحمد (٢/٤٣٦). وانظر المصدر السابق. والمجمع (٤/٦٦).

١٦٠ ـ باب ما جاء أن للجنَّة رُبْضًا وريحاً وكلاماً

عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لما خلق اللّه جنة عدن، وغرس أشجارها بيده قال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] »(١).

وعن النبي ﷺ قال: «خلق اللّه الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وقال لها تكلمي فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فقال: طوبى لك منزل الملوك»(٢). وهذا يروى موقوفاً عن أبي سعيد الخدري قال: «لما خلق اللّه الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها. قال لها تكلمي فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فدخلتها الملائكة. فقالت: طوبى لك منزل الملوك»(٣).

وروي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لما خلق اللّه الجنة قال لها: تزيني فتزينت، ثم قال لها: تكلمي فتكلمت، ثم قالت: طوبى لمن رضيت عنه»(٤).

عن فضالة بن عبيد قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «أنا زعيم ـ والزعيم الحميل ـ لمن آمن بي وأسلم وجاهد في سبيل اللّه ببيت له في رُبُض الجنة، وبيت في وسط الجنة، وبيت في أعلى غرف الجنة، من فعل ذلك فلم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً، يموت حيث شاء أن يموت»(٥).

وعن أبي هريرة أنه قال: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام» هذا موقوف. قال أبو عمر ابن عبد البر: وقد رواه عبد اللّه بن نافع الصائغ عن مالك

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٣١٨)، وله شواهد سيأتي بعضها تجعله قابلاً للتحسين. وانظر: التذكرة (١٦٠٦).

(٢)، (٣)، (٤) انظر السابق.

(٥) رواه النسائي في كتاب الجهاد (٦/ ٢١).

بهذا الإسناد عن النبي ﷺ[١].

وعن عبد اللَّه بن عمر عن النبي ﷺ قال: «من قَتَلَ نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وأن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[٢].

* * *

١٦١ ـ باب ما جاء في أن الجنة قيعان وأن غراسها: سبحان اللَّه والحمد للَّه

عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بي فقال: يا محمد اقرأ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إله إلَّا اللَّه، واللَّه أكبر»[٣].

عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ مرّ به وهو يغرس غرساً فقال: «يا أبا هريرة ما الذي تغرس؟ قال: غرساً. قال: ألَا أدلّك علىٰ غراس خير من هذا؟ سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إلـٰه إلَّا اللَّه، واللَّه أكبر، يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة»[٤].

عن جابر بن عبد اللَّه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قال سبحان اللَّه العظيم وبحمده غُرست له نخلة في الجنة»[٥].

---

(١) رواه مسلم مرفوعاً في كتاب اللباس والزينة (٢١٢٨). ولكن لم يقل: «خمسمائة عام» ولكن قال: «كذا وكذا». والموقوف: رواه مالك في الموطأ في اللباس (ص٩١٣).

(٢) رواه البخاري كتاب الجزية (٣١٦٦)، وفي الديات (٦٩١٤).

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٦٢). وله شواهد يتحسن بها. انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٥).

(٤) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٧). وانظر السابق.

(٥) رواه أحمد (٣/ ٢٧٣، ٤٤٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٤).

١٦٢ ـ باب ما لأدنى أهل الجنة وما لأعلاهم

عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول اللّه ﷺ قال: «سأل موسى عليه السلام ربّه، فقال: يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك ملِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت، قال: يا رب فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردت، غرستُ كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه من كتاب اللّه: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧]. وقد روي موقوفاً عن المغيرة قوله[١].

عن عبد اللّه هو ابن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر الناس خروجاً من النار، رجل يخرج حبْواً، فيقول له ربه: ادخل الجنة فيقول: رب الجنة ملأى، فيقول له ذلك ثلاث مرات، كل ذلك يعيد عليه: الجنة ملأى، فيقول: إن لك مثل الدنيا عشر مرات»[٢].

وهذا يدل على أن أدنى أهل الجنة منزلة الكثير من الزوجات من الحور العين ما قررناه فيما تقدم، واللّه أعلم.

* * *

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٩).

(٢) رواه البخاري في التوحيد (٧٥١١)، ومسلم في الإيمان (١٨٦).

١٦٣ ـ باب رضوان اللّه تعالى لأهل الجنة أفضل من الجنة

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه تعالىٰ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا أيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»(١).

* * *

١٦٤ ـ باب رؤية أهل الجنة للّه تعالى أحب إليهم مما هم فيه وأقرّ لأعينهم

عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال اللّه تبارك وتعالىٰ لهم: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلىٰ ربهم عز وجل، وفي رواية: ثم تلا هذ الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»(٢).

* * *

باب منه في الرؤية

عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلىٰ ربهم عز وجل إلّا رداء الكبرياء علىٰ وجهه في جنة عدن»(٣).

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨١).

(٣) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٤٤)، ومسلم في الإيمان (١٨٠).

وعن جرير بن عبد اللَّه قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ فنظر إلىٰ القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩][١].

* * *

١٦٥ ـ باب ما جاء في أطفال المسلمين والمشركين[٢]

عن عليّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]، قال: هم أطفال المسلمين، لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم. وقال ابن عبد البر: الجمهور من العلماء: علىٰ أن أطفال المسلمين في الجنة. وقد ذهب طائفة من العلماء إلىٰ الوقف في أطفال المسلمين وأولاد المشركين أن يكونوا في جنة أو في نار، منهم حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحق بن راهويه لحديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن الأطفال فقال: «اللَّه أعلم بما كانوا عاملين»[٣]، هكذا قال «الأطفال» ولم يخص طفلاً عن طفل.

قال الحليمي: وقد توقف في ولدان المسلمين من توقف في ولدان المشركين، وقال: إذا كان كل منهم يعامل بما علم اللَّه تعالىٰ منه أنه فاعله لو بلغه فكذلك ولدان المسلمين. واحتج بأن صبياً صغيراً مات لرجل من المسلمين، فقالت إحدىٰ

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٤)، ومسلم في المساجد (٦٣٣).

(٢) تنبيه: هذا الباب حاولنا تلخيصه دون تدخل أو تعقيب؛ وإلّا فالكلام والتعقب في هذا الباب يطول.

(٣) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الجنائز (١٣٨٤)، ومسلم في كتاب القدر (٢٦٥٩).

نساء النبي ﷺ: طوبىٰ له عصفور من عصافير الجنة. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك إن اللَّه خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً»[(١)]. قال: فهذا يدل علىٰ أنه لا يمكن أن يقطع في أطفال المسلمين بشيء.

قال الحليمي: وهذا الحديث يحتمل أن يكون إنكار النبي ﷺ علىٰ التي قطعت بأن الصبي في الجنة؛ لأن القطع بذلك قطع بإيمان أبويه، وقد يحتمل أن يكونا منافقين؛ فيكون الصبي ابن كافرين، فيخرج هذا علىٰ قول من يقول: قد يجوز أن يكون ولدان المشركين في النار، وقد يحتمل أن يكون أنكر ذلك؛ لأنه لم يكن أنزل عليه في ولدان المسلمين شيء ثم أنزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: ٢١] وقد قرئ: ﴿وَأَتۡبَعۡنَاهُمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، فأخبر تعالىٰ أن الذين آمنوا في الحياة الدنيا جعل ذرياتهم أتباعهم في الإيمان، وأنه يلحق بهم ذرياتهم في الآخرة، فثبت بذلك أن ذراري المسلمين في الجنة، وقال النبي ﷺ: «سألت ربي أن يريني أهل الجنة وأهل النار فجاءني جبريل وميكائيل عليهما السلام في النوم فقالا: انطلق يا أبا القاسم إلىٰ أن قال: وأنا أسمع لغط الصبيان، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هم ذريَّة أهل الإسلام الذين يموتون قبل آبائهم يتكفل بهم إبراهيم عليه السلام حتىٰ يلحق آباؤهم»[(٢)]. فدلّ أنهم في الجنة.

قال المؤلف رحمه اللَّه: الحديث الذي احتجوا به عن عائشة رضي اللَّه عنها أن النبي ﷺ أتي بصبي من الأنصار ليصلىٰ عليه فقلت: يا رسول اللَّه طوبىٰ له

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر (٢٦٦٢).

(٢) رواه ابن حبان (٧٤٩١)، وابن خزيمة (١٩٨٦)، والحاكم مختصراً (١/ ٤٣٠)، والطبراني في الكبير (٧٦٦٦)، (٧٦٦٧). قال الهيثمي في المجمع (١/ ٧٧): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً قط ولم يدره، فقال: يا عائشة، أو لا تدرين أن اللَّه تبارك وتعالى خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً، وهم من أصلاب آبائهم».

وقال طائفة: أولاد المسلمين في الجنة وأولاد المشركين في النار، واحتجوا بما ذكرناه من الآية والحديث.

عن عبد اللَّه بن قيس يقول: سمعت عائشة سألت رسول اللَّه ﷺ عن ذراري المسلمين فقال: «هم مع آبائهم» قلت: بلا عمل؟ قال: «اللَّه أعلم بما كانوا عاملين» وسألته عن ذراري المشركين فقال: «مع آبائهم» فقالوا: بلا عمل؟ قال: «اللَّه أعلم بما كانوا عاملين»(١). قال ابن عبد البر: عبد اللَّه بن قيس هذا شامي تابعي ثقة، وأما بقية بن الوليد فضعيف وأكثر حديثه مناكير. ولكن هذا الحديث قد روي مرفوعاً عن عائشة من غير هذا الوجه.

وقالت طائفة: إن الأطفال يمتحنون في الآخرة؛ واحتجوا بحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ في الهالك في الفترة والمعتوه والمولود؛ قال: يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب ولا رسول ثم تلا ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ [طه: ١٣٤] الآية. ويقول المعتوه: رب لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً. ويقول المولود: رب لم أدرك العمل. فترفع لهم نار، فيقول لهم: ردوها وادخلوها، قال: فيردها أو يدخلها مَنْ كان في علم اللَّه سعيداً لو أدرك العمل، ويمسك عنها مَنْ كان في علم اللَّه شقياً لو أدرك العمل، قال فيقول اللَّه: إياي عصيتم فكيف رسلي لو أتتكم»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٨٤)، وأبو داود في السنة (٤٧١٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ١٢٢).
(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٤). وله طرق يتقوىٰ بها.

قال أبو عمر: من الناس مَنْ يوقف هذا الحديث على أبي سعيد ولا يرفعه.

قلت: ويضعفه من جهة المعنى أن الآخرة ليست بدار تكليف وإنما هي دار جزاء وثواب وعقاب.

قال الحليمي: وهذا الحديث ليس بثابت وهو مخالف لأصول المسلمين؛ لأن الآخرة ليست بدار الامتحان، فإن المعرفة بالله تعالى فيها تكون ضرورة ولا محنة مع الضرورة؛ ولأن الأطفال هناك لا يخلو من أن يكونوا عقلاء أو غير عقلاء، فإن كانوا مضطرين إلى المعرفة فلا يليق بأحوالهم المحنة، وإن كانوا غير عقلاء فهم من المحنة أبعد.

وقال أبو عمر رحمه الله: هذه الأحاديث من أحاديث الشيوخ وفيها علل، وليست من أحاديث الأئمة والفقهاء، وهو أصل عظيم، والقطع فيه بمثل هذه الأحاديث ضعيف في العلم والنظر، مع أنه قد عارضها ما هو أقوى مجيباً منها.

عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ الحديث الطويل «حديث الرؤيا» وفيه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يُولد على الفطرة» فقيل: يا رسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين».

وخرّج البخاري أيضاً في رواية أخرى: «والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام، والصبيان حوله أولاد الناس»[1]. وهذا يقتضي عمومه جميع الناس.

قلت: ذهب إلى هذا جماعة من العلماء، وهو أصح شيء في الباب، قالوا: أولاد المشركين إذا ماتوا صغاراً في الجنة.

وذكر جماعة من العلماء بالتأويل أن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صور الذر أقرّوا له بالربوبية، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٨٦).

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا: بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقرّوا له بأنه لا إلـه إلّا هو، ثم يكتب العبد في بطن أمّه شقيّاً أو سعيداً على الكتاب الأول، فمَنْ كان في الكتاب الأول شقيّاً عُمِّر حتىٰ يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك، ومَنْ كان في الكتاب الأول سعيداً عمّر حتىٰ يجري عليه القلم فيؤمن فيصير سعيداً، ومن مات صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم في النار؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم ﷺ ولم ينقضوا الميثاق.

ويكون معنىٰ قوله عليه الصلاة والسلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال: «اللّٰه أعلم بما كانوا عاملين» يعني: لو بَلَغُوا؛ بدليل حديث البخاري وغيره مما ذكرناه.

عن أنس قال: سئل رسول اللّٰه ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «لم يكن لهم حسنات فيجزوا بها فيكونوا من ملوك الجنة، ولم يكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار؛ فهم خدم لأهل الجنة»(١).

ومن حديث عياض بن حمار المجاشعي عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال في خطبته: «إن اللّٰه أمرني أن أعلمكم، . . . وقال: إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم»(٢).

---

(١) رواه الطيالسي (٢١١١)، والطبراني في الأوسط (٢٩٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٨). وله طرق وشواهد يتقوىٰ بها. وانظر: السلسلة الصحيحة (١٤٦٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢٨٦٥).

قال أبو عبد اللّه الترمذي: وهذا بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا، وتأكدت حجة اللّه عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة من خلق السمـٰوات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر، واختلاف الليل والنهار، فلما غلبت أهواؤهم عليهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلىٰ اليهودية والنصرانية بأهوائهم يميناً وشمالاً.

قلت: وهذا أيضاً يقوي ما اخترناه أن أطفال المشركين في الجنة، وحديث عياض بن حمار خرّجه مسلم في صحيحه وحسبك حسبك. وللعلماء في الفطرة أقوال قد ذكرناها في كتاب جامع أحكام القرآن من سورة الروم، والحمد للّه.

* * *

باب منه وفي ثواب من قدم ولداً

عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة رضي اللّه عنه: إنه مات لي ابنان فما أنت محدثي عن رسول اللّه ﷺ تطيّب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: «نعم صغارهم دعاميص الجنة، يتلقىٰ أحدهم أباه ـ أو قال أبويه ـ فيأخذ بثوبه ـ أو قال: بيده ـ كما آخذ أنا بِصَنِفَةِ ثوبك هذا، فلا يتناهىٰ ـ أو قال: فلا ينتهي ـ حتىٰ يدخله اللّه وأبويه الجنة»[1] [صنفة الثوب: طرفه].

وعن معاوية بن قرة، عن أبيه، أن النبي ﷺ كان يختلف إليه رجل من الأنصار معه ابن له، فقال له رسول اللّه ﷺ ذات يوم: «أتحبه يا فلان»؟ فقال: نعم. قال: «أحبك اللّه كما أحبه» ففقده النبي ﷺ، فسأل عنه فقالوا: يا رسول اللّه مات ابنه، فقال رسول اللّه ﷺ: «أما ترضىٰ أو لا ترضىٰ أن لا تأتي يوم القيامة باباً من أبواب الجنة إلّا جاء يسعىٰ حتىٰ يفتحه لك» فقالوا: يا رسول اللّه، أله وحده أم لنا كلنا؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «بل لكلكم»[2].

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٣٥).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٣٥، ٤٣٦)، (٤/ ١٩)، (٥/ ٣٥)، والنسائي في الجنائز (٤/ ٢٣ ـ ٢٤، ١١٨) وغيرهما.

وعن عبادة بن الصامت: أن رسول اللّه ﷺ قال: «والنفساء يجرها ولدها يوم القيامة بسرره إلى الجنة»(١).

فصل: هذا الحديث يدل على أن صغار أولاد المؤمنين في الجنة، وهو قول أكثر أهل العلم كما بيّنا في الباب قبل هذا، وهو مقتضى ظاهر قول اللّه عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] كما تقدّم.

وقد أنكر بعض العلماء الخلاف فيهم، وهذا فيما عدا أولاد الأنبياء عليهم السلام، فإنه قد تقرر الإجماع على أنهم في الجنة. حكاه أبو عبد اللّه المازري.

ودعاميص: جمع دعموص، وهو دويبة تغوص في الماء، والجمع دعاميص ودعامص. قال الأعشى:

فما ذنبنا أن حاش لي بحرُ عِلْمِكم وبحرك ساجٍ لا يواري الدعامصا

وقد قيل: إن الدعموص يراد به الآذن على الملوك، المتصرف بين أيديهم. قال أمية بن أبي الصلت:

دعموص أبواب الملوك وجانب للخرق فاتح

وهذا هو المراد بالحديث.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «مَنْ مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجاباً من النار وأدخل الجنة»(٢).

قال المؤلف رحمه اللّه: قوله عليه الصلاة والسلام: «لم يبلغوا الحنث» معناه عند أهل العلم: لم يبلغوا الحلم، ولم يبلغوا أن يلزمهم حنث.

وفي هذا دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة؛ لأن الرحمة إذا نزلت

---

(١) رواه الطيالسي (٥٧٨)، (٥٨٢) وله طرق وشواهد.

(٢) رواه البخاري في العلم (١٠١)، وفي الجنائز (١٢٥٠)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٢).

بآبائهم استحال أن يرحموا من أجل مَنْ ليس بمرحوم. قال أبو عمر ابن عبد البر: وهذا إجماع من العلماء في أن أطفال المسلمين في الجنة، ولم يخالف في ذلك إلَّا فرقة شذّت فجعلتهم في المشيئة، وهو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا يجوز مخالفتهم، ولا يجوز على مثلهم الغلط.

* * *

١٦٦ - باب ما جاء في نُزُل أهل الجنة وتحفهم إذا دخلوها

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة». قال: فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمـٰن عليك يا أبا القاسم ألَا أخبرك بنُزُل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «بلى» قال: تكون الأرض خبزة واحدة (كما قال رسول اللّه ﷺ). قال: فنظر إلينا رسول اللّه ﷺ ثم ضحك حتى بدت نواجذه، قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: «بلى» قال: بالام ونون. قالوا: وما هذا؟ قال: «ثور ونون، يأكل من زائدة كبدها سبعون ألفا»[1].

وعن ثوبان مولى رسول اللّه ﷺ قال: كنت قاعداً عند رسول اللّه ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد؛ فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لِمَ تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول اللّه؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمَّاه به أهله، فقال رسول اللّه ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول اللّه ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول اللّه ﷺ بعود معه. فقال: «سل». فقال اليهودي: أين تكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمـٰوات؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». قال: فمَنْ أول

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٠)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٩٢).

الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون». قال: فما غذاؤهم؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم على إثرها؟ قال: «من عين فيها تسمّى سلسبيلاً» فقال: صدقت. وذكر الحديث[1].

فصل: هذا الحديث انفرد به مسلم، وهو أبين من الحديث الآخر الذي قبله؛ لأنه من قول النبي ﷺ جواباً لليهودي، والحديث الذي قبله آخره من قول اليهودي، وهو يدخل في المسند لإقرار النبي ﷺ. والجبار اسم من أسماء اللّه تعالى، ويكفؤها: يقلبها ويميلها من قولك: كفأت الإناء إذا كببته، والنُّزُل: ما يُعد للضيف من الطعام والشراب. ويُقال: نزل أو نزل بتخفيف الزاي وتثقيلها، وقرئ بذلك قوله: ﴿نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]. قال أهل اللغة: النُّزُل ما يهيأ للنزيل. والنزيل: الضيف. قال الشاعر:

نزيلُ القومِ أعظمهم حقوقاً ... وحقُّ اللّه في حقِّ النَّزيلِ

والتحفة: ما يتحف به الإنسان من الفواكه والطرف محاسنة وملاطفة. وزيادة كبد النون قطعة منه كالإصبع، وبالام: قد جاء مفسراً في متن الحديث أنه الثور، ولعل اللفظة عبرانية، والنون: الحوت، وهو عربي.

* * *

١٦٧ ـ باب ما جاء أن مفتاح الجنة «لا إله إلا اللّه»

في البخاري: قيل لوهب: أليس مفتاح الجنة: لا إله إلّا اللّه؟ قال: بلى. ولكن ليس مفتاح إلّا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلّا لم يفتح لك»[2].

(١) رواه مسلم في كتاب الحيض (٣١٥).

(٢) أورده البخاري تعليقاً في الباب الأول من كتاب الجنائز. قال الحافظ في الفتح (٣/ ١٣٢): «وأما أثر وهب فوصله المصنف في التاريخ وأبو نعيم في الحلية . . .».

فالأسنان عبارة عن توحيد اللَّه وعبادته جميعاً، وعن توحيده أيضاً فقط. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]، وهو في القرآن كثيراً ما يقرن الإيمان مع العمل. وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي اللَّه عنه وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مات لا يُشرك باللَّه شيئاً دخل الجنة».

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتاب الفتن والملاحم وأشراط الساعة

١٦٨ ـ باب الكف عمن قال: لا إلهَ إلاَّ اللَّه

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أمرت أن أُقاتل الناس حتى يَشهدوا أن لا إلـه إلّا اللّه ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهكم إلّا بحقها وحسابهم على اللّه»(١) .

* * *

١٦٩ ـ باب ما جاء أن المؤمن حرام دمه وماله وعرضه وفي تعظيم حرمته عند اللّه تعالى

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ في حجة الوداع: «ألا إن أحرم الأيام يومكم هذا، وإن أحرم الشهور شهركم هذا، وإن أحرم البلد بلدكم هذا، ألا وإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللّهم اشهد»(٢) .

عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»(٣) .

عن بريدة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «قتل المؤمن عند اللّه أعظم من زوال الدنيا»(٤) .

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٢٥)، ومسلم في الإيمان (٢١).

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٣١)، والبخاري بنحوه في العلم (٦٧)، ومسلم في المساقاة (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤).

(٤) رواه الترمذي في الديات (١٣٩٥) من حديث ابن عمرو، والنسائي في تحريم الدم (٧/ ٨٢ ـ ٨٣). وله طرق.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أشار على أخيه بحديدة لعنته الملائكة»[١].

* * *

١٧٠ ـ باب ما جاء في قتل المؤمن والإعانة على ذلك

قال اللّه تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: كل ذنب عسى اللّه أن يغفره إلّا من مات مشركاً، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً»[٢].

وعنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا يزال المؤمن مُعْنِقًا صالحاً ما لم يصب دماً حرماً، فإذا أصاب دماً حراماً بلّح». قال الهروي: بلّح: أي أعيا وانقطع به. ويقال: بلح الفرس إذا انقطع جريه. وبلحت الركية: إذا انقطع ماؤها[٣].

* * *

١٧١ ـ باب إقبال الفتن ونزولها كمواقع القطر والظلل ومن أين تجيء والتحذير منها، وفضل العبادة عندها

قال اللّه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦١٦).

(٢) رواه أبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٧٠)، ورواه النسائي بنحوه في تحريم الدم (٧/ ٨١) من حديث معاوية.

(٣) رواه أبو داود ضمن الحديث السابق (٤٢٧٠). ومُعْنِقا: يعني خفيف الظهر يُعنق في مشيه، والعَنَق: ضرب من السير وسيع.

[الأنفال: ٢٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ففي هذا تنبيه بالغ على التحذير من الفتن.

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(١).

وعن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: «خرج رسول اللَّه ﷺ يوماً فزعاً محمراً وجهه يقول: «لا إله إلّا اللَّه، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلّق بإصبعين الإبهام والتي تليها، قالت: فقلت: يا رسول اللَّه، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»(٢).

وعن أسامة رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ أشرف على أطم من آطام المدينة، ثم قال: «هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»(٣).

عن كرز بن علقمة الخزاعي قال: سأل رجل النبي ﷺ: «هل للإسلام من منتهى؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «أيما أهل بيت من العرب أو العجم أراد اللَّه بهم خيراً أدخل عليهم الإسلام» فقال: ثم ماذا؟ «قال: «ثم تقع الفتن كالظلل»، فقال الرجل: كلا واللَّه إن شاء اللَّه. قال: «بلى، والذي نفسي بيده، لتعودن فيها أساود صبا يضرب بعضكم رقاب بعض» قال الزهري: أساود صبا: الحية السوداء إذا أراد أن ينهش ارتفع هكذا ثم انصب(٤).

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١١٨).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٠).

(٣) رواه البخاري في المظالم (٢٤٦٧)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٥).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٧٧) وغيره.

قال ابن دحية أبو الخطاب الحافظ: هذا الحديث لا مطعن في صحة إسناده.

وقوله: «كالظلل»، الظلل: السحاب، والظلة السحابة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وقول الرجل: بجهله: «كلا واللَّه» معناها الجحد بمعنىٰ لا واللَّه.

وقيل: هي بمعنىٰ الزجر فقال رسول اللَّه ﷺ: «بلىٰ والذي نفسي بيده»، وبلىٰ للنفي استفهاماً كان أو خبراً أو نهياً، فالاستفهام (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ﴾ [القيامة: ٤٠] جوابه: بلىٰ هو قادر، ومثال الخبر ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ جوابه قالوا: بلىٰ تمسكم. ومثال النهي لا تلق زيداً، جوابه: بلىٰ لألقينه.

قال أبو الخطاب بن دحية: وقوله «صبا» هكذا قيدناه بضم الصاد وتشديد الباء علىٰ مثال غر. والأساود: نوع من الحيات عظام فيها سوداء وهو أخبثها، والصب التي تنهش ثم ترتفع، ثم تنصب. شبههم فيما يتولونه من الفتن والقتل والأذىٰ بالصبّ من الحيات.

قال المؤلف رحمه اللَّه: الأساود: جمع أسود وهو الحية، وصبا جمع صاب كغاز وغز، وهو الذي يميل ويلتوي وقت النهش ليكون أنكىٰ في اللدغ، وأشد صباً للسم. ويجوز أن يكون جمع أصب، وهو الذي كأنه ينصب عند النهش انصبابا، والأول من صبا إذا مال، والثاني من صب إذا سكب، واللَّه أعلم.

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ ليلة فزعاً مرعوباً يقول: «سبحان اللَّه، ماذا فتح الليلة من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن، من يوقظ صواحب الحجر ـ يريد أزواجه ـ لكي يصلين، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»[1].

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب العلم (١١٥).

عن سالم بن عبد اللّه أنه قال: يا أهل العراق: ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، سمعت أبي عبد اللّه بن عمر يقول: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من ها هنا، وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل موسىٰ الذي قتل من آل فرعون خطأً. فقال اللّه تعالىٰ له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠][1].

وعن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «العبادة في الهرج كهجرة إليَّ»[2].

فصل: قوله: «ويل للعرب من شر قد اقترب» قد تقدم معنىٰ الويل، والمراد هنا الحزن، فأخبر عليه الصلاة والسلام بما يكون بعده من أمر العرب وما يستقبلهم من الويل والحرب، وقد وجد ذلك بما استؤثر عليهم به من الملك والدولة والأموال والإمارة، فصار ذلك في غيرهم من الترك والعجم، وتشتتوا في البراري بعد أن كان العز والملك والدنيا لهم ببركته عليه الصلاة والسلام، وما جاءهم به من الدين والإسلام، فلما لم يشكروا النعمة وكفروها بقتل بعضهم بعضاً، وسلب بعضهم أموال بعض؛ سلبها اللّه منهم ونقلها إلىٰ غيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] ولهذا كما قالت زينب في سياق الحديث: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

فصل: قال علماؤنا: رحمة اللّه عليهم: قولها: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». دليل علىٰ أن البلاء قد يرفع عن غير الصالحين إذا كثر الصالحون.

---

(١) رواه البخاري في الفتن (٧٠٩٢)، ومسلم في الفتن (٢٩٠٥).

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٨).

فأما إذا كثر المفسدون وقل الصالحون، هلك المفسدون والصالحون معهم إذا لم يأمروا بالمعروف، ويكرهوا ما صنع المفسدون، وهو معنىٰ قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها، هذا بفساده، وهذا برضاه وإقراره.

فإن قيل: فقد قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، الزمر: ٧] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهذا يوجب أن لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب.

وقرئ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً «لَّتُصِيبَنَّ» الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ وعلىٰ هذه القراءة يكون المعنىٰ أنها تصيب الظالم خاصة، وهي قراءة زيد بن ثابت وعليّ وأبي وابن مسعود رضي اللّه عنهم أجمعين.

والجواب: أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر، فمن الفرض علىٰ من رآه أن يُغيّره إما بيده، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه، ليس عليه أكثر من ذلك، فإن لم يستطع بقلبه، فقد أدىٰ ما عليه إذا لم يستطع سوىٰ ذلك.

عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، ليس عليه غيره، وذلك أضعف الإيمان»[1] .

فأما إذا سكت عليه فكلهم عاص؛ هذا بفعله وهذا برضاه. وقد جعل اللّه في حكمه وحكمته: الراضي بمنزلة الفاعل فانتظم في العقوبة. دليله قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] فأما إذا كره الصالحون ما صنع المفسدون، وأخلصوا كراهيتهم للّه تعالىٰ، وتبرؤوا من ذلك حسب ما يلزمهم سلموا. قال

(١) رواه مسلم في الإيمان (٤٩).

اللَّه تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

بلغني أن ملكاً أمر أن يخسف بقرية، فقال: يا رب، إن فيها فلاناً العابد، فأوحىٰ اللَّه تعالىٰ إليه أن به فابدأ، فإنه لم يتغيّر وجهه فيّ ساعة قط.

وعن العُرْس بن عميرة الكندي، عن النبي ﷺ قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة: أنكرها ـ كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»(١). وهذا نص في الفرض. وحسّن رجل عند الشعبي قتل عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه، فقال الشعبي: قد شركت في دمه.

وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا علىٰ يديه أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب من عنده»(٢). فالفتنة إذا عمت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغيّر وجب علىٰ المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها، وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم كما في قصة السبت حين هجروا العاصين، وقالوا: لا نساكنكم، وبهذا قال السلف رضي اللَّه عنهم.

روىٰ ابن وهب، عن مالك قال: تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر فيها. وقال: في موضع آخر، إذا ظهر الباطل علىٰ الحق، كان الفساد

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤٥). وله شواهد يتقوىٰ بها.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٢١٦٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥) بنحوه.

في آخر الأرض. وقال: إن لزوم الجماعة نجاة، وإن قليل الباطل وكثيره هلكة. وقال: ينبغي للناس أن يغضبوا لأمر اللّٰه تعالىٰ في أن تنتهك فرائضه وحرمه والذي يخالف كتابه.

قال أبو الحسن القابسي: الذي يلزم الحق، ويغضب لأمر اللّٰه تعالىٰ علىٰ بينة من النجاة، قال رسول اللّٰه ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتىٰ يأتي أمر اللّٰه»[١].

قال مالك لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير حق والسب للسلف. قال أبو عمر ابن عبد البر: أما قول مالك هذا: فمعناه إذا وجد بلداً يعمل فيه الحق في الأغلب، وقد قال عمر بن عبد العزيز: فلان بالمدينة، وفلان بمكة، وفلان باليمن، وفلان بالعراق، وفلان بالشام! امتلأت الأرض ـ واللّٰه ـ جوراً وظلماً. قال أبو عمر: فأين المهرب إلا إلىٰ السكوت، ولزوم البيوت، والرضىٰ بأقل قوت؟! وقال منصور الفقيه فأحسن:

الخير أجمع في السكوت ... وفي ملازمة البيوت
فإذا استوىٰ لك ذا وذا ... فاقنع له بأقل قوت

وكان سفيان الثوري يقول: هذا زمان سوء، لا يؤمن فيه علىٰ الخاملين، فكيف بالمشهورين، وهذا زمان ينتقل فيه الرجل من قرية إلىٰ قرية يفر بدينه من الفتن.

ويحكىٰ عنه أنه قال: واللّٰه ما أدرىٰ أي البلاد أسكن، فقيل له: خراسان؟ فقال: مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، فقيل: الشام؟ فقال: يشار إليكم بالأصابع: أراد الشهرة. فقيل له: العراق؟ قال: بلد الجبابرة، فقيل له: فمكة؟ قال: مكة تذيب الكيس والبدن[٢].

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب (٣٦٤٠)، ومسلم في الإمارة (١٩١٢)، وله طرق أخرىٰ في الصحيحين.

(٢) «تذيب الكيس والبدن»: الكيس هنا: كيس النقود. والمعنىٰ أنها تذهب بالنفقة وتضعف البدن.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: قال شيخي: لا يذهب به الزمان في مصافاة الأقران، ومواصلة الأحزان، ولم أر للخلاص طريقاً أقرب من طريقين: إما أن يغلق المرء على نفسه بابه، وإما أن يخرج إلى موضع لا يُعرف فيه، إن اضطر إلى مخالطة فليكن معهم ببدنه، وليفارقهم بقلبه ولسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، ولا يفارق السكوت؛ «فالخير أجمع في السكوت».

قال القاضي: ولي في هذا المعنى:

حاز السلامة مسلمٌ ... يأوي إلى سكنٍ وقوتْ
ماذا يؤمّل بعد ما ... يأوي إلى بيتٍ وقيتْ

قال المؤلف رحمه اللَّه: ولأبي سليمان الخطابي في هذا المعنى:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي ... فدام الأنس لي ونما السرورُ
وأدّبني الزمان فلا أبالي ... هُجِرت فلا أزار ولا أزور
ولست بسائلٍ ما دمت حيّا: ... أسار الخيل أم ركب الأمير؟

والشعر في هذا المعنى كثير، وسيأتي للعزلة له بزيادات بيان من السنة إن شاء اللَّه تعالى، وكثرة الخبث: ظهور الزنا وأولاد الزنا.

قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: فيكون إهلاك جميع الناس عند ظهور المنكر والإعلان بالمعاصي، فيكون طهرة للمؤمنين، ونقمة للفاسقين؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ثم بعثوا على نياتهم»[1].

فمن كانت نيته صالحة أثيب عليها، ومن كانت نيته سيئة جوزي عليها، وفي التنزيل: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

* * *

(١) رواه البخاري في البيوع (٢١١٨)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٤).

١٧٢ ـ باب ما جاء في رحى الإسلام، ومتى تدور؟

عن البراء بن ناجية عن عبد اللّه بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن لم يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً» قال: قلت: أمما بقي؟ قال: مما مضى»[1].

فصل: قال الهروي في تفسير هذا الحديث: قال الحربي: ويروى (تزول) وكأن تزول أقرب لأنها تزول عن ثبوتها واستقرارها، و(تدور) يكون بما يحبون ويكرهون، فإن كان الصحيح سنة خمس، فإن فيها قام أهل مصر وحصروا عثمان رضي اللّه عنه، وإن كانت الرواية سنة ست، ففيها خرج طلحة والزبير إلى الجمل، وإن كانت سنة سبع، ففيها كانت صفين، غفر اللّه لهم أجمعين.

وقال الخطابي: يريد عليه الصلاة والسلام أن هذه المدة إذا انقضت، حدث في الإسلام أمر عظيم يخاف على أهله لذلك الهلاك، يقال للأمر إذا تغيّر واستحال: دارت رحاه، وهذا ـ واللّه أعلم ـ إشارة إلى انقضاء مدّة الخلافة، وقوله: (ليقم لهم دينهم) أي ملكهم وسلطانهم، وذلك من لدن بايع الحسن عليه السلام معاوية إلى انقضاء بني أمية من المشرق نحو من سبعين سنة، وانتقاله إلى بني العباس. و(الدين): الملة والسلطان ـ ومنه قوله تعالى: ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في سلطانه. وقوله: «تدور رحى الإسلام» دوران الرحى كناية عن الحرب والقتال، شبهها بالرحى الدائرة التي تطحن؛ لما يكون فيها من قبض الأرواح وهلاك الأنفس. (واللّه أعلم).

* * *

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٥١)، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٤) وغيرهما.

١٧٣ ـ باب ما جاء أن عثمان رضي اللّٰه عنه لما قتل سل سيف الفتنة

وسيأتي قول حذيفة لعمر: «إن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر»(١).

فصل: قال العلماء بالسير والأخبار: إنه دخل على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي اللّٰه عنه في الدار جماعة من الفجار، منهم: كنانة بن بشر التجيبي فأشعره مشقصاً أي قتله به فافتضخ الدم على المصحف، ووقع على قوله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] وقيل: ذبحه رجل من أهل مصر يقال له حمار، وقيل: رومان، وقيل: قتله الموت الأسود يقال له أيضاً: الدم الأسود من طغاة مصر، فقطع يده، فقال عثمان: أما واللّٰه إنها لأول كف خطت في المصحف.

وهذه البلوى التي ثبتت في الصحيح عن أبي موسى أن النبي ﷺ دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هنيهة، ثم قال: ائذن له وبشره بالجنة، على بلوى تصيبه، فإذا عثمان بن عفان»(٢).

وقد قيل: إن الصحيح في مقتله رضي اللّٰه عنه أنه لم يتعين له قاتل معين بل أخلاط الناس، وهم رعاع جاءوا من مصر ومن غير قطر، وجاء الناس إلى عثمان فيهم عبد اللّٰه بن عمرو متقلداً سيفه وزيد بن ثابت، فقال له زيد بن ثابت: إن الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار اللّٰه مرتين، قال: لا حاجة لي في ذلك، كفوا، وكان معه في الدار الحسن والحسين وابن عمر وعبد اللّٰه بن الزبير

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: مواقيت الصلاة (٥٢٥)، ومسلم في الإيمان (١٤٤).

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٩٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٣).

وأبو هريرة وعبد اللَّه بن عامر بن ربيع ومروان بن الحكم كلهم شاك في السلاح، فعزم عليهم في وضع أسلحتهم وخروجهم ولزوم بيوتهم، فقال له ابن الزبير ومروان: نحن نعزم على أنفسنا أن لا نبرح، فضاق عثمان رضي اللَّه عنه من الحصار، ومنع من الماء حتى أفطر على ماء البحر الملح. قال سليط بن أبي سليط: فنهانا الإمام عثمان عن قتالهم، ولو أذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارها، ودخلوا عليه في أصح الأقوال، وقتله من شاء اللَّه من سفلة الرجال.

عن عائشة رضي اللَّه عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «يا عثمان لعل اللَّه يقمصك قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم»[١].

قال حسان بن ثابت:

قتلتم وليّ اللَّه في جوف داره ... وجئتم بأمر جائر غير مهتد

فلا ظفرت أيمان قوم تعاونوا ... على قتل عثمان الرشيد المسدد

قال جندب: جئت يوم (الجرعة)، فإذا رجل جالس فقلت له: ليهرقن اليوم ههنا دم، فقال ذلك الرجل: كلا واللَّه. قلت: بلى واللَّه. قال ثلاثاً: كلا، إنه لحديث رسول اللَّه ﷺ حدثنيه، قلت: بئس الجليس لي أنت منذ اليوم تسمعني أخالفك، وقد سمعته من رسول اللَّه فلا تنهني، ثم قلت: ما هذا الغضب، فأقبلت عليه أسائله فإذا الرجل حذيفة[٢].

والجرعة: موضع بجهة الكوفة على طريق الحيرة، فيده الحفاظ بفتح الجيم والراء، وقيده بعض رواة الحفاظ أيضاً بإسكان الراء، وهو يوم خرج فيه أهل الكوفة متألبين متعصبين ليردوا والي عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، وكتبوا إلى عثمان لا حاجة لنا في سعيدك ولا

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٧٥ وفي مواضع أخرى)، والترمذي في المناقب (٣٧٠٥) وغيرهما.

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٨٩٣).

وليدك، وكان رده سنة أربع وثلاثين، وكتبوا إلى عثمان أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري، فلم يزل والياً عليهم إلى أن قُتل عثمان. ولما سمع بقتله يعلى بن أمية التميمي الحنظلي أبو صفوان، ويقال: أبو خالد، أسلم بعد الفتح، وشهد مع رسول اللَّه ﷺ حنيناً والطائف وتبوك، وكان صاحب الجند بصنعاء، أقبل لينصره، فسقط عن بعيره في الطريق فانكسرت فخذه، فقدم مكة بعد انقضاء الحج، فخرج إلى المسجد وهو كسير على سرير، واستشرف إليه الناس واجتمعوا فقال: من يخرج يطلب بدم عثمان، فعلى جهازه أعان الزبير بأربعمائة ألف، وحمل سبعين رجلاً من قريش، وحمل عائشة رضي اللَّه عنها على جمل أذب، ويقال: أذب لكثرة وبره.

وكانت عائشة رضي اللَّه عنها حاجّة في السنة التي قتل فيها عثمان، وكانت مهاجرة له، فاجتمع طلحة والزبير ويعلي وقالوا لها بمكة: عسى أن تخرجي رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم، ويرعوا نبيهم.

وعن قيس بن أبي حازم أن عائشة رضي للَّه عنها لما أتت الحوبة سمعت نباح الكلاب، فقالت: ما أظنني إلَّا راجعة، إن رسول اللَّه ﷺ قال لنا: «أيتكن تنبح كلاب الحوأب» فقال لها الزبير: ترجعين عسى اللَّه أن يصلح لك بين الناس»[1].

وروى أبو بكر بن أبي شيبة قال حدثنا وكيع بن الجراح، عن عصام بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أيتكن صاحبة الجمل الأذيب، يقتل حولها قتلى كثيرة، وتنجو بعد ما كادت»[2].

وهذا حديث ثابت صحيح، رواه الإمام المجمع على عدالته وقبول روايته:

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٩٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣٤): «رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجال ثقات».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٢٦٠)، وانظر السلسلة الصحيحة (٤٧٥).

أبو بكر عبد اللّه بن أبي شيبة، وكذلك وكيع مجمع على عدالته وحفظه وفقهه، عن عصام وهو ثقة عدل، عن عكرمة وهو عند أكثر العلماء ثقة عالم.

وهذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ وهو إخباره بالشيء قبل كونه.

وقوله «الأذيب» أراد الأذب، فأظهر التضعيف، والعجب من القاضي الإمام أبي بكر بن العربي كيف أنكر هذا الحديث في كتبه. منها في كتاب العواصم من القواصم، وذكر أنه لا يوجد أصلاً؟!! وشهرة هذا الحديث أوضح من فلق الصبح وأجلى.

وروى أبو جعفر الطبري قال: لما خرجت عائشة رضي اللّه عنها من البصرة طالبة المدينة بعد انقضاء الحرب جهزها علي رضي اللّه عنه جهازاً حسناً، وأخرج معها من أراد الخروج، واختار عليها أربعين امرأة معروفات من نساء البصرة، وأجهز معها أخاها محمداً. وكان خروجها من البصرة يوم السبت غرة رجب سنة ست وثلاثين، وشيعها علي رضي اللّه عنه على أميال.

فصل: فإن قيل: فلم ترك عليا قصاص من قتلة عثمان؟ فالجواب: أنه لم يكن ولي دم، وإنما كان أولياء الدم أولاد عثمان وهم جماعة: عمرو وكان أسن ولد عثمان، وأبان وكان محدثاً فقيهاً، وشهد الجمل مع عائشة، والوليد بن عثمان، ومنهم سعيد بن عثمان. فهؤلاء بنو عثمان الحاضرون في ذلك الوقت، وهم أولياء الدم دون غيرهم، ولم يتحاكم إلى عليٍّ أحد منهم، ولا نقل ذلك عنهم، فلو تحاكموا إليه لحكم بينهم، إذ كان أقضى الصحابة للحديث المروي فيه[1].

وجواب ثان: أنه لم يكن في الدار عدلان يشهدان على قاتل عثمان بعينه، فلم يكن لم أن يقتل بمجرد دعوى في قاتل بعينه، ولا إلى الحكم في سبيل ذلك مع سكوت أولياء الدم عن طلب حقهم، ففي تركهم له أوضح دليل، وكذلك

---

(١) ثبت هذا من قول عمر: رواه البخاري في التفسير (٤٤٨١).

فعل معاوية حين تمت له الخلافة وملك مصر وغيرها بعد أن قتل علي رضي اللّه عنه لم يحكم على واحد من المتهمين بقتل عثمان بإقامة قصاص، وأكثر المتهمين من أهل مصر والكوفة والبصرة، وكلهم تحت حكمه وأمره ونهيه وغلبته وقهره، وكان يطالب بذلك قبل ملكه، ويقول: لا نبايع من يؤوي قتلة عثمان ولا يقتص منهم، والذي كان يجب عليه شرعاً أن يدخل في طاعة عليّ ـ رضي اللّه عنه ـ حين انعقدت خلافته في مسجد رسول اللّه ﷺ ومهبط الوحي، ومقر النبوة وموضع الخلافة بجميع من كان فيها من المهاجرين والأنصار، بطوع منهم وارتضاء واختيار، وهم أمم لا يحصون، وهم أهل عقد وحل، والبيعة تنعقد بطائفة من أهل الحل والعقد، فلما بويع له ـ رضي اللّه عنه ـ طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان، وأخذ القود منهم، فقال لهم عليّ رضي اللّه عنه: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه، فقالوا: لا تستحق بيعة، وقتلة عثمان معك نراهم صباحاً ومساء، وكان عليّ في ذلك أسد رأياً وأصوب قيلاً، لأن علياً لو تعاطى القود معهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حرباً ثالثة، فانتظر بهم إلى أن يستوثق الأمر وتنعقد عليه البيعة، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم فيجري القضاء بالحق.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى إلى إثارة فتنة أو تشتيت الكلمة، وكذلك جرى لطلحة والزبير فإنهما ما خلعا علياً من ولاية، ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأوا أن البداية بقتل قتلة عثمان أولى[1].

---

(١) قلت: ثم كان ما كان، وكل ذلك كان بقدر. وكلهم مجتهد مأجور أجراً أو أجرين. فرضي اللّه عنهم وأرضاهم. ونسأل اللّه أن يعيذنا من الفتن ما ظهر منهاوما بطن، فإنها إذا أقبلت شبّهت، وللّه الأمر من قبل ومن بعد.

قال الحافظ ابن دحية: والإجماع منعقد على أن طائفة الإمام طائفة عدل، والأخرى طائفة بغي، ومعلوم أن علياً رضي اللّه عنه كان الإمام.

عن أبي سعيد الخدري قال: أخبرني من هو خير مني أن رسول اللّه ﷺ قال لعمار حين جعل يحفر الخندق، جعل يمسح رأسه ويقول: «بؤس ابن سمية تقتلك فئة باغية»[١].

وفي رواية قال: أخبرني من هو خير مني أبو قتادة.

وقال أبو عمر ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب له في ترجمة عمار: وتواترت الأخبار عن النبي ﷺ أنه قال: «يقتل عمار الفئة الباغية» وهو من أصح الأحاديث.

* * *

١٧٤ ـ باب لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه وفي ظهور الفتن

عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلّا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ[٢].

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال: «يتقارب الزمان، وينقص العلم، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج» قالوا: يا رسول اللّه، أيم هو؟ قال: «القتل القتل»[٣].

فصل: قوله: «يتقارب الزمان» قيل معناه قصر الأعمار وقلة البركة فيها،

---

(١) رواه البخاري في الصلاة (٤٤٧)، ومسلم في الفتن (٢٩١٥).

(٢) رواه البخاري في الفتن (٢٢٠٦).

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٧)، ومسلم في العلم (١٥٧).

وقيل: هو دنو زمان الساعة، وقيل: هو قصر مدة الأيام على ما روى: «أن الزمان يتقارب حتي تكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كاحتراق السعفة»(١) .

وقيل في تأويله غير هذا.

وقال حماد بن سلمة: سألت أبا سنان عن قوله: «يتقارب الزمان حتى تكون السنة كالشهر» قال: ذلك من استلذاذ العيش. قال الخطابي: يريد ـ والله أعلم ـ زمان خروج المهدي ووقوع الأمنة في الأرض فيما يبسطه من العدل فيها على ما يأتي، ويستلذ به العيش عند ذلك، وتستقصر مدته، ولا يزال الناس يستقصرون مدة أيام الرخاء وإن طالت وامتدت، ويستطيلون أيام المكروه وإن قصرت وقلّت، والعرب تقول في مثل هذا: مر بنا يوم كعرقوب القطا قصراً. و(يلقى الشح) بمعنى يتلقى ويتعلم، ويتواصى عليه، ويدعى إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] أي تقبلها وتعلمها، ويجوز يلقى بتخفيف اللام والقاف على معنى يترك لإفاضة المال وكثرته، حتى يهم رب المال من يقبل صدقته فلا يجد من يقبلها على ما يأتي، ولا يجوز أن يكون (يلقى) بمعنى يوجد، لأن الشح ما زال موجوداً قبل تقارب الزمان.

* * *

١٧٥ ـ باب ما جاء في الفرار من الفتن وكسر السلاح فيها وحكم المكره عليها

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر؛ يفر بدينه من الفتن»(٢) .

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٣٨)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٢) وله شاهد يتقوى به.

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٠).

عن أبي بكرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتن، ألا ثم تكون فتن، القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا إذا نزلت ووقعت، من كانت له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال: فقال له رجل: يا رسول اللَّه، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض. قال: يعمد إلىٰ سيفه فيدق عليه بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة. اللَّهم هل بلغت؟ اللَّهم هل بلغت؟ اللَّهم هل بلغت؟ قال: فقال رجل: يا رسول اللَّه، أرأيت إن أكرهت حتىٰ ينطلق بي إلىٰ أحد الصفين أو إحدىٰ الطائفتين فيضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقلني، قال: يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خيرمن القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من يشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به»[2].

* * *

باب منه
وفي الأمر بلزوم البيوت عند الفتن

عن أبي بردة قال: دخلت علىٰ محمد بن مسلمة، فقال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة وخلاف وفرقة واختلاف، فإذا كان ذلك فائت بسيفك أحداً فاضرب به حتىٰ ينقطع، ثم اجلس في بيتك حتىٰ تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية» فقد وقعت وفعلت ما قال النبي ﷺ[3].

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٧).

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧٠٨١، ٧٠٨٢)، ومسلم في الفتن(٢٨٨٦).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٤٩٣)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٦٢) وغيرهما.

عن أبي موسى قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن بين أيديكم فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً. القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الساعي. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: كونوا أحلاس بيوتكم»(١).

فصل: قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم: كان محمد بن مسلمة رضي اللّه عنه ممن اجتنب ما وقع بين الصحابة من الخلاف والقتال، وأن النبي ﷺ أمره إذا كان ذلك أن يتخذ سيفاً من خشب، ففعل وأقام بالربذة، وممن اعتزل الفتنة أبو بكرة، وعبد اللّه بن عمر، وأسامة بن زيد، وأبو ذر، وحذيفة، وعمران بن حصين، وأبو موسى، وأهبان بن صيفي، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، ومن التابعين شريح والنخعي وغيرهما. رضي اللّه عنهم.

قلت: هذا وكانت تلك الفتنة والقتل بينهم على اجتهاد منهم، فكان المصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر، ولم يكن قتال على الدنيا، فكيف اليوم الذي تسفك فيه الدماء باتباع الهوى طلباً للملك والاستكثار من الدنيا، فواجب على الإنسان أن يكف اليد واللسان عند ظهورالفتن، ونزول البلايا والمحن، نسأل اللّه السلامة، والفوز بدار الكرامة. وقوله: «كونوا أحلاس بيوتكم» حض على ملازمة البيوت والقعود فيها حتى يسلم من الناس ويسلموا منه.

ودخل سلمة بن الأكوع على الحجاج، وكان قد خرج إلى الربذة حين قتل عثمان، وتزوج امرأة هناك، وولدت له أولاداً، فلم يزل بها حتى كان قبل أن يموت بليال، فدخل المدينة، فقال له الحجاج: ارتددت على عقبيك؟ قال: لا، ولكن رسول اللّه ﷺ أذن لنا في البدو(٢).

وقد تقدم قوله ﷺ «يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع به

---

(١) واه أحمد (٤/ ٤٠٨)، وأبو داود في الفتن (٤٢٦٢) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري في الفتن، (٧٠٨٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٢).

شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن». وما زال الناس يعتزلون ويخالطون، كل واحد منهم علىٰ ما يعلم من نفسه، ويأتي له من أمره. وقد كان العمري بالمدينة معتزلاً، وكان مالك مخالطاً للناس، ثم اعتزل مالك آخر عمره رضي اللَّه عنه، فيروىٰ عنه أنه أقام ثماني عشرة سنة لم يخرج إلىٰ المسجد، فقيل له في ذلك، فقال: ليس كل واحد يمكنه أن يخبر بعذره، واختلف الناس في عذره علىٰ ثلاثة أقوال، فقيل: لئلا يرىٰ (المنكر)، وقيل: لئلا يمشىٰ إلىٰ السلطان، وقيل: كانت به أبردة، فكان يرىٰ تنزيه المسجد عنها».

* * *

باب منه
وكيف التثبت في الفتنة والاعتزال عنها
وفي ذهاب الصالحين

عن عديسة بنت أهبان قالت: لما جاء علىٰ بن أبي طالب ها هنا بالبصرة دخل علىٰ أبي، فقال: يا أبا مسلم ألا تعينني علىٰ هؤلاء القوم؟ قال: بلىٰ، فدعىٰ جاريته، فقال: يا جارية، أخرجي سيفي. قالت: فأخرجته، فسل منه قدر شبر، فإذا هو خشب، فقال: إن حبيبي، وابن عمك ﷺ عهد إليّ إذا كانت فتنة بين المسلمين، فأتخذ سيفاً من خشب، فإن شئت خرجت معك. قال: لا حاجة لي فيك ولا في سيفك[1].

وعن زيد بن شرحبيل عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فكسروا قسيكم وقطعوا أوتاركم،

(١) رواه أحمد (٥/ ٦٩)، (٦/ ٢٩٣)، والترمذي في الفتن (٢٢٠٣)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٦٠)

واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دخل على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم»[١].

عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله، إن آدم، وتلا هذه الآية: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ [المائدة: ٢٨][٢].

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي فيغربل الناس فيه غربلة، يبقى حثالة من الناس قد مزجت عهودهم، وخفت أماناتهم، واختلفوا فكانوا هكذا وهكذا. وشبّك بين أصابعه، قالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك الزمان؟ قال: تأخذون بما تعرفون، وتدعون ما تنكرون؛ وتقبلون على خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم»[٣].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الناس مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا وهكذا ـ وشبّك بين أصابعه ـ فقمت إليه، فقلت له: كيف أصنع عند ذلك يا رسول الله جعلني الله فداك؟ قال: الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك العامة»[٤].

فصل: قوله: «يوشك». معناه يقرب، وقوله: «فيغربل الناس فيه غربلة» عبارة عن موت الأخيار وبقاء الأشرار، كما يبقي الغربال من حثالة ما يغربله، والحثالة ما يسقط من قشير الشعير والأرز والتمر وكل ذي قشر إذا بقي، وحثالة الدهن تفله، وكأنه الرديء من كل شيء، ويقال: حثالة وحفالة بالثاء والفاء معاً.

---

(١) رواه أبو داود في الفتن (٤٢٥٩)، والترمذي في الفتن (٤٢٠٤، وابن ماجه في الفتن (٣٩٦١).

(٢) رواه أحمد (١/ ١٨٥)، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٧) وغيرهما. وله شواهد في الإرواء (٢٤٥١).

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٦٢، ٢١٢، ٢٢٠)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٤٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٧).

(٤) مرّ تخريجه قريباً.

عن مرداس الأسلمي قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يذهب الصالحون الأول فالأول، ويبقىٰ حفالة كحفالة الشعير والتمر لا يباليهم اللّه بالة». وفي رواية: «لا يعبأ اللّه بهم»[1].

والبال: الاكتراث والاهتمام بالشيء، والصالحون هم الذين أطاعوا اللّه ورسوله، وعملوا بما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه.

قال أبو الخطاب بن دحية: مرداس هذا هو مرداس بن مالك الأسلمي من أسلم ـ بفتح اللام ـ سكن الكوفة، وهو معدود في أهلها، ولم يحفظ له من طريق صحيح سوىٰ هذا الحديث.

قال المؤلف رحمه اللّه: انفرد به البخاري رحمه اللّه، وروىٰ عن قيس بن أبي حازم في الرقاق. ومزجت: معناه: اختلطت واختلفت، والمزج: الاختلاط والاختلاف.

* * *

١٧٦ ـ باب الأمر بتعلم كتاب اللّه واتباع ما فيه ولزوم جماعة المسلمين عند غلبة الفتن وظهورها، وصفة دعاة آخر الزمان والأمر بالسمع والطاعة للخليفة وإن ضرب الظهور وأخذ المال

عن نصر بن عاصم الليثي قال: أتينا اليشكري في رهط من بني ليث فقال: من القوم؟ فقلنا: بنو الليث، أتيناك نسألك عن حديث حذيفة، فقال: أقبلنا مع أبي موسىٰ قافلين وغلت الدواب بالكوفة. قال: فسألت أبا موسىٰ الأشعري أنا وصاحب لي، فأذن لنا فقدمنا الكوفة، فقلت لصاحبي: أنا داخل المسجد فإذا قامت السوق خرجت إليك. قال: فدخلت المسجد فإذا فيه حلقة كأنما قطعت رؤوسهم يستمعون إلىٰ حديث رجل واحد، قال: فقمت عليهم، فجاء رجل

(١) رواه البخاري في المغازي (٤١٥٦)، وفي الرقاق (٦٤٣٤).

فقام إلى جنبي قال: فقلت: من هذا؟ قال: أبصري أنت؟ قال: قلت: نعم. قال: قد عرفت، ولو كنت كوفياً لم تسأل عن هذا، هذا حذيفة، فدنوت منه فسمعت حذيفة رضي الله عنه يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر، وعرفت أن الخير لن يسبقني، فقلت: يا رسول الله بعد هذا الخير شر؟ قال: «يا حذيفة تعلّم كتاب الله واتبع ما فيه، ثلاث مرات، قلت: يا رسول الله، بعد هذا الخير شر؟ قال: فتنة وشر. قلت: يا رسول الله، بعد هذا الشر خير؟ فقال: يا حذيفة، تعلّم كتاب الله واتبع ما فيه، قال: قلت: يا رسول الله، بعد هذا الشر خير؟ قال: هدنة على دخن، وجماعة على أقذاء فيهم أو فيها. قلت: يا رسول الله، الهدنة على الدخن ما هي؟ قال: لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه. قال: قلت: يا رسول الله، بعد هذا الخير شر؟ قال: يا حذيفة تعلّم كتاب الله واتبع ما فيه، ثلاث مرات. قال: قلت: يا رسول الله، بعد هذا الخير وشر؟ قال: فتنة عمياء صماء عليها دعاة على أبواب النار، فإن مت يا حذيفة وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحداً منهم»[1].

عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: «نعم» فقلت: هل بعد ذلك من خير؟ قال: «نعم وفيه دخن» قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر» فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها» فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: «نعم، قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» فقلت: يا رسول الله، فما تأمرني إن أدركت ذلك؟

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٨٦) واختصره في (٥/ ٤٠٦)، وأبو داود في الفتن (٤٢٤٦) وغيرهما.

قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك»[١].

وفي رواية قال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جسمان إنس» قال: قلت: فكيف أصنع يا رسول اللَّه إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع»[٢].

وفي كتاب أبي داود بعد قوله: «هدنة على دخن» قال: قلت: يا رسول اللَّه، ثم ماذا؟ قال: «إن كان للَّه خليفة في الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فاطعه وإلَّا فمت وأنت عاض في جذل شجرة» قلت: ثم ماذا؟ قال: «ثم يخرج الدجال ومعه نهر ونار، فمن وقع في ناره، وجب أجره وحط وزره، ومن وقع في نهره، وجب وزره وحط أجره» قال: ثم ماذا؟ قال: «هي قيام الساعة»[٣].

فصل: قوله: «على أقذاء» الأقذاء: جمع القذى، والقذى: جمع قذاة، وهو ما يقع في العين من الأذى، وفي الطعام والشراب من تراب أو نتن أو غير ذلك، فالمراد به في الحديث الفساد الذي يكون في القلوب، أي أنهم يتقون بعضهم بعضاً، ويظهرون الصلح والاتفاق؛ ولكنهم في باطنهم خلاف ذلك. والجذل: الأصل كما هو مبين في كتاب مسلم: «على أصل شجرة».

* * *

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، وفي الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧).

(٢) مسلم في الإمارة (٥٢ تحت ١٨٤٧).

(٣) مرّ تخريجه قريباً. وهو في أبي داود (٤٢٤٦) وغيره.

باب منه
إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار

عن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل، فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: فقلت: أريد نصرة ابن عم رسول اللّه ﷺ يعني عليّاً، قال: فقال لي: يا أحنف ارجع، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار» قال: فقلت: أو قيل: يا رسول اللّه، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه قد أراد قتل صاحبه» أخرجه البخاري، وفي بعض طرقه قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[1].

فصل: قال علماؤنا: ليس هذا الحديث في أصحاب النبي ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] فأمر اللّه تعالى بقتال الفئة الباغية، ولو أمسك المسلمون عن قتال أهل البغي، لتعطلت فريضة من فرائض اللّه. وهذا يدل على أن قوله: «القاتل والمقتول في النار» ليس في أصحاب محمد ﷺ؛ لأنهم إنما قاتلوا على التأويل. قال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل وكسر السيوف لما أقيم حد، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كل ما حرم اللّه عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا: هذه فتنة قد نُهينا عن القتال فيها، وأمرنا بكف الأيدي والهرب منها، وذلك مخالف لقوله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٣١)، وفي الديات (٣٨٧٥)، وفي الفتن (٧٠٨٣)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨).

قلت: فحديث أبي بكرة محمول على ما إذا كان القتال على الدنيا. ومما يدل على صحة هذا ما خرجه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما قتل، ولا المقتول فيما قتل» فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: «الهرج، القاتل والمقتول في النار»[1] فبين هذا الحديث أن القتال إذا كان على جهالة من طلب الدنيا، أو اتباع هوى كان المقتول في النار، فأما قتال يكون على تأويل ديني فلا، وأما أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، فيجب على المسلمين توقيرهم، والإمساك عن ذكر زللهم، ونشر محاسنهم، لثناء اللّه عز وجل عليهم في كتابه. فقال وقوله الحق: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ...﴾ [الحديد: ١٠].

وكل من ذهب منهم إلى تأويل فهو معذور، وإن كان بعضهم أفضل من بعض وأكثر سوابق. وقيل: إن من توقف من الصحابة حملوا الأحاديث الواردة بالكف على عمومها، فاجتنبوا جميع ما وقع بين الصحابة من الخلاف والقتال، وربما ندم بعضهم على ترك ذاك كعبد اللّه بن عمر، فإنه ندم على تخلفه عن نصرة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما، فقال عند موته: ما آسى على شيء ما آسى على تركي قتال الفئة الباغية ـ يعني فئة معاوية ـ وهذا هو الصحيح. إن الفئة الباغية إذا علم منها البغي قوتلت. قال عبد الرحمن بن أبزي: شهدنا صفين مع عليّ في ثمانمائة ممن بايع الرضوان، قتل منهم ثلاث وستون، منهم عمار ابن ياسر.

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٠٨).

وسئل بعض المتقدمين عن الدماء التي وقعت بين الصحابة فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

* * *

١٧٧ ـ باب جعل اللَّه بأس هذه الأمة بينها
قال اللَّه تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾
[الأنعام: ٦٥]

وعن ثوبان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ـ قال ابن ماجه في سننه: يعني الذهب والفضة ـ وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم؛ ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، ـ أو قال: من بين أقطارها ـ حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» ـ زاد أبو داود ـ: «وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلىٰ يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتىٰ تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتىٰ يعبد قبائل من أمتي الأوثان، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون؛ يزعم كلهم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتىٰ يأتي أمر اللَّه»[1].

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٤٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢).

وعن سعد بن أبي وقاص: أن رسول اللَّه ﷺ أقبل ذات يوم من العالية. وفي رواية: في طائفة من أصحابه، حتىٰ إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع ركعتين، فصلينا معه، ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا، فقال: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة؛ سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[1].

* * *

١٧٨ ـ باب ما يكون من الفتن وإخبار النبي ﷺ بها

عن حذيفة قال: قام فينا رسول اللَّه ﷺ مقاماً ما ترك فيه شيئاً يكون في مقامه ذلك إلىٰ قيام الساعة إلا حدّث به. حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته، فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه[2].

عن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ مجلساً أنبأنا فيه عن الفتنة، فقال وهو يعد الفتن: منها ثلاثة لا يكدن يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار، قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري»[3].

عن عبد اللَّه بن عمر قال: كنا قعوداً عند رسول اللَّه ﷺ فذكر الفتن فأكثر فيها، حتىٰ ذكر فتنة الأحلاس، فقال قائل: يا رسول اللَّه، وما فتنة الأحلاس؟ قال: «هي هرب وخرب، ثم فتنة السوء، دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني، وإنما أوليائي المتقون، ثم يصطلح الناس علىٰ رجل

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٨٩٠) وغيره.

(٢) واه البخاري في القدر (٦٦٠٤)، ومسلم في الفتن (٢٣ تحت ٢٨٩١).

(٣) رواه مسلم في الفتن (٢٨٩١).

كورك على ضلع، ثم فتنة الدهيماء، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلّا لطمته لطمة، فإذا قيل: انقضت تمادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، حتى يصير الناس فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذلكم، فانتظروا الدجال من يومه أو من غده»[١] .

فصل: قول حذيفة: قام فينا رسول اللّه ﷺ مقاماً. وفي الرواية الأخرى: مجلساً. قد جاء مبيناً في حديث أبي زيد قال: صلى بنا رسول اللّه ﷺ الفجر وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، فصعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا»[٢] .

وقوله: حى ذكر فتنة الأحلاس، قال الخطابي: إنما أضيفت الفتنة إلى الأحلاس، لدوامها وطول لبثها، يقال للرجل إذا كان يلزم بيته لا يبرح منه: هو حلس بيته، ويحتمل أن تسمى هذه الفتنة بالأحلاس، لسوادها وظلمتها، والحَرَبُ ذهاب الأهل والمال. ويقال: حرب الرجل فهو حريب إذا سُلب أهله وماله، ومن هذا المعنى أخذ لفظ الحرب؛ لأن فيها ذهاب النفوس والأموال، واللّه أعلم. والدخن: الدخان يريد أنها تثور كالدخان من تحت قدميه. وقوله: «كورك على ضلع» مثل: ومعناه الأمر الذي لا يثبت ولا يستقيم، يريد أن هذا الرجل غير خليق بالملك. والدهيماء: تصغير الدهماء على معنى المذمة لها والتعظيم لأمرها كما قال: «دويهية تصفر منها الأنامل» أي هذه الفتنة سوداء

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٣٣)، وأبو داود في الفتن (٤٢٤٢) وغيرهما. وقوله: «كَوَرِكٍ على ضِلَع» مثل، ومعناه الأمر الذي لا يثبت ولا يستقيم؛ لأن الضلع لا يقوم بالورك ولا يحمله. والذي في التذكرة: «كودك على ضلع» بالدال.

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٨٩٢).

مظلمة. ودلت أحاديث هذا الباب على أن الصحابة رضي اللّه عنهم كان عندهم من علم الكوائن إلىٰ يوم القيامة العلم الكثير، لكن لم يشيعوها، إذ ليست من أحاديث الأحكام، وما كان فيه شيء من ذلك حدثوا به وتقصروا عنه.

عن أبي هريرة قال: حفظت من رسول اللّه ﷺ وعاءين؛ أما أحدهما: فبثثته، وأما الآخر: فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم[1].

قال أبو عبد اللّه: البلعوم: مجرىٰ الطعام. والفسطاط: الخيمة الكبيرة، وتسمىٰ مدينة مصر الفسطاط، والمراد به في هذا الحديث الفرقة المجتمعة المنحازة عن الفرقة الأخرىٰ؛ تشبيهاً بانفراد الخيمة عن الأخرىٰ، وتشبيهاً بانفراد المدينة عن الأخرىٰ حملاً علىٰ تسمية مصر بالفسطاط، واللّه أعلم.

* * *

١٧٩ ـ باب ذكر الفتنة التي تموج موج البحر وقول النبي ﷺ: «هلاك أمتي على يد أغيلمة من سفهاء قريش»

عن شقيق عن حذيفة قال: كنا جلوساً عند عمر بن الخطاب فقال: أيكم يحفظ حديث رسول اللّه ﷺ في الفتنة؟ قال حذيفة: فقلت أنا، فقال: إنك لجريء، قال: كيف سمعته يقول؟ قلت: سمعته يقول: «فتنة الرجل في أهله وماله وجاره، يكفرها الصلاة والصيام والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج موج البحر، قال: مالك ولها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: يفتح الباب أو يكسر؟ قال: بل يكسر. قال: ذلك أجدر أن لا يغلق، فقلت لحذيفة: أكان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، قال: فهبنا أن نسأله: من الباب؟ فقلنا لمسروق: سله، فسأله، فقال:

---

(١) رواه البخاري في العلم (١٢٠).

هو عمر»[١] .

عن عمرو بن يحيىٰ بن سعيد قال: أخبرني جدي قال: كنت جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبي ﷺ بالمدينة ومعنا مروان، فقال أبو هريرة: سمعت الصادق المصدوق يقول: «هلكة أمتي على يد أغيلمة من قريش» قال مروان: لعنة اللَّه عليهم من أغيلمة. قال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت، فكنت أخرج مع جدي إلىٰ بني مروان حتىٰ تملكوا بالشام، فإذا رآهم أحداثاً وغلماناً قال لنا: عسىٰ هؤلاء أن يكونوا منهم. قلنا: أنت أعلم[٢] .

الغلام: الطار الشارب، والجمع الغلمة والغلمان، ونص مسلم في صحيحه في كتاب الفتن عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «يهلك أمتي هذا الحي من قريش» قال: فما تأمرنا؟ قال: «لو أن الناس اعتزلوهم»[٣] .

فصل: قال علماؤنا ـ رحمة اللَّه عليهم ـ: هذا الحديث يدل على أن أبا هريرة كان عنده من علم الفتن العلم الكثير، والتعيين على من يحدث عنه الشر الغزير، ألا تراه يقول: لو شئت قلت لكم: هم بنو فلان وبنو فلان، لكنه سكت عن تعيينه مخافة ما يطرأ من ذلك من المفاسد، وكأنهم ـ واللَّه أعلم ـ: يزيد بن معاوية، وعبيد اللَّه بن زياد، ومن تنزل منزلتهم من أحداث ملوك بني أمية، فقد صدر عنهم من قتل أهل بيت رسول اللَّه ﷺ وسبيهم، وقتل خيار المهاجرين والأنصار بالمدينة وبمكة، وغيرها. وغير خاف ما صدر عن الحجاج، وسليمان بن عبد الملك، وولده من سفك الدماء، وإتلاف الأموال، وإهلاك الناس بالحجاز والعراق وغير ذلك، وبالجملة فبنو أمية قابلوا وصية النبي ﷺ في أهل بيته وأمته

---

(١) رواه البخاري في موقيت الصلاة (٥٢٥) وفي مواضع أخرىٰ، ومسلم في الإيمان (١٤٤).
(٢) رواه البخاري في المناقب (٣٦٠٥)، وفي الفتن (٧٠٥٨).
(٣) رواه البخاري في المناقب (٣٦٠٤)، ومسلم في الفتن (٢٩١٧).

بالمخالفة والعقوق، فسفكوا دماءهم، وسبوا نساءهم، وأسروا صغارهم، وخربوا ديارهم، وجحدوا فضلهم وشرفهم، واستباحوا لعنهم وشتمهم، فخالفوا رسول اللَّه ﷺ في وصيته، وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته. فواخجلتهم إذا وقفوا بين يديه، ويا فضيحتهم يوم يعرضون عليه، واللَّه أعلم.

* * *

١٨٠ ـ باب ما جاء في بيان مقتل الحسين رضي اللَّه عنه ولا رضي عن قاتله

خرّج الإمام أحمد في مسنده عن أنس: أن ملك المطر استأذن أن يأتي النبي ﷺ فأذن له، فقال لأم سلمة: «املكي علينا الباب لا يدخل علينا أحد قال: وجاء الحسين ليدخل فمنعته، فوثب فدخل، فجعل يقعد على ظهر النبي ﷺ وعلى منكبيه وعلى عاتقه، قال: فقال الملك للنبي ﷺ: أتحبه؟ قال: نعم. قال: أما وإن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يُقتل فيه، فضرب بيده فجاء بطينة حمراء، فأخذتها أم سلمة فصرتها في خمارها» قال ثابت: بلغنا أنها كربلاء[1].

وقد قال النبي ﷺ فيه وفي الحسن: «إنهما سيدا شباب أهل الجنة»[2].

وقال: «هما ريحانتاي من الدنيا»[3].

وكان النبي ﷺ إذا رآهما هش لهما وربما أخذهما. كما روى أبو داود أنهما دخلا المسجد وهو يخطب، فقطع خطبته ونزل فأخذهما وصعد بهما. قال: «رأيت هذين فلم أصبر»[4].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٤٢، ٢٦٥) وله شواهد يتقوى بها. انظر: التذكرة (١٨٤٢).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢)، والترمذي في المناقب (٣٧٦٨) وغيرهما. وله طرق كثيرة.

(٣) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٥٣)، وفي الأدب (٥٩٩٤).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٣٥٤، ٣٥٨)، وأبو داود في الصلاة (١١٠٩) والترمذي في المناقب (٣٧٧٥)، والنسائي في الجمعة وفي العيدين (٣/ ١٠٨، ١٩٢)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٠).

وكان يقول فيهما: «اللهم إني أحبهما وأحب من يحبهما»[١].

وقُتِلَ ـ رحمه اللَّه، ولا رحم قاتله ـ يوم الجمعة لعشر خلون من المحرم سنة إحدىٰ وستين بكربلاء، بقرب موقع يقال له «الطف» بقرب من الكوفة.

قال أهل التواريخ: لما مات معاوية وأفضيت الخلافة إلىٰ يزيد، وذلك سنة ستين، ووردت البيعة علىٰ الوليد بن عتبة بالمدينة ليأخذ بالبيعة إلىٰ أهلها، أرسل إلىٰ الحسين بن عليّ، وإلىٰ عبد اللَّه بن الزبير ليلاً فأتي بهما فقال: بايعا. فقالا: مثلنا لا يبايع سراً، ولكن نبايع علىٰ رؤوس الناس إذا أصبحنا، فرجعا إلىٰ بيوتهما وخرجا من ليلتهما إلىٰ مكة، وذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب، فأقام الحسين بمكة شعبان ورمضان وشوالاً وذا القعدة، وخرج يوم التروية يريد الكوفة.

قال ابن عبد البر في الاستيعاب: قتل يوم الأحد لعشر مضين من المحرم بموضع من أرض الكوفة يقال له كربلاء، ويعرف بالطف، وعليه خز كفاء، وهو ابن ست وخمسين سنة. قاله نسابة قريش الزبير بن بكار، ومولده لخمس ليال خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة، وفيها كانت غزوة ذات الرقاع، وفيها قصرت الصلاة، وتزوج رسول اللَّه ﷺ أم سلمة، واتفقوا علىٰ أنه قتل يوم عاشوراء العاشر من المحرم سنة إحدىٰ وستين، وقتل معه اثنان وثمانون رجلاً من أصحابه مبارزة، منهم: الحر بن يزيد، لأنه تاب ورجع مع الحسين، ثم قتل جميع بنيه إلا علياً المسمىٰ بعد ذلك زين العابدين، كان مريضاً فأخذ أسيراً بعد قتل أبيه، وقتل أكثر إخوة الحسين وبني أعمامه رضي اللَّه عنهم.

---

(١) انظر: صحيح البخاري ـ كتاب فضائل الصحابة (٣٧٤٧)، ومسلم ـ كتاب فضائل الصحابة (٢٤٢١)، (٢٤٢٢)، (٢٤٢٣)، والترمذي في المناقب (٣٧٨٢).

قال جعفر الصادق: وجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة بالسيف، وأربع وثلاثون ضربة، واختلفوا فيمن قتله. فقال يحيىٰ بن معين: أهل الكوفة يقولون: الذي قتل الحسين عمر بن سعد (بن أبي وقاص). قال يحيىٰ: كان إبراهيم بن سعد يروي فيه حديثاً أنه لم يقتله عمر بن سعد، قال ابن عبد البر: إنما نسب قتل الحسين إلىٰ عمر بن سعد، لأنه كان الأمير علىٰ الخيل التي أخرجها عبيد اللّه بن زياد إلىٰ قتال الحسين. وأمر عليهم عمر بن سعد، ووعده أن يوليه الري إن ظفر بالحسين وقتله، وكان في تلك الخيل ـ واللّه أعلم ـ قوم من مصر واليمن.

عن ابن عباس قال: رأيت رسول اللّه ﷺ نصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه ويتتبعه فيها. قال: قلت: يا رسول اللّه ما هذا؟ قال: «دم الحسين وأصحابه لم أزل أتبعه منذ اليوم» قال عمار: فحفظنا ذلك اليوم فوجدناه قتل ذلك اليوم[1]. وهذا سنده صحيح لا مطعن فيه.

وساق القوم حرم رسول اللّه ﷺ كما تساق الأسارىٰ حتىٰ إذا بلغوا بهم إلىٰ الكوفة خرج الناس فجعلوا ينظرون إليهم، وفي الأسارىٰ علي بن حسين، وكان شديد المرض، قد جمعت يداه إلىٰ عنقه، وزينب بنت علي وبنت فاطمة الزهراء، وأختها أم كلثوم، وفاطمة وسكينة بنت الحسين، وساق الظلمة والفسقة معهم رؤوس القتلىٰ.

وعن محمد بن الحنفية قال: قتل مع الحسين سبعة عشر رجلاً كلهم من ولد فاطمة عليها الصلاة والسلام.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٤٢، ٢٨٣). قال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩٣ ـ ١٩٤): «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح».

وذكر أبو عمر ابن عبد البر عن الحسن البصري قال: أصيب مع الحسين بن علي ستة عشر رجلاً من أهل بيته ما على وجه الأرض لهم يومئذ شبيه. وقيل: إنه قتل مع الحسين من ولده وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلاً.

وعن أنس بن مالك: أتى عبيد بن زياد برأس الحسين، فجعل في طست، فجعل ينكت، وقال في حسنه شيئاً، فقال أنس: كان أشبههم برسول اللّه ﷺ وكان مخضوباً بالوسمة[1].

يقال: نكت في الأرض إذا أثر فيها، ونكت بالحصباء إذا ضرب بها، وكان الفاسق يؤثر في رأسه المكرم بالقضيب.

واختلف الناس في موقع الرأس المكرم؟ وأين حمل من البلاد؟ فذكر الحافظ أبو العلاء الهمذاني أن يزيد حين قدم عليه رأس الحسين بعث به إلى المدينة، فأقدم عليه عدة من موالي بني هاشم، وضم إليهم عدة من موالي أبي سفيان، ثم بعث بثقل الحسين ومن بقي من أهله معهم، وجهزهم بكل شيء، ولم يدع لهم حاجة بالمدينة إلا أمر لهم بها، وبعث برأس الحسين عليه السلام إلى عمرو بن سعيد بن العاص، وهو إذ ذاك عامله على المدينة فقال عمرو: وددت أنه لم يبعث به إلي. ثم أمر عمرو بن سعد بن الوقاص برأس الحسين عليه السلام فكفن ودفن بالبقيع عند قبر أمه فاطمة عليها الصلاة والسلام. وهذا أصح ما قيل في ذلك، ولذلك قال الزبير بن بكار: إن الرأس حمل إلى المدينة. والزبير أعلم أهل النسب وأفضل العلماء لهذا السبب، قال: حدثني بذلك محمد بن حسن المخزومي النسابة.

والإمامية تقول إن الرأس أعيد إلى الجثة بكربلاء بعد أربعين يوماً من المقتل، وهو يوم معروف عندهم، يسمون الزيارة فيه: زيارة الأربعين، وما ذكر أنه في

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٤٨).

عسقلان في مشهد هناك أو بالقاهرة فشيء باطل لا يصح ولا يثبت. وقد قتل اللّه قاتله صبراً، ولقي حزناً طويلاً وذعراً، وجعل رأسه الذي اجتمع فيه العيب والذم في الموضع الذي جعل فيه رأس الحسين، وذك بعد قتل الحسين بستة أعوام، وبعث المختار به إلىٰ المدينة، فوضع بين يدي بني الحسين الكرام، وكذلك عمرو ابن سعيد وأصحابه اللئام، ضربت أعناقهم بالسيف، وسقوا كأس الحمام، وبقي الوقوف بين يدي الملك العلاَّم، في يوم ﴿يُعْـرَفُ الْمُجْـرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْـدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

فصل: ومثل صنيع عبيد اللّه بن زياد صنع قبله بسر بن أرطأة العامري الذي هتك الإسلام، وسفك الدم الحرام، وأذاق الناس الموت الزؤام، ولم يرع لرسول اللّه الذمام، فقتل أهل بيته الكرام، وحكّم في مفارقهم الحسام، وعجل لهم الحمام، وذبح ولدي عبيد اللّه بن العباس بن عبد المطلب وهما صغيران بين يدي أمهما يمرحان، وهما قثم وعبد الرحمن، فوسوست أمهما وأصابها ضرب من الجان؛ لما أشعله الثكل في قلبها من لهيب النيران.

وذكر أبو عمرو الشيباني قال: لما وجه معاوية بسر بن أرطأة لقتل شيعة علي رضي اللّه عنه سار إلىٰ أن أتىٰ المدينة، فقتل ابني عبيد اللّه بن العباس، وفر أهل المدينة حتىٰ دخلوا الحرة: حرة بني سليم. وفي هذه الخرجة أغار بسر علىٰ همدان فقتل وسبىٰ نساءهم، فكن أول نساء سبين في الإسلام، وقتل أحياء من بني سعد، وقد اختلفوا كما ترىٰ في أي موضع قتل الصغيرين من أهل البيت، هل في المدينة أو في مكة أو في اليمن؟ لأنه دخل هذ البلاد، وأكثر فيها الفساد، وأظهر لعلي رضي اللّه عنه العناد، وأفرط في بغضه وزاد، وسلط علىٰ أهل البيت الكريم الأجناد، فقتل وسبىٰ وأباد، ولم يبق إلّا أن يخدد الأخاديد ويتد الأوتاد، وكان معاوية قد بعثه في سنة أربعين إلىٰ اليمن وعليها عبيد اللّه بن العباس أخو عبد اللّه

ابن العباس، ففر عبيد اللّه وأقام بسر باليمن، وباع دينه ببخس من الثمن، فأخاف السبيل، ورعى المرعى الوبيل، وباع المسلمات، وهتك المحرمات، فبعث علي رضي اللّه عنه في طلبه حارثة بن قدامة السعدي، فهرب بسر إلى الشام، وقد ألبس بذميم أفعاله ثياب العار والذمام، وبقي الوقوف بين يدي الملك العلّام ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] .

قال أبو محمد عبد الحق: بسر هذا يقال: ولد في زمن رسول اللّه ﷺ، وكانت له أخبار سوء في جانب علي وأصحابه، وهو الذي ذبح طفلين لعبيد اللّه بن العباس، ففقدت أمهما عقلها، وهامت على وجهها، فدعا عليه علي رضي اللّه عنه أن يطيل اللّه عمره ويذهب عقله، فكان كذلك، قال ابن دحية: ولما ذبح الصغيرين وفقدت أمهما عقلها كانت تقف في الموسم تنشد شعراً يبكي العيون، ويهيج بلابل الأحزان والعيون

* * *

١٨٠ ـ [حفظ اللسان في الفتنة وغيرها][١]

في الصحيحين، عن أبي هريرة أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» وفي رواية عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[٢] .

* * *

(١) هذا العنوان وضعناه ليناسب المحتوى.
(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٨).

١٨١ ـ باب الأمر بالصبر عند الفتن وتسليم النفس للقتل عندها، والسعيد من جنبها

عن أبي ذر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يا أبا ذر» قلت: لبيك يا رسول اللَّه وسعديك، وذكر الحديث. قال: «كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت بالوصيف؟» يعني القبر: قلت: اللَّه ورسوله أعلم، أو قال: ما خار اللَّه لي ورسوله، قال: «عليك بالصبر» أو قال: تصبر، ثم قال: «يا أبا ذر» قلت: لبيك وسعديك؟ قال: «كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم» قلت: ما خار اللَّه لي ورسوله. قال: «عليك بمن أنت منه» قال: قلت: يا رسول اللَّه، أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي؟ قال: «شاركت القوم إذاً» قال: قلت: فما تأمرني؟ قال: «تلزم بيتك» قال: قلت: فإن دخل عليّ بيتي؟ قال: «فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف، فألق بثوبك على وجهك يبوء بإثمه وإثمك».

وفي رواية قال: «تصبر» من غير شك، وزاد بعده قال: «كيف أنت وجوع يصيب الناس حتى تأتي مسجدك فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك، أو لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك» قال: قلت: اللَّه ورسوله أعلم، أو ما خار اللَّه لي ورسوله، قال: «عليك بالعفة»، ثم قال: «كيف أنت وقتل يصيب الناس حتى تغرق حجارة الزيت بالدم» الحديث. وقال: «فألق طرف ردائك على وجهك فيبوء بإثمه وإثمك فيكون من أصحاب النار»[١].

عن المقداد بن الأسود قال: وايم اللَّه لقد سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلى فصبر فواها»[٢].

---

(١) رواه أحمد ٥/ ١٤٤، ١٤٩، ١٥٦، ١٦٣، ١٨٠)، وأبو داود في الفتن (٤٢٦١)، واختصره في الحدود (٤٤٠٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٨) وغيرهم، وله طرق وشاهد يتقوى به.

(٢) رواه أبو داود في الفتن (٤٢٦٣) وغيره. وسنده حسن.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يأتي على الناس زمان الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر»[١].

فصل: قوله: «بالوصيف» الوصيف الخادم، يريد أن الناس يشتغلون عن دفن موتاهم، حتى لا يوجد فيهم من يحفر قبر الميت ويدفنه إلا أن يعطى وصيفاً أو قيمته، وقد يكون معناه أن مواضع القبور تضيق عليهم فيبتاعون لموتاهم القبور كل قبر بوصيف، وقوله: «غرقت بالدم» أي لزمت، والغروق: اللزوم فيه، ويروى: غرقت، وأحجار الزيت: موضع بالمدينة.

فصل: وأما أمره ﷺ أبا ذر بلزوم البيت وتسليم النفس للقتل، فقالت طائفة: ذلك عند جميع الفتن، وغير جائز لمسلم النهوض في شيء منها. قالوا: وعليه أن يستسلم للقتل إذا أريدت نفسه ولا يدفع عنها، وحملوا الأحاديث على ظاهرها.

وربما احتجوا من جهة النظر بأن قالوا: إن كل فريق من المقتتلين في الفتنة فإنه يقاتل على تأويل، وإن كان في الحقيقة خطأ فهو عند نفسه محق، وغير جائز لأحد قتله، وسبيله سبيل حاكم من المسلمين يقضي بقضاء مما اختلف فيه العلماء على ما يراه صواباً، فغير جائز لغيره من الحكام نقضه إذا لم يخالف بقضائه ذلك كتاباً ولا سنة ولا جماعة. وكذلك المقتتلون في الفتنة كل حزب منهم عند نفسه محق دون غيره.

وقد ذكرنا من تخلف عن الفتنة وقعد منهم: عمران بن الحصين، وابن عمر، وقد روي عنهما، وعن غيرهما: أنه من اعتزل الفريقين فدخل بيته فأتى من يريد نفسه فعليه دفعه عن نفسه، وإن أبى الدفع عن نفسه فغير مصيب كقوله عليه الصلاة والسلام: «من أريدت نفسه وماله فقُتل فهو شهيد»[٢]. قالوا: فالواجب

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٦٠) وله شواهد يتقوى بها. انظر السلسلة الصحيحة (٩٥٧).

(٢) مرت روايات بنحوه في باب: كم الشهداء.

علىٰ كل من أريدت نفسه وماله فقتل ظلماً دفع ذلك ما وجد إليه السبيل، متأولاً كان المريد أو متعمداً للظلم.

قلت: هذا هو الصحيح في القولين إن شاء اللّٰه تعالىٰ.

عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّٰه، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك» قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار»[1].

وقال ابن المنذر: ثبتت الأخبار عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد» وقد روينا عن جماعة من أهل العلم أنهم رأوا قتال اللصوص ودفعهم عن أنفسهم وأموالهم، وبهذا يقول عوام أهل العلم، أن للرجل أن يقاتل عن نفسه وماله إذا أريد ظلماً، للأخبار التي جاءت عن رسول اللّٰه ﷺ، لم يخصّ وقتاً من وقت، ولا حالاً دون حال، إلا السلطان، فإن أهل العلم كالمجتمعين علىٰ أن من لم يمكنه أن يمنع نفسه وماله إلا بالخروج علىٰ السلطان ومحاربته أنه لا يحاربه ولا يخرج عليه؛ للأخبار الواردة الدالة عن رسول اللّٰه ﷺ بالصبر علىٰ ما يكون منهم من الجور والظلم.

* * *

١٨٢ ـ باب جعل اللّٰه في أول هذه الأمة عافيتها وفي آخرها بلاءها

عن عبد اللّٰه بن عمر قال: كنا مع رسول اللّٰه ﷺ في سفر فنزل منزلاً، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره، إذ نادىٰ منادي رسول اللّٰه: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلىٰ رسول اللّٰه ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٠).

قبلي إلَّا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيدفق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول: هذه هذه، فمن أراد أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» قال ابن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة: فدنوت منه فقلت له: ناشدتك الله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا، والله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله[١].

فصل: قوله: «ينتضل» الانتضال الرمي بالسهام. و«الجشر» المال من المواشي التي ترعى أمام البيوت والديار، يقال: مال جشر يرعى في مكانه؛ لأنه يرجع إلى أهله يقال: جشرنا دوابنا أي أخرجناها إلى المرعى، وأصله البعد، ومنه يقال للأعزب: جشر وجشير لبعده عن النساء، وقوله: «يدفق بعضها بعضاً»[٢] أي يتلو بعضها بعضاً وينصب بعضها على بعض. والتدفق: التصبب. وهذا المعنى مبين في نفس الحديث لقوله: وتجيء الفتنة ثم تنكشف وتجيء الفتنة. وتزحزح أي تبعد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٩٦] أي

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٤٤).

(٢) «فيدفق بعضها بعضا»: كذا في الأصل. وقد وجهها على أنها من التدفق، أي التصبب. والذي في صحيح مسلم «فيرقق بعضها بعضا».

بمبعده، وصفقة اليد: أصلها ضرب الكف على الكف زيادة في الاستيثاق مع النطق باللسان والالتزام بالقلب، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الفتح: ١٠]. وقوله: «فاضربوا عنق الآخر» قيل: المراد عزله وخلعه وذلك قتله وموته، وقيل: قطع رأسه وإذهاب نفسه، وهو ظاهر الحديث، هذا إذا كان الأول عدلاً، والله أعلم.

* * *

١٨٣ ـ باب جواز الدعاء بالموت عند الفتن

عن يحيىٰ بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول: «اللّهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون» وقد تقدم هذا في أول الكتاب[1].

وكان أبو هريرة يلقىٰ الرجل فيقول له: مت إن استطعت، فيقول له: لم؟ قال: تموت وأنت تدري علىٰ ما تموت خير لك من أن تموت وأنت لا تدري علىٰ ما تموت.

قال مالك: ولا أرىٰ عمر دعا ما دعا به من الشهادة إلّا خاف التحول من الفتن.

قلت: وقد جاء هذا المعنىٰ مرفوعاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب، موتوا إن استطعتم»[2]، وهذا غاية في التحذير من الفتن والخوض فيها حين جعل الموت خيراً من مباشرتها.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه». وفي رواية: «وليس به الدِّين إلّا البلاء»[3].

قلت: وكأنّ هذا إشارة إلىٰ أن كثرة الفتن وشدة المحن والمشقات والأنكاد

---

(١) مرّ تخريجه في باب: جواز تمني الموت والدعاء به.
(٢) رواه الحاكم (٤/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠).
(٣) مرّ تخريجه في باب: جواز تمني الموت.

اللاحقة للإنسان في نفسه وماله وولده قد أذهبت الدين منه ومن أكثر الناس، أو (قلّلت) الاعتناء به من الذي يتمسك بالدين عند هجوم الفتن، وكذلك عظم قدر العبادة في حالة الفتن حتىٰ قال النبي ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إليّ»(١) وقد مضىٰ الكلام في هذا المعنىٰ في أول الكتاب، ونزيده وضوحاً إن شاء اللّه تعالىٰ، واللّه أعلم.

* * *

١٨٤ ـ باب أسباب الفتن والمحن والبلاء

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لم تظهر الفاحشة في قوم إلّا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم. ولا نقصوا المكيال والميزان إلّا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلّا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا. ولم ينقضوا عهد اللّه ولا عهد رسوله إلّا سلط عليهم عدوهم، فأخذ بعض ما كان في أيديهم. وإذا لم يحكم أئمتهم بكتاب اللّه إلّا جعل اللّه بأسهم بينهم»(٢).

عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء، وخدمها أبناء الملوك: فارس والروم، سلط شرارها علىٰ خيارها»(٣).

عن قيس بن أبي حازم قال: قام أبو بكر رضي اللّه عنه فحمد اللّه وأثنىٰ عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنا سمعنا رسول اللّه ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمهم اللّه بعقابه»(٤).

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٨).

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩)، والحاكم (٤/ ٥٤٠) وله شواهد أخرىٰ.

(٣) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٦١) وله شواهد يتقوىٰ بها. انظر السلسلة الصحيحة (٩٥٦).

(٤) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٢١٦٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٧)

عن عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص، عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف: نكون كما أمر اللّٰه، فقال رسول اللّٰه ﷺ: أو غير ذلك؛ تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين فتجعلون بعضهم علىٰ رقاب بعض»(١) .

وعن عمرو بن عوف ـ وهو حليف بني عامر بن لؤي، وكان شهد بدراً مع رسول اللّٰه ﷺ ـ أن رسول اللّٰه ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلىٰ البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول اللّٰه ﷺ قد صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة؛ فوافوا صلاة الفجر مع رسول اللّٰه ﷺ، فلما صلىٰ رسول اللّٰه ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول اللّٰه ﷺ حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟ قالوا: أجل يا رسول اللّٰه، قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم، فواللّٰه ما الفقر أخشىٰ عليكم، ولكن أخشىٰ عليكم أن تبسط لكم الدنيا، كما بسطت علىٰ من كان من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

وفي رواية: «فتلهيكم كما ألهتهم» بدل «تهلككم»(٢) .

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «ما أدع بعدي فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء»(٣) .

---

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٢).

(٢) رواه البخاري في الجزية الموادعة (٣١٥٨)، وفي المغازي (٤٠١٥)، وفي الرقاق (٤٦٢٥)، ومسلم في الزهد (٢٩٦١).

(٣) رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠).

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قام خطيباً وكان فيما قال: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن اللَّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، ألا فاتقوا اللَّه واتقوا النساء» خرجه مسلم أيضاً وقال بدل قوله: «فاتقوا اللَّه»: «واتقوا النار واتقوا النساء» وزاد: «فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[١].

وعن كعب بن عياض قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال»[٢].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن»[٣].

فصل: حذر اللَّه سبحانه وتعالى عباده فتنة المال والنساء في كتابه وعلى لسان نبيه فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٦، ١٧] فنبه اللَّه على ما يعتصم به من فتنة حب المال والولد في آي ذكر اللَّه فيها فتنة، وما كان عاصماً من فتنة المال والولد فهو عاصم من كل الفتن والأهواء. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٢)، والترمذي في الفتن (٢١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٣٦)، وأحمد (٤/ ١٦٠)، والحاكم (٤/ ٣١٨) وغيرهم.

(٣) رواه أبو داود في الأضاحي (٢٨٥٩)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٦)، والنسائي في الصيد (٧/ ٦٩٦) وغيرهم. وله طراق وشواهد.

الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤] ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ [آل عمران: ١٥] فوصف تعالىٰ ما للمتقين عند ربهم، ثم وصف أحوالهم بنعتهم، إلىٰ قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وهذا تنبيه لهم علىٰ تزهيدهم فيما زيّن لهم وترغيبهم فيما هو خير منه، ومثل هذا في القرآن كثير.

والمطيطاء: بضم الميم والمد: المشي بتبختر، وهي مشية المتكبرين المفتخرين، وهو مأخوذ من: مط يمط إذا مد، قال الجوهري: والمطيطاء بضم الميم ممدوداً: التبختر ومد اليدين في المشي. وقوله: «ثم ينطلقون في مساكين[1] المهاجرين». قيل في الكلام حذف أي في زي المساكين المهاجرين، والمعنىٰ أنه إذا وقع التنافس والتحاسد والتباغض حملهم ذلك علىٰ أن يأخذ القوي علىٰ ما أفاء اللَّه علىٰ المسكين الذي لا يقدر علىٰ مدافعته، فيمنعه عنه ظلماً وقهراً بمقتضىٰ التنافس والتحاسد.

وقيل: ليس في الكلام حذف وأن المعنىٰ المراد أن (المساكين) المهاجرين وضعفاءهم سيفتح عليهم إذ ذاك من الدنيا حتي يكونوا أمراء بعضهم علىٰ رقاب بعض، وهذا اختيار القاضي عياض، والأول يشهد له مساق الحديث ومعناه، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم أنه يتغير بهم الحال، وأنهم يصدر عنهم ـ أو عن بعضهم ـ أحوال غير مرضية تخالف أحوالهم التي كانوا عليها؛ من التنافس، والتباغض، وانطلاقهم في مساكين المهاجرين، فلابد أن يكون هذا الوصف غير مرضي كالأوصاف التي قبله، وأن تكون تلك الأوصاف المتقدمة توجيهاً، وحينئذ يلتئم الكلام أوله وآخره، واللَّه أعلم.

* * *

(١) مساكين: جاءت في الحديث: «مساكن».

أبواب الملاحم

١٨٥ ـ باب أمارات الملاحم

عن معاذ بن جبل قال: قال رسول اللّه ﷺ: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال»(١).

عن عوف بن مالك قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتىٰ يعطىٰ الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقىٰ بيت من العرب إلّا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفا»(٢).

وجاء في رواية بمعناه وفيها زيادة: «ففسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها «الغوطة» في مدينة يقال لها «دمشق»(٣).

وعوف بن مالك الأشجعي: شهد موت النبي ﷺ، وحضر فتح بيت المقدس مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فتحه صلحاً لخمس خلون من ذي القعدة سنة ستة عشر من الهجرة، ثم حضر قسمة كنوز كسرىٰ علىٰ يد أمير المؤمنين عمر، ثم شاهد قتال الجمل وصفين، وشاهد أيضاً الموتان الذي كان بالشام قبل ذلك، وهو المسمىٰ بطاعون عمواس ـ بفتح العين والميم ـ قرية بين الرملة وبيت المقدس، مات

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٤)، وأحمد (٥/ ٢٣٢، ٢٤٥) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري في الجزية (٣١٧٦).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٨/ ٤٢)، وفي مسند الشاميين (١٠٣٥) وأصله في البخاري في الجزية (٣١٧٦). والمقطع المذكور رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٨) من حديث أبي الدرداء.

فيه أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، والأمير الفقيه أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل. قال الإمام أحمد بن حنبل في تاريخه: كان الطاعون عمواس سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة، وفي سنة سبع عشرة رجع عمر من سرغ، و«موتان» بضم الميم وهي لغة، وغيرهم يفتحونها، وهو اسم الطاعون والموت.

وقوله: «كقعاص الغنم» هو داء يأخذها لا يلبثها، قاله أبو عبيدة؛ لأن (القعاص) الموت المعجل. ويقال بالسين، وقيل هو داء يأخذ في (الصدور) كأنه يكسر العنق، وقد انقضت هذه الخمس، وعاش عوف بن مالك إلىٰ زمن عبدالملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، وقد أربىٰ بصفين علىٰ المائة، والله أعلم.

* * *

١٨٦ ـ باب ما ذكر في ملاحم الروم وتواترها وتداعي الأمم على أهل الإسلام

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون بينكم وبين بني الأصفر هدنة، فيغدرون بكم، فيسيرون إليكم في ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفاً»(١).

وعن ذي مخمر، وكان رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال: سمعت النبي النبي ﷺ يقول: «ستصالحكم الروم صلحاً آمناً، ثم تغزون أنتم وهم عدواً فتنصرون، وتغنمون، وتقتسمون، وتسلمون، ثم تنصرفون حتىٰ تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل الصليب صليبه، فيقول: غلب الصليب؛ فيغضب رجل من المسلمين فيقوم إليه فيدفعه، فعند ذلك تغدر الروم، ويجمعون الملحمة، فيأتون تحت ثمانين راية، كل راية اثنا عشر ألفا».

---

(١) مرّ تخريجه قريباً في الباب السابق.

وزاد في رواية: «ويثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتتلون، فيكرم اللَّه تلك العصابة بالشهادة»[١].

وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، وإسناده صحيح ثابت، وذو مخمر بالميم لا غير[٢]، وهو ابن أخي النجاشي، قاله الأوزاعي، وقد عده أبو عمر ابن عبد البر في موالي رسول اللَّه ﷺ قاله ابن دحية.

عن يُسيْـر بن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هِجِّيرَىٰ إلَّا: يا عبد اللَّه بن مسعود جاءت الساعة. قال: فقعد وكان متكئاً فقال: «إن الساعة لا تقوم حتىٰ لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا، ونحاها نحو الشام، فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، ويكون عند ذلك القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلَّا غالبة، فيقتتلون حتىٰ يحجز بينهم الليل، فيبقىٰ هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنىٰ الشرطة. ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلَّا غالبة، فيقتتلون حتىٰ يمسوا، فيبقىٰ هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنىٰ الشرطة. فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية الإسلام، فيجعل اللَّه الدائرة عليهم، فيقتتلون مقتلة ـ إما قال: لم ير مثلها، وإما قال: لا يرىٰ مثلها ـ حتىٰ إن الطائر ليمر بجثمانهم[٣] فما يخلفهم حتىٰ يخر ميتاً، فيتعادّ بنو الأب كانوا مائة فلا يجدون بقىٰ منهم إلَّا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح، وأي

---

(١) رواه البخاري مختصراً في الجهاد (٢٧٨٧) ومطولاً في الملاحم (٤٢٩٢)، (٤٢٩٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٨٩)، وأحمد (٤/ ٩١)، و(٥/ ٤٠٩).

(٢) في سنن أبي داود فقط: «ذو مخبر» بالباء.

(٣) «بجثمانهم» كذا في الأصل، وسيأتي في الشرح أنها رواية، والذي في صحيح مسلم: «بجنباتهم».

ميراث يقسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا بناس هم أكثر من ذلك، فجاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج في ذراريّهم، فيرفضون ما بأيديهم ويقبلون، فيبعثون عشر فوارس طليعة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس علىٰ ظهر الأرض، ومن خير فوارس يومئذ»(١).

عن ثوبان قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعىٰ عليكم، كما تداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها. فقال قائل من القوم: من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن اللّه من صدور عدوكم المهابة، وليقذفن في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول اللّه، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهة الموت»(٢).

فصل: قوله: بني الأصفر. يعني الروم. والهدنة: الصلح. والغاية: الراية، كما جاء مفسراً في الحديث بعده. سميت بذلك لأنها تشبه السحابة لمسيرها في الجو.

وقد صح عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «إن تحت كل غاية اثنىٰ عشر ألفاً» فجملة العدو تسعمائة ألف وستون ألفاً.

وقوله: «ليس لي هِجِّيرَىٰ» الهجير: الدأب والعادة. يقال: ما زال ذاك هجيراه وإهجيراه وإجيراه: أي دأبه وعادته، وهاجت: أي تحركت، ريح حمراء أي شديدة احمرت لها الشجر، وانكشفت الأرض، فظهرت حمرتها، ولما رأىٰ ذلك الرجل جاء مجيء الخائف من قرب الساعة، والشرطة هنا بضم الشين: أول

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٨٩٩).

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وأحمد (٢/ ٣٥٩)، (٥/ ٢٧٨) وغيرهما. وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

طائفة من الجيش تقاتل؛ سموا بذلك لعلامة تميزوا بها، والأشراط العلامات، وتفنى الشرطة: أي تقتل، وتفيء: ترجع. ومنه ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. ونهد: نهض وتقدم، ومنه سمى النهد نهداً لتقدمه الصدر، والدايرة ويروى: والدائرة والمعنى متقارب. قال الأزهري: الدائرة: الدولة تدور على الأعداء، والدائرة: النصر والظفر، يقال: لمن الدائرة، أي لمن الدولة، وعلى مَن الدائرة؟ أي الهزيمة. قاله أبو عبيد الهروي. والجنبات: جمع جنبة وهي الجانب، ويروى (بجثمانهم) أي بأشخاصهم، وقوله: إذ سمعوا «بناس» بنون وسين. هم أكثر بالثاء المثلثة، ويروى «بباس»، وهو الأمر الشديد، وهو الصواب. والصريخ: الصارخ أي المصوت عند الأمر الهائل، ويرفضون: أي يرمون ويتركون، والطليعة: الذي يتطلع الأمر ويستكشفه، وتداعي الأمم: اجتماعها ودعا بعضهم بعضاً حتى تصير العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة، وغثاء السيل: ما يقذف به على جانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش، والله أعلم.

* * *

١٨٧ ـ باب ما جاء في قتال الترك وصفتهم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان من الأعاجم؛ حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر».

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «يقاتلون بين يدي الساعة قوماً نعالهم الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة، حمر الوجوه، صغار الأعين، ذلف الأنوف»، وفي رواية: «يلبسون الشعر، ويمشون في الشعر»[1].

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٥٨٧)، وفي الجهاد (٤٩٢٨)، (٤٩٢٩)، ومسلم في الفتن (٢٩١٢).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ تقاتلوا قوماً صغار الأعين، عراض الوجوه، كأن أعينهم حدق الجراد، وكأن وجوههم المجان المطرقة، ينتعلون الشعور، ويتخذون الدرق، يربطون خيولهم بالنخيل»[١].

عن عبد اللّه بن بريدة، عن أبيه عن النبي ﷺ في حديث: «يقاتلونكم قوم صغار الأعين - يعني الترك - قال: تسوقونهم ثلاث مرات حتىٰ تلحقونهم بجزيرة العرب، فأما في السياقة الأولىٰ فينجو منهم من هرب، وأما في الثانية فينجو بعضهم ويهلك بعض، وأما في الثالثة فيصطلمون»[٢].

فصل: وقوله: المجان المطرقة: المجان جمع مجن وهو الترس، والمطرقة هي التي قد عوليت بطراق وهو الجلد الذي يغشاه؛ شبه وجوههم في عرضها ونتوء وجناتها بالترس والمطرقة، وقيده القاضي عياض رحمه اللّه فقال: الصواب فيه «المطرّقة» بفتح الطاء وتشديد الراء.

وقيل: بل الصواب فيه المطرقة بسكون الطاء وفتح الراء، أي التي أطرقت بالعقب أي ألبست حتىٰ غلظت وكأنها ترس علىٰ ترس، ومنه طارقت النعل إذا ركبت جلداً علىٰ جلد وخرزته عليه. وقوله: «نعالهم الشعر» أي يصنعون من الشعر حبالاً، ويصنعون منها نعالاً، كما يصنعون منه ثياباً، ويشهد بهذا قوله: «يلبسون الشعر، ويمشون في الشعر» هذا ظاهره. ويحتمل أن يريد بذلك أن شعورهم كثيفة طويلة، فهي إذا أسدلوها كاللباس، وذوائبها لوصولها إلىٰ أرجلهم كالنعال، والأول أظهر.

---

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٩٩)، وأحمد (٣/ ٣١) وغيرهما.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٠٥)، وأحمد (٥/ ٣٤٨)، وله شواهد يتقوىٰ بها إلىٰ درجة الحسن.

قال ابن دحية: إنما كان نعالهم من ضفائر الشعر أو من جلود مشعرة لما في بلادهم من الثلج العظيم الذي لا يكون في بلد كبلادهم، ويكون من جلد الذئب وغيره. وقوله: ذلف الأنف: أي غلاظها، ويقال: أنف أذلف إذا كان فيه غلظ وانبطاح، والذلف في اللغة تأخر الأرنبة، وقيل تطامن فيها، وقيل فطس الأنوف كما في حديث البخاري عن أبي هريرة(١)، فالحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضاً، ويروى دلف الأنوف بالدال المهملة والمعجمة أكثر.

* * *

١٨٨ ـ باب في سياقه الترك للمسلمين وسياقة المسلمين لهم

عن عبد اللّه بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعت النبي ﷺ يقول: «إن أمتي يسوقها قوم عراض الوجوه صغار الأعين كأن وجوههم الحجف، ثلاث مرات، حتى يلحقوهم بجزيرة العرب، أما السياقة الأولى فينجو من هرب منهم، وأما السياقة الثانية فيهلك بعض وينجو بعض، وأما السياقة الثالثة فيصطلمون كلهم مَن بقي منهم، قالوا: يا نبي اللّه، مَنْ هم؟ قال: هم الترك، قال: أما والذي نفسي بيده ليربطون خيولهم إلى سواري مساجد المسلمين». قال: وكان بريدة لا يفارقه بعيران أو ثلاثة ومتاع السفر والأسقية بعد ذلك للهرب مما سمع من رسول اللّه ﷺ من البلاء من الترك(٢).

فصل: الاصطلام: الاستئصال، وأصله من الصلم وهو القطع.

والحديث يدل على خروجهم وقتالهم المسلمين وقتلهم، ووقع ذلك على نحو ما أخبر ﷺ، خرج منهم في هذا الوقت أنهم لا يحميهم إلّا اللّه، ولا يردهم عن المسلمين إلّا اللّه، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم.

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٥٩٠).

(٢) انظر الحديث السابق.

قال المؤلف رحمه اللّه: فقد كملت بحمد اللّه خرجاتهم ـ أي التتر ـ ولم يبق إلّا قتلهم وقتالهم، خرجوا على العراق الأول والثاني كما ذكرناه، وخرجوا في هذا الوقت على العراق الثالث بغداد، وما اتصل بها من البلاد، وقتلوا جميع من كان فيها من الملوك والعلماء والفضلاء والعباد، وحصروا (ميا فارقين)، واستباحوا من كان فيها من الملوك والمسلمين، وعبروا الفرات إلى أن وصلوا إلى مدينة حلب فخربوها، وقتلوا من فيها إلى أن تركوها خالية يباباً، ثم أوغلوا إلى أن ملكوا جميع الشام في مدة يسيرة من الأيام، وفلقوا بسيوفهم الرؤوس والهام، ودخل رعبهم الديار المصرية، ولم يبق إلّا اللحوق بالدار الأخروية، فخرج إليهم من مصر الملك المظفر الملقب بقطز رضي اللّه عنه بجميع من معه من العسكر، وقد بلغت الحناجر القلوب والأنفس بعزيمة صادقة، ونية خالصة، إلى أن التقى بعين جالوت، فكان له عليهم من النصر والظفر كما كان لطاوت، فقتل منهم جمع كثير، وعدد غزير، وانجلوا عن الشام من ساعتهم، ورجع جميعه كما كان إلى الإسلام، وعبروا الفرات منهزمين، ورأوا ما لم يشاهدوه منذ زمان ولا حين، وراحوا خائبين، خاسرين، مدحورين، أذلاء، صاغرين.

* * *

باب منه، وما جاء في ذكر البصرة

عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لتنزلن طائفة من أمتي أرضاً يقال لها البصرة، ويكثر بها عددهم ونخلهم، ثم يجيء قوم من بني قنطورا، عراض الوجوه، صغار الأعين، حتى ينزلوا على جسر لهم يقال له: دجلة، فيتفرق المسلمون ثلاث فرق: أما فرقة فتأخذ بأذناب الإبل فتلحق البادية فهلكت، وأما فرقة فتأخذ على أنفسها وكفرت، وهذه وتلك سواء، وأما فرقة فيجعلون عيالاتهم خلف ظهورهم ويقاتلون، فقتلاهم شهداء،

ويفتح اللَّه على بقيتهم»[١] .

وبنو قطورا: هم الترك يقال إن «قنطورا» جارية كانت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ولدت له أولاداً من نسلهم الترك. وقيل: هم من ولد يافث. وهم أجناس كثيرة، فمنهم أصحاب مدن وحصون، ومنهم قوم في رؤوس الجبال والبراري والشعاب ليس لهم عمل غير الصيد، ومن لم يصد منهم ودج دابته فشوى الدم في مصران فأكله، وهم يأكلون الرخم والغربان وغيرهما وليس لهم دين، ومنهم من كان على دين المجوسية، ومنهم من تهود. وملكهم الذي يقال له «خاقان» يلبس الحرير وتاج الذهب، ويحتجب كثيراً، وفيهم بأس شديد، وفيهم سحر، وأكثرهم مجوس.

وقال وهب بن منبه: الترك بنو عم يأجوج ومأجوج، يعني أنهم كلهم من ولد يافث.

وقيل: إن أصل الترك أو بعضهم من اليمن من حمير، وقيل فيهم: إنهم من بقايا قوم تبع، واللَّه أعلم.

* * *

١٨٩ ـ باب ما جاء في فضل الشام وأنه معقل من الملاحم

عن أبي الدرداء قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بينما أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به، فأتبعته بصري، فعمد به إلى الشام. ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام»[٢] .

قال أبو محمد عبد الحق: هذا حديث صحيح، ولعل هذه الفتن هي التي

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٠٦) بنحوه، وأحمد (٥/ ٤٠، ٤٤، ٤٥)، والطيالسي (٨٧). وإسناده حسن.

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٩٨ ـ ١٩٩). وانظر التذكرة (١٩٤٢).

تكون عند خروج الدجال، والله ورسوله أعلم.

عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلىٰ جانب مدينة يقال لها «دمشق» من خير مدائن الشام»[1].

* * *

١٩٠ - باب ما جاء في المدينة ومكة وخرابهما

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبلغ المساكن أهاب أو يهاب» قال زهير: قلت لسهيل: فكم ذاك من المدينة؟ قال: كذا وكذا ميلاً[2].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك المسلمون أن يحاصروا إلىٰ المدينة حتىٰ يكون أبعد مسالحهم سلاح» قال الزهري: وسلاح قريب من خيبر[3].

قلت: المسالح: المطالع، ويقال: القوم مستعد بهم في المراصد ويرتبون لذلك، وسموا بذلك لحملهم السلاح، وقال الجوهري: والمسلحة كالثغر والمرقب.

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تتركون المدينة علىٰ خير ما كانت لا يغشاها إلَّا العوافي، يريد عوافي السباع والطير، ثم يخرج راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما، فيجدانها وحشاً، حتىٰ إذا بلغا ثنيّة الوداع خرا علىٰ وجهيهما»[4].

وعن حذيفة قال: أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، فما منه شيء إلَّا قد سألته، إلَّا أني لم أسأله: ما يخرج أهل المدينة من المدينة؟»[5].

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٨)، وأحمد (٥، ١٩٧) وغيرهما.

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٩٠٣).

(٣) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٥٠)، (٤٢٥١)، (٤٢٩٩)، (٤٣٠٠)، والحاكم (٤/ ٥١١)، والطبراني في الصغير (٢/ ٤٤)، وله شاهد يتقوىٰ به.

(٤) رواه البخاري في أخبار المدينة (١٨٧٤)، ومسلم في الحج (١٣٨٩).

(٥) رواه مسلم في الفتن (٢٤ تحت ٢٨٩١)، وقد مرّ بلفظ آخر في باب ما يكون من الفتن.

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ: يخرب الكعبة ذو السويقتين رجل من الحبشة»[١] .

عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن النبي ﷺ قال: «كأني به أسود أفحج يقلعها حجراً حجراً»[٢] الفحج: تباعد ما بين الفخذين.

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه، عن النبي ﷺ: يبايع لرجل بين الركن والمقام، وأول من يستحل هذا البيت أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تجيء الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً، وهم الذين يستخرجون كنزه»[٣] .

وفي الحديث: «أكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع، فقد هدم مرتين، ويرفع في الثالثة»[٤] .

قال المؤلف رحمه اللّه: وقيل: إن خرابه يكون بعد رفع القرآن من صدور الناس ومن المصاحف، وذلك بعد موت عيسى عليه السلام، وهو الصحيح في ذلك على ما يأتي بيانه. واللّه أعلم.

فصل: ثبت في الصحيح الدعاء للمدينة والحث على سكناها. فقال رسول اللّه ﷺ: «يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده لا يخرج أحد منهم رغبة عنها إلَّا أخلف اللّه فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبث. لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»[٥] .

---

(١) رواه البخاري في الحج (١٥٩١)، (١٥٩٦)، ومسلم في الفتن (٢٩٠٩).

(٢) رواه البخاري في الحج (١٥٩٥).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٩١، ٣١٢، ٣٢٨، ٣٥١)، والطيالسي (٢٧٧٣) وغيرهما.

(٤) رواه الحاكم (١/ ٤٤١) وغيره. وهو في السلسلة الصحيحة (١٤٥١).

(٥) رواه مسلم في الحج (١٣٨١).

وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من أراد أهل المدينة بسوء أذابه اللَّه كما يذوب الملح في الماء»[١] .

ومثل هذا كثير، وهو خلاف ما تقدم، وإذا كان هذا فظاهره التعارض، وليس كذلك، فإن الحض علىٰ سكناها ربما كان عند فتح الأمصار ووجود الخيرات بها، كما جاء في حديث سفيان بن أبي زهير. قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «تفتح اليمن، فيأتي قوم يعيشون، فيتحلمون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم تفتح العراق، فيأتي قوم يعيشون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[٢] رواه الأئمة واللفظ لمسلم، فحض ﷺ علىٰ سكناها حين أخبر بانتقال الناس عنها عند فتح الأمصار؛ لأنها مستقر الوحي، وفيها مجاورته، ففي حياته صحبته، ورؤية وجهه الكريم، وبعد وفاته مجاورة جدثه الشريف، ومشاهدة آثاره العظيمة.

ولهذا قال: «لا يصبر أحد علىٰ لأوائها وشدتها إلَّا كنت شفيعاً أو شهيداً له يوم القيامة»[٣] .

وقال: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن مات بها»[٤]، ثم إذا تغيرت الأحوال، واعتورتها الفتن والأهوال كان الخروج منها غير قادح، والانتقال منها حسناً غير قادح.

فصل: وأما قوله: «من أراد أهل المدينة بسوء» فذلك محمول علىٰ زمانه وحياته، كما في الحديث الآخر: «لا يخرج أحد منهم رغبة عنها إلَّا أخلف اللَّه

---

(١) رواه مسلم في الحج (١٣٨٧)، والبخاري بنحوه في فضائل المدينة (١٨٧٧).

(٢) رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٥)، ومسلم في الحج (١٣٨٨).

(٣) رواه مسلم في الحج (١٣٧٨).

(٤) رواه الترمذي في المناقب (٣٩١٧)، وابن ماجه في المناسك (٣١١٢)، وأحمد (٢/ ٧٤، ١٠٤) وغيرهم.

فيها خيراً منه» وقد خرج منها بعد موته ﷺ من الصحابة من لم يعوضها اللَّه خيراً منه؛ فدلّ على أن ذلك محمول على حياته، فإن اللَّه تعالى كان يعوض أبداً رسوله ﷺ خيراً ممن رغب عنه، وهذا واضح. ويحتمل أن يكون قوله: أذابه اللَّه كناية عن إهلاكه في الدنيا قبل موته، وقد فعل اللَّه ذلك بمن غزاها وقاتل أهلها كمسلم بن عقبة، إذ أهلكه اللَّه عند منصرفه عنها إلى مكة لقتال عبد اللَّه بن الزبير. ابتلاه اللَّه بالماء الأصفر في بطنه، فمات بقديد بعد الوقعة بثلاث.

وكإهلاك يزيد بن معاوية إثر إغرائه بأهل المدينة، حرم النبي المختار، وقتله بها بقايا المهاجرين والأنصار، فمات بعد هذه الوقعة، وإحراق الكعبة بأقل من ثلاثة أشهر، وتوفي بالذبحة وذات الجنب في نصف ربيع الأول بحوارين من قرى حمص، وحمل إلى دمشق، وقد بلغ سبعاً وثلاثين سنة، فكانت ولايته ثلاث سنين، وثمانية أشهر، واثنى عشر يوماً.

فصل: وأما قوله: «تتركون المدينة» حدثنا المخاطب فمراده غير المخاطبين، لكن نوعهم من أهل المدينة، أو نسلهم، وعلى خير ما كانت عليه فيما قبل. وقد وُجد هذا الذي قاله النبي ﷺ، وذلك أنها صارت بعده ﷺ معدن الخلافة وموضعها، ومقصد الناس، وملجأهم، ومعقلهم، حتى تنافس الناس فيها، وتوسعوا في خططها، وغرسوا، وسكنوا منها ما لم يسكن قبل، وبنوا فيها وشيدوا، حتى بلغت المساكن أهاب [١]، فلما انتهت حالها كمالاً وحسناً تناقص أمرها، إلى أن أقفرت جهاتها بتغلب الأعراب عليها، وتوالي الفتن فيها، فخاف أهلها، وارتحلوا عنها، وصارت الخلافة بالشام، ووجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري في جيش عظيم من أهل الشام، فنزل بالمدينة، فقاتل أهلها فهزمهم، وقتلهم بحرة المدينة قتلاً ذريعاً، واستباح المدينة ثلاثة أيام، فسميت وقعة الحرة

(١) «أهاب»: موضع بقرب المدينة.

لذلك، وفيه يقول الشاعر:

فإن تقتلونا يوم حرة واقم فإنا على الإسلام أول من قتل

وكانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا لذي الحجة سنة ثلاث وستين، ويقال لها حرة زهرة، وكانت الوقعة بموضع يعرف بواقم، على ميل من مسجد رسول اللَّه ﷺ، فقتل بقايا المهاجرين والأنصار، وخيار التابعين، وهم ألف وسبع مائة. وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وقتل بها من حملة القرآن سبعمائة رجل من قريش، وسبعة وتسعون قتلوا جهراً ظلماً في الحرب وصبراً.

وقال الإمام الحافظ أبو محمد بن حزم في المرتبة الرابعة: وجالت الخيل في مسجد رسول اللَّه ﷺ، وبالت وراثت بين القبر والمنبر، أدام اللَّه تشريفها، وأكره الناس أن يبايعوا ليزيد، على أنهم عبيد له إن شاء باع، وإن شاء أعتق، وذكر له يزيد بن عبد اللَّه بن زمعة، البيعة على حكم القرآن والسنة، فأمر بقتله، فضربت عنقه صبراً.

وذكر الإخباريون أنها خلت من أهلها، وبقيت ثمارها لعوافي الطير والسباع كما قال ﷺ، ثم تراجع الناس إليها، وفي حال خلوها غدت الكلاب على سواري المسجد، واللَّه أعلم.

قال علماؤنا: وهذا إنما يكون في آخر الزمان، وعند انقراض الدنيا، بدليل ما قاله البخاري في هذا الحديث: آخر من يحشر راعيان من مزينة. وقيل: معناه آخر من يموت فيحشر، لأن الحشر بعد الموت، ويحتمل أن يتأخر حشرهما لتأخر موتهما.

وقوله في الراعيين: «ينعقان بغنمهما» يعني: يطلبان الكلأ. وقوله: «وحشاً» يعني خالية، وقوله: «ثنية الوداع» موضع قريب من المدينة مما يلي مكة.

وقوله: «خرا علىٰ وجهيهما» يعني: أخذتهما الصعقة حين النفخة الأولىٰ وهو الموت. وقوله: «آخر من يحشر»، يعني: أنهما بأقصىٰ المدينة فيكونان في أثر من يبعث منها، ليس أن بعض الناس يخرج بعد بعض من الأجداث إلَّا بالشيء المتقارب يقول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

وقول النبي ﷺ: «يصعق الناس فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا موسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أو كان من الذين استثنىٰ اللَّه»[1].

وقال شيخنا أبو العباس القرطبي: ويحتمل أن يكون معناه: آخر من يحشر إلىٰ المدينة، أي يساق إليها، كما في كتاب مسلم رحمه اللَّه تعالىٰ.

وأما قوله في حديث أبي هريرة: «يبايع لرجل بين الركن والمقام» فهو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، واللَّه أعلم.

* * *

١٩١ ـ باب في الخليفة الكائن في آخر الزمان المسمى بالمهدي وعلامة خروجه

عن أبي نضرة قال: كنا جلوساً عند جابر بن عبد اللَّه فقال: يوشك أهل العراق أن لا يجيء إليهم قفيز ولا درهم. قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل العجم يمنعون ذلك. ثم قال: يوشك أهل الشام أن لا يجيء إليهم دينار ولا مُدْيٌ. قلنا: من أين ذلك؟ قال: من قبل الروم. ثم سكت هنيهة، ثم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يكون في آخر الزمان خليفة يحثي المال حثياً ولا يعده عداً» قيل

---

(١) رواه البخاري في مواضع عديدة منها: الخصومات (٢٤١١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٢).

لأبي نضرة وأبي العلاء: تريان أنه عمر بن عبد العزيز؟ قالا: لا[١].

فصل: قوله: «ثم سكت هنية» بضم الهاء وتشديد الياء أي مدة يسيرة، وهو تصغير (هنَّة)، ويروىٰ بهاءين أي: «هنيهة». ورواه الطبري «هنيئة» مهموز، وهو خطأ لا وجه له. فيه دلالة علىٰ صدق النبي ﷺ حيث أخبر عما سيكون بعد فكان. ومثله الحديث الآخر: «منعت العراق درهمها قفيزها» الحديث. أي ستمنع، وأتىٰ بلفظ الماضي في الأخبار؛ لأنه ماض في علم اللّٰه أنه سيكون، كقوله عز من قائل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] والمعنىٰ: أنه لا يجيء إليها كما جاء مفسراً في هذا الحديث، ومعناه ـ واللّٰه أعلم ـ سيرجعون عن الطاعة، ويأبون من إذا ما وظف عليهم في أحد الأمر، وذلك أنهم يرتدون عن الإسلام، وعن أداء الجزية، ولم يكن ذلك في زمانه، ولكن أخبر أنهم سيفعلون ذلك. وقوله: «يحثي المال حثياً» قال ابن الأنباري: أعلىٰ اللغتين: حثا يحثي، وهو أصح وأفصح، ويقال: حثا يحثو ويحثي وأحث بكسر الثاء وضمها كلها لمعنىٰ: اغرف بيديك.

* * *

١٩٢ ـ باب ذكر الجيش الذي يخسف به

عن أم سلمة سئلت عن الجيش الذي يخسف به، وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت: قال رسول اللّٰه ﷺ: «يعوذ بالبيت عائذ فيبعث اللّٰه إليه بعثاً، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم، فقلت: يا رسول اللّٰه، وكيف بمن كان كارهاً؟ قال: يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة علىٰ نيته» وقال أبو جعفر: هي بيداء المدينة. وقال عبد العزيز بن رفيع: إنما قال ببيداء من الأرض

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩١٣).

قال: كلا، إنها والله لبيداء المدينة[١].

وعن عبد الله بن صفوان قال: أخبرتني حفصة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم، وينادي أولهم وآخرهم، ثم يخسف بهم، فلا يبقى منهم إلّا الشريد الذي يخبر عنهم» وزاد ابن ماجه: فلما جاء جيش الحجاج ظننا أنهم هم، فقال رجل: أشهد أنك لم تكذب على حفصة، وأن حفصة لم تكذب على رسول الله ﷺ[٢].

وعنه عن أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: سيعوذ بهذا البيت، يعني: الكعبة، قوم ليس لهم منعة، ولا عدد، ولا عدة، يبعث إليهم جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض، خسف بهم» قال يوسف بن ماهك: وأهل الشام يومئذ يسيرون إلى مكة. قال عبد الله بن صفوان: أما والله ما هو بهذا الجيش[٣].

فصل: قوله: «ليس لهم منعة» بفتح الميم والنون أي جماعة يمنعونهم، ويقال: بسكون النون أيضاً أي: عزة وامتناع يمتنع بها. وأنكر أبو حاتم السجستاني إسكان النون. والله أعلم.

* * *

١٩٣ ـ باب في الرايات السود

عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم، فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٢).

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٣). ورواية ابن ماجه في الفتن (٤٠٦٣)

(٣) رواه مسلم في الفتن (٧ تحت ٢٨٨٣).

المهدي»[١] إسناده صحيح.

* * *

١٩٤ ـ باب في المهدي وصفته واسمه وإعطائه ومكثه وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتال الدجال

عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «يكون في أمتي المهدي، إن قصر فسبع وإلَّا فتسع، تنعم فيه أمتي نعمة لم يسمعوا بمثلها قط، حتىٰ تؤتىٰ أكلها ولا تترك منهم شيئاً، والمال يومئذ كرؤوس، يقوم الرجل فيقول: يا مهدي، أعطني، فيقول: خذ»[٢].

وعنه أيضاً قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «المهدي مني، أجلىٰ الجبهة، أقنىٰ الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، فيملك سبع سنين»[٣].

وعن عبد اللَّه بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدنيا إلَّا يوم، قال زائدة في حديثه: لطول اللَّه ذلك اليوم، حتىٰ يبعث فيه رجلاً من أمتي، أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»[٤].

عن أبي سعيد الخدري قال: خشينا أن يكون بعد نبينا ﷺ حدث، فسألنا النبي ﷺ قال: ««إن من أمتي المهدي، يخرج يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً» ـ زيد الشاكّ قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: «يجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني

---

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٨٤)، وأحمد (٥/ ٢٧٧)، والحاكم (٤/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤) وله شاهد من حديث ابن مسعود. وانظر السلسلة الضعيفة (٨٥).

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٣٢)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٨٣) وغيرهما. وله طرق ترفعه إلىٰ درجة الحسن.

(٣) رواه أبو داود في المهدي (٤٢٨٥)، وأحمد (٣/ ١٧)، والحاكم (٤/ ٥٥٧).

(٤) رواه أبو داود في المهدي (٤٢٨٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٠)، وأحمد (١/ ٣٧٧، ٤٣٠) وغيرهم.

فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»[١] .

وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث محمد بن الحنفية، عن أبيه علي رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «المهدي منا أهل البيت، يصلحه اللّه عز وجل في ليلة أو قال: في يومين»[٢] .

* * *

١٩٥ ـ باب ما جاء أن المهدي يملك جبل الديلم والقسطنطينية

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلَّا يوم لطوله عز وجل، حتى يملك رجل من أهل بيتي جبل الديلم والقسطنطينية»[٣] إسناده صحيح.

* * *

١٩٦ ـ باب ما جاء في فتح القسطنطينية، وفتحها علامة خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام وقتله إياه

عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا، واللّه لا نخلي بينكم وبين الذين هم إخواننا، فيقاتلونهم، فيهزم الثلث، لا يتوب اللّه عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند اللّه، ويفتح الثلث، لا يفتتنون أبداً، فيفتحون القسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم وقد علقوا سيوفهم بالزيتون إذا صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في

---

(١) مرّ تخريجه قريباً. وهو حديث حسن.

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٨٥)، وأحمد (١/ ٨٤) وغيرهما. وهو حديث حسن.

(٣) رواه ابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٩)، وله طراق وشواهد. انظر: التذكرة (٢٠٠٣).

أهلكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام، خرج، فبينما هم يعدون للقتال، ويسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسىٰ ابن مريم فأمهم، فإذا رآه عدو اللّٰه ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لذاب حتىٰ يهلك، ولكن يقتله اللّٰه بيده، فيريهم دمه في حربته»[١] .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول اللّٰه. قال: لا تقوم الساعة حتىٰ يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق فإذا جاءوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم. قالوا: لا إلـٰه إلَّا اللّٰه واللّٰه أكبر، فيقسط أحد جانبيها، قال ثور: لا أعلمه، قال: إلَّا الذي في البحر، ثم يقولون الثانية: لا إلـٰه إلَّا اللّٰه واللّٰه أكبر فيسقط جانبها الآخر، ثم تقول الثالثة: لا إلـٰه إلَّا اللّٰه واللّٰه أكبر فيفرج لهم فيدخلونها فيغنمون، فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»[٢] .

عن أنس قال: «فتح القسطنطينية مع قيام الساعة» هكذا موقوفاً[٣]. والقسطنطينية مدينة الروم، وتفتح عند خروج الدجال، والقسطنطينية قد فتحت في زمن بعض أصحاب رسول اللّٰه ﷺ، وستفتح مرة أخرىٰ كما في أحاديث هذا الباب، والذي قبله، واللّٰه أعلم.

* * *

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٨٩٧).

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٩٢٠).

(٣) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٣٩).

أشراط الساعة

١٩٧ ـ باب أشراط الساعة وعلاماتها

أمّا وقتها فلا يعلمه إلّا اللّه. وفي حديث جبريل: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» الحديث[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فصل: قال العلماء رحمهم اللّه تعالىٰ: والحكمة في تقديم الأشراط، ودلالة الناس عليها: تنبيه الناس من رقدتهم، وحثهم علىٰ الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة؛ كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستعدوا للساعة، الموعود بها، واللّه أعلم.

وتلك الأشراط علامة لانتهاء الدنيا وانقضائها، فمنها: خروج الدجال، ونزول عيسىٰ، وقتله الدجال، ومنها: خروج يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض، ومنها: طلوع الشس من مغربها، هذه هي الآيات العظام علىٰ ما يأتي بيانه.

وأما ما تقدم هذه من قبض العلم، وغلبة الجهل، واستيلاء أهله، وبيع الحكم، وظهور المعازف، واستفاضة شرب الخمور، واكتفاء النساء بالنساء، والرجال بالرجال، وإطالة البنيان، وزخرفة المساجد، وإمارة الصبيان، ولعن آخر هذه الأمة أولها، وكثرة الهرج، فإنها أسباب حادثة، ورواية الأخبار المنذرة بعدما صار الخبر بها عياناً تكلّف، لكن لابد من ذكرها حتىٰ يوقف عليها، ويتحقق بذلك معجزة النبي ﷺ وصدقه في كل ما أخبر به ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٨) من حديث عمر. ورواه مسلم في الإيمان (٩) من حديث أبي هريرة.

١٩٨ ـ باب قول النبي : «بعثت أنا والساعة هاتين»

عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطىٰ»(١).

ورویٰ من طرق، ومعناها كلها علىٰ اختلاف ألفاظها تقريب من الساعة التي هي القيامة وسرعة مجيئها، وهذا كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] وقوله تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقوله تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

فصل: إن قيل: ثبت أن النبي ﷺ سأل جبريل عن الساعة فقال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» . . . الحديث؛ فهذا يدل علىٰ أنه لم يكن عنده علم، ورويتم عنه أنه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وهذا يدل علىٰ أنه كان عالماً بها كيف يتألف الخبران؟ قيل له: قد نطق القرآن بقوله الحق: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] فلم يكن يعلمها هو ولا غيره، وأما قوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» فمعناه: أنا النبي الأخير، فلا يليني نبي آخر، وإنما تليني الساعة كما تلي السبابة الوسطىٰ ليس بينهما أصبع أخرىٰ. وهذا لا يوجب أن يكون له علم بالساعة نفسها، وهي ومع ذلك كائنة لأن أشراطها متتابعة، وقد ذكر اللَّه الأشراط في القرآن فقال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] أي دنت، وأولها النبي، لأنه نبي آخر الزمان، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي. ثم بين ﷺ ما يليه من الأشراط فقال: «أن تلد الأمة ربتها» إلىٰ غير ذلك مما سنذكره ونبينه بحول اللَّه تعالىٰ في أبواب إن شاء اللَّه تعالىٰ.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٤)، ومسلم في الفتن (٢٥٩١).

١٩٩ ـ باب أمور تكون بين يدي الساعة

عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ يقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، وحتىٰ يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول اللّه، وحتىٰ يقبض العلم، ويكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج ـ وهو القتل ـ وحتىٰ يكثر فيكم المال فيفيض، وحتىٰ يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتىٰ يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي فيه، وحتىٰ يتطاول الناس في البنيان، وحتىٰ يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتىٰ تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الانعام: ١٥٨] ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلىٰ فيه فلا يطعمها»[(١)] .

فصل: قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم: هذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد، ولم يبق بعد هذا ما ينظر فيه من العلامات والأشراط في عموم إنذار النبي ﷺ بفساد الزمان، وتغيير الدين، وذهاب الأمانة، ما يغني عن ذكر التفاصيل الباطلة، والأحاديث الكاذبة في أشراط الساعة.

فصل: وأما الثلاث عشرة خصلة، فقد ظهر أكثرها من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتىٰ يقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة» يريد فيه معاوية علياً ـ كرم اللّه وجهه ـ بصفين، وقد تقدم الإشارة إليهما، وقوله:

---

(١) رواه البخاري في الفتن (٧١٢١)، وفي الرقاق مختصراً (٦٥٠٦)، ومسلم مختصراً في الإيمان (١٥٧).

«حتىٰ يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين» الدجال ينطلق في اللغة علىٰ أوجه كثيرة. أحدها: الكذاب كما جاء في هذا الحديث.

وفي صحيح مسلم: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون»(١). ولا يجمع ما كان علىٰ وزن فعّال جمع التكسير عند الجماهير من النحويين لئلا يذهب بناء المبالغة منه، فلا يقال: إلّا الدجال، كما قال عليه الصلاة والسلام.

وقال مالك بن أنس في محمد بن إسحاق: إنما هو دجال من الدجاجلة، نحن أخرجناه من المدينة. قال عبد اللّٰه بن إدريس الأودي: وما عرفت أن دجالاً يجمع علىٰ دجاجلة حتىٰ سمعتهما من مالك بن أنس.

وقال القاضي عياض: هذا الحديث قد ظهر، فلو عُدّ من تنبأ من زمن النبي ﷺ إلىٰ الآن ممن اشتهر بذلك وعرف، واتبعه جماعة علىٰ ضلالته لوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتاب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا.

وقوله: «حتىٰ يقبض العلم» فقد قبض العمل به ولم يبق إلّا رسمه علىٰ ما يأتي بيانه. وقوله: «وتكثر الزلازل» فقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي: أنه وقع منها بعراق العجم كثير، وقد شاهدنا بعضها بالأندلس وسيأتي.

وقوله: «ويتقارب الزمان» قيل: المعنىٰ يتقارب أحوال أهله في قلة الدين حتىٰ لا يكون فيهم من يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر، كما هو اليوم لغلبة الفسق وظهور أهله.

وقوله: «حتىٰ يكثر فيكم المال فيفيض، وحتىٰ يهمّ رب المال من يقبل صدقته» وهذا مما لم يقع بل يكون علىٰ ما يأتي. ويقال: أهمني ذلك الأمر: أحزنني وأقلقني، وهمه يهمه إذا بالغ في ذلك وقوله: «حتىٰ يتطاول الناس في البنيان» هذا مشاهد في الوجود مشاهدته تغني عن الكلام فيه.

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (٧)، وفي الفتن (٢٩٢٣).

وقوله: «حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه». وذلك لما يرى من عظيم البلاء، وربح الأعداء، وغبن الأولياء، ورئاسة الجهلاء، وخمول العلماء، واستيلاء الباطل في الأحكام، وعموم الظلم، والجهر بالمعاصي، واستيلاء الحكام على أموال الخلق، والتحكم في الأبدان والأموال والأعراض بغير حق، كما في هذا الزمان، وقد تقدم أول الكتاب حديث أبي عابس الغفاري، عن النبي ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً» الحديث.

عن عبد اللّه بن الصامت قال: قال أبو ذر رضي اللّه عنه: يوشك أن يأتي على الناس زمان يغبط فيه خفيف الحاذ كما يغبط اليوم أبو عشرة، ويغبط الرجل باختفائه عن السلطان وجفائه عنه كما يغبط اليوم بمعرفته إياه وكرامته عليه. وحتى تمر الجنازة في السوق على الجماعة، فينظر إليها الرجل تهتز بهذا رأسه، فيقول: يا ليتني مكان هذا، قال: قلت: يا أبا ذر، وإن ذلك من أمر عظيم؟ قال: أجل يا ابن أخي عظيم عظيم[1].

قلت: هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق، وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق، فباعوا الأحكام، ورضي بذلك منهم الحكام، فصار الحكم مكساً، والحق عكساً؛ لا يوصل إليه، ولا يقدر عليه. بدلوا دين اللّه، وغيّروا حكم اللّه، سمّاعون للكذب، أكّالون للسحت ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] و﴿الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] و﴿الفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار خاصة كلها، وقيل عامة: فيمن بدّل حكم اللّه وغيّره[2]. قال رسول اللّه ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٤٤٧) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجهما» وأقره الذهبي.

(٢) انظر رسالة: تحكيم القوانين للعلامة محمد بن إبراهيم رحمه اللّه لترى تفصيل ذلك؛ حيث إن هناك فرقاً بين المعصية المجردة والتشريع.

بذراع، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول اللَّه، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن؟»[١] .

ولقد أحسن ابن المبارك حيث يقول في أبيات له:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وقوله: «حتىٰ تطلع الشمس من مغربها . . إلىٰ آخره» يأتي القول فيه إن شاء اللَّه تعالىٰ، واللقحة: الناقة الغزيرة اللبن، ويليط: يصلح. ويقال: لاط حوضه يليطه ويلوطه ليطاً ولوطاً إذا لطخه بالطين وأصلحه، والأكله بضم الهمزة: اللقمة، فإذا كانت بمعنىٰ المرة الواحدة فهي بالفتح لأنها مصدر، وهي المرة الواحدة من الأكل كالضربة من الضرب، فأخبر رسول اللَّه ﷺ أن يعالجه من أمر الساعة ما يمنع من تمام فعله، واقترب من ذلك رفع الأكلة وهي اللقمة إلىٰ فيه، وتقوم الساعة بدون بلوغها إليه، وكذلك القول في المتابيعين من نشر الثوب وطيه، فاعلمه.

* * *

باب منه

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أَلَيَات نساء دوس حول ذي الخلصة» وكانت صنماً تعبدها دوس في الجاهلية[٢] .

وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تذهب الليالي حتىٰ يملك رجل يقال له الجهجاء» وفي رواية: «رجل من الموالي يقال له جهجاه»[٣] .

وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج رجل من قحطان

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧١١٦)، ومسلم في الفتن (٢٩٠٦).

(٣) رواه مسلم في الفتن (٢٩١١)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٨)، وأحمد (٢/ ٣٢٩).

يسوق الناس بعصاه»(١).

وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»(٢).

عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت قبل القيامة، قالوا: فما تأمرنا يا رسول اللَّه؟ قال: عليكم بالشام»(٣).

عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»(٤).

عن أبي هريرة قال: جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي حتى انتزعها منه قال: فقعد الذئب على تل فأقعى واستقر، وقال: عمدت إلى رزق رزقنيه اللَّه أخذته ثم انتزعته مني، فقال الرجل: باللَّه إن رأيت كاليوم، ذئب تتكلم! فقال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم. قال: فكان الرجل يهودياً، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره وأسلم، فصدقه النبي ﷺ، ثم قال النبي ﷺ: إنها أمارات بين يدي الساعة، قد يوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى يحدثه نعلاه وسوطه بما أحدث أهله بعده»(٥).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تقوم

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٥١٧)، وفي الفتن (١١٧)، ومسلم في الفتن (٢٩١٠).

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧١١٨)، ومسلم في الفتن (٢٩٠٢).

(٣) رواه الترمذي في الفتن (٢٢١٧)، وأحمد (٢/ ٦٩، ١١٩) وغيرهما.

(٤) رواه البخاري في الفتن تعليقاً (١٣/ ٨ فتح)، ووصله في الأنبياء (٣٣٢٩)، وفي مناقب الأنصار (٣٩٣٨)، وفي التفسير (٤٤٨٠).

(٥) رواه أحمد (٢/ ٣٠٦) وغيره. وأصله في الصحيحين: البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٨).

الساعة حتىٰ تكلم السباع الإنس، وحتىٰ يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»[1] .

عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ يكثر المال ويفيض، وحتىٰ يُخرج الرجل زكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتىٰ تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»[2] .

فصل حول ذي الخلصة والخلصة

ثبت حديث ذي الخلصة في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ بعث جرير بن عبداللَّه البجلي إلىٰ هذا البيت، قال جرير: فنفرت إليها في مائة وخمسين من أحمس فكسرناه، وقتلنا من وجدنا عنده[3] .

وذو الخلصة: بضم الخاء واللام في قول أهل اللغة والسير وبفتحها قيدناه في الصحيحين، وكذا قال ابن هشام. وقيّد بفتح الخاء وسكون اللام. واختلف فيه فقيل: هو بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان ببلادهم من العرب، وقيل: هم صنم كان عمرو بن لحي نصبه بأسفل مكة حتىٰ نصبت الأصنام في مواضع شتىٰ، وكانوا يلبسونه القلائد، ويعلقون عليه بيض النعام، ويذبحون عنده، وقيل: ذو الخلصة هي الكعبة اليمانية، فكان معناهم في تسميتها بذلك، أن عبادتها خالصة.

والمعنىٰ المراد بالحديث أنهم يرتدون ويرجعون إلي جاهليتهم في عبادة الأوثان، فترسل نساء طائفات حوله، فترتج أردافهن عند ذلك في آخر الزمان، وذلك بعد موت جميع من في قلبه مثقال حبة من إيمان، كما جاء في حديث

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٨١)، وأحمد (٣/ ٨٣، ٨٤) وغيرهما.

(٢) البخاري بنحوه مختصراً في الزكاة (١٤١٢)، ومسلم في الزكاة (١٥٧) واللفظ له.

(٣) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٢٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٦).

عائشة رضي اللَّه عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى» الحديث[١].

وقوله: «يسوق الناس بعصاه» كناية عن استقامة الناس وانقيادهم إليه واتفاقهم عليه، ولم يرد نفس العصا، وإنما ضرب بها مثلاً لطاعتهم له، واستيلائه عليهم، إلا أن في ذكرها دليلاً على خشونته عليهم وعسفه بهم. وقد قيل: إنه يسوقهم بعصاه كما تساق الإبل والماشية، وذلك لشدة عنفه وعداوته، ولعل هذا الرجل القحطاني هو الرجل الذي يقال له الجهجاه، وأصل الجهجهة: الصياح بالسبع. يقال: جهجهت بالسبع: أي زجرته بالصياح، ويقال: جهجه عني: أي انته. وهذه الصفة توافق ذكر العصا، واللَّه أعلم.

وثبت عن رسول اللَّه ﷺ من رواية عائذ بن عمرو ـ وكان ممن بايع تحت الشجرة ـ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن شر الرعاة الحطمة»[٢]. والرعاة في اللغة جمع راع. وضرب رسول اللَّه ﷺ بهذا مثلاً لوالي السوء؛ لأن الحطمة هو الذي يعنف الإبل في السوق والإيراد والإصدار، فيحطمها أي يكسرها ولا يكاد يسلم من فساده شيء. وسواق حطم كذلك يعنف في سوقه.

وقوله: «حتى تخرج نار من أرض الحجاز» فقد خرجت نار عظيمة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة، وذلك ليلة الأربعاء بعد العتمة، الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة إلى ضحى النهار يوم الجمعة، فسكنت وظهرت النار بقرطبة عند قاع التنعيم بطرف الحرة يحيط بها قرى في صورة البلد العظيم كأعظم ما يكون من البلدان. عليها سور يحيط بها عليه شرافات كشرافات الحصون وأبراج ومآذن، ويرى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلّا دكته وأذابته، ويخرج

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٠٧). وسيأتي في باب (٢١٦) على من تقوم الساعة؟
(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٠)، وفيه: «الرعاء» بدل «الرعاة».

من مجموع ذلك نهر أحمر ونهر أزرق له دوي كدوي الرعد، يأخذ الصخور والجبال بين يديه، ينتهي إلى البحرة محط الركب العراقي، فاجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، وانتهت النار إلى قرب المدينة، وكان يلي المدينة ببركة النبي ﷺ نسيم بارد، ، ويشاهد من هذه النار غليان كغليان البحر، وانتهت إلى قرية من قرى اليمن فأحرقتها. قال لي بعض أصحابنا: ولقد رأيتها صاعدة في الهواء من مسيرة خمسة أيام من المدينة.

قلت: وسمعت أنها رئيت من مكة ومن جبال بصرى، ثم نشأ من بعد هذه النار أخرى أرضية بحرم المدينة، أحرقت جميع الحرم حتى إنها أذابت الرصاص التي عليها العمد، فوقعت. ولم يبق غير السور واقفاً، ونشأ بعد ذلك أخذ بغداد بتغلّب التتر عليها، فقتل من كان فيها وسباه، وذلك عمود الإسلام وماؤها، فانتشر الخوف، وعظم الكرب، وعم الرعب، وكثر الحزن، فانتشر التتر في البلاد. وبقي الناس حيارى سكارى: بغير خليفة، ولا إمام، ولا قضاء؛ فزادت المحنة، وعظمت الفتنة، لولا تدارك اللّٰه سبحانه بالعفو والفضل والمنة.

وقوله: «عذبة سوطه» يريد السير المعلق في طرف السوط.

وفي هذا الحديث ما يرد على كفرة الأطباء والزنادقة الملحدين، وإنما الباري جلت قدرته يخلق الكلام متى يشاء في أي وقت شاء من جماد أو حيوان على ما قدره الخالق الرحمٰن، فقد كان الحجر والشجر يسلّمان عليه ﷺ تسليم من نطق وتكلم، ثبت ذلك في غير ما حديث، وهو قول أهل أصول الدين في القديم والحديث، وثبت باتفاق في حديث البقرة والذئب، وأنهما تكلما على ما أخبر عنهما ﷺ في الصحيحين.

وقوله: «حتى تعود أض العرب مروجاً وأنهاراً» إخبارعن خروج عادتهم من إنتاج الكلأ ومواضع العشب بحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وبناء الديار. واللّٰه أعلم.

باب منه آخر

عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة التسليم على الخاصة وفشو التجارة، حتى تغيب [وفي رواية: تعين] المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وفشو القلم، وظهور شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق»(١).

قال ابن عبد البر: أما قوله: «وفشو القلم» فإنه أراد ظهور الكتاب وكثرة الكتاب.

عن الحسن قال: قال عمرو بن تغلب: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة، وإن من أشراط الساعة أن تكثر التجارة، ويظهر القلم»(٢).

قال الحسن: لقد أتى علينا زمان إنما يقال: تاجر بني فلان، وكاتب بني فلان، ما يكون في الحي إلَّا التاجر الواحد والكاتب الواحد.

عن عبد اللّه بن مسعود قال: كان يقال: إن من أشراط الساعة أن تتخذ المساجد طرقاً، وأن يسلم الرجل على الرجل بالمعرفة، وأن يتجر الرجل وامرأته جميعاً، وأن تغلو مهور النساء والخيل، ثم ترخص فلا تغلو إلى يوم القيامة»(٣).

* * *

باب منه

عن أنس قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٠٧، ٤١٩) وغيره. وله عدة طرق يتقوى بها. انظر: التذكرة (٢٠٧٥).

(٢) رواه النسائي في البيوع (٧/ ٢٤٤) وفيه عنعنة الحسن. ولكن له شواهد يتقوى بها.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٧٠)، والطيالسي (١١٧١). وانظر ما مرّ قبله من أحاديث الباب.

لخمسين امرأة القيم الواحد»[١] .

عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: «ليأتين علىٰ الناس زمان يطوف الرجل بالصدقة من الذهب لا يجد أحداً يأخذها منه، قال: ويرىٰ الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء»[٢] .

فصل: قوله: «ويرىٰ الرجل يتبعه أربعون امرأة» يريد ـ والله أعلم ـ أن الرجال يقتلون في الملاحم وتبقىٰ نساؤهم أرامل، فيقبلن علىٰ الرجل الواحد في قضاء حوائجهن ومصالح أمورهن، كما قال في الحديث الآخر قبله: حتىٰ يكون لخمسين امرأة القيم الواحد الذي يسوسهن ويقوم عليهن من بيع وشراء وأخذ وعطاء، وقد كان هذا عندنا أو قريباً منه بالأندلس. وقيل: إن لقلة الرجال يتبع الرجل الواحد أربعون امرأة كل واحدة تقول: انكحني انكحني، والأول أشبه، والله أعلم. ويكون معنىٰ يلذن: يستترن ويتحرزن، من الملاذ الذي هو السترة لا من اللذة.

وأما ظهور الزنا، فذلك مشهور في كثير من الديار، ومن ذلك إظهار الخمر والماخور. ونعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن. وأما قلة العلم، وكثرة الجهل، فذلك شائع، في جميع البلاد ذائع، أعني: برفع العلم وقلة العمل به، كما قيل: «ليس حفظ القرآن بحفظ حروفه، ولكن إقامة حدوده». وسيأتي هذا المعنىٰ مبيناً مرفوعاً إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

(١) رواه البخاري في العلم (٨٠)، (٨١) وفي مواضع أخرىٰ، ومسلم في العلم (٢٦٧١).
(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤١٤)، ومسلم في الزكاة (١٠١٢).

٢٠٠ ـ باب كيف يقبض العلم ؟

عن عبد اللَّه بن عمرو قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن اللَّه لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال، يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون يضلون».

وفي رواية: «حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهالاً، فسئلوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»(١) . انتزاعاً من غير اللفظ، كما قال اللَّه عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧] .

* * *

٢٠١ ـ باب ما جاء أن الأرض تخرج ما في جوفها من الكنوز والأموال

روى الأئمة عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً». وفي رواية: «عن جبل من ذهب». وفي رواية: «فيقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل واحد منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو»(٢) .

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي. ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»(٣) .

فصل: قوله عليه الصلاة والسلام: «يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من

---

(١) رواه البخاري في العلم (١٠٠)، ومسلم في العلم (٢٦٧٣).

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧١١٩)، ومسلم في الفتن (٢٨٩٤) وغيرهما.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٣).

ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً» فيشبه أن يكون هذا في آخر الزمان الذي أخبر النبي ﷺ أن المال يفيض فيه فلا يقبله أحد، وذلك زمن عيسىٰ عليه السلام؛ فلعل بسبب هذا الفيض العظيم ذلك الجبل، مع ما يغنمه المسلمون من أموال المشركين. ويحتمل أن يكون نهيه عن الأخذ من ذلك الجبل لتقارب الأمر وظهور أشراطه؛ فإن الركون إلىٰ الدنيا والاستكثار من ذلك جهل واغترار. ويحتمل أن يكون إذا حرصوا علىٰ النيل منه تدافعوا وتقاتلوا، فكان الانقباض عنه أولىٰ.

* * *

٢٠٢ ـ باب في ولاة آخر الزمان وصفتهم وفيمن ينطق في أمر العامة

عن أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ في مجلس يحدث القوم إذ جاء أعرابي فقال: متىٰ الساعة؟ فمضىٰ رسول اللَّه ﷺ في حديثه، فقال بعض القوم: سمع ما قال؛ فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع ما قال، حتىٰ إذا قضىٰ حديثه قال: «أين السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا ذا يا رسول اللَّه، قال: «إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: وكيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلىٰ غير أهله فانتظر الساعة»[1].

فمعنىٰ قوله ﷺ: «إذا وسد الأمر إلىٰ غير أهله» أي أسند وجعل إليهم، وقُلّدوه بمعنىٰ الإمارة، كما في زماننا اليوم؛ لأن اللَّه تعالىٰ ائتمن الأئمة والولاة علىٰ عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم؛ لقوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[2] فينبغي لهم تولية أهل الدين والأمانة للنظر في أمور الأمة، فإذا قلدوا غير أهل الدين فقد ضيعوا الأمانة التي فرض اللَّه عليهم.

---

(١) رواه البخاري في العلم (٥٩) وفي الرقاق (٦٤٩٦).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩).

وخرج مسلم من حديث جبريل الطويل وفيه: قال: أخبرني عن الساعة، قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان».

وفي رواية: «إذا رأيت المرأة تلد ربها فذاك من أشراطها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها»[١].

عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع»[٢].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «سيأتي علىٰ الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: يا رسول اللّٰه، وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه ينطق في أمر العامة»[٣].

وقال أبو عبيد: التافه: الرجل الخسيس الخامل من الناس، وكذلك كل شيء خسيس فهو تافه، قال: ومما يثبت حديث الرويبضة الحديث الآخر أنه قال: «من أشراط الساعة أن ترىٰ رعاء الشاء رؤوس الناس، وأن ترىٰ العراة الحفاة يتبارون في البنيان، وأن تلد الأمة ربتها».

وفي معناه أنشدوا:

ذهب الرجالُ الأكرمون ذوو الحجا ... والمنكرون لكل أمرٍ منكرِ
وبقيتُ في خلْفٍ يُزيّن بعضُهم ... بعضاً ليدفع معورٌ عن معورِ

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢٢١٠)، وأحمد (٥/ ٣٨٩) وله شواهد.

(٣) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٣٦)، وأحمد (٢/ ٢٩١، ٣٣٨) وغيرهما. وله طرق عن أنس وعمرو بن عوف.

فصل: قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الباب وغيره قد ظهر أكثره، وشاع في الناس معظمه، فوُسّد الأمر إلىٰ غير أهله، وصار رءوس الناس أسافلهم، وعبيدهم، وجهالهم، فيملكون البلاد، والحكم في العباد، فيجمعون الأموال، ويطيلون البنيان، كما هو مشاهد في هذه الأزمان، فلا يسمعون موعظة، ولا ينزجرون عن معصية، فهم صم بكم عمي. قال قتادة: صم: عن استماع الحق، بكم: عن التكلم به، عمي: عن الإبصار له، وهذه صفة أهل البادية والجهالة.

والبهم: جمع بهيمة، وأصلها صغار الضأن والمعز، وقد فسره في الرواية الأخرىٰ في قوله: «رعاة الشاة». وقوله: «وأن تلد الأمةُ ربَّها»، وفي رواية: ربتها تأنيث رب أي سيدها، وقال وكيع: هو أن تلد العجم العرب.

قال علماؤنا: وذلك بأن يستولي المسلمون علىٰ بلاد الكفر، فيكثر التسري، فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها، لشرفه ومنزلته بأبيه، وعلىٰ هذا فالذي يكون من أشراط الساعة استيلاء المسلمين واتساع خطتهم، وكثرة الفتوح، وهذا قد كان. وقيل: هوأن يبيع السادات أمهات الأولاد ويكثر ذلك؛ فيتداول الملّاك المستولدة، فربما يشتريها ولدها ولا يشعر، فيكون ربها، وعلىٰ هذا الذي يكون من أشراط الساعة غلبة الجهل بتحريم بيع أمهات الأولاد.

وقيل: المراد أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة والسب.

قلت: وقول خامس: وهو الإخبار عن استيلاء الكفار علىٰ بلاد المسلمين كما في هذه الأزمان التي قد استولىٰ فيها العدو علىٰ بلاد الأندلس وخراسان وغيرهما من البلدان؛ فتسبىٰ المرأة وهىٰ حبلىٰ أو ولدها صغير، فيفرق بينهما، فيكبر الولد، فربما يجتمعان ويتزوجها كما قد وقع من ذلك كثير، فإنا للَّه وإنا إليه

راجعون. ويدل على هذا قوله: «إذا ولدت الأمة بعلها» وهذا هو المطابق للأشراط، والله أعلم.

* * *

باب منه

عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يضرب على رؤوسهم بالدفوف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير»[١].

عن أبي مالك الأشعري ـ أو عن أبي عامر ـ سمع النبي ﷺ قال: «ليكونن ناس من أمتي يستحلون الحر، والحرير، والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غداً، فيبيّتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[٢].

قال المؤلف رحمه الله: هذا يصحح ما قبله من الأحاديث. والحر: هو الزنا، ويروى: «الخز» بالخاء والزاي، والصواب ما تقدم.

* * *

باب منه آخر

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلاً فيقال: لليلتين، وأن تتخذ المساجد طرقاً، وأن يظهر موت الفجأة»[٣]. قال الجوهري: معنى قبلاً: أن يرى ساعة يطلع لعظمه، ويوضحه

---

(١) رواه أبو داود بنحوه في الأشربة (٣٦٨٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٠)، وأحمد (٥/ ٣٤٢) وله طرق وشواهد كثيرة يتقوى بها.

(٢) رواه البخاري تعليقاً في الأشربة (٥٥٩٠) وهو موصول خارج الصحيح. انظر الفتح (١٠/ ٥٤ـ ٥٦).

(٣) رواه الطبراني في الصغير (ص٢٣٣). وله شواهد تقويه. انظر السلسلة الصحيحة (٢٢٩٢).

حديث آخر: «من أشراط الساعة انتفاخ الأهله»[١] ويقال: رأيت الهلال قبلاً، وقبلاً أي معاينة.

* * *

٢٠٣ ـ باب في رفع الأمانة والإيمان من القلوب

عن حذيفة قال: حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ـ قال الطنافسي: يعني وسط قلوب الرجال ـ ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيضل أثرها مثل المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبراً وليس فيه شيء ـ ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله ـ فنفط، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولقد أتى عليّ زمان ما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردنه علي دينه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علي ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلَّا فلاناً وفلاناً»[٢].

فصل: الجذر: بالذال المعجمة ويقال بفتح الجيم وكسرها: وهو الأصل من كل شيء من النسب والحساب والشجر وغيره. والوكت: بإسكان الكاف: هو الأثر اليسير، يقال: أوكتت البسرة: إذا ظهرت فيها نكتة من الإرطاب. والمجل: هو النفخ الذي يرتفع من جلد باطن اليد عند العمل بفأس أو نحوه، ثم يصلب

(١) انظر المرجع السابق في الحديث الذي مرّ.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٧)، وفي الفتن (٧٠٨٦)، ومسلم في الإيمان (١٤٣)، والترمذي في الفتن (٢١٧٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٥٣) وغيرهم

ويبقى عقدا. قال ابن دحية: قيدناه في الحديث بسكون الجيم، وأجاز أهل اللغة والنحو فتح الجيم، مصدر: مجلت يده تمجل مجلاً، بفتح الجيم في المصدر، إذا غلظت من العمل. وقوله: فنفط: أي ارتفع جلدها وانتفخ، فتراه منتبراً: أي منتفطاً، ومعناه مرتفعاً جلده من لحمه، وهو افتعال من النبر، وهو الرفع، وكل شيء رفع شيئاً فقد نبره، ومنه اشتق المنبر، وأراد بذلك خلوّ القلوب من الأمانة كما يخلو المجل المنتبر عن شيء يحويه، كجمر دحرجته يعني أطلقته.

وقول حذيفة: لقد أتى علي زمان .. الحديث: يعني كانت الأمانة موجودة، ثم قلّت في ذلك الزمان، وقوله: ليردنه علي ساعيه: يعني من كان رئيساً مقدماً فيهم والياً عليه؛ أن ينصفني منه، وإن لم يكن له إسلام. وكل من ولي على قوم ساع لهم. وقوله: فما كنت أبايع إلّا فلاناً وفلاناً. قال أبو عبيدة: هو من البيع والشراء لقلة الأمانة.

* * *

٢٠٤ ـ باب في ذهاب العلم ورفعه
وما جاء أن الخشوع أول ما يرفع من الناس

عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «ذاك عند أوان ذهاب العلم» قلت: يا رسول اللَّه، كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يا زياد: إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء منهما؟»[١].

عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٤٨)، وأحمد (٤/ ١٦٠، ٢١٨، ٢١٩) وغيرهما. وله طرق يتقوى بها.

علىٰ شيء منه» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منا ونحن قد قرأنا القرآن، فواللَّه لنقرؤه ولنقرئه نساءنا وأبناءنا، فقال: «ثكلتك أمك يا زياد: إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، وهذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارىٰ، فماذا تغني عنهم؟». قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت، فقلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثك بأول علم يرفع من الناس، الخشوع، يوشك أن يدخل الرجل مسجد جماعة فلا يرىٰ فيه رجلاً خاشعاً[١].

ورویٰ بعضهم هذا الحديث، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن عوف بن مالك.

عن جبير بن نفير قال: حدثني عوف بن مالك الأشجعي قال: نظر رسول اللَّه ﷺ إلىٰ السماء يوماً وقال: «هذا أوان رفع العلم» فقال له رجل من الأنصار ـ يقال له زياد بن لبيد ـ: يا رسول اللَّه، وكيف يرفع العلم وقد كتب في الكتب ووعته الصدور؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة، وذكر اليهود والنصارىٰ وضلالتهم علىٰ ما في أيديهم من كتاب اللَّه» فذكرت ذلك لشداد بن أوس فقال: صدق عوف بن مالك. ألَّا أخبرك بأول ذلك: يرفع الخشوع حتىٰ لا ترىٰ رجلاً خاشعاً[٢].

قلت: وقد ذكرناه في مسند زياد بن لبيد بإسناد صحيح علىٰ ما ذكره ابن ماجه، وهو يبين لك ما ذكرناه من أن المقصود برفع العلم العمل به، كما قال عبداللَّه بن مسعود: ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف ولكن إقامة حدوده، ثم بعد رفع العمل بالعلم يرفع الرقم والكتاب، ولا يبقىٰ في الأرض من القرآن آية تتلىٰ علىٰ ما يأتي في الباب بعد هذا.

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٥٣). وانظر ما قبله.

(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٦ ـ ٢٧) وغيره. وانظر ما قبله.

٢٠٥ ـ باب في درس الإسلام وذهاب القرآن

عن حذيفة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، ويسرى بكتاب اللَّه تعالى في ليلة، فلا يبقى منه في الأرض آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إلـٰه إلَّا اللَّه، فنحن نقولها. قال له صلة: ما تغني عنهم لا إلـٰه إلَّا اللَّه وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام، ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه حذيفة، فقال: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثاً»(١).

قلت: هذا إنما يكون بعد موت عيسى عليه الصلاة والسلام لا عند خروج يأجوج ومأجوج، فإن عيسى عليه السلام إنما ينزل مجدداً لما درس من هذه الشريعة على ما يأتي بيانه إن شاء اللَّه تعالى.

* * *

٢٠٦ ـ باب العشر آيات التي تكون قبل الساعة وبيان قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾

عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع رسول اللَّه ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة فقال: «لا تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدخان، والدابة، ويأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، وثلاث خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا». وفي رواية: «الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، وثلاث خسوفات: خسف

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٤٩)، والحاكم (٤/ ٤٧٣، ٥٠٥، ٤٥٤٥).

بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطردهم إلىٰ محشرهم»[١] .

عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أول أشراط الساعة نار تخرج تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب»[٢] .

عن عبد اللّه بن عمرو قال: حفظت من رسول اللّه ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة علىٰ الناس ضحىٰ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فأخرىٰ علىٰ أثرها قريباً منها»[٣] .

فصل: جاءت هذه الآيات في هذه الأحاديث مجموعة غير مرتبة. وقد جاء ترتيبها من حديث حذيفة أيضاً: كان رسول اللّه ﷺ في غرفة ونحن أسفل منه فاطلع إلينا فقال: «ما تذكرون؟ قلنا: الساعة. قال: إن الساعة لا تكون حتىٰ تروا عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس».

وقال بعض الرواة في العاشرة: «ونزول عيسىٰ ابن مريم، وقال بعضهم: وريح يلقي الناس في البحر»[٤] . فأول الآيات علىٰ ما في هذه الرواية الخسوفات الثلاثة، وقد وقع بعضها في زمن النبي ﷺ.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي أنه وقع بعراق العجم زلازل وخسوفات هائلة هلك بسببها خلق كثير.

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٠١)، وأبو داود في الملاحم (٤٣١١)، والترمذي في الفتن (٢١٨٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٤١)، (٤٠٥٥)، وأحمد (٤/٦ ـ ٧) وغيرهم.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) رواه مسلم في الفتن (٢٩٤١).

(٤) رواه مسلم في الفتن (٢٩٠١).

قلت: وقد وقع ذلك عندما بشرق الأندلس فيما سمعنا من بعض مشايخنا.

ووقع في هذا الحديث: دابة الأرض قبل يأجوج ومأجوج وليس كذلك، فإن أول الآيات: ظهور الدجال، ثم نزول عيسى عليه السلام، ثم خروج يأجوج ومأجوج، فإذا قتلهم اللّه بالنغف[1] في أعناقهم على ما يأتي، وقبض اللّه تعالى نبيه عيسى عليه السلام، وخلت الأرض منه، وتطاولت الأيام على الناس، وذهب معظم دين الإسلام، أخذ الناس في الرجوع إلى عاداتهم، وأحدثوا الأحداث من الكفر والفسوق، كما أحدثوه بعد كل قائم نصبه اللّه تعالى بينه وبينهم حجة عليهم ثم قبضه، فيخرج اللّه تعالى لهم دابة من الأرض، فتميز المؤمن من الكافر ليرتدع بذلك الكفار عن كفرهم، والفساق عن فسقهم، ويستبصروا، وينزعوا عما هم فيه من الفسوق والعصيان، ثم تغيب الدابة عنهم ويمهلون، فإذا أصروا على طغيانهم طلعت الشمس من مغربها، ولم يقبل بعد ذلك لكافر ولا فاسق توبة، وأزيل الخطاب والتكليف عنهم، ثم كان قيام الساعة على أثر ذلك قريباً لأن اللّه تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا قطع عنهم التعبد لم يقرهم بعد ذلك في الأرض زماناً طويلاً، هكذا ذكره بعض العلماء. واللّه علم.

وأما الدخان، فعن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]: إنه ما أصاب قريشاً من القحط والجهد حتى جعل الرجل يرى بينه وبي السماء كهيأة الدخان من الجهد حتى أكلوا العظام، وقد مضت البطشة والدخان واللزام، والحديث عنه بهذا في كتابي مسلم والبخاري وغيرهما، وقد فسر البطشة بأنها وقعة بدر[2].

(١) «النغف»: الدود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٢) رواه البخاري في مواضع عديدة منها: كتاب الاستسقاء (١٠٠٧)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٩٨).

قال أبو الخطاب بن دحية: والذي يقتضيه النظر الصحيح حمل ذلك على قضيتين: إحداهما وقعت، والأخرىٰ ستقع وستكون، فأما التي كنت فالتي كانوا يرون فيها كهيأة دخان، وهي الدخان غير الدخان الحقيقي الذي يكون عند ظهور الآيات التي هي من الأشراط والعلامات، ولا يمتنع إذا ظهرت هذه العلامة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] فيكشف عنهم، ثم يعودون لقرب الساعة، وقول ابن مسعود لم يسنده إلىٰ النبي ﷺ إنما هو من تفسيره، وقد جاء النص عن رسول اللّه ﷺ بخلافه.

واختلف في البطشة واللزام، فقال أبيّ: هو القتل بالسيف يوم بدر، وإليه نحا ابن مسعود، وهو قول أكثر الناس، وعلىٰ هذا تكون البطشة واللزام شيئاً واحداً. قال ابن مسعود: البطشة الكبرىٰ: وقعة بدر. وقيل: هي يوم القيامة. وأصل البطش الأخذ بشدة وقع الألم، واللزام في اللغة: الفصل في القضية. وفسره ابن مسعود بأن ذلك كان يوم بدر، وهو يوم البطشة الكبرىٰ في قوله أيضاً.

وقيل: إن اللزام هو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] هو العذاب الدائم، وأما الدجال فيأتي ذكره في أبواب أخرىٰ، وأما الدابة فهي التي قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢].

وأما قوله: «وآخر ذلك نار تخرج من اليمن» وفي الرواية الأخرىٰ: «من قعر عدن». وفي الرواية الأخرىٰ: «من أرض الحجاز» قال القاضي عياض: فلعلهما ناران تجتمعان لحشر الناس، أو يكون ابتداء خروجهما من اليمن، فظهورهما من الحجاز.

قلت: أما النار التي تخرج من أرض الحجاز فقد خرجت علىٰ ما تقدم القول

فيها، وبقيت النار التي تسوق الناس إلى المحشر، وهي التي تخرج من اليمن، وقد مضى القول في المحشر، ويأتي القول في طلوع الشمس من مغربها. إن شاء الله تعالى.

فأما قول الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] فقد روي أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ آية، فأراهم القمر منشقاً نصفين والجبل بينهما فقال: «اشهدوا»[1]. ثبت هذا في الصحيحين وغيرهما.

ومن العلماء من قال: إنه ينشق كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي يأتي. قال الحليمي أبو عبد الله في كتاب «منهاج الدين» له: فإن كان هذا فقد أتى، ورأيت ببخارى الهلال وهو ابن ليلتين منشقاً نصفين، عرض كل واحد منهما كعرض القمر ليلة أربع أو خمس، ومازلت أنظر إليهما حتى اتصلا كما كانا، ولكنهما في شكل واحد، شكل أترجة، ولم أمل طرفي عنهما إلى أن غابت، وكان معي ليلتئذ كتيبة من شريف وفقيه وغيرهما من طبقات الناس، وكلهم رأى ما رأيت، وأخبرني من وثقت به أنه رأى الهلال وهو ابن ثلاث منشقاً نصفين. قال الحليمي: فقد ظهر أن قول الله ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إنما خرج عن الانشقاق الذي هو من أشراط الساعة دون الانشقاق الذي جعله الله آية لرسوله ﷺ.

* * *

٢٠٧ ـ باب ما جاء فيمن يخسف به أو يمسخ

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أنس، إن الناس يمصرون أمصاراً، وإن مصراً منها يقال لها البصرة أو البصيرة، فإن أنت مررت بها أو

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب المناقب (٣٦٣٦)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٠). وانظر (٢٨٠١)، (٢٨٠٢)، (٢٨٠٣) في مسلم.

دخلتها إياك وسباخها، وكلأها، وسوقها، وباب أمرائها، وعليك بضواحيها، فإنه يكون بها خسف ورجف، وقوم يبيتون فيصبحون قردة وخنازير»[١] .

وعن نافع أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: إن فلاناً يقرأ عليك السلام. فقال له: بلغني أنه قد أحدث؛ فإن كان أحدث فلان فلا تقرئه السلام، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «يكون في أمتي ـ أو في هذه الأمة ـ خسف، ومسخ، وقذف ونحوه»[٢] .

وعن سهل بن سعد، وقد تقدمت الأخبار والأحاديث في خسف الجيش الذي يقصد مكة لقتال المهدي[٣] .

* * *

٢٠٨ ـ باب ذكر الدجال وصفته ونعته، ومن أين يخرج؟ وما علامة خروجه؟ وما معه إذا خرج؟ وما ينجي منه؟ وأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى

قال ابن دحية: قال العلماء: الدجال في اللغة يطلق على عشرة وجوه:

الأول: أن الدجال الكذاب، قاله الخليل وغيره؛ لأنه يدجل الحق بالباطل، وجمعه دجالون ودجاجلة في التكسير، وقد تقدم.

الوجه الثاني: أن الدجال مأخوذ من الدجل، وهو طلاء البعير بالقطران؛ سمي بذلك لأنه يغطي الحق ويستره بسحره وكذبه، كما يغطي الرجل جرب بعيره بالدجالة، وهي القطران يهنأ به البعير، واسمه إذا فعل به ذلك المدجل، قاله الأصمعي.

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٠٧).

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٦١).

(٣) مرّ تخريجه.

الوجه الثالث: إنما سمي بذلك لضربه في نواحي الأرض وقطعه لها، يقال: دجل الرجل: إذا فعل ذلك.

الوجه الرابع: أنه من التغطية، لأنه يغطي الأرض بمجموعه، والدجل: التغطية. قال ابن دريد: كل شيء غطيته قد دجلته، ومنه سميت دجلة لانتشارها على الأرض وتغطية ما فاضت عليه.

الوجه الخامس: سمي دجالاً لقطعه الأرض إذ يطأ جميع البلاد إلَّا مكة والمدينة.

الوجه السادس: سمي دجالاً؛ لأنه يغر الناس بشره، كما يقال: لطخني فلان بشره.

الوجه السابع: الدجال: المخرق.

الوجه الثامن: الدجال: المموه. قاله ثعلب ويقال: سيف مُدجّل: إذا كان قد طلي بالذهب.

الوجه التاسع: الدجال: ماء الذهب الذي يطلى به الشيء فيحسن باطله وداخله خزف أو عود. سمى الدجال بذلك لأنه يحسن الباطل.

الوجه العاشر: الدجال: فرند السيف، والفرند جوهر السيف وماؤها، ويقال بالفاء والباء إذ أصله عين صافية على ما تنطق به العجم، فعربته العرب، ولذلك قال سيبويه: وهو عندهم خارج عن أمثال العرب، والفرند أيضاً الحرير. وأنشد ثعلب:

بحلية الياقوت والفرندا   مع الملاب وعبير أصردا

أي خالصاً.

عن أبي الدرداء رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال» وفي رواية: «من آخر سورة الكهف»[1].

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٩).

وعن الفلتان بن عاصم، عن النبي ﷺ قال: «أما مسيح الضلالة فرجل أجلىٰ الجبهة، ممسوح العين اليسرىٰ، عريض المنحر، فيه اندفاء»[١]. قوله: فيه دفا أي انحناء.

وعن حذيفة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الدجال أعور العين اليسرىٰ، جفال الشعر، معه جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار». وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تأجج، فإما أدركن أحداً فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض وليطأطئ رأسه فيشرب، فإنه ماء بارد. وأن الدجال ممسوخ العين عليها ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب»[٢].

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية: كذا عند جماعة رواة مسلم: «فإما أدركن» وهو وهم، إن لفظه هو لفظ الماضي، ولم أسمع دخول نون التوكيد علىٰ لفظ الماضي إلَّا ها هنا؛ لأن هذه النون لا تدخل علىٰ الفعل الماضي، وصوابه ما قيده العلماء في صحيح مسلم: «فإما أدركه أحد».

وعن عبد اللَّه بن عمر: قال ذكر رسول اللَّه ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال: «إن اللَّه ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنىٰ، كأن عينه عنبة طافية». قال: وقال رسول اللَّه ﷺ: «أراني الليلة في المنام عند الكعبة، فإذا رجل آدم كأحسن ما ترىٰ من أدم الرجال، تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر تقطر رأسه ماء، واضعاً يده علىٰ منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو المسيح ابن مريم، ورأيت وراءه رجلاً جعداً

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٥/ ١٢٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٣٥) وإسناده حسن.

(٢) رواه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٠)، وفي الفتن (٧١٣٠) بنحوه، ومسلم في الفتن (٢٩٣٤) والروايتين له.

قططاً أعور العين اليمنىٰ، كأشبه من رأيت من الناس بابن قطن، واضعاً يديه علىٰ منكبي رجلين يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا المسيح الدجال»(١).

عن أبي بكر الصديق رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «إن الدجال ليخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أفواج كأن وجوههم المجان المطرقة»(٢).

وعن عبادة بن الصامت أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «إني كنت حدثتكم عن المسيح الدجال حتىٰ خشيت أن لا تعقلوا، إن المسيح الدجال: قصير، أفحج، جعد، أعور، مطموس العين، ليست بناتئة ولا جحراء؛ فإن التبس عليكم؛ فاعلموا أن ربكم عز وجل ليس بأعور»(٣).

فصل: وصف النبي ﷺ الدجال وصفاً لم يبق معه لذي لب إشكال، وتلك الأوصاف كلها ذميمة، تبين لكل ذي حاسة سليمة، ولكن من قضىٰ اللّٰه عليه بالشقاوة تبع الدجال فيما يدعيه من الكذب والغباوة، وحرم اتباع الحق ونور التلاوة، فقوله عليه الصلاة والسلام: «إنه أعور وأن اللّٰه ليس بأعور» تبين للعقول القاصرة أو الغافلة علىٰ أن من كان ناقصاً في ذاته عاجزاً عن إزالة نقصه، لم يصلح أن يكون إلهاً لعجزه وضعفه، ومن كان عاجزاً عن إزالة نقصه كان أعجز عن نفع غيره وعن مضرته، وجاء في حديث حذيفة: أعور العين اليسرىٰ، وفي حديث ابن عمر: أعور العين اليمنىٰ، وقد أشكل الجمع بين الحديثين علىٰ كثير من العلماء.

وقد تكلف القاضي عياض الجمع بينهما فقال: الجمع بين الروايتين عندي

---

(١) رواه البخاري في الفتن (٧١٢٧)، (٧١٢٨)، ومسلم في الإيمان (١٦٩)

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٣٧).

(٣) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٢٠)، وأحمد (٥/ ٣٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٨).

صحيح، وهو أن كل واحدة منهما عوراء من وجه ما؛ إذ العور حقيقة في كل شيء العيب، والكلمة العوراء هي المعيبة، فالواحدة عوراء بالحقيقة، وهي التي وصفت في الحديث بأنها ليست بحجراء ولا ناتئة وممسوخة ومطموسة وطافئة على رواية الهمز، والأخرى عوراء لعيبها الملازم لها لكونها جاحظة، أو كأنها كوكب دري، أو كأنها عنبة طافية بغير همز، وكل واحدة منهما يصح فيها الوصف بالعور بحقيقة العرف والاستعمال، أو بمعنى العور الأصلي.

وحاصل كلامه إن كل واحدة من عيني الدجال عوراء، أحدهما ما أصابها حتى ذهب إدراكها، والثانية عوراء بأصل خلقتها معيبة.

قلت: ما قاله القاضي عياض وتأويله صحيح، وأن العور في العينين مختلف كما بيناه في الروايات.

فصل: الإيمان بالدجال وخروجه حق، وهذا مذهب أهل السنة وعامة أهل الفقه والحديث خلافاً لمن أنكر أمره من الخوارج وبعض المعتزلة، ووافقنا على إثباته بعض الجهمية وغيرهم، لكن زعموا أن ما عنده مخارق وحيل. قالوا: لأنها لو كانت أموراً صحيحة لكان ذلك إلباساً للكاذب بالصادق، وحينئذ لا يكون فرق بين النبي والمتنبي. وهذا هذيان لا يلتفت إليه، ولا يعرج عليه، إن هذا إنما كان يلزم لو أن الدجال يدعي النبوة، وليس كذلك؛ فإنه إنما ادعى الإلـٰهية، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن اللَّه ليس بأعور» تنبيهاً للعقول على فقره وحدثه ونقصه، وإن كان عظيماً في خلقه، ثم قال: «مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن ومؤمنة، كاتب أو غير كاتب» وهذا الأمر مشاهد للحس يشهد بكذبه وكفره.

وقد تأول بعض الناس: «مكتوب بين عينيه كافر». فقال: معنى ذلك ما ثبت من سمات حدثه، وشواهد عجزه، وظهور نقصه قال: ولو كان على ظاهره وحقيقته لاستوى في إدراك ذلك المؤمن والكافر. وهذا عدول وتحريف عن حقيقة

الحديث من غير موجب لذلك، وما ذكره من لزوم المساواة بين المؤمن والكافر في قراءة ذلك لا يلزم؛ لأن اللّه تعالى يمنع الكافر من إدراكه ليغتر باعتقاده التجسيم حتى يوردهم بذلك نار الجحيم. فالدجال فتنة ومحنة من نحو فتنة أهل المحشر بالصورة الهائلة التي تأتيهم فيقول لهم: أنا ربكم. فيقول المؤمنون: نعوذ باللّه منك. حسب ما تقدّم، لاسيما وذلك الزمان قد انخرقت فيه عوائد، فليكن هذا منها، وقد نص على هذا بقوله: يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب. وقراءة غير الكاتب خارقة للعادة، وأما الكافر فمصروف عن ذلك بغفلته وجهله، وكما انصرف عن إدراك نقص عوره، وشواهد عجزه، كذلك يصرف عن قراءة سطور كفره ورمزه.

وأما الفرق بين النبي والمتنبي، فالمعجزة لا تظهر على يد المتنبي؛ لأنه لزم منه انقلاب دليل الصدق دليل الكذب، وهو محال.

وقولهم: إن ما يأتي به الدجال، حيل ومخاريق، فقول معزول عن الحقائق؛ لأن ما أخبر به النبي ﷺ من تلك الأمور حقائق، والعقل لا يحيل شيئاً منها، فوجب إبقاؤها على حقائقها، وسيأتي تفصيلها بعون اللّه تعالى.

* * *

٢٠٩ ـ باب ما يُمنع الدجال أن يدخله من البلاد إذا خرج

عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ليس من بلد إلَّا سيطؤه الدجال إلَّا مكة والمدينة» وذكر الحديث[١].

وفي حديث فاطمة بنت قيس: «فلا أدع قرية إلَّا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة هما محرمتان عليَّ كلتاهما» الحديث سيأتي[٢].

---

(١) رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨١)، ومسلم في الفتن (٢٩٤٣).

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٢) وسيأتي في باب (٢١٣) ذكر الدابة وحديث الجساسة.

وفي بعض الروايات: «فلا يبقىٰ له موضع إلَّا ويأخذه: غير مكة، والمدينة، وبيت المقدس، وجبل الطور، فإن الملائكة تطرده عن هذه المواضع»[١].

* * *

باب منه، وما جاء أنه إذا خرج يزعم أنه اللَّه ويحصر المؤمنين في بيت المقدس

عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ وذكر الدجال قال: «وإنه متىٰ يخرج فإنه يزعم أنه اللَّه، فمن آمن به واتبعه وصدقه فليس ينفعه صالح من عمل سلف، ومن كفر به وكذبه فليس يعاقب بشيء من عمل سلف. وأنه سيظهر علىٰ الأرض كلها إلَّا الحرم وبيت المقدس، وأنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس». قال: فيهزمه اللَّه وجنوده حتىٰ إن جدر الحائط وأصل الشجرة ينادي: يا مؤمن هذا كافر يستتر بي تعال اقتله قال: ولن يكون ذلك حتىٰ تبدو أمور يتفاج شأنها في أنفسكم تتساءلون بينكم: هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكراً، وحتىٰ تزول جبال عن مراتبها علىٰ أثر ذلك القبض[٢].

* * *

باب منه وفي عظم خلق الدجال، وعظم فتنته، وسبب خروجه

عن عمران بن حصين قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلىٰ قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»[٣]. وفي رواية: «امرؤ بدل «خلق».

وفي حديث تميم الداري قال: انطلقنا سراعاً حتىٰ دخلنا الدير، فإذا أعظم

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٦٤، ٤٣٤، ٤٣٥) وغيره ورجاله ثقات.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٥/ ١٥١) وهو حديث حسن. وانظر: التذكرة (٢١٥٦).

(٣) رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٦).

إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً. الحديث وسيأتي(١).

وعن ابن عمر أنه لقي ابن صياد في بعض طرق المدينة، فقال قولاً أغضبه فانتفخ حتى ملأ السكة، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها فقالت: يرحمك الله، ما أردت من ابن صياد، أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يخرج من غضبة يغضبها»(٢). وسيأتي من أخبار ابن صياد ما يدل عليه أنه هو الدجال إن شاء الله تعالى.

* * *

باب منه آخر في خروج الدجال، وما يجيء به من الفتن والشبهات، وسعة سيره في الأرض، وكم يلبث فيها؟ وفي نزول عيسى عليه السلام، ونعته، وكم يكون في الأرض يومئذ من الصلحاء؟ وفي قتله الدجال واليهود، وخروج يأجوج ومأجوج وموتهم، وفي حج عيسى وتزويجه ومكثه في الأرض، وأين يدفن إذا مات ﷺ؟

وقد تقدم من حديث حذيفة رضي الله عنه أن له جنة وناراً، فجنته نار، وناره جنة.

عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»(٣).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فيتوجه

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٢).

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٩٣٢).

(٣) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣١٩)، وأحمد (٤/ ٤٣١) وغيرهما.

قبله رجل من المؤمنين، فتلقاه المسالح ـ مسالح الدجال ـ فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلىٰ هذا الرجل الذي خرج، فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس ربكم قد نهاكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ قال: فينطلقون به إلىٰ الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول اللّه ﷺ، قال: فيأمر به الدجال فيشج، فيقول: خذوه وشجوه، فيوجع ظهره وبطنه ضرباً قال: فيقول: أما تؤمن بي؟ فيقول: أنت المسيح الكذاب، فيؤمر به فينشر بالمنشار من مفرقه حتىٰ يفرق بين رجليه، قال: ثم يمشي بين القطعتين، ثم يقول: قم، فيستوي قائماً فيقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلّا بصيرة، ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلىٰ ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيحسب الناس أنه إنما قذف به في النار، وإنا ألقي به في الجنة». قال: قال رسول اللّه ﷺ: «هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين».

قال أبو إسحاق السبيعي: يقال: إن هذا الرجل هو الخضر.

وفي رواية قال: يأتي وهو محرم عليه أن يدخل المدينة، فينتهي إلىٰ بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه رجل هو خير الناس أو من خير الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا، أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا. قال: فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه: واللّه ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن. قال: فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلطه اللّه عليه[1].

---

(١) رواه البخاري في الفتن (٧١٣٢)، ومسلم في الفتن (٢٩٣٨).

وعن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ليس من بلد إلّا سيطؤه الدجال إلّا مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلّا عليها الملائكة صافين يحرسونها، فينزل بالسبخة، فترجف ثلاث رجفات، يخرج إليه كل كافر ومنافق». وفي رواية: «كل منافق ومنافقة»(١).

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول اللَّه ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتىٰ ظنناه في طائفة النخل، فقال: «ما غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، واللَّه خليفتي علىٰ كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزىٰ بن قطن، فمن أدركه، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجٌ خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يميناً وشمالاً، يا عباد اللَّه فاثبتوا، قلنا: يا رسول اللَّه، وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. فقلنا: يا رسول اللَّه، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول اللَّه، وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي علىٰ القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، قال: فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُراً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث اللَّه المسيح ابن مريم، فنزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين،

---

(١) مرّ تخريجه.

واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلّا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ فيقتله، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوم قد عصمهم اللّه منه، فيمسح على وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى اللّه إلى عيسى عليه السلام: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث اللّه يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحضر نبي اللّه عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبيُّ اللّه عيسى أصحابُه؛ فيرسل اللّه النغف في رقابهم فيصبحون فَرْسَى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي اللّه عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون موضع شبر إلّا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه، فيرسل اللّه طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء اللّه، ثم يرسل اللّه مطراً لا يكنّ منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك اللّه في الرسْل أي اللبن، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس. فبينما هم كذلك إذ بعث اللّه ريحاً طيبة فأخذ بهم تحت آباطهم، فيقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها كتهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة.

زاد في أخرى بعد قوله: مرةً ماء: ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في

السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد اللَّه عليهم نشابهم مخضوبة دماً».
وفي رواية: «فقال: ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، فهلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد اللَّه عليهم نشابهم محمراً دماً، ويحاصر عيسى ابن مريم .. الحديث. وقال بدل قوله: «فيطرحهم حيث شاء اللَّه، قال: فتحملهم فتطرحهم بالنهبل، قال: ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم سبع سنين قال: ويرسل اللَّه عليهم مطراً .. الحديث، فيطرحهم في المهيل، والمهيل البحر الذي عند مطلع الشمس[1].

وعن النواس بن سمعان يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «يستوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين»[2].

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، وليتركن القلاص، فلا يسعى عليها، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون الناس إلى المال فلا يقبله أحد».

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل عيسى ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟» وفي رواية: «فأمكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري ما إمامكم منكم؟ قلت: تخبرني؟ قال: فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم. وعنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بنفج من الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنينهما»[3].

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٣٧)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢١)، والترمذي في الفتن (٢٢٤٠)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٧٥).

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٧٦).

(٣) رواه البخاري بنحوه في الأنبياء (٣٤٤٨)، ومسلم في الإيمان (١٥٥)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢٤)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٣)، وغيرهم.

وفي حديث عبد اللَّه بن عمرو: «ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل اللَّه ريحاً باردة من قبل الشام» الحديث وقد تقدم بكماله[١]، وهذا يدل على أنه يمكث في الأرض سبع سنين، واللَّه أعلم.

فصل: ذهب قوم إلى أن بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام يرتفع التكليف لئلا يكون رسولاً إلى أهل ذلك الزمان يأمرهم عن اللَّه تعالى وينهاهم، وهذا أمر مردود بالأخبار التي ذكرناها من حديث أبي هريرة، وبقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا نبي بعدي»[٢] وقوله: «وأنا العاقب»[٣] يريد آخر النبيين وخاتمهم، وإذا كان ذلك فلا يجوز أن يتوهم أن عيسى عليه السلام ينزل بشريعة متجددة وغير شريعة محمد نبينا ﷺ، بل إذا نزل فإنه يكون يومئذ من أتباع محمد ﷺ كما أخبر ﷺ حيث قال لعمر: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلَّا اتباعي»[٤].

وروى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد اللَّه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق إلى يوم القيامة قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام فيقول أميرهم: تعال صل بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء لكرامة اللَّه لهذه الأمة»[٥].

فعيسى عليه السلام إنما ينزل مقرراً لهذه الشريعة ومجدداً لها، إذ هي آخر الشرائع، ومحمد آخر الرسل، فينزل حكماً مقسطاً، وإذا صار حكماً، فإنه

---

(١) انظره في الباب (٥٥) في انقراض هذا الخلق وذكر النفخ والصعق.

(٢) ورد هذا المقطع في أكثر من حديث: من ذلك ما جاء في فضائل عليّ رضي اللَّه عنه: رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٠٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٤).

(٣) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب المناقب (٣٥٣٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٥٤).

(٤) واه أحمد (٣/ ٣٣٨، ٣٨٧) وغيره. وهو حديث حسن.

(٥) رواه مسلم في الإيمان (١٥٦)، واختصره في الإمارة (١٩٢٣).

سلطان يومئذ للمسلمين، ولا إمام ولا قاض ولا مفتي، قد قبض اللَّه تعالىٰ العلم، وخلا الناس منه، فينزل وقد علم بأمر اللَّه تعالىٰ له في السماء قبل أن ينزل ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم به بين الناس والعمل به في نفسه، فيجتمع المؤمنون عند ذلك إليه، ويحكمونه علىٰ أنفسهم؛ إذ لا أحد يصلح لذلك غيره، ولأن تعطيل الحكم غير جائز. وأيضاً فإن بقاء الدنيا إنما يكون بمقتضىٰ التكليف إلىٰ أن لا يقال في الأرض: اللَّه اللَّه، علي ما يأتي، وهذا واضح.

فصل: فإن قيل: فما الحكمة في نزوله في ذلك الوقت دون غيره؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: يحتمل أن يكون ذلك؛ لأن اليهود همت بقتله وصلبه، وجرىٰ أمرهم معه علىٰ ما بينه اللَّه تعالىٰ في كتابه، وهم أبداً يدّعون أنهم قتلوه، وينسبونه إلىٰ السحر. ولقد ضرب اللَّه عليهم الذلة، فلم تقم لهم منذ أعز اللَّه الإسلام وأظهر راية، ولا كان لهم في بقعة من بقاع الأرض سلطان ولا قوة ولا شوكة، ولا يزالون كذلك حتىٰ تقرب الساعة، فيظهر الدجال، وهو أسحر السحرة، ويبايعه اليهود، فيكونون يومئذ جنده، مقدرين أنهم ينتقمون به من المسلمين، فإذا صار أمرهم إلىٰ هذا، أنزل اللَّه تعالىٰ الذي عندهم أنهم قد قتلوه وأبرزه لهم ولغيرهم من المنافقين والمخالفين حياً، ونصره علىٰ رئيسهم وكبيرهم المدعي الربوبية فقتله، وهزم جنده من اليهود بمن معه من المؤمنين، فلا يجدون يومئذ مهرباً، وإن توارىٰ أحد منهم بشجر أو حجر أو جدار ناداه: يا روح اللَّه، ها هنا يهودي حتىٰ يوقف عليه.. فإما أن يسلم، وإما أن يقتل، وكذا كل كافر من كل صنف حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض كافر.

الوجه الثاني: وهو أنه يحتمل أن يكون إنزاله مدة لدنو أجله لا لقتال الدجال؛ لأنه لا ينبغي لمخلوق من التراب أن يموت في السماء، لكن أمره يجري

على ما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] فينزله اللَّه تعالىٰ ليقبره في الأرض مدة، يراه فيها من يقرب منه، ويسمع به من نأىٰ عنه، ثم يقبضه فيتولىٰ المؤمنون أمره، ويصلون عليه، ويدفن، فهذا سبب إنزاله، غير أنه يتفق في تلك الأيام من بلوغ الدجال باب لدّ، هذا ما وردت به الأخبار، فإذا اتفق ذلك وكان الدجال قد بلغ من فتنته أن ادعىٰ الربوبية، ولم ينتصب لقتاله أحد من المؤمنين، كان هو أحق بالتوجه إليه، ويجري قتله علىٰ يديه، إذ كان ممن اصطفاه اللَّه لرسالته، وأنزل عليه كتابه، وجعله وأمه آية، فعلىٰ هذا الوجه يكون الأمر بإنزاله لا أنه ينزل لقتال الدجال قصداً. واللَّه أعلم.

والوجه الثالث: أنه وجد في الإنجيل فضل أمة محمد ﷺ حسب ما قال وقوله الحق: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩] فدعا اللَّه عز وجل أن يجعله من أمة محمد ﷺ، فاستجاب اللَّه تعالىٰ دعاءه، ورفعه إلىٰ السماء إلىٰ أن ينزله آخر الزمان، مجدداً لما درس من دين الإسلام، دين محمد عليه الصلاة والسلام، فيوافق خروج الدجال فيقتله.

ولا يبدو علىٰ هذا أن يقال: إن قتاله للدجال يجوز أن يكون من حيث إنه إذا حصل بين ظهراني الناس وهم مفتونون، قد عم فرض الجهاد أعيانهم، وهو أحدهم، لزمه من هذا الفرض ما يلزم غيره؛ فلذلك يقوم به، وذلك داخل في اتباع نبينا محمد ﷺ، وباللَّه التوفيق.

واختلف حيث يدفن فقيل: بالأرض المقدسة، وقيل: يدفن مع النبي ﷺ. واللَّه أعلم.

فصل
في بيان ما وقع في الحديث من الغريب

قوله: «فيُشبح» أي يمد علىٰ بطنه، وفي رواية: فيُشجّ. والميشار: مفعال من أيشرت ووشرت أشراً ووشراً، ويقال: منشار بالنون أيضاً، وبالوجهين في الحديث، وهو مفعال أيضاً من نشرت.

وقوله: «فخفض ورفع» تخفيف الفاء أي: أكثر من الكلام فيه، فتارة يرفع صوته ليسمع من بعد، وتارة يخفض ليستريح من تعب الإعلان، وهذه حالة المكثر في الكلام، وروي بتشديد الفاء فيهما علىٰ التضعيف والتكثير.

وقوله: «إنه خارج خلّة». يروىٰ بالخاء المعجمة، وبالحاء المهملة، قاله الهروي، والخلة: موضع حزن وصخور، والحلة: ما بين البلدين.

ورويت: حله بفتح الحاء المهملة وضم اللام، وكأنه يريد حلوله، وجاء في حديث الترمذي أنه يخرج بخراسان، وفي الرواية الأخرىٰ: من ناحية أصبهان من قرية تسمىٰ اليهودية، وفي حديث ابن ماجه ومسلم بين الشام والعراق، ووجه الجمع أن مبدأ خروجه من خراسان من ناحية أصبهان، ثم يخرج إلىٰ الحجاز فيما بين العراق والشام، والله أعلم.

و«عاث»: بالعين المهملة، والثاء المثلثة، والتنوين علىٰ أنه اسم فاعل، وروي بفتح الثاء علىٰ أنه فعل ماض، ووقع في حديث علىٰ الفعل المستقبل، والكل بمعنىٰ الفساد: عاث يعيث عيثاً، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله: «فاقدروا له قدره» قال القاضي عياض: هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعه لنا صاحب الشرع، ولو وكلنا فيه لاجتهادنا لكانت الصلاة فيه عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام.

وقوله: «ممحلين»: أي مجدبين، ويروىٰ: أزلين، والمحل والأزل والقحط والجدب بمعنىٰ واحد. و«يعاسيب النحل»: فحولها، واحدها يعسوب، وقيل: أمراؤها. ووجه التشبيه أن يعاسيب النحل يتبع كل واحد منهم طائفة من النحل فتراها جماعات في تفرقة، فالكنوز تتبع الدجال كذلك.

وقوله: «بين مهرودتين» أي بين شقي ثوب؛ والشقة نصف الملاءة، أو في حلتين؛ مأخوذ من الهرد ـ بفتح الهاء وسكون الراء ـ وهو الشق والقطع.

قال ابن دريد: إنا سمي الشق هرداً للإفساد لا للإصلاح.

وقال أكثرهم: في ثوبين مصبوغين بالصفرة، وكأنه الذي صبغ بالهردئ، ووقع في بعض الروايات بدل «مهرودتين»: ممصرتين. والممصرة من الثياب: هي المصبوغة بالصفرة. و«الجمان»: ما استدار من اللؤلؤ والدر، شبه قطرات العرق بمستدير الجوهر. وهو تشبيه حسن.

وقال ابن الأنباري: مهرودتان بدال مهملة وذال معجمة معاً أي: ممصرتين كما جاء في الحديث الآخر. وقال غيره: الهرود الذي يصبغ بالعروق التي يقال لها الهرد بضم الهاء، وقال الهروي: هرد ثوبه بالهرد، وهو صبغ يقال له العروق، وأما رواية الذال المعجمة فهو إبدال من الدال المهملة، فإن الذال والدال قد يتعاقبان، فيقال: رجل مدل بالدال المهملة، ومذل بالذال المعجمة، إذا كان قليل اللحم خفي الشخص.

وقوله: «فحرز عبادي إلىٰ الطور» أي ارتحل بهم إلىٰ جبل يحرزون فيه أنفسهم. والطور: الجبل بالسريانية. و«النغف»: جمع نغفة، وهي الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم، و«فرْسىٰ»: أي هلكىٰ، وهي جمع فريس، يعني مفروس، مثل قتيل وقتلىٰ وصريع وصرعىٰ، وأصله من: فرس الذئب الشاة وأفرسها أي قتلها، وكأن تلك النغف فرستهم.

ويروى: «فيصبحون موتى» و«الزهم»: النتن. و«البخت»: إبل غلاظ الأعناق عظام الأجسام. و«الزلفة»: المصففة الممتلئة، والجمع زلف.

قال ابن دحية: قيدناه في صحيح مسلم بالفاء والقاف، وهو المرآة، كذا فسره ابن عباس.

و«اللقحة»: الناقة الحلوب. و«الفئام»: الجماعة من الناس. و«الفخذ»: دون القبيلة وفوق البطن، و«الفاثور» بالفاء: الخوان يتخذ من الرخام ونحوه. يقال: هم على فاثور واحد، أي على مائدة واحدة ومنزلة واحدة، والفاثور أيضاً: موضع. قاله الجوهري. والله أعلم.

* * *

٢١٠ ـ باب ما جاء أن الدجال لا يضر مسلما

عن حذيفة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فذكر الدجال فقال: «الفتنة من بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال، ليس من فتنة صغيرة ولا كبيرة إلَّا تضع لفتنة الدجال، فمن نجا من فتنة ما قبلها فقد نجا منها، والله لا يضر مسلماً، مكتوب بين عينيه: كافر»(١).

قلت: إن قيل: كيف قال في هذا الحديث: «لا يضر مسلماً» وقد قتل الرجل الذي خرج إليه من المدينة، ونشره بالمنشار، وذلك أعظم الضرر؟ قلنا: ليس المراد بذلك، وإنما المعنى أن المسلم المحقق لا يفتنه الدجال فيرده عن دينه، لما يرى عليه من سيماء الحدث، ومن لم يكن بهذه الصفة فقد يفتنه ويتبعه لما يرى من الشبهات. ويحتمل أن يكون عموماً يخصه ذلك الحديث وغيره، والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٨٤٩). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٨): «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح». وفي صحيح مسلم في الفتن (٢٩٣٩) من حديث المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ قال له: «وما يُنصبك منه؟ إنه لا يضرك».

٢١١ ـ باب ما ذكر من أن ابن صياد: الدجال[١] واسمه صاف، وسبب خروجه

عن محمد بن المنكدر قال: رأيت جابر بن عبد اللَّه يحلف باللَّه أن ابن صياد: الدجال، فقلت له: أتحلف علىٰ ذلك؟ قال: إني سمعت عمر يحلف باللَّه علىٰ ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ[٢].

وعن نافع قال: كان ابن عمر يقول: «واللَّه ما أشك أن المسيح الدجال ابن صياد»[٣].

عن أبي سعيد الخدري قال: خرجنا حجاجاً أو عماراً ومعنا ابن صياد قال: فنزلنا منزلاً، فتفرق الناس وبقيت أنا وهو، فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه، قال: وجاء بمتاعه فوضعه علىٰ متاعي، فقلت: إن الحر شديد فلو وضعته تحت تلك الشجرة، قال: ففعل، فرفعت لنا غنم فانطلق بعس، فقال: اشرب أبا سعيد، فقلت: إن الحر شديد واللبن حار ـ ما بي إلَّا أني أكره أن أشرب عن يده، أو قال: آخذه عن يده ـ فقال: أبا سعيد من خفىٰ عليه حديث رسول اللَّه ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألست من أعلم أصحاب رسول اللَّه ﷺ؟! أليس قد قال رسول اللَّه ﷺ: «هو كافر» وأنا مسلم؟ أو ليس قد قال رسول اللَّه ﷺ: «هو عقيم لا يولد له»، وقدتركت ولدي بالمدينة؟! أو ليس قد قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يدخل المدينة ولا مكة؟» فقد أقبلت من المدينة، وأنا بمكة. وفي رواية: وقد حججت؟ قال أبو سعيد: حتىٰ كدت أني أعذره، ثم قال: أما

---

(١) المصنف ـ رحمه اللَّه ـ يرجح أن ابن صياد هو الدجال. والمسألة فيها خلاف طويل بين العلماء. انظر: «أشراط الساعة» ليوسف الوابل (ص٢٨٩ ـ ٣٠٤).

(٢) رواه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٥)، ومسلم في الفتن (٢٩٢٩).

(٣) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٠).

والله إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن. قال: قلت: تباً لك سائر اليوم، وفي رواية: قال أبو سعيد وقيل له: أيسرك أنك ذاك الرجل أي الدجال؟ قال: فقال: لو عرض علي ما كرهت[1].

وعن ابن عمر قال: لقيت ابن صياد مرتين، فقلت لبعضهم: هل تحدثون أنه هو؟ قال: لا والله. قال: قلت: كذبتني والله، لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتىٰ يكون أكثركم مالاً وولداً، فكذلك هو زعموا اليوم، قال: فتحدثنا ثم فارقته، قال: فلقيته لقية أخرىٰ وقد نفرت عينه، قال: فقلت: متىٰ فعلت عينك ما أرىٰ؟ قال: لا أدري. قال: قلت: لا تدري وهي في رأسك. قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه، قال: فنخر كأشد نخير حمار سمعت، قال: فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتىٰ تكسرت، وأما أنا والله ما شعرت، قال: وجاء حتىٰ دخل علىٰ أم المؤمنين فحدثها فقالت: ما تريد إليه؟ ألم تعلم أنه قد قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يبعثه علىٰ الناس غضب يغضبه؟».

وعنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأبي بن كعب إلىٰ النخل التي فيها ابن صياد حتىٰ إذا دخل رسول الله ﷺ النخل طفق يتقي بجذوع النخل وهو يخيل أن يسع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع علىٰ فراش في قطيفة له، فيها زمزمة، فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل فقالت لابن صياد: يا صاف ـ وهو اسم ابن صياد ـ هذا محمد. فثار ابن صياد، فقال رسول الله ﷺ: «لو تركته بيّن»[2].

وفي رواية: ثم قال له رسول الله ﷺ: «إني قد خبأت لك خبئاً» فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال رسول الله ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك» فقال عمر بن

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٢٧).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الأدب (٦١٧٣)، (٦١٧٤).

الخطاب: ذرني يا رسول اللَّه أضرب عنقه؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير في قلته».

وعن جابر بن عبد اللَّه قال: «فقدنا ابن صياد يوم الحرة»[١].

وقيل: إنه لم يولد بعد، وسيولد في آخر الزمان، والأول أصح لما ذكرنا، وباللَّه توفيقنا.

وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في أن الدجال ابن صياد، واللَّه أعلم.

فصل: قال أبو سليمان الخطابي: وقد اختلف الناس في أمر ابن صياد اختلافاً كثيراً، وأشكل أمره حتىٰ قيل فيه كل قول، وقد يسأل عن هذا فيقال: كيف يقارن رسول اللَّه ﷺ من يدعي النبوة كاذباً ويتركه بالمدينة يساكنه في داره ويجاوره فيها؟ وما وجه امتحانه إياه بما خبأ له من آية الدخان، وقوله بعد ذلك: اخسأ فلن تعدو قدرك؟

قال أبو سليمان: والذي عندي أن هذه القضية إنما جرت معه أيام مهادنة رسول اللَّه ﷺ اليهود وحلفاءهم، وذلك أنه بعد مقدمه المدينة كتب بينه وبينهم كتاباً وصالحهم فيه علىٰ أن لا يهاجروا وأن يتركوا علىٰ أمرهم، وكان ابن صياد منهم أو دخيلاً في جملتهم، وكان يبلغ رسول اللَّه ﷺ خبره وما يدعيه من الكهانة ويتعاطاه من الغيب، فامتحنوه بذلك ليروا آية أمره، فلما كلمه علم أنه معطل، وأنه من جملة السحرة والكهنة، يأتيه من الجنة أو يتعاهده شيطان. ، فيلقي علىٰ لسانه بعض ما يتكلم به، فلما سمع منه قول «الدخ» زجره وقال: اخسأ ولن تعدو قدرك، يريد أن ذلك شيء ألقاه إليه الشيطان، وأجراه علىٰ لسانه، وليس ذلك من قبل الوحي، إذ لم يكن له قدر الأنبياء الذين يوحىٰ إليهم علم الغيب، ولا درجة الأولياء الذين يلهمون العلم، ويصيبون بنور قلوبهم الحق، وإنما كانت له

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٢).

تارات يصيب في بعضها ويخطئ في بعض، وذلك معنى قوله: «يأتيني صادق وكاذب، فقال له عند ذلك: خلط عليك.

والحكمة في أمره أنه كان فتنة امتحن اللَّه بها عباده المؤمنين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة، وقد امتحن اللَّه قوم موسى في زمانه بالعجل؛ فافتتن به قوم وهلكوا، ونجا من هداه اللَّه وعصمه منهم.

وقد اختلفت الروايات في أمر ابن صياد في ما كان من شأنه بعد كبره، فروي أنه تاب عن ذلك القول، ثم إنه مات بالمدينة، وأنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا عن وجهه حتى رآه الناس، وقيل لهم: اشهدوا. قال الشيخ: الصحيح خلاف هذا لحلف جابر وعمر أن ابن صياد الدجال. وروي أن أبا ذر كان يقول: هو الدجال، وروي ذلك عن ابن عمر، وقال جابر: فقدناه يوم الحرة. وها يخالف رواية من روى أنه مات بالمدينة، واللَّه أعلم.

* * *

٢١٢ ـ باب ما جاء في نقب يأجوج ومأجوج السد وخروجهم وصفتهم، وفي لباسهم وطعامهم وبيان قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء﴾

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعيده اللَّه أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد اللَّه أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال: ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء اللَّه، فيرجعون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع عليها الدم. ـ الذي أحفظ ـ فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا

أهل السماء، فيبعث اللّه نغفا في أقفائهم، فيقتلون. قال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من كثرة ما تأكل من لحومهم»(١) .

قال الجوهري: شكرت الناقة تشكر شكراً فهي شكرة، واشتكر الضرع امتلأ .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول اللّه ﷺ قال: «يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، فيعمون الأرض، وينحاز منهم المسلمون، حتىٰ يصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، حتىٰ إنهم ليمرون بالنهر فيشربون حتىٰ ما يذروا فيه شيئاً، فيمر آخرهم علىٰ أثرهم فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماء، ويظهرون علىٰ الأرض فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم لننازلن أهل السماء، حتىٰ إن أحدهم ليهز حربته إلىٰ السماء فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك إذ بعث اللّه عليهم دواب كنغف الجراد، فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضاً، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حساً. فيقولون: هل من رجل يشتري نفسه وينظر ما فعلوا؟ فينزل إليهم رجل قد وطن نفسه علىٰ أن يقتلوه فيجدهم موتىٰ، فيناديهم: ألا أبشروا، فقد هلك عدوكم، فيخرج الناس، ويخلون سبيل مواشيهم، فما يكون لهم مرعىٰ إلّا لحومهم، فتشكر عليها كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط»(٢) .

---

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣١٥٢)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٨٠)، وأحمد (٢/ ٥١٠ ـ ٥١١)، والحاكم (٤/ ٢٥١) وغيرهم.

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٧٩)، وأحمد (٣/ ٧٧)، والحاكم (٢/ ٢٤٥)، (٤/ ٤٩٠) وغيرهم.

٢١٣ ـ باب ذكر الدابة
وحديث الجساسة وما فيها من ذكر الدجال

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢].

ويقال: إنها الجساسة في حديث فاطمة بنت قيس الحديث الطويل.

وفيه: ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «أتدرون لم جمعتكم؟» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: إني واللَّه ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكنني جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤوا إلىٰ جزيرة في البحر حيث مغرب الشمس، قل: فجلسوا قرب السفينة فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثيرة الشعر، لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر»[1].

وفي رواية الترمذي: إن ناساً من أهل فلسطين ركبوا سفينة في البحر، فجالت بهم حتىٰ قذفتهم في جزيرة من جزائر البحر، فإذا هم بدابة لباسة ناشرة شعرها، فقالوا: من أنت؟ قالت: أنا الجساسة ... وذكر الحديث. فقالوا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجساسة. قالوا: وما الجساسة: قالت: أيها القوم، انطلقوا إلىٰ هذا الرجل في الدير فإنه إلىٰ خبركم بالأشواق. قال: لما سمّت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعاً حتىٰ دخلنا الدير، فإذا هو أعظم إنسان رأيناه خلقاً، وأشد وثاقاً، مجموعة يداه إلىٰ عنقه، ما بين ركبته إلىٰ كعبيه بالحديد. وقال الترمذي: فإذا رجل موثق بسلسلة.

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٢)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٥٢)، (٤٣٢٥)، (٤٣٢٧)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٧٤).

وقال أبو داود: فإذا الرجل يجر شعره مسلسلاً في الأغلال، ينزو فيها بين السماء والأرض. قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن ناس من العرب ركبنا سفينة بحرية، فصادفنا البحر قد اغتلم فلعب الموج بنا شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة، فلقينا دابة أهلب كثيرة الشعر، لا ندري ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. فقلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً، وفزعنا منها، وما نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبروني عن نخل بيسان.

قال الترمذي: الذي بين الأردن وفلسطين. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل تثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما أنها توشك أن لا تثمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغر؟ قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا: نعم هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذلك هو خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني: أنا المسيح الدجال. وإني أوشك أن يؤذن لي بالخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلّا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، هما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة منهما استقبلني ملك بيده السيف مصلتا يصدني عنهما، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

قال رسول اللَّه ﷺ: وطعن بمخصرته في المنبر: هذه طيبة - يعني المدينة - ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم. قال: أعجبني حديث تميم الداري، فإنه وافق الذي كنت حدثتكم عنه، وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق وما هو من قبل المشرق. وأومأ بيده إلىٰ المشرق قال: حفظت هذا من رسول اللَّه ﷺ.

وقد خرج ابن ماجه حديث فاطمة بنت قيس قالت: خرج رسول اللَّه ذات يوم، وصعد المنبر، وكان لا يصعد عليه مثل ذلك اليوم إلَّا يوم الجمعة، فاشتد ذلك علىٰ الناس، فمن بين قائم وجالس، فأشار إليهم بيده أن اقعدوا، فواللَّه ما قمت مقامي إلَّا لأمر ينفعكم، لا رغبة ولا رهبة، ولكن تميماً الداري أتاني فأخبرني خبراً منعني القيلولة من الفرح وقرة العين، فأحببت أن أنشر عليكم فرح نبيكم ﷺ، ألا إن ابن عم لتميم الداري أتاني أخبرني أن الريح ألجأتهم إلىٰ جزيرة لا يعرفونها، فقعدوا في قوارب السفينة فخرجوا بها، فإذا هم بشيء أهدب أسود كثير الشعر. قالوا لها: ما أنت؟ قالت: أنا الجساسة. قالوا: أخبرينا. قالت: ما أنا بمخبرتكم شيئاً ولا سائلتكم، وليكن هذا الدير قد رهقتموه، فائتوه فإن فيه رجلاً بالأشواق إلىٰ أن تخبروه ويخبركم، فأتوه فدخلوا عليه، فإذا هم بشيخ موثق شديد الوثاق، مظهر الحزن، شديد التشكي، فقال لهم: من أين؟ فقالوا: من الشام. فقال: ما فعلت العرب؟ قالوا: نحن قوم من العرب، عم تسأل؟ قال: ما فعل الرجل الذي خرج فيكم؟ قالوا: خيراً، أتىٰ قوماً فأظهره اللَّه عليهم، فأمرُهم اليوم جميع، إلـٰههم واحد، ودينهم واحد، ونبيهم واحد. قال: ما فعلت عين زغر: قالوا: خيراً يسقون منها لزروعهم، ويستقون منها لشعبهم. قال: ما فعل نخل بين عمان وبيسان؟ قالوا: يطعم ثمرة كل عام. قال: ما فعلت بحيرة الطبرية؟ قالوا: تدفق بجنباتها من كثرة الماء قال: فزفر ثلاث

زفرات ثم قال: لو انفلت من وثاقي هذا لم أدع أرضاً إلَّا وطئتها برجلي هاتين إلَّا طيبة ليس لي عليها سبيل.

قال النبي ﷺ: «إلىٰ هذا انتهىٰ وحيي، هذه طيبة والذي نفسي بيده، ما فيها طريق ضيق ولاواسع، ولا سهل ولا جبل إلَّا عليه ملك شاهر سيفه إلىٰ يوم القيامة».

قال المؤلف رحمه اللَّه: هذا حديث صحيح، وقد خرجه مسلم والترمذي وأبو داود وغيرهم رضي اللَّه عنهم.

وقد قيل: إن الدابة التي تخرج هي الفصيل الذي كان لناقة لصالح، عليه السلام، فلما قتلت الناقة هرب الفصيل بنفسه، فانفتح له حجر فدخل فيه، ثم انطبق عليه فهو فيه إلىٰ وقت خروجه حتىٰ يخرج بإذن اللَّه تعالىٰ، واللَّه أعلم.

فصل: وقد استدل من قال من العلماء: إن الدجال ليس ابن صياد بحديث الجساسة وما كان في معناه، والصحيح أن ابن صياد هو الدجال بدلالة ما تقدم، ولا يبعد أن يكون بالجزيرة ذلك الوقت، ويكون بين أظهر الصحابة في وقت آخر إلىٰ أن فقدوه يوم الحرة.

قال الخطابي والمازري: والمهلب: الشعر الغليظ، وقال: أهلب علىٰ معنىٰ الحيوان أو الشخص، ولو راعىٰ اللفظ لقال: هلب كأحمر وحمر. والأهلب أيضاً عند بعض أهل اللغة: الذي لا شعر عليه، وهو من الأضداد، واستفهامهم منها ظناً منهم أنها ممن لا تعقل، فلما كلمتهم فرقوا أي فزعوا، واغتلام البحر: هيجانه وتلاطم أمواجه، وبيسان وزغر: موضعان بالشام بين الأردن وفلسطين. كما في حديث الترمذي.

قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية: كانت بيسان مدينة، وفيها سوق كبيرة وعين تسمىٰ عين «فلوس» يسقىٰ منها، وبحيرة طبرية هي بحيرة عظيمة طولها

عشرة أميال وعرضها ستة أميال، وموجها يضرب في سور قلعتها، وهي عميقة تجري فيها السفن، ويصطاد منها السمك، وماؤها حلو فرات، وبين بحيرة طبرية وبيت المقدس نحو من مائة ميل، وهي من الأردن، ولزمتها (الهاء) وهي تصغير بحرة لا بحر، لأن البحر مذكر، وتصغيره: بحير. وعين زغر: بضم الزاي وفتح الغين. وزعم الكلبي أن زغر اسم امرأة نسبت هذه العين إليها، فإن كان ما قاله حقاً فلأن هذه المرأة استنبطتها أو اتخذت أرضها داراً لها. فنسبت إليها، والله أعلم.

وقوله عليه الصلاة والسلام: ألا إنه في بحر الشام أو في بحر اليمن، شك، أو ظن منه عليه الصلاة والسلام، أو قصد الإبهام على السامع، ثم نفى ذلك وأضرب عنه بالتحقيق فقال: لا بل من قبل المشرق، ثم أكد ذلك بما الزائدة وبالتكرار اللفظي، فما زائدة لا نافية، فاعلم ذلك.

* * *

٢١٤ ـ باب طلوع الشمس من مغربها، وإغلاق باب التوبة

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»[١].

عن صفوان بن عسال المرادي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة، مسيرته سبعين سنة، لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه»[٢].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٥٨).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٥)، (٣٥٣٦)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٧٠)، وأحمد (٤/٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١) وغيرهم.

فصل: قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلىٰ قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوىٰ البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلىٰ أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدنهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت. قال ﷺ: «إن اللّٰه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(١) أي تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة يرىٰ فيه مقعده من الجنة ومقعده من النار، فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله.

وعلىٰ هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه باللّٰه تعالىٰ وبنبيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة، فإن امتدت أيام الدنيا إلىٰ أن ينسىٰ الناس من هذا الأمر العظيم ما كان، ولايتحدثون عنه إلّا قليلاً، فيصير الخبر عنه خاصا، وينقطع التواتر عنه، فمن أسلم في ذلك الوقت أو تاب قبل منه، واللّٰه أعلم.

وقد قيل: إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم عليه السلام قال لنمرود: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وإن الملحدين والمنجمين عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون: هو غير كائن، فيطلعها اللّٰه تعالىٰ يوماً من المغرب؛ ليري المنكرين لذلك قدرته من أن الشمس في قدرته، إن شاء أطلعها من المشرق، وإن شاء أطلعها من المغرب، وعلىٰ هذا يحتمل أن يكون رد التوبة والإيمان علىٰ من آمن وتاب من المنكرين لذلك، المكذبين لخبر النبي ﷺ، فأما المصدق، فإنه تُقبل توبته، وينفعه إيمانه قبل ذلك، واللّٰه أعلم.

---

(١) مرّ تخريجه في باب (٤) التوبة وبيانها.

فصل: واختلفت الروايات في أول الآيات، فروي أن طلوع الشمس من مغربها أولها على ما وقع في حديث مسلم في هذا الباب. وقيل: خروج الدجال، وهذا القول أولى القولين.

فلو كانت الشمس طلعت قبل ذلك من مغربها لم ينفع اليهود إيمانهم أيام عيسى عليه السلام، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحداً بإسلام من أسلم منهم.

وقد تقدم القول مبيناً في هذا، وأن أول الآيات الخسوفات، فإذا نزل عيسى عليه السلام وقتل الدجال، ثم تُقبض روح عيسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين، فيموت عيسى عليه والسلام ويدفن، ثم تبقى الناس حيارى سكارى، فيرجع أكثر أهل الإسلام إلى الكفر والضلالة، ويستولي أهل الكفر على من بقي من أهل الإسلام، فعند ذلك تطلع الشمس من مغربها، وعند ذلك يرفع القرآن من صدور الناس ومن المصاحف. ثم تأتي الحبشة إلى بيت اللّه فينقضونه حجراً حجراً، ويرمون الحجارة في البحر. ثم تخرج حينئذ دابة الأرض تكلمهم. ثم يأتي دخان يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام، وأما الكافر والفاجر فيدخل في أنوفه، فيثقب مسامعهم، ويضيق أنفاسهم. ثم يبعث اللّه تعالى ريحاً من الجنوب من قبل اليمن مسها مس الحرير، وريحها ريح المسك، فتقبض روح المؤمن والمؤمنة، وتبقى شرار الناس. ثم يبعث اللّه الرياح فتلقيهم في البحر، وذكر بعض العلماء الترتيب في الأشراط وفيه بعض اختلاف، وقد تقدمت الإشارة إليه فيما تقدم، واللّه أعلم.

وقيل: إذا أراد اللّه انقراض الدنيا وتمام لياليها وقربت النفخة، خرجت نار من قعر عدن لتسوق الناس إلى المحشر، تبيت معهم وتقيل معم، حتى يجتمع الخلق بالمحشر: الإنس والجن والدواب والوحوش والسباع والطير والهوام وخشاش الأرض وكل من له روح، فبينما الناس قيام في أسواقهم يتبايعون وهم

مشتغلون بالبيع والشراء إذا هم بهدّة عظيمة من السماء، يصعق منها نصف الخلق، فلا يقومون من صعقتهم مدة ثلاثة أيام، والنصف الآخر من الخلق تذهل عقولهم، فيبقون مدهوشين قياماً على أرجلهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [صٓ: ١٥]. فبينما هم كذلك إذا هدّة أخرى أعظم من الأولى، غليظة فظيعة كالرعد القاصف، فلا يبقى على وجه الأرض أحد إلّا مات. كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فتبقى الدنيا بلا آدمي ولا جني ولا شيطان، ويموت جميع من في الأرض من الهوام والوحوش والدواب وكل شيء له روح، وهو الوقت المعلوم الذي كان بين اللّه تعالى وبين إبليس الملعون.

* * *

٢١٥ ـ باب لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: اللّه اللّه

عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: اللّه اللّه».

وفي رواية أخرى: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: اللّه اللّه»[1].

فصل: قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم: قيد «اللّه» برفع الهاء ونصبها، فمن رفعها فمعناه ذهاب التوحيد، ومن نصبها: فمعناه انقطاع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أي: لاتقوم الساعة على أحد يقول: اتق اللّه.

فإذا أراد اللّه زوال الدنيا قبض أرواح المؤمنين، وانتزع هذا الاسم من ألسنة الجاحدين، وفاجأهم عند ذلك الحق اليقين، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة وعلى الأرض من يقول: اللّه».

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٨).

٢١٦ ـ باب على من تقوم الساعة؟

عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فقال عبد اللّه: لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق، وهم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون اللّه بشيء إلّا ردّه عليهم، فبينما هم كذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له ابن مسلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبد اللّه، فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر اللّه قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك» فقال عبد اللّه: أجل «ثم يبعث اللّه ريحاً كريح المسك مسها كمس الحرير، لا تترك نفساً في قلبها مثقال حبة من إيمان إلَا قبضتها ثم تبقى شرار الناس، وعليهم تقوم الساعة»[1].

وفي حديث عبد اللّه بن مسعود: لاتقوم الساعة إلّا على شرار الناس، من لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، يتهارجون كما تتهارج الحمر»[2].

قال الأصمعي: قوله: يتهارجون يقول: يتسافدون. والهرج في غير هذا: الاختلاط والقتل.

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى، فقلت: يا رسول اللّه إن كنت لأظن حين أنزل اللّه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام. قال: إنه سيكون من ذلك ماشاء اللّه، ثم يبعث اللّه ريحاً طيبة، فتتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، فيبقى من

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٤).

(٢) رواه مسلم في الفتن(٢٩٤٩) مختصراً على شطره الأول.

لا خير فيه، فيرجعون إلىٰ دين آبائهم»(١)، والله أعلم.

فصل: ذكر أبو الحسن بن بطال رحمه الله في حديث في شرح البخاري له مبيناً لحديث البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أليات نساء دوس علىٰ ذي الخلصة»(٢) الحديث وقد تقدم، قال: هذه الأحاديث وما جاء فيها معناها الخصوص، وليس المراد بها أن الدين ينقطع كله في جميع الأقطار حتىٰ لا يبقىٰ منه شيء؛ لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ: «أن الإسلام يبقىٰ إلىٰ قيام الساعة، إلَّا أنه يضعف ويعود غريباً كما بدأ».

رویٰ حماد بن سلمة، عن قتادة، عن مطرف، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون علىٰ الحق حتىٰ يقاتل آخرهم المسيخ الدجال»(٣) وكان مطرف يقول: هم أهل الشام.

قلت: ما ذكره من أن الدين لا ينقطع، وأن الإسلام يبقىٰ إلىٰ قيام الساعة يرده حديث عائشة وعبدالله بن عمرو، وما ذكره من حديث عمران بن حصين وقد تقدم أن عيسىٰ عليه السلام يقتل الدجال، ويخرج يأجوج ومأجوج ويموتون، ويبقىٰ عيسىٰ عليه السلام ودين الإسلام، لا يعبد في الأرض غير الله كما تقدم، فإذا توفي عيسىٰ عليه السلام بعث الله تعالىٰ عند ذلك ريحاً باردة من قبل الشام، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقىٰ شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة.

وفي حديث عبد الله بن عمرو: ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلَّا قبضته، حتىٰ

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٠٧).

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧١١٦)، ومسلم في الفتن (٢٩٠٦).

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٤)، وأحمد (٤/ ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٣٧) وغيرهما.

لو دخل أحدكم في كبد جبل لدخلته عليه حتىٰ تقبضه، قال: سمعتها من رسول اللَّه ﷺ وذكر الحديث[١].

فهذا غاية في البيان في كيفية انقراض هذا الخلق وهذه الأزمان، فلا تقوم الساعة وفي الأرض من يعرف اللَّه، ولا من قول: اللَّه اللَّه.

نسأل اللَّه العظيم، ربّ العرش العظيم، أن يتوفانا مسلمين، وأن يلحقنا بالشهداء والصالحين، وأن يجعلنا من عباده المتقين الفائزين، ويجعل ما كتبناه خالصاً لوجهه الكريم. وغفر اللَّه لصاحب هذا الكتاب ولسائر المسلمين أجمعين.

تم الكتاب وربنا محمودُ ولـه المكارم والعلا والجودُ

وعلىٰ النبي محمدٍ صلواتهُ ما ناح قمريٌ وأورق عودُ

وصلىٰ اللَّه علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

* تم بحمد اللَّه *

* * *

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٠). وقد تقدم في باب (٥٥) في انقراض هذا الخلق، وذكر النفخ والصعق.

فهرس الموضوعات

الفتن والملاحم وأشراط الساعة ٤١٩

* * *



